الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الثلاثون

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 3

الجزء الثلاثون‏

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، و داعيا إلى اللّه بإذنه و سراجا منيرا، و صلواته التامات الزاكيات على محمد عبده و رسوله خاتم النبيين و سيد المرسلين، و على آله الطاهرين.

و بعد ف «إن هذا القرآن هو النور المبين، و الحبل المتين، و العروة الوثقى، و الدرجة العليا، و الشفاء الأشفى، و الفضيلة الكبرى، و السعادة العظمى، من استضاء به نوره، و من عقد به أموره عصمه الله، و من تمسك به أنقذه الله، و من لم يفارق أحكامه رفعه الله، و من استشفى به شفاه الله، و من آثره على ما سواه هداه الله، و من طلب الهدى في غيره أضله الله، و من جعله شعاره و دثاره أسعده الله، و من جعله إمامه الذي يقتدي به و معوله الذي ينتهي إليه أداه الله إلى جنات النعيم و العيش السليم»- ف «إنه هدى من الضلالة، و تبيان من العمى، و استقالة من العثرة، و نور من الظلمة، و ضياء من الأحداث، و عصمة من الهلكة، و رشد من الغواية، و بيان من الفتن، و بلاغ من الدنيا إلى الآخرة، و فيه كمال دينكم، و ما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار»-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 4

«فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع، و ما حل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، و من جعله خلفه ساقه إلى النار، و هو الدليل يدل على خير سبيل، و هو كتاب فيه تفصيل و بيان و تحصيل، و هو الفصل و ليس بالهزل .. ظاهره أنيق، و باطنه عميق، له نجوم (تخوم) و على نجومه (تخومه) نجوم (تخوم) و لا تحصى عجائبه، و لا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، و منار الحكمة، و دليل المعرفة لمن عرف الصفة» (الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «1».

«نور لا تطفأ مصابيحه، و سراج لا يخبؤ توقده، و بحر لا يدرك قعره، و منهاج لا يضل نهجه، و شعاع لا يظلم ضوئه، و فرقان لا يخمد برهانه، و تبيان لا تهدم أركانه، و شفاء لا تخشى أسقامه، و عز لا تهزم أنصاره، و حق لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان و بحبوحته، و ينابيع العلم و بحوره، و رياض العدل و غدرانه، و أثافي الإسلام و بنيانه، و أودية الحق و غيطانه، و بحر لا ينزفه المنتزفون، و عيون لا ينضبها الماتحون، و مناهل لا يفيضها الواردون، و منازل لا يضل نهجها المسافرون، و أعلام لا يعمى عنها السائرون و آكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريا لعطش العلماء، و ربيعا لقلوب الفقهاء، و محاجا لطرق الصلحاء، و دواء ليس بعده داء، و نورا ليس معه ظلمة، و حبلا وثيقا عروته، و معقلا منيعا ذروته، و عزا لمن تولاه، و سلما لمن دخله، و هدى لمن ائتم به، و عذرا لمن انتحله، و برهانا لمن تكلم به، و شاهدا لمن خاصم به، و فلجا لمن حاج به، و حاملا لمن حمله، و مطية لمن أعمله، و آية لمن توسم، و جنة لمن استلأم، و علما لمن وعى، و حديثا لمن روى، و حكما لمن قضى» (أمير المؤمنين علي عليه السّلام) «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أصول الكافي ج 2 ص 600.

(2) نهج البلاغة، الخطبة 193 ص 202.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 5

المدخل‏

إن كلمة اللّه هي إله الكلمات، فلا تفسر إلا بكلمات اللّه‏

«و القرآن يفسر بعضه بعضا و ينطق بعضه على بعض» «1»

و التمسك بالكتاب في الأمور المشتبهة إصلاح لها و وصول للرشد فيها، و القرآن أحق و أولى أن يمسّك في تفسيره بنفسه: «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» (7: 17) «وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» (42: 17).

و قد يفسّر بالسنة القطعية الصادرة عن النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إطلاقا، أو عن خلفائه المعصومين الاثنى عشر دون تقية، و الميزة الصالحة لتمييز الغث عن السمين كتاب اللّه، يرد إليه، و يقاس عليه كل حديث، فيصدّق ما وافقه و يرد او يؤول ما خالفه او لم يوافقه، كما نجده في آيات العرض‏ «2» و أحاديثه المتواترة «3»: «فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْ‏ءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (4: 56)،

«و أردد إلى الله و رسوله ما يضلعك من الخطوب و يشتبه عليك من الأمور.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن علي عليه السلام.

(2) و مثلها الآية 7: 17- الأمرة بالتمسك بالكتاب و 42: 17- التي ترجع الاختلاف الى الله‏

(3) راجع جامع أحاديث الشيعة لاستاذنا الأقدم الأعظم الامام السيد البروجردي قدس الله روحه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 6

و الرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، و الرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة» «1».

و ليس لأحد أن يضرب القرآن بعضه ببعض، و ينثر آياته البينات نثر الدقل دون رعاية لرباطاتها و

قد رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوما يتدارءون، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

هلك من كان قبلكم، بهذا ضربوا كتاب اللّه بعضه ببعض، و إنما نزل كتاب اللّه يصدّق بعضه بعضا، فلا تكذّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، و ما جهلتم فكلوه إلى عالمه‏ «2»

«و خرج صلى الله عليه و آله و سلم على قوم يتراجعون القرآن و هو مغضب فقال: بهذا ضلت الأمم باختلافهم على أنبيائهم و ضرب الكتاب بعضه ببعض» «3».

فعلى المفسر التدبر التام في آي الذكر الحكيم، أن يستنطق كل آية بنظائرها في المغزى، و يستفسر عنها من أشباهها و نظائرها فلا يجد أي اختلاف في القرآن:

«أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (4: 82) عبارات و معاني، قوانين و مباني، إخبارات و إنشاءات فاختلاف الروايات في تفسير الآيات، و اختلاف المفسرين من جرّائه و من اختلاف أفهامهم، هذه الاختلافات تردّ على القرآن نفسه، فلا يصدّق عليه إلا ما يصدّقه، و إذا احتملت اللفظة و الآية وجوها عدة متلائمة فلتصدّق كلها، و إذا كانت متنافرة فأوجهها دلاليا و معنويا.

لذلك لا تجد في هذا التفسير مجالا لاختلاف الأقوال، إذ نحاول في تفسير الآيات الحصول على المعاني اللائقة بكتاب اللّه العزيز دون تأويل و تفسير إلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة.

(2) الدر المنثور، أخرج أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه (ص).

(3) الدر المنثور، أخرج ابن سعد و ابن الضريس في فضائله و ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 7

ما يصدقه الكتاب نفسه. و لا أدعي أنني أفسر كتاب اللّه كما يحق، إنما كما أستطيع على ضوء الدلالات القرآنية، و أتشرف بقبول أيّ نقد من أيّ ناقد خبير بصير، علنّا نوفق للأحرى فالأحرى من معاني القرآن.

و قد ابتدأنا بالجزء الثلاثين، لأن السور التي يضمها هي بداية الوحي الشامل لما يحتاجه البدائيون في معرفة الإسلام، فلنبدأ بها كلنا، علنا ندخل المدينة من بابها.

و سوف تصدر هذه الأجزاء تباعا، نصدرها عما كتبناها سابقا من دراسات التفسير التي ألقيناها على طلّاب علوم الدين في الحوزتين المباركتين (قم و النجف الأشرف) على زيادات و تنقيحات لفظية و معنوية، تفسيرا للقرآن بالقرآن متنا و بالحديث هامشا، و على اللّه قصد السبيل.

نصدرها بإذن اللّه تعالي و حسن توفيقه إجابة للمئات من طلبات طلاب علوم الدين في الحوزتين المباركتين، و الذين انتشروا منهم في مختلف البلاد لبث الدعوة القرآنية، حفظهم اللّه و أيدهم اللّه جميعا لما يحبه و يرضاه.

و مما يجب أن يعرفه القراء الكرام أن الأرقام الأولى في هذا التفسير هي أرقام السور، و الثانية هي الآيات القرآنية، و هي في سائر الكتب السماوية إشارة إلى الفصول ثم الآيات و قبلهما اسم الكتاب.

مكة المكرمة في 13 محرم الحرام 1397 هجرية محمد الصادقي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 9

سورة النبأ- مكية- و آياتها أربعون‏

[سورة النبإ (78): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

عَمَّ يَتَساءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (4)

ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (5)

تساؤلات مرت و تستمر مدى الأجيال عن أنباء الغيب، و «يَتَساءَلُونَ» هنا يشمل كافة التساؤلات عن الأنباء العظيمة طوال الزمن، فلم يقل: «تساءلوا» كي لا يختص بغابر الزمن، و إنما «يَتَساءَلُونَ» لكي يعم الغابر و المستقبل و الحاضر، و في القرآن إجابة عن كافة التساؤلات بما أنه كتاب الخلود.

عَمَّ يَتَساءَلُونَ‏:

مطلع يحمل تنديدا شديدا بالمتسائلين عن النبأ العظيم، ليس لأنهم سألوا تعلما و تفهما، فإنه موضع تبجيل لا تخجيل، و إنما لأنهم حينما يصدّقون الأنباء غير العظيمة، ما يصلح لحيونة الحياة، و حينما يصدّقون و يهرولون إلى الخرافات اللامعقولة التي يستنكرها العقل و الدين، و حينما يصدقون- دون تساؤل و تراجع- كل ما يتلائم و شهواتهم، فهؤلاء هم يتساءلون عن النبإ العظيم هزءا و إنكارا و تعنتا و استنكارا، بعد فلجهم في إبطاله، و فلح النبإ العظيم و أهله في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 10

إحقاقه، و بعد ما قامت البراهين من كل الصنوف وضح الشمس في رابعة النهار، قامت لإثبات و إحقاق أنباء الغيب العظيمة.

و التساؤل هنا يشمل ما هو بينهم، بعضهم مع بعض، تفكها، و ما هو منهم عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين تعنتا و هزءا، و ما هو بينهم و قلوبهم المقلوبة التي زالت عنها نور المعرفة: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» (83: 14) فالتساؤلات هذه كلها حابطة ساقطة ما لم ترد بها استنباط الحق و استعلامه‏ «عَمَّ يَتَساءَلُونَ»؟

عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ‏ فما هو النبأ؟ و ما هو عظمه؟ و ما هو الاختلاف فيه؟

النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غالب ظن، و الخبر الحق الذي يتعرى عن الكذب، و النبي‏ء هو الموحى إليه بأخبار الحق و الصدق، حاملة كافة البراهين المصدقة لهما ثم إذا كان النبأ عظيما كانت الفائدة و العلم فيه أعظم، دون أن يتطرق إليه أية شائبة و ريبة اللهم إلا جهلا و عنادا ممن لا يهوى إلا هواه، و لا يهدف هداه.

و أول الأنباء العظيمة- منذ بزوغ الإسلام- هو نبأ الرسالة الاسلامية التي حملها الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فنبأ الرسالة المحمدية هو أعظم الأنباء الرسالية في تاريخ الرسالات، و لأنها تشملها كلها و فيها مزيد هو رمز الخلود.

«لما بعث النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جعلوا يتساءلون بينهم فنزلت‏ «عَمَّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ» «1»

«بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْ‏ءٌ عَجِيبٌ» (50: 2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور ج 6 ص 305، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن الحسن قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 11

فهذه الرسالة السامية كانت نبأ عظيما تحمل كافة الأنباء العظيمة: «وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» (35: 14) .. إنه نبأ و نبي‏ء و نبيّ أمر بالإنباء: «نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ» (15: 49)، فإنذار النبي و إنبائه نبأ التوحيد، هما من الأنباء العظيمة، و قد بدأ بنبإ التوحيد: «قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ. رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ. قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِنْ يُوحى‏ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (38: 65- 70).

أجل، و إن نبأ التوحيد هو الركيزة الأولى من أنباء هذه النبوة السامية.

ثم القرآن نبأ عظيم لأنه المعجزة الخالدة لهذه الرسالة السامية، و أنه يحمل كافة أنباء الغيب‏ «تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» (11: 49) «وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» (11: 120) «1».

و نبإ المعاد نبأ عظيم بعد التوحيد، و هما الهامتان في نبأي الرسالة و القرآن:

«هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى‏ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أَفْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ. بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ» (34: 7- 8) «وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» (10: 53).

هذه هي الدعائم الأربع من الأنباء العظيمة، تشملها: «النَّبَإِ الْعَظِيمِ» جنس النبأ العظيم لمكان «ال»\* لا شخصه لكي يفسر بخصوص المعاد ام ماذا ترى إن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 305، أخرج ابن مردوية عن ابن عباس أنه القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 12

المعاد نبأ عظيم و ليس التوحيد؟ و ليس القرآن؟ و ليس نبي القرآن؟ و هي لا تنقص عنه و قد تزيد! و من الأنباء العظيمة هي استمرارية الولاية و الحكم المحمدي المتمثل في أخيه و نفسه و وليه و خليفته علي أمير المؤمنين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من ولده المعصومين، و كما يخاطبه الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالنبإ العظيم:

«أنت حجة الله و أنت باب الله و أنت الطريق إلى الله و أنت النبإ العظيم و أنت الصراط المستقيم و أنت المثل الأعلى» «1».

و كما

يقول هو عن نفسه: «و إني النبأ العظيم» «2».

و في وجهة عامة هو الولاية- على حد تفسير

الإمام الصادق صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «3»-: ولاية اللّه و الرسول و الأئمة بعد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد تتلخص في حكم اللّه على العباد.

الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ‏:

كان الكفار مختلفين في هذه الأنباء العظيمة، في أصولها و في كيانها، رغم اتفاقهم على عدم تصديقها كما يجب.

فمن تقولاتهم في نبإ النبوة: «كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» (51: 52) «أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ» (52: 30).

.. ساحر أو مجنون أو شاعر، تقولات ثلاث حول نبإ النبوة الذي هم فيه مختلفون، بين طرفي الإفراط «ساحر شاعر» و التفريط «مجنون»\* بين فاقد العقل و راجح العقل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 491 ح 8 عن عيون الأخبار عن الرضا (ع) عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي قال: قال رسول اللّه (ص) ..

(2) نور الثقلين 5: 491 ح 6 عن روضة الكافي خطبة الوسيلة.

(3) نور الثقلين 5: 491 ح 4 في اصول الكافي بالإسناد عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 13

و في نبإ القرآن: «وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (16: 103) «وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى‏ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا» (25: 5)، «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (29: 48) ..

.. انحرافات ثلاث عن نبإ القرآن: 1- أنه من تعليم بشر سواء أ كان حقا أم باطلا. 2- أنه من أساطير الأولين و خرافاتهم. 3- أنه مجموعة من سائر الكتب السماوية. و المبطلون هنا لا يرتابون‏ «1» و إنما يعاندون.

و في نبأ التوحيد: «أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشي‏ء عجاب.

و انطلق الملأ منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم إن هذا لشي‏ء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق» (38: 4- 7).

فهذا هو الإشراك، ثم إلى سائر الاختلاقات و الاختلافات عن صميم التوحيد من تثنية و تثليث و حلول و تجسيد.

و في نبإ المعاد: من إنكاره إطلاقا: «وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (45: 24) ..

أو إنكاره جسدانيا: «وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» (36: 78) ..

أو نكران الحساب بعد الموت بغفران شامل أو تكذيب الجنة و النار، أو تخصيص الحياة بالجنة، و غير ذلك من الإنكارات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لأن الارتياب ليس إلا في أمر مريب، و أمر القرآن ليس مريبا بعد ان زالت:

الاكتتاب و القراءة و الجمع: الم ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» مهما شكوا فيه دونما حجة!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 14

عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ‏ إن كون النبإ متساءلا عنه، و اختلاف المتسائلين أنفسهم- إنهما يوحيان بسفه التساؤل هنا و سقوطه، فلو كانوا على بينة من نكرانه لكانوا متوافقين في مدى نكرانه .. لكنه كلا- إنه نبأ عظيم: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم عظيم، يملك من البراهين كل أنواعها: العقلية و الواقعية، الآفاقية و الأنفسية.

فلقد يكفيهم اختلافهم، و يكفيهم نصوع النبإ، يكفيانهم لدحض افهامهم و تسفيه أحلامهم، و هكذا إجابة في الإيحاء، دون إدلاء بحقيقة المتساءل عنه، تلويحا بالتهديد الملفوف، و توصيفا للنبأ، إنه أوقع من الجواب المباشر، و أعمق في التخويف و أعرق في التبكيت.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ‏ إنه ليس كما يزعمون- فسيعلمون بعد إذ كشف الغطاء بالموت، بعد إذ قضي على حياة الجسد. «ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» في الحياة الثالثة و الأخيرة، يوم الفزع الأكبر، يوم القيامة الكبرى، علم ثم علم، بعد جهل على جهل، تجاهلا سفيها مارقا.

إن هذا الجهل أو التجاهل المتمادي سيزول قريبا بالموت، و لا نقول: سوف يزول، بل إنه سيزول: «سيعلمون»\* إذ إن كل آت قريب، و: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَراهُ قَرِيباً» (70: 7) قريب في التصور، و قريب في التصديق، و قريب في الواقع، و قريب في الوقوع، رغم استبعادهم له لحد الإحالة.

فالمتسائلون هنا المستهزئون بالنبإ العظيم، إنهم محكوم عليهم في حياة التكليف بالآيات البينات، و محكوم عليهم في حياة الجزاء إذ يرونهم في الأمر الواقع الذي استنكروه و تساءلوا عنه: سيعلمون بعد الموت: الحياة البرزخية، ثم بعدها في الحياة الآخرة، علما أوسع و أثبت منها، كما العلم البرزخي أوسع مما في الحياة الأولى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 15

[سورة النبإ (78): الآيات 6 الى 16]

أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (6) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (7) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (8) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (9) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (10)

وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (11) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (12) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (13) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً (15)

وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً (16)

.. .. تكريس للكون، من آفاقه الأرضية و السماوية، و من الأنفسية برهانا لنبإ التوحيد الذي هو أصل الأنباء و مبدأ الأنباء .. ثم آيات أخرى تكرس نبأ المعاد و هو يتلو نبأ التوحيد، و بينهما نبأ النبوة و القرآن- المبينان لهما-، يدمجهما في أصلي المبدإ و المعاد كما هو دأب القرآن،

الجبال الأوتاد:

أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً:

إنها كانت أرضا و لم تكن مهدا و لا مهادا: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا» (20: 54)، و لا ذلولا: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ» (67: 15)، كانت شماسا لا تذل الراكب و لا تحنّ لعائش‏ «1».

إن جعل الأرض مهدا و مهادا و ذلولا يوحي بحقائق عدة كانت مجهوله لدى الإنسان حتى زمن نزول القرآن، منها حراك الأرض دائبا منذ خلقت إلا أنها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «جعل»\* المتعدي إلى مفعولين، يفيد الجعل المركب، أي جعل الشي‏ء شيئا آخر لا جعله بمعنى خلقه- «جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا»، أي جعل حالة التذلل لها بعد ما كانت شماسا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 16

كانت شماسا مجنونة الحراك، فجعل الجبال أوتادا لهذا المهد لكي تسكن من الميدان.

وَ الْجِبالَ أَوْتاداً:

فإنها كانت جبالا و لم تكن أوتادا، فأرساها اللّه تعالى في قطع أديمها:

«و عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الشم من صياخيدها فسكنت من الميدان برسو الجبال في قطع أديمها»

«فسكنت على حركاتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها، فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها و أجمدها بعد رطوبة أكنافها فجعلها لخلقه مهادا و بسطها لهم فراشا فوق بحر لجي لا يجري و قائم لا يسري، تكركره الرياح العواصف، و تمخضه الغمام الذوارف، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» «1».

فهنا مسألتان هامتان من أهم مسائل التكوين هما: الأرض المهاد المتحركة، و الجبال الأوتاد. و من الضروري لهذه المهاد المضطربة الشموس أن توتّد. لكي تسكن عن الاضطراب على حركتها، فإن بها مساك الأرض و قوامها و اعتدالها و ثباتها كما يثبت البيت بأوتاده و الخباء على أعماده، مساكا عن اضطرابها و ميدانها لا عن حركاتها

«أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال و أرساها على غير قرار و أقامها بغير قوائم و رفعها بغير دعائم و حصنها من الأود و الاعوجاج و منعها من التهافت و الانفراج، أرسى أوتادها ...» «2»

فالأرض المهاد، هي مهاد للحياة عامة، و للحياة الإنسانية بصورة خاصة، تمهد الحياة للإنسان بسهلها و جبلها و مائها و فضائها و حركاتها، مهاد كالمهد، و مهد تريح الإنسان عن أعباء الحياة بحركاتها المعتدلة المتناسقة المتلائمة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة في مواضيع عدة عن امير المؤمنين علي عليه السلام.

(2) من خطب أمير المؤمنين علي (ع)، و سوف نأتي على بحث فصل حول حركات الأرض في سورة المرسلات و سواها، و حول أوتاد الجبال في أنسب مواضيعها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 17

فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الأرض و خلق الحياة على الأرض، هذا الاختلال يخرجها عن الأرض المهاد إلى الأرض الشموس العتاد.

و جبال الأرض- الأوتاد- هي أشبه شي‏ء بأوتاد مهد الطفل، تحفظ توازنها في حراكها، و تعادل بين نسب الأغوار في البحار و نسب المرتفعات في الجبال، و تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض و تقلصاتها السطحية، و لأسباب أخرى نجهلها، أشار القرآن الكريم إليها، ثم عرف الإنسان طرفا منها يسيرا، على جهوده العلمية المتواصلة، و بعد مئات السنين.

هذه الأرض المهاد و الجبال الأوتاد، هي من البراهين الساطعة على وجود مدبّر واحد عظيم عليم قدير حكيم، و إنها من أدلة النبإ الأول من الأنباء العظيمة: «نبأ التوحيد» إذ ليس بالإمكان أن يحصل هذا التدبير دون مدبر، أو يدبره أرباب متشاكسون.

خلق الأزواج:

وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً:

الزوج هو المماثل الملائم، فكما خلق اللّه الأرض و الجبال متلائمين مع بعض، كذلك الإنسان خلقه اللّه أزواجا: أزواجا مع الأرض التي يعيشون عليها، ملائمة طباعهم معها، و أزواجا بعضهم مع بعض في كافة النواحي الجسدانية و الحيوية، دون منافرة ذاتية هنا و هناك .. أجل: «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ»: منافرة ذاتية، اللهم إلا أن يتنافروا بينهم بسوء الإختيار .. ثم أزواجا مع نبات الأرض و حيوانها، إذ يعيش معها مفيدا لها مستفيدا منها .. فالكون كله أزواج رغم اختلاف الأشكال. «سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» (36: 36).

«وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ» (43: 12) الفرقان في تفسير القرآن (2)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 18

.. فهنا تزويج بين الإنسان و الفلك و الأنعام، و هناك بين الكون كله، و إن كان الإنسان هو من أهم الأزواج، و له خلقت سائر الأزواج‏ «1».

و هذه الملاءمة الذاتية بين أجزاء الكون، و الازدواجية الخلقية بينها، إنها برهان آخر على نبإ التوحيد، توحي لنا وحدانية الخالق المدبّر، لا سيما زوجية الذكورة و الأنوثة الكافلة لرغد العيش، و لبقاء النسل و كثرته.

فقد خلق اللّه الإنسان ذكرا و أنثى: «يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً» (42: 50).

و جعل حياة هذا الجنس و امتداده قائمة على اختلاف الزوجين و التقائهما، و كل إنسان يدرك ما وراءها من لذة و راحة و متعة و تجدد، و لأهمية ازدواجية الحياة نرى الآيات تترى في المنّ و التذكير بها.

فهل يا ترى أنها الفوضى: أن تصبح النطفة ذكرا، و أخرى مثلها أنثى- على وحدتهما في الصورة و المنشأ؟ سبحان الخلاق العظيم‏

النوم السبات:

وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً:

إن مهاد الأرض و أوتاد الجبال و ازدواجية الكون بأنساله- على كونها من أهم النعم الدالة على نبإ التوحيد- إنها تبقى منفية الأثر عديمة الثمر لو لا أن الإنسان ينام، فكما أن حراك الإنسان في الحياة من النعم، كذلك سباته: (قطعه) عن الحراك نعمة، لولاها لما استقامت للإنسان حياة، و اندثر كيانه قبل قيامه بصالح الحياة ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سوف نبحث عن زوجية الكون أجمع على ضوء الآيات في أقرب المناسبات، و إن ذلك من معجزات القرآن- العلمية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 19

جلّ من لا تأخذه سنة و لا نوم، فالكون كله في سنة و نوم- مما يدل على ضعفه و عدم استقلاله- إلا اللّه الواحد القهار.

إن النوم من رحمات اللّه و آياته: «وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ» (30: 23): آية العلم و الحكمة و القدرة الإلهية، و آية للموت و الحياة بعد الموت: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى‏ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى‏ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (39: 44) «وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى‏ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (6: 60).

«وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً»: سكنا عن حركات التعب و نهضات النصب، لتجديد قوى الحياة، و جعل الليل لباسا لهذا السكن، سكنا على سكن: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ..» (10: 67) «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَ النَّوْمَ سُباتاً» (25: 47)، فلو لم يكن الليل لم يكن سكن، و لو لم يكن النوم لم يكن سبات: «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ» (28: 71- 72) نوم سبات في ليل سكن على مهد الأرض، و يا لها من نعم لا تحصى.

مهد مهّد اللّه لنا فيه كل حاجيات الحياة حتى الممات، و سبات يقطعنا عن زعزعات الحياة و ينقل بنا إلى حياة البرزخ لنسكن مع الأحياء فترة هناك، ثم نرجع علنا نجدّد الحياة، و سكن يمهد لنا حراكا أقوى و أبقى مما لو لم يكن سبات و لا سكن .. فهل يا ترى أنها فوضى و صدفة عمياء؟ سبحان الخلاق العظيم! ثم لنعرف ما هو مدى هذا السبات، هل إنه سبات عن الحياة كل الحياة؟

أم سبات عن العمل مع بقاء الحياة كما كانت، أم سبات قسري عن أعمال الحياة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 20

الاختيارية: عقلانية و جسدانية، و تبقى الأعمال و الحركات القسرية الضرورية لإبقاء الحياة حالة المنام، فحالة السبات حالة لا موت و لا حياة، موت شيئا مّا و حياة شيئا مّا، إنه اندفاع الروح الإنساني مع الحيواني الإرادي إلى عمق الحياة، و انصراف لهما مؤقتا عن الحياة الدنيا ببدنها و هذه الحالة تتكفل بإراحة الإنسان نفسيا و جسدانيا، و تعويضه عن الجهد الذي بذله حالة الصحو و الانشغال بأمور الحياة .. و إنه هدنة للروح من صراع الحياة العنيف، تلمّ بالإنسان ليلقي سلاحه و يستسلم لفترة من السلام، و هذا هو الصحيح عن واقع النوم.

فإنه قفزة مؤقتة إلى حياة أعمق و كيان أعرق، سوف يقفز الإنسان إليه دون رجوع: «وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» .. و ما أشبه المنام بالممات، إذ يذكّر الإنسان بحالة الممات: «وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى‏ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (6: 60).

هذا السبات المؤقت عن كامل الحياة ثم الرجوع إليها، إنه من البراهين الواقعية لنبإ المعاد إضافة إلى نبإ التوحيد: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (39: 42).

فمن هنا تأخذ ازدواجية البرهان موقفها الحاسم، بعد وحدتها لنبأ التوحيد، ازدواجية تضم نبأ المعاد إلى نبإ التوحيد، و من ضمن النبأين الأصيلين توحي إلى نبأي النبوة المحمدية و القرآن، حيث البراهين تسبر أغوار الكون الخفية و حتى الآن، فضلا عن زمن نزول القرآن.

فمهاد الأرض، و أوتاد الجبال، و كائنات الأزواج، و النوم السبات، و الليل اللباس، إلى سائر الحالات المسرودة هنا من الكائنات، إنها إنباءات غيبية ليست من حصائل التفكير لإنسان الأرض كإنسان، و لا سيما الأمي الذي لم يدرس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 21

شيئا: «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (10: 16) .. إنما هي من وحي السماء، سبحان الخلاق العظيم!

النوم في منطق العلم و الحديث:

من مقالات الإمام جعفر الصادق عليه السّلام حول المنام: «ما من حي إلا و هو ينام خلا الله وحده عز و جل» «1» ..

هذا- و الواقع العلمي و الكوني يبرهنان على الضرورة الحيوية إلى النوم لكل حي: نبات و حيوان و إنسان:

«إن ظاهرة النوم في الكائن النباتي تظهر- على الأكثر- في اختلاف حالة التنفس و تصاعد الدبوس النباتية، فهي تعاكس عملية التنفس بين الليل و النهار، ففي النهار تأخذ الكربون و تدفع الأوكسجين، و في الليل تأخذ الأوكسجين و تدفع الكربون، و لذلك نراها تصعد دبوسها في الليل أكثر مما في النهار- و في البعض من النباتات نرى حالة تشبه حالة الحيوان، كوردة الأبريسم و أقاقيا، فإنهما تجمعان أوراقهما ليلا» «2».

«ثم نرى في الكائن الحيواني أن حالتي النوم و اليقظة لزام له دون استثناء، و كلما تكامل مخ الحيوان نرى الاختلاف بين حالتيه أكثر، و النظم فيهما أظهر.

و لقد دلت الفحوص حول مختلف الحيوان أن لوضح النهار و ظلم الليل- على الأكثر- تأثيرا عميقا في نومها و يقظتها.

فقد نرى الطير تأخذ في دورها الفعال منذ إشراق الشمس، و تلجأ إلى أكنانها عند غروبها .. و أثبتت التجربة أن النور الشديد في ظلم الليل يجعل الطير تأخذ في دور النهار.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سفينة البحار 2 ص 547.

(2) النوم و الرؤيا ص 15.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 22

ثم نرى فريقا آخر من الحيوان أن نومها لا يناط بالليل، فتجعل الليل نهارا و النهار ليلا كالعكس، دون تمييز بينهما للنوم و العمل.

ثم نرى ثالثا تعكس الأمر تماما فتجعل النهار ليلا فتأخذ كلا كعكسه كالخفاش»:

-

«فهي مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها، و جاعلة الليل سراجا تستدل به في التماس أرزاقها، فسبحان من جعل الليل لها نهارا و معاشا و النهار سكنا و قرارا» «1».

ثم نرى البعض من الحشرات أنها لا تعرف النوم طوال أشغالها الطويلة الزمن كالنمل، فهي تدور في تهيئة أرزاقها في غير الشتاء، ثم تستريح و تنام في الشتاء.

هذا «و لكن الإنسان لا يستطيع الإدمان في الشغل و ترك النوم لأكثر من عشرة أيام، ثم الموت قطعا» «2».

و على أية حال لا تجد حيا في الكون إلا و هو بحاجة ملحة إلى النوم، مهما اختلفت أوقاته و مقاديره، و من ثم نرى القرآن يمن فيما يمنّ على الإنسان بجعل النوم سباتا.

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً. وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً:

«أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (27: 86) «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَ النَّوْمَ سُباتاً وَ جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة، الخطبة: 15.

(2) النوم و الإنامة- أو- هيبنوتيزم ص 12.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 23

(25: 47) «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً» (40: 61).

توحي لنا هذه الآيات البينات أن الليل لصالح الراحة و المنام، و النهار لصالح الإبصار فالنشور لابتغاء فضل اللّه و رحمته، و هذا هو الأصل الأول في قرار الليل و النهار، و إن كان للإنسان أن يلفق بينهما و يعكسهما: «وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» (30: 23) «وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (28: 73).

و هذا جعل ثان ينوب عن الأول شيئا ما عند الحاجة، و فيما لزم عكس الأمر، و إن كان الالتزام بالأول أحرى و أصلح لراحة الإنسان، و هذه الحرية في تبديل وقت المنام للإنسان هي في عداد فضائله على سائر الحيوان الملزمة خلقيا بأوقات خاصة لا تتبدل.

ترى في الآيات الأولى فكاكا بين الليل و النهار للنوم و الشغل، حينما الآيات الأخيرة تجمع بينهما للأمرين، لكيلا يظن أن في نوم النهار و شغل الليل محظورا، بعد ما نعلم أفضلية المنام في الليل و الشغل في النهار، و الواقع الملموس يشهد أن قليل النوم في الليل أريح بكثير من كثير النوم بالنهار، و أن نوم النهار يأتي بالكسل و الفشل.

الليل اللباس و النهار المعاش:

اللباس ما يلبس الإنسان و يستره، ستر الجسد للجسد كلباسه من عورته او الروح من طغواها كتقواها: «قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً» (7: 26) و سترا له عما يصطدمه من حر أو برد أو بأس دون ذلك: «وَ جَعَلَ لَكُمْ‏ ... سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ (16: 81)، أو سترا للروح من طغيانها و تخلّفها عن شريعة اللّه: «يا بني\*

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 24

آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى‏ ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» (7: 26).

و مما يقي الإنسان لباس الجنس: لباس النساء للرجال و الرجال للنساء:

«.. هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ ..» (2: 187) يلبس البعض البعض من حملة الجنس الشاذة، و من حيرة الحياة و وحدتها.

أو سترا للإنسان روحيا و جسديا عن عب‏ء الأشغال، و سباتا عن حراب الحياة في محراب المعاركات و هذا الأخير هو لباس الليل ينير بظلمه على الإنسان درب الحياة جديدة، هدنة للروح و الجسد من صراع الحياة العنيف، لباس هدنة تلم بلابسه فيلقي سلاحه و جنته و يستسلم لفترة السلام الآمن، الذي يحتاجه الإنسان تبقية و تنشيطا لحياته .. فهذا هو الليل اللباس: لباس على الإنسان كما هو لباس على النهار و كما النهار لباس الليل: «وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ» (36: 38) سلخ لباس النهار عن الجو، و إلباس الجو لباس الليل، و كما هو لباس على لباس النساء في ضجعة الجنس:

«يلايل الرجال من النساء» «1».

ثم النهار هو معاش: زمن العيش التمام حيث اليقظة التامة، و زمن المعيشة و تحصيلها رغدا «2».

و الليل اللباس و النهار المعاش آيتان لنبإ التوحيد و المعاد:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين ج 5 ص 492 ج 14 عن علل الشرايع باسناده إلى عبد اللّه بن يزيد بن سلام‏ أنه سئل رسول اللّه (ص) فقال: أخبرني لم سمي الليل ليلا؟ قال (ص): لأنه يلايل الرجال من النساء، جعله اللّه عز و جل ألفة و لباسا، و ذلك قول اللّه عز و جل‏ «وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً»، قال: صدقت يا محمد! ..

(2) المعاش: هو المعيش، مصدر ميمي و اسم زمان و مكان، فهو كما في المتن: زمن العيش واقعيا و تحصيلا لوسائل العيش، و هو نفس العيش.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 25

«وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً» (17: 12) ليل الموت كما هو للنوم «فالنوم أخ الموت» و نهار النشور كما هو للحياة التمام، فهما آيتان دائبتان للحياة بعد الموت كما اليقظة بعد النوم.

وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً:

.. سبع شداد هي السماوات و الأجواء السبعة، و أقربها إلينا هي السماء الدنيا، سماء الكواكب.

لقد بنيت هذه السبع الشداد من الدخان الصاعد من الماء المضطرم: المادة الاولية لخلق الكون أجمع، إذ فجّرها ربها و أضرمها فصعد منها دخان هي مادة السماء و السماوات السبع، و أزبدت زبدا هي مادة الأرض و الأرضين السبع‏ «1».

فمم بني السبع؟ و ما هو السبع؟ و ما هو الشداد؟

إنها بنيت من الدخان الصاعد من اضطرام المادة الأولية لخلق الكون:

«الماء»\* «2»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحث الفصل حول خلق السماوات السبع و الأرضين السبع محول إلى مجالها الأنسب فالأنسب كالآيات من «فصلت»\* و «النازعات» و أمثالها، و هنا نشير شيئا ما الى بناء السماوات و شدادها من دخانها.

(2) لا نعني الماء المعروف عندنا فإنه أيضا مخلوق من مادة أولية، إنما هو تعبير عن كيان تلك المادة و أنها مسانخة الأجزاء و كأبسط تركيب من كائنات العالم، و البحث الفصل تجده في سورة هود عند قوله تعالى: .. و كان عرشه على الماء، و شاهدا على ذلك- إضافة إلى الواقع الملموس- روآيات عدة عن مصادر الوحي:

منها ما

رواه الكليني عن محمد بن مسلم قال: قال لي أبو جعفر (ع) كان كل شي‏ء ماء و كان عرشه على الماء فأمر الله تعالى الماء فاضطرم نارا ثم أمر النار فخمدت فارتفع من خمودها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان و خلق الأرض من الرماد» ..

و

في آخر عنه (ع): «فجعل نسب كل شي‏ء إلى الماء و لم يجعل للماء نسبا يضاف إلى شي‏ء»،

و معلوم أن ماءنا المشروب، له نسب هما ذرتا الهيدروجين و الأوكسجين، و هما أبواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 26

«.. ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (41: 11- 12).

و الدخان هو المستصحب للهيّب، و ليس للماء المغلي لهيب، و إنما هو لما يصعد من احتراقه نار ملتهبة، من حطب و فحم حجري و بترول .. و من الذرات و فوق الذرات المتفجرة، و قد يصل الالتهاب إلى 70 مليون درجة كمركز الشمس الذي لا يبقى فيه أي تركب جسماني إلا ما يحافظ على كيان المادة لحدّ مّا، و لذلك فإن مركز الشمس لا يحمل إلا الئيدروجينات التي هي أبسط الذرات فيما نعرف.

و هناك غازات لها 280 مليون درجة من الحرارة كمركز الشعرى، و إنها بعيدة عنا 000، 500 أضعاف بعد الشمس، و لو كانت على بعد الشمس لكانت درجة الحرارة في كوكبنا الأرضي 40 ضعف الآن.

و هناك غازات لم يعرفها العلم حتى الآن، و كل هذه الحرارات و الغازات هي ولائد الغاز (الدخان) الأول، الناتج عن التفجّر الأول للمادة الأولية، و هي أم الكائنات.

إنها تفجرت فأولدت دخانا ساطعا إلى الجو العالي، و أزبدت زبدا ربّتها عندها، ثم الولد المتخلف الفرار ظل دخانا إلى أن قضاه اللّه سبع سماوات.

ثم من هذا الدخان خلقت السبع الشداد، أجواء سبعة متداخلة: «.. الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ..» (67: 3) أدناها إلينا سماء الأنجم: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ» (37: 10) «وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ» (67: 5).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 27

أجل إنها: السماء الدنيا، لا سماء الدنيا، إنما السماء الموصوفة بأنها الدنيا:

أدنى السماوات السبع إلينا، و كرتنا الأرضية هي من أصغر كواكب السماء الدنيا إذا فليست السبع عددا دون مفهوم‏ «1» و لا عددا للأجواء السبعة للسيارات السبع‏ «2» فإنها مع المليارات من المجرات الحاملة للكواكب، هي كلها في السماء الدنيا، ثم لا ندري ما هو في الست الباقية.

و إنها شداد، فالسماء هنا لا تعني الفضاء و الجو الخالي، او بما فيه من كواكب بل هي جو يحمل أجراما غازية- خفيفة و ثقيلة- من النوع الذي خلقت منه الكواكب،

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و كما عرفنا من الآيات في «فصلت» |  | : أن السماوات السبع- و الكواكب في‏ |

دنياها، إنها كلها- خلقت من الدخان الأمّ: «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (41: 11- 12).

و كما القرآن يوحي أن المملكة السماوية في توسع دائم في بلادها: «الكواكب»\* «وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ» (51: 47): لموسعون بناءها بما فيها من كواكب و أنجم و بروج، من الدخان الأمّ.

تسمع لفظة الدخان و علك تظنه غازا رقيقا، رغم أن اللهيب الذي يستصحب الدخان ليس نوعا واحدا كلهيب الحطب، فقد يكون لهيب التفجرات الذرية و ما فوقها، يتبعها في الثقل و الخفة، فكل ذرة تتحمل حرارة أكثر- دون أن تتجزأ- فثقلها أكثر، فإذ قد نرى أن الحديد يذوب و يتجزأ في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما يصر به و يكرره الشيخ الطنطاوي دون تفكير في الآيات المعنية.

(2) و كما يقوله السيد هبة الدين الشهرستاني في كتابه الهيئة و الإسلام، و تجد البحث الفصل في طيات التفسير عند الأنسب من الآيات فالأنسب، و هنا آيات تسع تصرح بعدد السبع و لا مبرر في تأويلها إلا الجهل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 28

ألف درجة، فليكن الغاز الموجود في مركز الشمس 000، 70 ضعف الحديد ثقلا و صلابة، و الموجود في مركز الشعرى 000، 280 ضعفه، ثم لدينا مزيد.

أجل: إن هذه السبع شداد كأشد ما يتصور: شداد في البناء كأتقن البناء، لا تنفطر إلا بمفطّر إلهي، شداد في الصلابة و إن لم تكن في كل جوانبها، شداد بأبوابها فلا تفتح إلا بفاتح إلهي: «وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً» (78: 19) «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ» (54: 11).

سبع شداد نرى من شدة الأولى منها أن علقت فيها بليارات البليارات من قناديل الكواكب، و دون أن تؤثر في سقفها فتورا و فطورا، فهي معلقة بعمد لا ترى: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» (13: 2)

«فثم عمد و لكن لا ترونها» «1».

نرى سيارات الكواكب في أفلاكها و راقصاتها في مراقصها، لا تنزلق عن مداراتها .. فيا لها من عمد تدعمها، و يا لهذا السقف الرفيع المحفوظ من صلابة و استقامة! إنها سبع شداد، متينة التكوين، قوية البناء، خارقة البنّاء، بقوة تمنعها من التفكك و الانثناء.

«وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ» و بما أن «كم»\* تعني كافة سكنة الأرض، فلزامه كون السبع الشداد أيضا فوق الكل، و هنا إيحاء لطيف إلى كروية الأرض و معها السماوات، فالسماء الدنيا فوق الأرض كلها، ثم مقتضي طباق السماوات كون الباقيات كمثلها سواء.

وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً:

شمسنا التي نستضي‏ء بها و نتدفأ، هي سراجنا الوهاج، بين الملائين من السرج الوهاجة في المملكة السماوية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما يروى عن الامام محمد بن علي الباقر (ع)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 29

إن الوهاج هو ما يجمع بين الضوء و الحرارة، و جعل الشمس وهاجا، إنما هو بعد بناء السبع الشداد، خلقت من ضمن ما خلق من مصابيح السماء الدنيا:

«وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ ..» و مصباحنا الوهاج الذي ينتج وضح النهار هي شمسنا، فهي ضياؤنا كما القمر نورنا في ظلم الليل، و سوف تعلمون أن خلق الكرة الأرضية أسبق من خلق الشمس و سائر الأنجم.

فالشمس السراج الوهاج، و القمر النور المنير: «وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً» (25: 61) «وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً» (71: 16) ..

إنهما من الآيات البينات لنبأي التوحيد و المعاد، بما أن‏ «الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .. وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» (36: 38- 39).

و هذا السراج الوهاج هو الباعث للحرارة التي تعيش بها الأرض و ما عليها و ما فيها، و هو الذي يكوّن السحائب بتبخير المياه من المحيط الواسع في الأرض و رفعها إلى طبقات الجو، فهي من المعصرات و هو المشرق علينا بأنواره، إشراق الحياة، و راحة الحياة، و تقدّم الحياة ..

و الشمس بحرارتها و نورها هي من المعصرات التي ساعدت على تروية الأرض بالماء الثجاج.

المعصرات و الماء الشجاج:

وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً. لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً. وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً»:

استعراض لبداية نزول الماء من السماء على كرتنا الأرضية الشموس العطشى فإنها كانت منذ بدايتها محترقة، إذ كانت زبدا: حصيلة التفجر الأول للمادة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 30

الأم «الماء»\* حيث أزبدت زبدا فكانت أرضا، و صعّدت دخانا فكان سماء ثم سماوات: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى‏ ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ» (23: 18) .. و لو أن مياه الأرض أو بعضها كانت منها نفسها، لم يكن للتهديد بذهاب مياه السماء منها معنى! أجل إن حياة الأرض‏ «وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» (2: 164) و حياة الأحياء فيها كلها، إنها من ماء السماء: «وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ» (21: 30) .. و قد جعلت الأرض ذلولا بعد شماسها بأوتادها و بماء السماء: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ» (67: 15).

و بطبيعة الحال ما كان بالإمكان نزول الماء من السماء على هذه الكرة المحترقة إلا بالإعصار و الصب، إعصار ينتج الصبّ و الماء الغزير الثجّاج.

و هناك للماء الثجاج مراحل عدة، أولاها و أقواها الصب الأول الذي أنتجته معصرات عدة:

من الرياح التي أعصرت أنفسها حتى وصلت إلى الأجواء الأرضية، و أعصرت السحاب فأوصلتها إلى أجوائها.

و من السحاب التي أعصرت بعضها البعض و تضاغطت حتى استقرت هناك.

و من التفريغات الكهربائية هنا و هناك التي ساعدت هذه الإعصارات و أعصرت‏ «1».

فلقد تناصرت معصرات رياحية و سحابية و تفريغات كهربائية- و من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «من»\* في معصرات الرياح و التفريغات الكهربائية- تكون سببية، و في السحاب نشوية أو تبعيضية و لا بأس بقصد معاني عدة من كلمة واحدة في القرآن فيما إذا تتحملها اللفظة لغويا و من حيث المقام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 31

ورائها و معها الإعصار الإلهي- حتى كافحت حرارة الأرض و روّتها ماء و برّدت ظاهرها رغم ذوبان باطنها نتيجة الحرارة الزائدة.

إنها أعصرت فأنزل اللّه بها ماء ثجاجا: غزيرا كثيرا يصبه صبا: «أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا. وَ عِنَباً وَ قَضْباً. وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا. وَ حَدائِقَ غُلْباً. وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا. مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ» (80: 25- 32).

إنه تعالى روّى كرتنا العطشى المحترقة بما فتح من أبواب السماء بماء منهمر، و بمعصرات عدة، فجعل من الأرض بحرا متلاطما، ثم يبست شيئا مّا لكي:

«لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ».

و هنا صب ثان في طوفان نوح: «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ. وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى‏ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَ حَمَلْناهُ عَلى‏ ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ. وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» (54: 11- 15) .. كما الأرض أصبحت كأنها بحر لجّي، إلى أن أقلعت السماء ماءها و ابتلعت الأرض: «وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (11: 44).

و صب ثالث هو أخفها وطئا و أكثرها عددا، هي السيول التي تجري على الأرض، بمعصرات الرباح و السحاب و التفريغات الكهربائية: «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ..» (30: 48).

إن معصرات الرياح هنا تزجي السحاب من أبخرة مياه الأرض: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ» (24: 43).

و هذا بخلاف الرياح المعصرات في الإعصار الأول و الثاني، أنها كانت تعصر أبخرة مياه السماء، و تفتح أبواب السماء بماء منهمر ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 32

و لقد كانت المعصرات الأولى أقواها، و لكي تكافح حرارة الأرض، و تسيل و تصبّ عليها سيلا و تجعلها بحرا بعد أن كانت قفرا:

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً. وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً.

والد السماء أمطر على رحم أم الأرض بنطف المياه لتخرج منها- بإذن ربها- حبها و نباتها و جناتها الألفاف، لإخراج نوعي المأكول و الملبوس: ما يؤكل هو ذاته حبا كسائر الحبوب، و نباتأ كبعض النبات، و ما يؤكل منه كالبعض الآخر من النبات و كسائر الجنات.

«و جنات»\*: أشجار كثيرة تجنّ بعضها البعض و تجن الأرض، و تجنها من السماء «ألفافا»: تلف بعضها البعض، و تلتف بعضها بالبعض.

بالفعل تتزاوج و تتمازج أموات و أموات لتلد أحياء و أحياء: نباتية و حيوانية، أ فلا يدل هذا الصنع البارع المتقن على وحدة الصانع، و على إمكانية الحياة بعد الموت، سبحان الخلاق العظيم!

[سورة النبإ (78): الآيات 17 الى 20]

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (18) وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (19) وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (20)

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ‏:

فصل الخلافات، و الفصل بين المختلفين: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (32: 25)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 33

و الفصل بين المتصلين يوم الدنيا بالقرابات: «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ» (60: 3).

و الفصل عن الآمال و الأعمال: «هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ. فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ» (77: 38: 39).

و فصل الحق عن الباطل و المحق عن المبطل، و فصل كل مجمل و مجهول ..

كانَ مِيقاتاً:

«إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ» (44: 40) .. كان ميقاتا: منذ خلق الكون و المكلفون، و يكون ميقاتا يوم ينفخ في الصور.

«ميقاتا»: فالوقت نهاية الزمن المفروض للعمل، و الميقات مكانه و زمانه‏ «1» عرصات المحشر ميقات، و زمن المحشر ميقات، إذ انقطعت الأعمال بانقطاع دار التكليف و زمن التكليف، بالنسبة للمجموع لا الجميع، فإن الميت تقوم قيامته الشخصية بانقطاع عمله بالموت، و لكنما الميقات للمجموع ككل ليس إلا يوم الفصل.

فيوم فصل القضاء- و هو من عظيم الأنباء- كان في علم اللّه يوم خلق الأرض و السماء، حدا مضروبا إليه ينتهي دار التكليف ككل.

يوم الفصل و يوم العزل، يوم الحساب و لا عمل، كما الدنيا عمل و لا حساب، إنه ميقات المكلفين أجمعين، لا يغادر منهم أحدا، و لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فميقات الحج يجمع بين نهاية المكان و الزمان المسموح فيهما للعمل الحر، ثم يقيد المحرم آنذاك و عند ذاك بترك الكثير مما كان مسموحا له قبل الإحرام.

و ميقات القيامة كذلك- نهاية المكان و الزمان الممكن فيهما العمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 34

إنه يوم ينقلب فيه نظام الكون الحالي و ينفرط عقده إلى نظام أرقى و أبقى! من هنا نرى سردا منسقا لنبإ المعاد بعد نبإ التوحيد، فما أن ثبت التوحيد بأدلته فلا حاجة لاستعراض براهين للمعاد إلا أحيانا، و إنما العرض هنا لواقع المعاد و لمّا يقع، و تحصل يوم الفزع الأكبر، و لكي يتذكره المتذكرون و يتحذره الحاذرون.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً:

هناك نفختان يوم الفزع الأكبر: نفخة الإماتة و نفخة الإحياء، نفخة تدمّر و أخرى تعمّر، قد تجمعان كيوم واحد لاتصالهما و أنهما في نهاية يوم الدنيا:

«وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ. وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39: 67- 68): نفخة الصعقة المميتة ثم نفخة القيام.

و قد تجمعان كذلك إلا بتقديم الأخرى على الأولى كما هنا: «فَتَأْتُونَ أَفْواجاً» فهو في النفخة الثانية: «وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً» و هو في الأولى، تقديما لما هو أهمّ و أحرى و هو الغاية القصوى من نفخة الإماتة.

و قد تفرد إحداهما بالذكر كالأولى: «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ. وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ. وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ» ثم تتبع بواقع الثانية: «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ» (69: 13- 18)، و كالثانية و هي الأكثر ذكرا من الأولى: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى‏ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (36: 51) «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ» (23: 101) ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 35

و كلمة الجمع عن النفختين و عما يحصل فيهما و بعدهما لغير النهاية، أنها: «يَوْمَ الْقِيامَةِ» و إن كان يعتبر- حسب مختلف الأحداث فيه- يعتبر أحيانا أياما.

فما هي النفخة؟ و ما هو الصور؟ و من هم الأفواج؟

إن الصور ليس هو الصور و الأبدان لكي يعنى بالنفخ فيها نفخ الأرواح في الأبدان، لأنه لا يستقيم إلا في نفخة الإحياء دون الإماتة، و التعبير بالأخرى:

«ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» يوحي بأنها تشبه الأولى، فهل هنا من شبه بين الإماته و الإحياء؟ كذلك و رجوع ضمير المذكر إلى الصور:

«ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏» رغم أن جمع الصورة مؤنث، و أن الصور هي المناسبة لجمع الصورة كما في آيات‏ «فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» (40: 64) و 64: 3) .. هذه شهود صادقة على أن الصور بوق و ليس جمع الصورة «1».

ثم التعبير عن النفخة الثانية بالنقر في الناقور: «فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ. فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ» (73: 8- 10) و هو قرع الشي‏ء المفضي إلى النقر، هذا شاهد ثان على أن الصور غير الصور.

إن الصور بوق لا كالأبواق التي نعرفها، كما النفخة فيه لا تشبه نفخاتنا، و نحن لا نتصور هنا أو نفهم من نفخ الصور شيئا إلا أنها النفخة المميتة، و النفخة الباعثة المجمعة التي يأتي بها الناس أفواجا، التي تبعثر القبور و ما في القبور فيأتون من كل فج إلى حيث يحشرون.

و بطبيعة الحال نستوحي من أحوالها و أهوالها الشاملة للكائنات أنها سوف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في اللسان: الصور جمع الصورة، و الصور القرن- أقول و هذا شاهد راجع على ما نروم- إذ لو عني بالصورة جمع الصور لكان بحاجة إلى قرينة معينة لمكان الاشتراك، و ترك الخاص بالمشترك خلاف الفصيح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 36

تكون في الأرض و السماوات أجمع، و بصرختها تفزع الكائنات و تميتها، و بوقعتها تجددها و تحييها، و إنها الهول البادي في انقلاب الكون المنظور، كالهول البادي في الحشر بعد النفخ في الصور، و هذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة و تدبير.

و مما نعرفه، على جهلنا بالصور و نفخه: أنه ليس بوقا ينفخ فيه، إنما هو كناية و إيحاء إلى بسبب التدمير و التعمير، أنه صيحة ما أقواها و أفزعها، يسمعها الكائنات في أعماقها، سمعا في كيانها، استمع سامعوها أم لم يستمعوا، كان لها سمع أم لم يكن، فإنما الصرخة هذه تؤثر هكذا تدمير و تعمير، إماتة مرة و إحياء أخرى بزجرتها .. «فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ» (79: 14- 15) فنفخة الإحياء زجرة واحدة تنقل الموتى إلى أرض القيامة:

الساهرة: «فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ» (37: 19).

و الزجرة هذه و الصيحة تلك و الدعوة، على سواء: «وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ» (30: 25).

و بما أن للكل نصيب منها على حد سواء: «فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» نستوحي أنها بمقربة من الكل، بجنب الكل، أو كأن الكائنات هي الصور كلها ينفخ فيها مرة لإزهاق أرواحها، و مرة أخرى فتنفج لإعادة أرواحها.

فَتَأْتُونَ أَفْواجاً:

أفواج الأخيار و أفواج الأشرار، كل مع زميله و كل مع رتيبه، فكما الأخيار أفواج لأنهم درجات، كذلك الأشرار أفواج فهم أيضا درجات: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ» (99: 6).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 37

و الفوج هو الجماعة المارّة المسرعة، تسرع كل إلى ما أعده لنفسه، من نحسه و نفيسه.

يقول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ عن أفواج المجرمين، تفسيرا ل «فَتَأْتُونَ أَفْواجاً»:

«هم عشرة أصناف من أمتي أشتاتا، قد ميزهم الله من جماعة المسلمين، و بدل صورهم: فبعضهم على صورة القردة، و بعضهم على صورة الخنازير، و بعضهم منكبين (منكسين) أرجلهم فوق و وجوههم أسفل، يسحبون عليها، و بعضهم عمي يترددون، و بعضهم صم بكم لا يعقلون، و بعضهم يمضغون ألسنتهم و هي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعابا، يقذرهم أهل الجمع، و بعضهم مقطعة أيديهم و أرجلهم، و بعضهم مصلبون على جذوع من نار، و بعضهم أشد نتنا من الجيف، و بعضهم يلبسون جبابا سابغات من قطران لازقة بجلودهم .. فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس (النمامون). و أما الذين على صورة الخنازير فأكلة السحت. و أما المنكسون على رؤوسهم فأكلة الربا. و العمي من يجور في الحكم. و الصم البكم، المعجبون بأعمالهم. و الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء و القضاة من الذين تخالف أقوالهم أعمالهم. و المقطعة أيديهم و أرجلهم الذين يؤذون الجيران. و المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان. و الذين أشد نتنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات و اللذات و يمنعون حق الله و حق الفقراء من أموالهم. و الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر و الخيلاء و الفخر» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور ج 6 ص 207، أخرج ابن مردوية عن البراء بن عازب‏ ان معاذ بن جبل قال: يا رسول اللّه (ص)! ما قول اللّه‏ «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً»؟ فقال: يا معاذ! سألت عن أمر عظيم، ثم أرسل عينيه ثم قال: .. و في مجمع البيان مثله إلا يسيرا أشرنا إليه، و الأفواج المذكورون هنا هم المتخلفون من المسلمين، فما هو- إذا- أحوال الكفار؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 38

وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً:

هل للسماء أبواب مغلقة قبل قيامتها فهي تفتح عندها؟ أو أنها بمجموعها تصبح أبوابا؟ علّهما معا مقصودان هنا.

نحن نعرف من أبواب السماء أبواب الماء: «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ» (54: 11) فهذه أبواب كانت مغلقة و لكنها فتحت على الأرض مرتين، كما مرّتا، و أما عند قيامتها فليست لها مياه لكي تفتح بها أبوابها، و إنما تمور مورا و تنفطر و تنفجر و تحترق، فأين- إذا- الماء؟

و أبواب أخرى تفتح للمؤمنين لكي يدخلوا الجنة: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ» (7: 40) .. إيحاء لطيف أن النار ليست في السماء، أو ليست في سماء الجنة.

إذا فغلق أبواب السماء من هذين النوعين لا يمنع الأسفار الجوية مهما بلغت من العمق، اللهم إلا ما يعلمه اللّه من أعماق السماء.

ثم الأبواب من النوع الثاني ليس فتحها للمؤمنين فتحا للسماء ككل، ففرق بين فتح أبواب السماء و بين فتح السماء حتى تصبح أبوابا.

علّ المعنيّ من السماء الأبواب أنها إذا انفطرت، و كواكبها إذا انتثرت، و شمسها مع قمرها إذا جمعت، كانت جنود السماء وقتئذ منهزمة، فلا تمنع موانع المجرات بكواكبها و لا سائر الأجرام الجوية بأثقالها، لا تمنع من صعود الصاعدين من المؤمنين، و لا نزول النازلين من الملائكة: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (14: 48).

تدمّر السماء و تفطّر و ترجع دخانا كما كانت بلا بروج و لا مدن و لا أبواب و لها فروج و كلها فروج، و إلى حيث كأنها كلها أبواب، فقد كانت بلا فروج:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 39

«أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ» (50: 6) ثم تصبح و كلها فروج: «وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ» (77: 9).

وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً:

و على حد تفسير

أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «و تذل الشم الشوامخ و الصم الرواسخ فيصير صلدها سرابا رقراقا و معهدها قاعا سملقا».

سيّرت عن قواعدها لحد تصبح القواعد سرابا لا ماء فيها و لا كلاء، و ترى من صقلها أنها ماء يلمع: «حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ» (24: 39).

إن منشار الزلزال تنشرها عن قواعدها بسرعة لامعة محيرة لحد السراب.

و الترتيب المفهوم من القرآن حول قيامة الجبال: أنها على أثر الرجفة المدمرة الأرضية تصبح كأتلال الحصى من شدة سيرها و وقعها: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا» (73: 14) ثم على أثر اصطدامات متواصلة في مسيرها تتبدل كالخمير، ثم كالغبار المنبثّ: «وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا» (55: 5) و كالعهن المنفوش: «وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) (101: 4) ثم تنسف فلا يبقى إلا سراب وقاع صفصف: «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً. لا تَرى‏ فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً» (20: 106- 107)؟ أرضا أملس مستوية دون انخفاض و لا ارتفاع.

فهذه الجبال الراسيات الأوتاد الشامخات تصبح هباء كالسراب ثم ماذا تكون حال الإنسان الضعيف الضعيف- سبحان الغفور الرحيم!

\*\*\*

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 40

[سورة النبإ (78): الآيات 21 الى 30]

إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (21) لِلطَّاغِينَ مَآباً (22) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (23) لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً (24) إِلاَّ حَمِيماً وَ غَسَّاقاً (25)

جَزاءً وِفاقاً (26) إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (27) وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (28) وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذاباً (30)

.. إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً:

كانت قبل القيامة منذ حلقت، كانت مرصادا: و الرصد هو الاستعداد للترقب، فالمرصاد آلة و وسيلة مستعدة تترقب أهلها الذين يتهيئون لها بما قدمت أنفسهم، ثم منهم وقود لها تتّقد بهم، كأصول الكفر و الضلالة: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» (2: 24) ثم أتباعهم الماشين على هوامش الضلالة، هم يتّقدون بهم في مرصادهم، و: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ» (89: 14).

فكما أنهم- طول حياتهم- مرصاد للطغيان، كذلك جهنم مرصاد لهم:

تنتظرهم و تترقبهم و ينتهون إليها فتستقبلهم.

لِلطَّاغِينَ مَآباً:

مرجعا يرجعون إليه، حيث كانوا يوم الدنيا في جحيم الأفكار و العقائد و الأعمال و الآمال دون أن تظهر لهم نارها، ثم في رحلتهم إلى عمق الحياة يرجعون إلى ما كانوا فيه، ظاهرة نارها: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 41

ليست النار يوم القرار شيئا جديدا، إنما هي النار التي أوقدوها بما عملوا من قبل «و اليوم يجزون عذاب الهون بما كانوا يعملون».

الخالدون في النار و الجنة:

لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً:

.. آية فريدة في نوعها تقرر أمد الخلود المؤبد للذين يخلدهم اللّه في النار آبدين، و منهم المذكورون هنا: «إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً. وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً» طاغون طغوا على اللّه و طغوا على أنبياء اللّه، و طغوا على سائر عباد اللّه، عاشوا الطغيان حياتهم دون إبقاء و إن كانوا هم أيضا درجات. و ليس فوق الأبد من عذاب النار عذاب، و هو للذين كفروا و ظلموا و صدوا عن سبيل اللّه: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيداً. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً. إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» (4: 167- 169) «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً. خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» (43: 64- 65) و لمن يعصي اللّه و رسوله عصيانا عقديا و عمليا: «قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً. قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً. قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً. إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً» (72: 20- 23).

هذه جماع الآيات في أبد الخلود، من عامة في الكافرين، و من خاصة في الظالمين منهم و المكذبين بآيات اللّه، الصادين عن سبيل اللّه، و تجمعهم لفظة:

«الطاغين» و هم الناكرون لوجود اللّه أو المشركون به- المنكرون للقيامة المكذبون به، و الصادون الظالمون .. أولئك هم المؤبدون في النار: «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً» على سواء في طول أمد العذاب و هو الأبد، و هم درجات في كيفية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 42

العذاب: «جَزاءً وِفاقاً» يوافق قدر الكفر و الجحود، كما المؤمنون في الجنة درجات‏ «هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ» (3: 163).

فلنعرف إذا: ما هي الأحقاب و ما هو الجزاء الوفاق؟

الأحقاب: في غريب القرآن: «قيل هو جمع الحقب أي الدهر، قيل:

و الحقبة ثمانون عاما و جمعها حقب، و الصحيح أن الحقبة مدة من الزمان مبهمة».

أقول: و قد يؤيد: الدهر و الزمن المبهم في الحقب حقب موسى عليه السّلام:

«لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً» (18: 60) فلا يناسب إلا زمنا مبهما، فلو كان على علم بزمن البلوغ ما كان يتردد بين الحقب و دونه من بلوغ المجمع، و الحقب و الحقب بمعنى، و قد تؤيده مجموعة أحاديث مروية عن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و أهل بيته الكرام (ع).

فقد تذكر له معاني أخرى تحده بحدّ خاص كسنة أو سبعين أو أربعين أو بضع و ثمانين و قد روي الأخيران عن النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور (6: 208) أخرج البراز و ابن مردوية و الديلمي عن ابن عمر عن النبي (ص) قال: و اللّه لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقابا، و الحقب بضع و ثمانون سنة كل سنة ثلاثمائة و ستون يوما، و اليوم ألف سنة مما تعدون،

و

أخرج ابن مردوية عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول اللّه (ص): الحقب أربعون سنة.

و قد تناسب الروايتان دهرا من الزمن، فلكل كافر أحقاب من الخلود حسب كفره، جزاء وفاقا، أربعون عاما أو ثمانون أو .. و كما الأحقاب قد يفسر بثمانية- فيما

روي عن الصادق (ع) قال: الأحقاب ثمانية أحقاب و الحقب ثمانون سنة و السنة ثلاثمائة و ستون يوما و اليوم كألف سنة مما تعدون» (نور الثقلين 5: 495 ح 24).

و

في نور الثقلين (5: 494 ح 23) القمى بالإسناد إلى حمران بن أعين قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه‏ «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً»، قال: هذه في الذين لا يخرجون من النار، و فيه عن الباقر (ع) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 43

و مهما يكن من شي‏ء فالذي لا يريبه شك أن الحقب زمن محدود، عرفناه أم جهلناه، فجمعه أيضا محدود لا تتصور فيه اللانهاية الزمنية، التي تدّعي للمكوث في النار، إضافة إلى سائر المشاكل الدلالية و العقلية في المكوث اللانهائي الحقيقي في النار، و إلى أن هذه اللانهاية في العذاب ليست جزءا وفاقا، و كيف الوفاق بين العصيان المحدود و الجزاء اللامحدود؟

و هنا في معنى خلود النار و واقعه أقوال عدة بين علماء الإسلام و سواهم، لا يوافق النقل و العقل منها إلا فناء الآبدون في النار مع النار، ثم لا نار و لا أهل نار «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و الخروج من النار بعد مكوث الأحقاب يعني هنا خروج النار عن كيانها و فناءها بفناء أهلها، فهو خروج عن الوجود، و هذا هو معنى «لا يخرجون من النار»، أي: خروجا مع بقاءها.

(1). و هي ثمانية: 1) «كل من دخلها مخلد فيها أبد الآباد بإذن الله» ذهب إليه الخوارج و المعتزلة و طائفة من الشيعة الامامية.

2) «أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم ثم تبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم الثانوية» ابن العربي في فصوص الحكم.

3) «أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها و يخلفهم قوم آخرون» (عن اليهود) كما ادعوه و أجابهم القرآن‏ «وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» (2: 80).

4) «يخرجون منها و تبقى نارا على حالها ليس فيها أحد يعذب» حكاه شيخ الإسلام.

5) «تفنى النار بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم تكن و ما ثبت حدوثه استحال بقائه و أبديته» جهم بن صفوان و أتباعه دون فرق بين الجنة و النار.

6) «تفنى حياتهم و حركاتهم و يصيرون جمادا لا يتحركون و لا يحسون بألم» أبو الهزيل العلاف إمام المعتزلة طردا لامتناع حوادث لا نهاية لها.

7) «يفنيها ربها تبارك و تعالى، فإنه جعل لها أمدا» ابن مسعود و أبو سعيد و عمرو و ..

و هو القول المرضي لدينا على تفصيل تذكره.

8) «يخرجون منها و ينعمون بعد الخروج»، عدة من الفلاسفة مثل الصدر و الكاشاني و غيرهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 44

و فيما روي عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن حفيديه الصادق و الباقر عليهما السلام تلميح و تصريح أن أبد النار محدود و إن طال الزمن.

و ما يروى أن آية الأحقاب في الذين يخرجون من النار يتنافى و كونهم من المكذبين المنكرين للحساب الذين تصرح الآيات بأبديتهم في النار، فهي إذا من المجعولات مع كونها معارضة برواية أخرى عن نفس الراوي‏ «1».

الماكثون في النار .. المخلدون:

أدلة النقل و العقل و العدل تتناصر في استنكار اللانهاية الفلسفية في العذاب مهما كانت درجة الكفر و الطغيان.

فالنقل- قرآنيا و في السنة- لا يساعد الخلود اللانهائي في النار، و المروي‏

عن الإمام الصادق عليه السّلام‏ أنه أجاب في السؤال عن الخلود في الجنة و النار: إنما خلّد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا لو خلّدوا فيها أن يعصوا اللّه أبدا ما بقوا فالنيات تخلّد هؤلاء و هؤلاء، ثم تلا قوله تعالى: «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى‏ شاكِلَتِهِ» قال: على نيته‏ «2».

هذا الحديث مضروب عرض الحائط، على وحدته و معارضته القرآن: أن النية السوء لا تحقق الجزاء السوء، فلا عقاب إلا على الكفر و العمل السوء:

«مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ» (4: 123) «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين (5: 495- 26) روى العياشي باسناده عن حمران قال: سألت أبا جعفر (ع) عن هذه الآية «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً» فقال: هذه في الذين يخرجون من النار، و روى الأحول مثله‏

و يعارضه ما

رواه حمران نفسه قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن هذه الآية قال: هذه في الذين لا يخرجون من النار.

أقول: و لعل النقل الأول خطأ بزيادة «لا»\*.

(2) بحار الأنوار ج 8 ص 292 ج 34 عن علي بن ابراهيم القمي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 45

(27: 90) «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (52: 16) .. و لأن العقوبة على النية السوء ظلم: «فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (36: 54) ثم هو إضافة إلى ذلك ليس جزاء وفاقا.

و أما اللانهاية في الثواب فهي رحمة من اللّه و فضل فوق العدل، و الواجب في العقاب هو العدل، و فضله يتطلب إما الغفران أو تقليل العقاب، عكس الثواب.

ثم نظرة عميقة في آيات الخلود- أبديا أم سواه- توضّح لنا أنها لا تعني اللانهاية في العذاب، حيث اللغة و القرآن يتوافقان في أنّ الخلود محدود! فاللغة تقول: «الخلود هو تبري الشي‏ء من اعتراض الفساد و بقائه على الحالة التي هو عليها، و كلما يتباطأ عنه التغيير و الفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي خوالد و ذلك لطول مكثها لا لدوام بقاءها ثم استعير للمبقى دائما» «1».

و القرآن يصدق القسم الأول من معناه: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً» (4: 56).

فلا يعني الخلود إلا طول المكوث، أو أبد المكوث إذا كان أبديا، و وصف الخلود بالأبد أحيانا، و تركه أخرى، يشهد أنه ليس المكوث الأبد، و كما أن الأبد لا يعني اللانهاية الفلسفية، و إنما البقاء طوال الحياة كما الآيات تشهد:

«وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى‏ قَبْرِهِ» (9: 84) «وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» (2: 95) «إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). غريب القرآن للراغب، و في لسان العرب أن الخلود هو دوام البقاء في دار لا يخرج منها، و الإبطاء عن الشي‏ء كما يقال: خلد: أبطأ عنه الشيب، و يقال للرجل إذا بقي سواد رأسه و لحيته على كبره: إنه لمخلد، و للذي يسقط أسنانه من الهرم: مخلد، و الخوالد الجبال و الصخور لطول بقاءها بعد دروس الاطلال، و أخلد الرجل بصاحبه إذا لزمه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 46

(5: 24) «فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً (9: 83) «لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً» (9: 108) فلا يعنى من الأبد هنا إلا مدى الحياة، هذه حال الأبد فكيف الخلود؟

فهل يعقل أن الكافر- أي كافر- يزعم بقاءه على الأرض حيا لغير النهاية، أو طوال عمر الأرض؟: «و لكنه أخلد إلى الأرض‏ وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (7: 176) «الَّذِي جَمَعَ مالًا وَ عَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ» (104: 3).

فهل نكذّب القرآن هنا و هناك لكي نصدق زعم اللانهاية الفلسفية في الخلود، دون أي سناد، إلا شهرة سوقية متحللة عن أي برهان؟

فمن الخالدين في النار من يخرج منها بعد زمن طويل أو أطول حسب ما يستحقه من العذاب‏ «1»، و منهم من يحبس فيه و يعذّب مدى الحياة المعبّر عنه بالخلود الأبد: «لا يُقْضى‏ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها» (35: 36) «كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها» (22: 31) «وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً» (4: 121) «.. وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ» (43: 77).

فهؤلاء هم المؤبدون بدوام النار ثم يقضى عليهم مع النار، فلا تبقى نار و لا أهل نار.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الآيات: 10: 52 و 32: 14 و 41: 28 و 4: 93 و 9: 63 و 59: 17 و 2: 39 و 81 و 217 و 257 و 3: 116 و 5: 80 و 7: 36 و 9: 17 و 10: 27 و 13: 5 و 21: 99 و 23: 103 و 43: 74 و 58: 17 و 2: 162 و 3: 88 و 9: 68 و 16: 29 و 20: 101 و 39: 72 و 40: 76 و 64: 10 و 96: 6.

و هذه هي موارد الخلود غير المؤبد، إما لاختصاصها بغير الآبدين أو اعتبارا بجمعهم مع الآبدين ثم لا تجد أبد الخلود في النار إلا في 4: 169 و 23: 65 و 72: 23 و 2: 167.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 47

و لاختلاف أمد الخلود ترى فرقا من الكفار ينص على خلودهم بالأبد، كالمشركين المكذبين الصادين عن سبيل اللّه، و فرقا أخرى بالخلود دون الأبد، كفساق المسلمين و أهل الكتاب غير المشركين: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ. جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ..» (98: 6- 7).

هنا- رغم تأبيد الخلود للمؤمنين، لا يؤيده لأهل الكتاب و المشركين، رعاية للأولين إذ لا يخلد أهل الكتاب أجمعين، ثم آيات أخرى تخص الخلود الأبد بالمشركين و من نحى منحاهم.

و لمحة أخرى لحد الخلود توحيها الآيات التي تحده ما دامت السماوات و الأرض و بمشيئة اللّه تعالى: «قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (6: 128) «يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ. خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» (11: 105- 107).

فإنها تقيّد و تحدّ الخلود بدوام السماوات و الأرض مرة، ثم بأقل منه حسب مشيته اللّه تعالى- أخرى.

و بعد هذه الدلالات القرآنية و اللغوية لا نجد ما يعارضها دلالة على المكوث اللانهائي فلسفيا في النار، لا كتابا و لا سنة و لا عقليا، بل العقل حجة قاطعة على تزييف أسطورة اللانهاية في العذاب، فهل تجد عاقلا مهما بلغ من الظلم و البربرية و الوحشية و الخشونة أن يحكم بعذاب اللانهاية على من عصاه طوال عمره؟ كلا! فغاية الأمر تعذيبه لزمن ثم إعدامه بالمرة، فما ذا تظن إذا برب العالمين الذي سبقت رحمته غضبه، و ليس عذابه انتقاما، و إنما جزاء وفاقا ناتجا عن ذات العمل، إلى حيث يعتبر الجزاء نفس العمل: «فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (36: 54).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 48

و لأن العمل- أي عمل- محدود بطبيعة الحال، زمنيا و في كيانه و أثره، فليكن الجزاء الذي لا يزيد عن العمل- بل هو نفس العمل بملكوته و ذاته- ليكن ذلك الجزاء أيضا محدودا و مماثلا له في السوء: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها» (40: 40).

فهل يا ترى أن اللانهاية في عذاب الخالدين أبديا- أنها الجزاء المثل الوفاق، و هل إنها هي العمل بذاته؟ فكيف بالإمكان عقليا جعل المحدود غير محدود، و كيف بالإمكان في عدل اللّه تعالى أن يزيد على العمل السوء المحدود زيادة لا محدودة و لو أمكن عقليا؟ و كيف نسمح لأنفسنا كموحدين أن نظن هكذا ظلم و قساوة برب العالمين؟ إن هذا إلا افتراء على اللّه أن يخالف العقل و العدل و الرحمة التي كتبها على نفسه، و كتابه الدال على حدود العذاب.

إننا نصدق إمكانية اختلاف السيئة و عذابها في الزمن، فلا اعتبار بالزمن، فكم من عصيان في زمن قليل له من الأثر السوء ما لا يساويه إلا آلاف أضعافه من الزمن، و كم من عصيان في زمن طويل يقل عن الأول بكثير، فالحد الزمني ليس هو المقياس في حد العذاب، و إنما الآثار هي المدار في الجزاء.

نحن نصدق هكذا اختلاف و لكننا نحيل الاختلاف بالنهاية في العصيان و اللانهاية في العذاب، إحالة بسناد العدل و العقل و النقل.

ثم لنفرض إمكانية اللانهاية في العذاب و أنها عدل توافق العقل، فأين رحمة اللّه تعالى التي سبقت غضبه؟ «و لذلك (الرحمة) خلقهم»!

من موانع المكوث اللانهاني في النار:

أنّ الرحمة هي المقصودة في الخلق مبدئيا دون الغضب، و من سبق الرحمة و أصالتها لا نهائيتها في الجنة للمؤمنين، فليس الغضب المسقوق- العدل- هو اللانهاية و لو كان فلتقتض الرحمة للغصب أمدا، فما كان بالرحمة و للرحمة فهو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 49

مقصود لذاته قصد الغايات، و ما كان من موجب الغضب فهو مقصود لغيره قصد الوسائل، فالعذاب مسبوق مغلوب، و الرحمة سابقة غالبة و رحمته وسعت كل شي‏ء دون غضبه، فلتشمل أهل النار، رحمة مكتوبة على اللّه للصالحين من عباده، و أخرى راجحة للطالحين منهم: «و رحمتي وسعت كل شي‏ء فسأكتبها للذين آمنوا و كانوا يتقون» فليعذب الآخرون دون استحقاقهم.

ثم النار إنما خلقت تخويفا للمؤمنين و تطهيرا للخاطئين أو تدميرا و إفناء لهم أخيرا، فهي- إذا- طهرة من الخبث الذي اكتسبته النفس في عالم التكليف، فإن تطهرت منه هنا بالتوبة النصوح و الحسنات الماحية و المصائب المكفّرة، لم تحتج إلى تطهير هناك في عالم الحساب، و قيل لها في جملة الطيبين: «سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ»، و إن لم تتطهر هنا و وافت البرزخ بدرنها أدخلت نار البرزخ طهرة لها، و إن بقيت دنسة لم تتحلل عن كامل خبثها دخلت نار الآخرة و عذّبت لحد الطهارة، فإن الدرن الناتج عن العصيان له حد أيا كان، و فيما إذا أصبحت النفس درنا لا يزول فمقتضى العدل أو الفضل و الرحمة، إفناءها بنارها، إذ ليست العقوبة إلا للتطهير و لم يحصل، أو للفرق بين المسلمين و المجرمين و قد حصل: «أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» (68: 35) «أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ» (32: 18) «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» (38: 27- 28).

و يكفي فرقا بين الفريقين عقوبة الفجار لحد ما، جزاء وفاقا، حيث يحرمون الرحمة زمن العقوبة، ثم ليست مواصلة العذاب لغير النهاية ضرورة أو رجحانا تنتج الفرق بين الفريقين- اللهم إلا عبثا و ظلما- تعالى اللّه عنهما علوا كبيرا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 50

3- إن اللّه تعالى لم يك يعامل الخلق إلا بفضله دون عدله، فالجنة الخالدة اللانهائية للصالحين ليست إلا من فضله، إذ هم لم يعملوا الصالحات إلا لصالحهم دون استحقاق للجزاء إلا فضلا و إحسانا من اللّه في أصل الجنة و خلودها اللانهائي.

و نرى أنه يجازي بالحسنة عشرا و أعشارا و يزيد، و لا يجازي على السيئة إلا مثلها و يعفو عن كثير، بتوبة أو شفاعة أو تكفير: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31) «إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ» (11: 114) «فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ» (25: 70).

و لو أن اللّه عامل خلقه بعدله دون فضاء لم ينج أحد من عذابه أو لم يستحقوا رحمته.

4- إن العفو أحب إليه من الانتقام- لو كان العذاب انتقاما- و كما أمرنا بالعفو عمّن ظلمنا: «وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى‏» (2: 237).

إذا فكيف لا يخفف عن أهل النار عذابهم اللانهائي، لو كان هو الحق العدل؟! هذه مما يبرهن لنا فناء النار بأهلها، و خروج غير الآبدين قبل استحقاقهم، و كما يغفر المذنبين فضلا منه و رحمة.

لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً. إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً. جَزاءً وِفاقاً:

هناك حرمان من ذوق البرد و الشراب إلا حميما و غساقا .. بدل البرد حميم، و بدل الشراب غساق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 51

فما هو البرد و ما هو الشراب؟

البرد كل ما يبرد الجسم- ظاهره و باطنه- من هواء بارد، و ريح ناعمة، و ظل ظليل، و من ماء يغمسه أو يغسل به بدنه أو يشربه .. لا يذوقونه ذوقا، في أيّ من هذه، فضلا عن أن يستفيدوا منه بشرب أم سواه.

بردا يعم الشراب و سواه- «وَ لا شَراباً» يبرد الباطن فيريح الظاهر، شرابا ينوب البرد في التبريد- أيّ تبريد- لا يذوقونه فضلا عن شربه.

ليس للطاغين برد و لا شراب إلا حميم و غساق: الماء الساخن الذي يشوي الوجوه و الخلوق و البطون: «بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً» .. فهذا هو بردهم، و الغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين و يسيل، و يغسق على الإنسان حياته كغسق الليل، و هذا هو شرابهم: «وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً» (18: 29).

جزاء وفاقا: إن جهنم المرصاد المآب، و لبثها الأحقاب، و عدم ذوق البرد و لا الشراب، كل ذلك جزاء وفاق، لا يزيد عما قدموا لأنفسهم أو قد ينقص.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 52

إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً. وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً. وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً. فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً.

إن مهمة اعتناق عقيدة الحياة بعد الموت، تنحو نحو الحساب، و إذ لا تصديق بالحساب الحق فلا يجدي الاعتراف بالحياة الأخرى نفعا.

لذلك تركّز الآية على‏ «إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً» و إن كانوا يرجون حياة أو لا يرجون، فإن رجاء الحساب هو أقل ما يدفع الإنسان إلى الصالحات رجاء الثواب، و يمنعه عن محارم اللّه رجاء العقاب‏ «1»، ثم فوقه الإيقان بالحساب، و الموقنون أيضا درجات.

هؤلاء الطاغون لم يكن الحساب عندهم حتى و لأدنى ما يجب، أن يرجوا حساب اللّه الذي وعده و أكّد عليه .. كانوا يعيشون نكران الحساب، فأخذوا حريتهم في حيونة الحياة كأنهم يعلمون ألّا حساب! ..

«كانُوا لا يَرْجُونَ»: لا يأملون و لا يخافون حسابا، أي حساب، قليلا و لا كثيرا، فقد تركوا ما فيه أمل الثواب و اقترفوا ما فيه خوف العقاب، و لو أنهم أملوا الثواب لأقبلوا إلى الطاعات، و لو أنهم خافوا العقاب لأدبروا عن موجبات العقاب، و لكنهم كانوا لا يرجون حسابا أي حساب: رجاء الثواب أو خوف العقاب، ثم و كذبوا بآيات اللّه الكذاب.

«وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً»: كذبوا بالآيات الآفاقية و الأنفسية، التكوينية و التشريعية، إذ كذبوا بآيات اللّه الواقعية و العقلية و الفطرية، التي تدل على وجوده و توحيده، و كذبوا بآيات النبوات: معجزات الأنبياء، فكذبوا الرسل و كذبوا بآيات الوحي في كتابات السماء، و من ضمنها كذبوا بآيات الحساب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الرجاء من اللغات المتضادة جاءت بمعنى الأمل و الخوف و قد نعنيهما معا كما هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 53

كذبوا بهذه الآيات الإلهية رغم أنها آيات: علامات قاطعة تدل على أنها إلهية، لمن أبصر بها و تذرع لمعرفة ما وراءها و معها من حقائق إلهية.

كذبوا بها كذابا: تكذيبا عجيبا في أصله و في كيفيته، في أصله أن كذبوا ما أحاطت به بينات الصدق، و في كيفيته أن كرّسوا كافة طاقاتهم و إمكانياتهم في تكذيبها، فأصبح تكذيبهم عجبا على عجب: «كذابا»\*! فجرس اللفظ يوحي بشدة التكذيب كما المعنى يسانده في جرسه .. «وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً»!

كتب الأعمال الضوئية و الصوتية:

وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً:

الإحصاء هو الضبط أيا كان، و الكتاب هو المكتوب الثابت منه واقعيا، فكل شي‏ء: من أقوال و أعمال و أفكار، أحصاه اللّه تعالى إحصائا كتابيا، لئلا تذهب هدرا، و لكي تبقى حجة تنطق على العاملين: «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 15- 16) فهذا كتاب في عمق الذات.

يكتب اللّه تعالى على جوانح المكلفين و على جوارحهم صور الأعمال و أصوات الأقوال- الصادرة عنها- و يا له من كتاب لا سبيل إلى نكرانه، لأن اللّه هو الذي استنسخ كل شي‏ء في عنق الإنسان: «وَ تَرى‏ كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى‏ إِلى‏ كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 28- 29) فهل يا ترى إن الاستنساخ الإلهي يكون عن أسماء الأعمال؟ فليس هذا استنساخا! إنما هو عن أصول الأعمال بصورها و أقوالها و أحوالها .. استنساخا في كتاب الذات و في الأرض و جوّها، و فيما لا نعلمه و اللّه يعلمه.

هذه الأرض التي نعيش عليها هي كتاب آخر لأعمالنا و سوف‏ «تُحَدِّثُ أَخْبارَها بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها. يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 54

كتاب و كتب إلهية تضبط كل شي‏ء دون مغادرة و لا مثقال ذرة: «وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» (18: 48) «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (3: 30).

و كل شي‏ء أحصيناه كتابا: إحصائا كتابيا في إمام مبين: «وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» (36: 12) و علّه كتب الأعمال أو تشملها و ما في اللوح المحفوظ .. كتب الأعمال: النفسية و الأرضية، و شهود الأعمال ملائكية و رسالية و رسولية .. شهود و شهود تشهد بالحق دون إمكانية النكران بحقهم، فإنهم يشهدون علينا معنا: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ. يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» (24: 25- 26).

«فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً»: ذوقوا أعمالكم لا أقل و لا أكثر، فنفس الأعمال بظهورها في حقائقها، هي الجزاء لا سواها: و «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (27: 90) فلن نزيدكم باستدعاء الغفران إلا عذابا تستحقونه، جزاء وفاقا، إذ إنكم ما كنتم تزدادون- على ضوء الآيات البينات- إلا كذابا «وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ».

فأصل العذاب بأصل الطغيان، و ازدياده بازدياده، كل على حسبه و لا ظلم اليوم.

فهؤلاء هم الطاغون، ثم ما هي حال المتقين؟ «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً ..».

\*\*\*

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 55

[سورة النبإ (78): الآيات 31 الى 40]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (31) حَدائِقَ وَ أَعْناباً (32) وَ كَواعِبَ أَتْراباً (33) وَ كَأْساً دِهاقاً (34) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً (35)

جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (36) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً (38) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى‏ رَبِّهِ مَآباً (39) إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (40)

. لما كانت جهنم مرصادا و مآبا للطاغين، دون انفلات منها و لا جواز عنها، فإن المتقين، الذين اتقوا و تحذروا عن الجحيم يوم الدنيا، إن لهم هناك مفازا:

ظفرا بالخير على سلامة في كيانهم من الشر: خيرا على خير يوم الآخرة، كما كانوا خيرا على خير يوم الدنيا .. إنهم ينتهون إلى مفازة و منجاة عن الجحيم إلى الجنة:

«جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً»: «مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ» (6: 16) «وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ» (39: 61) «وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً» (48: 5) «وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (50: 9)، فالمفاز كيانه ازدواجية الخير: بعدا عن النار و دخولا في الجنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 56

مفازا روحانيا إلى جنة الرضوان: «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 111) .. و مفازا جسدانيا إلى جنة النعيم: «حَدائِقَ وَ أَعْناباً. وَ كَواعِبَ أَتْراباً. وَ كَأْساً دِهاقاً» .. فائزين كلتا الجنتين: «وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» (55: 46- 47).

إن للمتقين مفازا، يتمثل- جسدانيا- في أفضل المناظر: حدائق و أعنابا- و جنسيا- في أجمل البنات: و كواعب أترابا .. و جوا بعيدا عن كل أذى:

لا يسمعون فيها لغوا و لا كذابا .. حياة مصونة من اللغو و من التكذيب الذي يصاحبه الجدل و هي حالة من الرفعة و المتعة تليق بدار الخلود.

حدائق ذات بهجة .. غلبا، لا كغلب الدنيا و بهجتها فإنها مثال ضئيل عما في الجنة، و الحديقة قطعة من الأرض ذات ماء و كلاء، محصورة بجدران و أبواب تحدق بها من أطرافها، إيحاء إلى صلوحها للسكن دون فوضى و لا تدخل لغير صاحبها فيها، مستورة عن الناظرين إليها.

حدائق تضم من كافة الأشجار و الفواكه و الوردان ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين، و من أعمها نفعا، و أتمها فائدة، و أقواها غذاء، و ألذها طعما هي الأعناب.

وَ أَعْناباً:

تستحق التخصيص بالذكر أكثر من كل الفواكه لجمعها فوائدها و زيادة ..

تذكر في عشر مواضع دون سواها من الفواكه‏ «1».

فهي شراب و إدام و طعام و دواء و فاكهة، تأتي إلى السوق قبل الفواكه و تخرج بعدها، و يابسها تحفظ خواص رطبها، فهي مثال تام عن عالم الفواكه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الآيات التالية: 2: 266، 6: 99، 13: 4، 16: 11 و 67، 18: 32، 23: 19، 36: 34، 78: 32، 17: 91، 80: 28.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 57

وَ كَواعِبَ أَتْراباً:

إن دور الجنس يأتي بعد مهمة المسكن و الغذاء و إن كان قبلهما في الاندفاع، إلا أنه ناقص ما لم تتم معداته، و قد يجرف بالإنسان إلى شفا جرف الهلكات النفسية و الاقتصادية إذا لم تكمل الظروف.

و الكواعب جمع كاعب:

هن الفتيات النواهد «1»

: المستدارة ثديهن مع ارتفاع يسير، و الملتحمة أفخاذهن و صدورهن و وجوههن، فلهن الكعاب المطلوبة في النساء في مختلف المواضع من أبدانهن.

و الأتراب هي المماثلات المتوافيات السن و الجمال مع لداتهن‏ «وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ» (28: 52) «عُرُباً أَتْراباً» (56: 37) و علّه مع أزواجهن أيضا: أترابا مع اللدات و أترابا مع الأزواج. في الكفاءة لا في العمر «2».

إن الثدي الليمونجية و مماثلة اللدات جعلت هذه الفتيات كأجمل ما يتصور، فكعب الثدي بداية لسن البلوغ، و هي أفضل سنيّ التمتع، و ترب العمر و الجمال يقضي على التفاضل و التفاخر بينهن، و على التسابق و التحاسد في تخيرهن، فقد زودت و زينت الجنة لأهلها بما لا يأتي بحرمان و لا نقصان أو عقد نفسية، فهي دار التواسع لا التضايق، رغم الحياة الدنيا التي هي دنيا مهما بلغت من السعة و الجمال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما عن الامام الباقر (ع) نور الثقلين 5: 495 ح 28.

(2) و قد يستفاد من قوله تعالى: إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً. فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً. عُرُباً أَتْراباً» أنه مماثلتهن مع لداتهن، أو و مماثلتهن مع الأزواج في الكفائة، و أما في العمر فالأمر فيه بالعكس كلما كانت الزوجة أصغر كانت ألذ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 58

وَ كَأْساً دِهاقاً:

هي الممتلئة المترعة المتتابعة «1» تقدّم إلى المتقين بأيدي الكواعب الأتراب.

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً:

.. لا بصورة عامة إذ الجو جو الجد و الصدق .. و لا عن الكأس الدهاق بما فيها الخمر، فما هي إلا: «بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» (37: 46- 47): لذة لأذواقهم، و لذة لعقولهم و أرواحهم، تزيدهم عقلا إذ ليس فيها غول «فساد»\*، و لا هم عنها ينزفون «لا يسكرون» فهي تجمع لذات الخمر و زيادة فوق الوصف، و ليس فيها غولها و نزفها، لا جسدانيا و لا روحيا:

«يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ» (52: 23).

فخمر الدنيا تخمر العقل و تستره عن إنارته، و خمر الآخرة تخمر الجهل و تزيد العقل إنارة، فهم يخمرون و الهين في معرفة اللّه و حبه.

.. هذه مناعم محسوسة الظاهر مجهولة الحقيقة لأهل الأرض و هم مقيدون بمدارك الأرض و تصوراتها المحدودة.

جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً:

إذا كان جهنم للطاغين جزاء وفاقا لا تزيد عما قدموا لأنفسهم، فالجنة للمتقين أيضا جزاء، و لكنها جزاء العطاء لا الجزاء الوفاق، لو لا العطاء هنا لم يكن جزاء، أو هكذا جزاء، و نفس التعبير بالجزاء أيضا عطاء، فما هو جزاء من عمل لصالحه في نضد الحياة، دون أن يرجع لفائدة و عائدة لرب العالمين:

«وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى‏ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى‏» (92: 19- 20).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ابن عباس فيما أخرجه عنه عبد بن حميد و ابن جرير- و هو المعنى الجامع لمعاني اللفظة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 59

إنه ليس الجزاء للمتقين إلا بالوعد الإلهي عن فضل و عطاء، لا العدل الذي هو الجزاء الوفاق، و لكنه للطاغين جزاء وفاق كأكثر الجزاء، اللهم إلا أن يشملهم بعض الغفران أو بعضهم.

عطاء حسابا: عطاء محسوبا كجزاء فضلا من اللّه و إحسانا، و عطاء على حساب الوعد دون الاستحقاق، و عطاء وفق الحساب، فلكل عطاء حساب، لأن المتقين درجات، و حساب البعض منهم هو الرزق بلا حساب‏ «إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ»: لا يدخل تحت حسابنا و إن كان عند اللّه مقدرا معلوما.

عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «.. حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم حسناتهم ثم أعطاهم بكل واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله عز و جل: جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً «1»».

إن جزاء الطاغين جزاء وفاق لم ينسب إلى الرب: «إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً. لِلطَّاغِينَ مَآباً»، و لأنه ليس انتقاما، و إنما ظهور لحقائق الطغيان، فالجزاء هو الأعمال، منهم لا من ربك‏ «جَزاءً وِفاقاً».

لكنما جزاء المتقين هو من ربك جزاء العطاء، لو لا فضل الربوبية و وعد العطاء لم يكن لهم ذلك الجزاء، و لكنه الرب المعطي يعطي الجزاء العطاء الحساب‏ «جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً».

رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً:

ربك .. رب السماوات: لو لم يكن ربك لما كان رب السماوات، فإذ قدّر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين ج 5 ص 495 ح 29، أمالى الطوسي باسناده إليه (ع) في حديث طويل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 60

أن يكون ربك، قدر أن يكون رب السماوات أيضا، و كما

قال: «لولاك لما خلقت الأفلاك»

: إن ربك طوى فيك ما طواه من خيرات في الأرض و السماوات و ما بينهما، و فيك مزيد، تستحق به أن تكون غاية لخلق الكون.

ربك رب السماوات، دون أن تكون للسماوات و الأرض أرباب سواه زعم المشركين، و لك رب تزعمه! انما هو رب واحد لا رب سواه و لا معبود إلا إياه.

«رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ»: بالرحمة العامة الشاملة لكائنات العالم، و ربك: بالرحمة الرحيمية الخاصة للصالحين من خلقه، و أنت مجمع الرحمتين: الرحيمية برسالتك المحمدية العظمي، و الرحمانية بما أودع فيك ما في الكائنات كلها.

«الرحمان»: و من رحمته الثواب و كذلك العقاب، فمن الرحمة أن يجد الشر جزائه، و ألّا يتساوى مع الخير في مصيره، كما من العذاب مساواة المصير.

«الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً»: رحمة يصاحبها الجلال و الهيبة في ذلك اليوم المهيب الرهيب، يغمر الجو بالروعة و الجلال و الرهبة و الوقار.

«لا يَمْلِكُونَ»: الكائنون في المحشر كلهم، من الملائكة و الروح و الإنس و الجن، الصالحون منهم و الطالحون.

«لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً»: لا خطابا يخاطبوه به فيما فعل أو يفعل بحق المؤمنين و المجرمين، «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» (21: 23).

و لا خطابا يطلبون به منه شفاعة و غفرانا أو مزيدا أو نقصانا «يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» (20: 109) «لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً» (19: 87).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 61

و لا خطابا منه يخاطبهم به، لا يملكون أي كلام و خطاب من اللّه لهم أو منهم إليه، فله الأمر و له الحكم، لا مدخل لأحد في أمره إلا بإذنه، و لا يشفعون إلا بإذنه.

فليس كما يزعم: أن لأولياء اللّه هناك ما يشاءون، فما يشاءون إلا أن يشاء اللّه كما كانوا يوم الدنيا.

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً:

إنه يوم القيامة و القيام: يوم يقوم الموتى عن أجداثهم، يوم يقوم الأشهاد، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم يقوم الروح و الملائكة: يوم القيامة الكبرى! مقابلة الروح و ردفه بالملائكة هنا توحي أنه من غير الملائكة: إنه عظيمهم و زعيمهم الآمر الناهي فيهم، و كما في آيات عدة تستعرض عروجهم: «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (70: 4) و نزولهم على منزل القدر و الرحمة: قلب محمد أو قلب محمدي: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» (97: 4) و كما

في المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سبوح قدوس رب الملائكة و الروح‏ «1».

إذا فالروح هو خلق أعظم من الملائكة و من جبرئيل كما يروى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام‏ «2» و

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنه جند من جنود

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 309، أخرج مسلم و أبو داود و النسائي و البيهقي في الأسماء و الصفات عن عائشة أن رسول اللّه (ص) كان يقول في ركوعه: ..

(2)

نور الثقلين 5: 638 ح 104، أبو بصير قال: قلت للإمام جعفر الصادق (ع):

جعلت فداك الروح ليس هو جبرئيل؟ قال: الروح أعظم من جبرئيل، إن جبرئيل من الملائكة و إن الروح هو خلق أعظم من الملائكة، أليس اللّه يقول: تنزل الملائكة و الروح؟ و عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 62

اللّه ليسوا بملائكة لهم رؤوس و أيد و أرجل ثم قرأ: يوم يقوم الروح ..» «1».

هذا الروح العظيم و هؤلاء الملائكة الكروبيون يقومون- يوم الطامة الكبرى- صفا، لا يتكلمون في شفاعة و سواها، إذ لا يملكون من اللّه خطابا، إلا من أذن له الرحمان و قال صوابا، فالكلام المأذون مقيد بالصواب، كما الصواب أيضا مقيد بالإذن.

هذا الموقف الرهيب الذي لا يتكلم فيه المقربون إلا بإذن و حساب و صدق و صواب، إنه يغمر جو المحشر بالروعة و الوقار، و عندئذ تنطلق صيحة الإنذار للسادرين في الغفوة و الخمار:

ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى‏ رَبِّهِ مَآباً:

مآبا و مرجعا إلى ربه، حسب ما تصبّغ بصبغته أو تخلف، إما مآبا إلى جهنم المرصاد، أو الجنة العطاء الحساب‏ «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» (6: 132).

«فَمَنْ شاءَ» يوم الدنيا و حقق مآبه «اتخذ»\* بما قدمته يداه‏ «إِلى‏ رَبِّهِ مَآباً» جزاء وفاقا أو عطاء حسابا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الباقر (ع) مثله‏

ح 110 و يلمح إليه ح 108 ص 639 المصدر. و

قد يروى‏ أنه ملك أعظم من جبرئيل و ميكائيل‏ كما عن تفسير القمى عن الصادق (ع) في الآية: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ..» قال: «الروح ملك أعظم من جبرئيل و ميكائيل و كان مع رسول الله و هو مع الأئمة».

و مقتضى العرض على القرآن ترجيح السابقة لملائمتها المقابلة بين الروح و الملائكة في آيات ثلاث، إضافة إلى أن الروح الذي يتنزل مع الملائكة ليلة القدر لا يمكن أن يكون مع المعصومين دائما، فكيف الملائمة بين التنزل عليهم ليالي القدر و المقام معهم طوال الزمن؟

(1). الدر المنثور 6: 309، أخرجه ابن أبي حاتم و أبو الشيخ في العظمة و ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي (ص) قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 63

إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً:

«أنذرناكم» بالنذر: نذر القول و الفكر و الفطر، و نذر الرسل و وحي السماء.

«عَذاباً قَرِيباً»: محتوما، فإن كل آت قريب، قريبا في العقول، و قريبا في واقعه إذ يبتدأ به منذ تفارق الروح جسدها، ثم‏ «وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» (42: 17) «وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هُوَ قُلْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً» (17: 51).

«إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَراهُ قَرِيباً» (70: 7).

«يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ»: ينظر أعماله بصورها إذ تحضر عنده:

«يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (3: 30) .. و بحقايقها التي هي جزاؤها، نظرا في أعماقها و في أعماق ذاته نفسه: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (27: 90).

«وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً»: 1- كنت ترابا كما كنت قبل أن أخلق، 2- أو كما صرت ترابا بعد الموت، فكنت كما كنت دون أن أحشر، 3- أو كما تصبح غير المكلفين من الحيوان- ترابا- بعد حساب قصير يسير، 4- أو كنت ترابا لرب الأرباب خاضعا غير متخلف عن أوامره‏ «1» .. يا ليتني كنتها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

يروى عن النبي (ص) ففي العلل باسناده إلى عباية بن ربعي قال: قلت لعبد اللّه بن عباس لم كنى رسول اللّه (ص) عليا أبا تراب؟ قال: لأنه صاحب الأرض و حجة اللّه على أهلها بعده، و به بقاءها و إليه سكونها، و لقد سمعت رسول اللّه (ص) يقول: إذا كان يوم القيامة و رأى الكافر ما أعد اللّه تبارك و تعالى لشيعة علي من الثواب و الزلفى و الكرامة قال: «يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً» أي من شيعة علي (ع) و ذلك قول اللّه عز و جل: «وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً»

و

عن الصادق (ع) في الآية «يعني علويا يوالي أبا تراب» (البرهان ج، ص 423 ح 1).

أقول: و هذا من الجري و التطبيق و التأويل و ليس تفسيرا، إنما مثال لأكمل ما يجب على المسلم، أن يضيف ولاية علي إلى ولاية الرسول (ص) و كما عن شرف الدين النجفي بعد نقله الرواية الأخيرة: «و جاء في باطن تفسير أهل البيت ما يؤيد هذا التأويل».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 64

«لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ. يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ. ما أَغْنى‏ عَنِّي مالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ. خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ» (69: 26- 32).

فقد يعنى من‏ «كُنْتُ تُراباً» كل هذه المعاني الأربعة، و تأوّه الكافر و تحسره عما قصر أمر واقع لا مرية فيه يوم الطامة الكبرى.

إنه يرى انعدامه و صيرورته إلى عنصر مهمل زهيد، يراه أهون من مواجهة هذا الموقف الرعيب الرهيب يوم النبإ العظيم.

أو يرى لو أنه كان ترابا لرب الأرباب دون عصيان و طغيان، لكان في هذا اليوم العصيب من زمرة الناجحين.

فيا ليت كان لا يحشر و ظل ترابا من البداية، أو لا يحشر بعد ما صار ترابا، أو حشر ترابا لرب الأرباب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 65

سورة النازعات- مكية- و آياتها أربعون‏

[سورة النازعات (79): الآيات 1 الى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً (1) وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً (2) وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً (3) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (4)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (8) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (9)

يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (10) أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (11) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (12) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (13) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

.. آيات تخلق هزة في الحس و توجسا في الشعور، و توقعا لشي‏ء مجهول يروع و يهول من أمر الراجفة و الرادفة و الطامة الكبرى، يقسم بها اللّه بطاقات أعدها لما يريده ليوم الزجرة الواحدة فإذا هم بالساهرة.

وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً:

القوات النازعات، ملائكية و بشرية و نجومية و سواها، دون اختصاص‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 66

بالملائكة كما يظن و يتوهم، و لأنهم ليسوا مؤنثين: «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى‏» (53: 27) «1».

«غرقا» النازعات التي تنزع و تجذب الغرقى من الغرق- 1- الأرواح الغريقة في الأبدان، الراسبة الثابتة فيها كأنها هي هي بعينها، إذ الغرق هو الرسوب في الماء و في البلاء- 2- و الأرواح مع الأجساد الغريقة في أكناف العالم و أعماقه بعد الموت- 3- و الأرواح الكافرة الغريقة في حيونة الحياة- 4- و الأرواح المؤمنة الغريقة في مرضاة اللّه رغم طبائع الأبدان الدافعة إلى خلافها «2».

«غرقا»: القوات الغارقة في الأبدان لانتزاع أرواحها، و الغارقة في العالم لنزع أمانات الأرواح و الأبدان، و الغارقة في الأعماق لتنزع الرواسب إلى الساهرة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). إن الملائكة ليسوا إناثا و لا ذكورا، و لا يؤتى بضمير التأنيث إلا للأنثى، و يؤتى بضمير التذكير لغيرها، ذكرا، أم لا ذكرا و لا أنثى كما اللّه تعالى و ملائكته، و لم يأت القرآن للملائكة بضمير التأنيث بتاتا، إذا فالمناسب هنا كون النازعات هي القوات الشاملة للملائكة و سواهم.

و

في الدر المنثور 6: 310، أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن علي (ع) في قوله:

«وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً» قال: هي الملائكة تنزع أرواح الكفار، و الناشطات نشطا هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار و الجلد حتى تخرجها، و السابحات سبحا هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء و الأرض، فالسابقات سبقا هي الملائكة يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلى اللّه، فالمدبرات أمرا قال هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة.

أقول: هذا من باب الجري و التطبيق على المصاديق البارزة في بعض أفعالها. فهو بعض من بعض من المذكورات في هذه الآيات، و اختصاصها بالملائكة تشبه مقالة الكفار «وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً» كما قاله أبو مسلم بن بحر الأصفهاني.

(2) كل هذا إذا كان غرقا مفعولا به و بمعنى المفعول للنازعات أي غريقا، ثم الأخير على كونه حالا من النازعات بمعنى الفاعل، و الظاهر قصدهما معا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 67

«النَّازِعاتِ غَرْقاً»: التي تنزع الرواسب الغرقى، و هي تغرق لكي تنزع الغرقى:

1- من الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار عن أبدانهم بالشدة، كما يغرق النازع بالقوس فيبلغ بها غاية المد، كما يروى عن علي أمير المؤمنين عليه السّلام.

2- و الموت الذي ينزع النفوس إلى البرزخ، من المؤمنين و من الكفار، كما يروى عن جعفر الصادق عليه السّلام.

3- و الملك الذي يتوفى الأرواح و الأجساد دون أن تضل في الأرض فتضيع: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (32: 10- 11).

4- و القدرة الإلهية النازعة للأعمال و الأقوال، الغريقة في فضاء العالم، فإنها تنتزعها و تحافظ عليها لتشهد يوم يقوم الأشهاد.

5- و الطاقات الإيمانية التي تنزع الأرواح الغريقة في الأبدان و لكي تعكس أمر الحياة الدنيا الجسدانية إلى الحياة العليا الايمانية.

6- و النجوم التي تنزع من أفق لتغيب في آخر: تطلع من مطالعها لتغرب في مغاربها.

7- و القسيّ النازعة بأسهمها، إذ تمد يجذب و ترها إغراقا في المد، قسي المجاهدين في سبيل اللّه التي تنزع غرقا، تنزع بأسهمها فتنتزع أرواح الكفار الغارقة في حيونة الحياة.

قسما بهذه النازعات غرقا، الغارقات في نزعها، الجاذبات الغرقى:

«أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» «لِتُجْزى‏ كُلُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 68

نَفْسٍ بِما تَسْعى‏» فإنها محضرة بسعيها، منزوعة عن رسوبها المزعوم إلى دار الجزاء.

وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً:

في غريب القرآن: ثور ناشط أي خارج من بلد إلى بلد، و النشط هو العقد الذي يسهل حله، و في غيره أنه حل العقد أيضا، فالنشط إذا هو التنقل في البلاد لعقد يسهل حلّه أو حلّ عن العقد.

القوات الملائكية التي تحل عقد الأرواح عن أبدانها، و تحل الأجزاء المعقدة من أبدان بأبدان، تحلها و تجمعها لكل روح على حدة، نشطا و تنقلا في مختلف أكناف الأرض لتجمع و تضم هذه المتفرقات المتحللات .. و التي تعقد الأرواح بالأجساد و تنفخها فيها بإذن ربها، و تعقد أجزاء الأجساد المتفرقة، على نشاط بالغ دون إهمال و لا إبطال.

و الموت الذي كأنه مؤمّر في تجوال، لتحل الأرواح من أبدانها الدنيوية، و لتعقدها بأبدانها البرزخية، ثم الموت عن الحياة البرزخية الذي يحل أيضا و يعقد، يعقد الأرواح بالأجساد المعادة في المعاد.

و النجوم الناشطات في تجولاتها عقدا لأحيان و حلا لأخرى.

و الناشطات الإنسية و الجنية في مختلف مجالات الحياة: حلا و عقدا.

و الناشطات الحيوانية تنشط العظم و اللحم و كما هي‏

«كلاب النار» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 311، أخرج ابن مردوية عن معاذ بن جبل قال: قال رسول اللّه (ص) لا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار، قال اللّه و الناشطات نشطا أ تدري ما هو؟ قلت: يا بني اللّه ما هو؟ قال: كلاب في النار تنشط العظم و اللحم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 69

وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً:

السبح هو المر السريع في الماء و في الهواء، و يجمعه المر السريع أيا كان.

و السابحات هي القوات المسرعات في بحر الكون، في الماء و في الفضاء و في الأرض، سبحا جسدانيا أو روحانيا، فالكون كله مسبح للسابحات: «وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (21: 33).

السابحات الكوكبية من الأرض و الشمس و القمر و زملائها التي تسبح- حسب تصريحات الآيات- في أفلاكها و مداراتها الجوية.

و السابحات البشرية التي تسيح و تسبح غائصة في بحر الحياة بغية الصيود التي تبغيها، و هي مغلوبة بقضاء اللّه كما تسعى‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» دون أن تملك من الكون ما يريد، إلا ما قضاه اللّه نتيجة السعي.

و السابحات الملكية التي تسبح لتحقيق أوامر اللّه، من إيصال وحي و تصوير الأجنة في الأرحام و تقريب الأرزاق.

و سابحات الفكر و العقول التي تسبح في الآفاق و في الأنفس حتى يتبين لها أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شي‏ء شهيد.

فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً. فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً:

في هذه النازعات الناشطات السابحات، سابقات في مأمورياتها تسبق سائر القوات التي قد تمانعها في تحقيق ما أمرت به، تسبقها في معارك الموت و الحياة، في معارك تنازع البقاء إذ تنزع الأرواح أجسادها متمنّعة عن موتها، فتسبقها ملائكة الموت، و تأخذ الأبدان إلى التناثر و التفرق، و الأرواح إلى الاختفاء، فيسبقها ملك الموت الذي و كلّ بها فيتوفاها و يحافظ عليها و ينزعها إلى محفظات الأرواح و الأجساد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 70

فالسابقات من هذه النازعات و أمثالها، تسبقها فيما تريد في ميادين السباق، و كما في الناشطات و السابحات سابقات، كلها تنحو منحى تدبير الكون إلهيا و تدميره إلهيا.

هذه السابقات هي المدبّرات أمرا: إذ تنزع ما أمرت بنزعها من أرواح، ثم تدبّر أمر اللّه فيها، برجع الأبدان إلى حيث كانت- و كما يناسب الحياة الآخرة- ثم رجع الأرواح إليها و جمعها يوم الجمع.

إنها نشيطة في سبحها و سابحة في نشطها، سابقة سائر القوات في تحقيق أمر اللّه في جو الحياة و معداتها، و الموت و معداته .. و لأنها مدبرات لأمر اللّه‏ «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ».

هذه المدبرات أمرا، تدبّر بما سبقت سائر القوات، فهي مدبّرة و تلك مدبّرة، بما سبقت في نضالها، في نزعها و نشطها و سبحها.

لا يمكن و لا يكون إلا ما أراد اللّه في دنيا الحياة و عقباها، إلا ما فيه الاختيار، دون أن يملك الاختيار أيضا جبرا في إرادة اللّه.

إن ملائكة اللّه ينزعون- نازلين- عن أمر اللّه: غرقا في أعماق الكون لتحقيق أمره، و ينشطون محللين و عاقدين كذلك، و يسبحون في بحر الوجود ابتغاء تلقي الأوامر الإلهية تحقيقا و تطبيقا، و يرجعون إلى مقام العز نشيطين منبسطين سابقين مناوئيهم في ميادين السباق، مدبرين أمر اللّه بما أراده اللّه‏

«يدبرون ذكر الرحمن و أمره» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 311، أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب‏ ان ابن الكوا سأله عن المدبرات أمرا قال: الملائكة يدبرون ذكر الرحمان و أمره.

أقول: ذكر الرحمان إشارة إلى الأمر التشريعي و أمره هو التكويني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 71

هل يدبر الأمر إلا اللّه؟

من الضروري عقليا و قرآنيا أن اللّه هو المدبر و لا مدبر سواه في التكوين و في التشريع و في الجزاء يوم الجزاء: «.. ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» (10: 3) «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ» (13: 2) «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» (32: 5).

و هذه الآيات توحي أصالة التدبير الإلهي، دون أن تنافي وساطة التدبير الملائكي أو البشري أو الكوني في الأسباب الطبيعية التي سخرها اللّه تعالى.

فالملائكة المدبّرون لا يدبّرون إلا أمر اللّه بإذنه و بأمره: «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (21: 27) «يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» (16: 50).

حركات الأرض:

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ:

آخر المطاف في هذه النزعات و النشاطات و السبحات، و في سبقها و تدبيرها أمر اللّه، آخره هو يوم الرجفة و الردفة.

«تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ»: توحي أن الأرض راجفة قبل قيامتها، و راجفة عندها: مرة رجفة الإماتة، و أخرى رجفة الإحياء و هي الرادفة، فهذه رجفات ثلاث و تسبقها رجفة مجنونة قبل أن تجعل ذلولا «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا» (67: 15) .. رجفات شاملة مجنونة مرة، و معمرة أخرى تحافظ على الحياة و الأحياء، و مدمرة ثالثة، و راجعة الأموات من أجداثهم أخيرا «فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ» رجفات أربع تتلاحق! تتسمى الأرض راجفة لحركاتها المتداخلة المعتدلة المعدّلة، حيث الرجفة تعبير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 72

بليغ عن الحركات المتداخلة، فما هي حركات أرضنا التي كنا نحسبها جامدة؟

إن أرضنا من السابحات في بحر الجو في فلكها كزملائها السابحات:

«وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ‏ .. وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها .. وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ‏ ..

وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (36: 33- 40) سبّاحة في أعماق الفضاء، دائرة حول نفسها و على جادتها الفضائية كأنها تعقل كيف تسبح: «يسبحون»\*.

تسيّرها على مداراتها القوة الجاذبية العمومية، فهي تسير و تطير دون انزلاق عن أفلاكها و لا انفلات و تناثر عنها، بعمد لا ترونها: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» (13: 2) فثمّ- في السماوات المرفوعة بأنجمها- ثم عمد و لكن لا ترونها، و علها- أو منها- القوة الجاذبية العمومية.

و تكفينا آية الكفات إيحاء صريحا لطيران الأرض و حركاتها: «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً. أَحْياءً وَ أَمْواتاً» (77: 25- 27) حيث الكفات هو سرعة الطيران على تقبّض فيه‏ «1»، فأرضنا هذه مسرعة في طيرانها متقبّضة- على ظهرها و في حضنها- أطفالها: أحياء و أمواتا، لو لا انضباط حركاتها و القوة الجاذبية المتحكّمة عليها لانفلتت أطفالها و تساقطت إلى أعماق الأجواء النازلة .. و لكنها كفات و يا لها من بركات في حركات، و على حد تعبير علي أمير المؤمنين- عليه أفضل السلام و الصلاة- حين يعطف إلى عطف الأرض على أولادها:

«و عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الشم من صياخيدها فسكنت من الميدان برسو الجبال في قطع أديمها» «.. فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها، و أجمدها بعد رطوبة أكنافها، فجعلها لخلقه مهادا و بسطها لهم فراشا ..».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفصيل البحث عن الكفات إلى سورة المرسلات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 73

«و عدل حركاتها»: إن لأرضنا هذه حركات متداخلة استحقت بها اسم الراجفة، أنهى علماء معرفة الأرض حركاتها إلى أربعة عشر، و علها أزيد.

.. هذه هي الرجفة المعمّرة، ثم ترجف رجفتها المدمّرة، رجفة الإماتة، ثم الرجفة الرادفة هي رجفة الإحياء «فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ».

أجل إن الراجفة هي التي ترجف، لا الجامدة، و ما أحلى و أجلى هذا الاسم فيما كانت البشرية تنكره من حركات الأرض، فللقرآن متشابهات يفسرها الزمن.

إن للأرض- عند قيامتها و من عليها- نفختان و صيحتان و رجفتان، كلّ رجفة إثر نفخة و صيحة ما لها من فواق، و نتاجها زجرة إلى الساهرة أرض العرض و الحساب.

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ. أَبْصارُها خاشِعَةٌ:

وجفة لقلوب مقلوبة تتبع رجفة الأرض: حين الإماتة و حين الإحياء، و الوجفة هي سرعة السير و الحركة، فهي حراك في اضطراب لقلوب، تلي رجفتي الأرض.

جوّ راجف و قلب واجف مبهور مذعور، وجفة من الرجفة التي تنقلهم إلى الساهرة: أرض الحساب و العقاب، و هناك ترى:

«أَبْصارُها خاشِعَةٌ»: أبصار القلوب و هي البصائر، تتبعها أبصار العيون:

«وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ» (14: 42).

هذه هي القلوب المقلوبة المذعورة تتقلب يومذاك بأبصارها: «يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ» (34: 37)

«رب هب لي كمال الانقطاع إليك و أنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك» (علي عليه السّلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 74

و هناك تخشع الأصوات‏ «وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً» (20: 108) و تخشع أبصار القلوب .. و تخشع من الإنسان ما لم تكن تخشع يوم الدنيا، فيوم القيامة تخشع خشوع الذل عن تقصير «وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» (42: 45) «خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ» (70: 44) «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ. عامِلَةٌ ناصِبَةٌ. تَصْلى‏ ناراً حامِيَةً» (88: 2- 4).

قلوب و وجوه و أبصار هناك خاشعة من الذل ينظرون من طرف خفي:

«يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ. أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً. قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ» .. فيما هي شديدة الاضطراب، بادية الذل، يجتمع عليها الخوف و الانكسار، و الوجفة و الانهيار، و هذا هو الذي يتناوله القسم بالنازعات إلى السابقات سبقا و المدبرات أمرا.

يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ:

متحدثين عن وهلتهم و انبهارهم إذ يقومون من أجداثهم خشعا كأنهم جراد منتشر، يقولونها في خبال و ذهول. متسائلين سؤال الوحشة و الدهشة، عن رجوعهم إلى الحياة بعد نكرانها في حيونة الحياة الدنيا. و يقولون- هذه- علها جواب الأقسام الماضية.

فما هي الحافرة التي يخافونها؟ أ هي القبر؟ و لا ترجع الأحياء يوم الإحياء إلى القبر! و ليس في هكذا رجوع خوف، بل هو ما يتمناه الكافر إذ يقول:

«يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً».

أم هي القيامة، و ليس ورودها ردا إليها إذ ليست إلا مرة واحدة؟

أم‏

هي الحياة كما كانت: «الخلق الجديد» كما عن باقر العلوم (ع) «1»

:\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 479 عن القمي عن الباقر (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 75

رجوعا إلى حياة كانت في الدنيا، إلا دنياها و تكاليفها، و إنما الجزاء على ما قدمت يداه و أن اللّه ليس بظلام للعبيد، و إذا كانت الحافرة هي الخلق الجديد فما هي المناسبة في هكذا تعبير؟.

إن الحافرة من الحفر و هو التراب الذي يخرج من حفرة، و حافر الفرس ما يحفر التراب من رجله، و الحافرة الأرض المحفورة، فالرد إلى الحافرة على ما في المفردات: مثل يمثل به لمن يرد من حيث جاء، يقال: رجع في حافرته: أي:

في طريقه التي جاء منها، فهم إذ يردون إلى حيث جاءوا، إلى مثل الحياة الأولى، قالوا عنه بالرد إلى الحافرة، ثم‏ «تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ»، فإذ يموت الإنسان يبقى موضع وجوده خاليا كالحافرة من الأرض التي يراد ترابها، فهم إذا حائرون مذعورون أن كيف رجعوا إلى الحياة بعد ما كانوا عظاما نخرة، و تلك إذا كرة خاسرة.

كرّة خاسرة لمن خسروا أنفسهم في الحياة الدنيا، و كرة رابحة للذين ربحوها فيها، فليس الخسار إلا من أنفس الكفار و لا يظلمون فتيلا.

أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً:

«أن صارت الأجساد شحبة بعد بضنها، و العظام نخرة بعد قوتها» «1»

عظاما منخوبة بالية يصوت فيها الهواء لرخوتها، بعد أن كانت قوية لا ينفذها الماء و لا الهواء .. عظاما بالية هبت بها الرياح فبثتها أيدي سبأ، فكيف تجتمع أجزاؤها بعد تفرقها؟ و كيف ترجع إلى صلابتها بعد نحرتها؟ و كيف تحيى بعد موتها؟ «وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» (36: 78- 79).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من خطب أمير المؤمنين علي (ع) عن نهج البلاغة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 76

قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ:

قالوها بعد دهشتهم و وحشتهم في وهلتهم و ذهولهم و هم يفيقون و يبصرون فيعلمونها كرة إلى الحياة، و لكنها الحياة الأخرى، فيشعرون بالخسار و الوبال فتبتدر منهم كلمتهم الحاسرة: «تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ» كرة لم يكونوا ليحسبوا لها حساب، و لم يقدموا لها إلا كل تباب، فهم في حسرتهم يعمهون و في خسرتهم يتيهون.

هذا وجه في هذه المقالات، و وجه آخر عله مقصود مع الأول أو أنه هو المقصود فقط: أنها مقالتهم يوم الدنيا في نكران الحياة بعد الموت، و يتأيد بقولهم: «أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً» فإنها إلى الإنكار أقرب منها إلى الاندهاش و التصديق على عجب، و بقول اللّه عنهم: «قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ» حكاية عن مقال مضى، و أخيرا إن الحي بعد الموت و إن كان صحيحا قوله: إنها خاسرة، لكنه لا يصح قوله‏ «أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً»، و لا قوله:

«أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ» أقولا هكذا بعد إذ قضي الأمر؟ اللهم إلا دهشة و تعجبا .. لذلك نقول عل الوجهين هنا مقصودان، و أحرى بالثاني أن يعنى.

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ. فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ:

إنما هي: الكرة، زجرة واحدة، صيحة خارقة تزجر عن الأجداث فإذا هم إلى ربهم ينسلون، و إنها لا تكلّف مديدا من الزمن، خلاف ما كانت الولادة في الدنيا، إنما زجرة واحدة و صيحة ما لها من فواق.

إن الولادة يوم الدنيا كانت تتطلب زجرات و رحلات و تنقلات، و هنا الولادة الثانية و الخلق الجديد ليست إلا بزجرة واحدة، واحدة فقط.

هذه هي زجرة الإحياء و قبلها زجرة الإماتة في النفخة الأولى، زجرتان تختلفان في مفعوليهما، و كما الزلزال و الصيحة و نفخ الصور تختلف المرتان فيها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 77

«فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ»: فما هي الساهرة؟ أكيد أنها ليست هي القبور، فقد انتقلوا بالزجرة عن أجداثهم إلى ربهم ينسلون، فهل هي وجه الأرض بعد زلزالها: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ» (14: 48) فإذا تبدلت أرضيتها استحقت تبدّل اسمها، و هي هي أرض العرض و الحساب، و كما يروى عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و سلّم‏ «1»؟ أم هي أرض في السماء ينتقلون بأجسادهم من أجداثهم إليها؟ أم إن الساهرة هي ساهرة الأرواح بعد الانتقام من الأبدان كما يروى عن الإمام الصادق عليه السّلام‏ «2»؟ أم ماذا؟.

أقول: إننا نصدّق ساهرة الأرواح يوم الحساب: خلودها في الجنة أو النار، لكنها مع الأجساد المناسبة لها، و لكنها إذا هي الساهرة، لا بالساهرة، عكس الآية «فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ».

و فيما إذا كانت أرض المحشر هي الساهرة، فباعتبار كثرة الوطء بها كأنها تسهر بمن يمشي عليها دون انقطاع، و أرض الدنيا ليست هكذا، فهذه ساهرة الأرض، و هي الموطئ و الموطن لساهرة الأرواح بالأبدان، سهرة بالحياة الأخروية، و هذه السهرة تزيد أرض الحساب سهرة حقّت بها أن تسمى بالساهرة .. ساهرة بعد أن كانت أرضا فانية دائرة .. ثم لا حجة لنا أن الساهرة هي أرض في السماء، في حين التصديق أن الجنة فوق السماء السابعة و النار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 499 ح 19 مجمع البيان، روى أبو هريرة عن النبي (ص): «تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ» فيبسطها و يمدها مد الأديم العكاظمي‏ «لا تَرى‏ فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً» ثم يزجر اللّه الخلق زجرة فإذا هم في هذه المبدلة في مثل مواضعهم من الأولى، ما كان في بطنها كان في بطنها و ما كان في ظهرها كان على ظهرها.

و

في البرهان 4: 425 ح 3 عن القمي عن الباقر (ع): و الساهرة الأرض كانوا في القبور فلما سمعوا الزجرة خرجوا من قبورهم فاستووا على الأرض.

(2) و

فيه عن الصادق (ع): «إذا انتقم منهم و ماتت الأبدان بقيت الأرواح ساهرة لا تنام و لا تموت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 78

تحتها، حيث الانتقال إلى المآل ليس إلا بعد قضاء الحساب في موقف الحساب، ثم لا دليل على وحدتهما.

[سورة النازعات (79): الآيات 15 الى 26]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى‏ (15) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (16) اذْهَبْ إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏ (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى‏ أَنْ تَزَكَّى (18) وَ أَهْدِيَكَ إِلى‏ رَبِّكَ فَتَخْشى‏ (19)

فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى‏ (20) فَكَذَّبَ وَ عَصى‏ (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى‏ (22) فَحَشَرَ فَنادى‏ (23) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏ (24)

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى‏ (25) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى‏ (26)

.. هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى‏:

هل أتاك بوحي السماء؟ فإنه المعتمد المؤكّد، استفهام بدافع ترغيب النبي الأقدس لكي يستقيم في كفاح الطاغين، و ترهيب المشركين الناكرين لوجود اللّه و البعث و المعاد، فسواء في ذلك الاستفهام أن أتاه حديث موسى مسبقا- كما أتاه في المزمل إجمالا- أم لم يأته، كما لم يأته حتى الآن هكذا، و إن لم تكن صورة منه مفصلة.

و قصة موسى هي أكثر القصص ذكرا في الذكر الحكيم، وردت منها حلقات منوّعة و في أساليب شتى كما تناسب مواضيعها، و هنا ترد مختصرة سريعة المشاهد منذ ندائه بالواد المقدس إلى أخذ فرعون نكاله في الآخرة و الأولى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 79

إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً‏:

من أولى النداءات الإلهية لموساه إذ ناداه: «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً. وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى‏. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏. فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى‏. وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى‏. قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ بِها عَلى‏ غَنَمِي وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى‏. قالَ أَلْقِها يا مُوسى‏. فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى‏. قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى‏. وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى‏ جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى‏. لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى‏. اذْهَبْ إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏» (20: 12- 24).

و هذه أولى النداءات الرسالية: «اذْهَبْ إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏» بعد برهنة الرسالة، و أنه كيف يواجه و يكافح فرعون الطاغية.

«ناداهُ رَبُّهُ»: الذي رباه تربية رسالية و اصطنعه لنفسه فصنع على عينه، و لكي يستأهل لتلقي وحي الرسالة و تطبيقها.

«بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً»: الواد الذي قدسه اللّه بالوحي الموسوي، و علّه «طوى»\*، و قد تكون (طوى) إيحاء لما طواه موسى من الفلاة بينه و بين الواد المقدس حتى آنس من جانب الطور نارا، فطوى أهله و تحلّل عنهم أيضا قاصدا وادي الوحي، ثم طواه اللّه بالوحي بعد انتشاره و تفرق باله، و بعد ما طوى نفسه عن غير الوحي و عما سوى اللّه، إذ خلع نعليه، نعل الأهلين، و نعل نفسه و إنيته، فحلّ بالوادي مجردا عما سوى اللّه فاحتل منزلة الوحي.

أو أن «طوى»\* هي الأرض التي حلّ بها موسى، سميت طوى لما عرفنا من طوى موسى و انطوائه إلى مطوى الوحي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 80

اذْهَبْ إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏:

أولى النداءات الرسالية الموسوية و بدايتها المحورية التي تدور عليها رحاها طوال الدعوة، و هكذا يجب أن يكون موقف رجالات الوحي و جاه فراعنة التاريخ، كفاحا متواصلا بالحكمة و الموعظة الحسنة، و بالطاقات الجبارة الفولاذية، استئصالا للفرعنات و النمردات، و لكي تعيش الشعوب على رغد الأمن و الصلاح.

و هكذا يجب للمصلحين أن يكرسوا حياتهم في معارضة الطاغين و الدفاع عن المظلومين دون سكوت و خمول و استسلام و انظلام.

فعلى المصلحين الحراك الدائم و التجوال المتواصل في دفع الطغيان أيا كان و من أي كان، دون أن يعتبروا أنفسهم «بيتا يؤتى و لا يأتي» فإن الشر يبتغي- دوما- مجالات لنموه و تحقيقه، فلا بد لدعاة الخير أن يضيّقوا كافة المجالات على دعاة العيث و الشر «وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ» (2: 251).

«اذهب»\*: أنت إليه، دون أن ترجو ذهابه إليك، فإنه لا يأتيك إلا قاهرا ساهرا ساحرا، ف «اذهب»\* إليه ناصحا و مرهبا، و لكي تزيله أو تخفف عن بأسه و بؤسه ..

«إِنَّهُ طَغى‏»: طغى على عباد اللّه إذ استعمرهم و استخفهم و استحمرهم، و طغى على اللّه إذ قال: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» فأصبح حياته حياة الطغيان و ما أسوأها حياة و ما أخطرها نكالا على الشعوب! إن الطغيان أمر لا ينبغي أن يترك، و لا ينبغي أن يهمل فيبقى، إنه يعيث الفساد في الأرض، و يهلك الحرث و النسل و اللّه لا يحب الفساد، و ما جور الجائرين و ظلم الظالمين إلا نتيجة إهمال القادة الروحيين، و فسح المجال للطائشين الظالمين، و خمول المظلومين و إحنائهم ظهورهم لهؤلاء الشياطين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 81

فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى‏ أَنْ تَزَكَّى. وَ أَهْدِيَكَ إِلى‏ رَبِّكَ فَتَخْشى‏:

يعلّم اللّه رسوله كيف يواجه و يخاطب الطاغية بأحسن الأساليب و أقواها جاذبية، جامعة برهان العاطفة و العقل و الإحساس، لعله يتذكر أو يخشى.

إنه أمر بالذهاب إلى فرعون، فاستدعى من ربه أن يشرح له صدره و ييسّر له أمره و يحلّ عقدة من لسانه، و يجعل له وزيرا من أهله هارون أخاه، فأوتي سؤله فضمّ إليه أخاه عمادا و مساندا و ناصرا: «وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي. اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي. اذْهَبا إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏. فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏. قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى‏. قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى‏. فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلامُ عَلى‏ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى‏. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى‏ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» (20: 41- 48).

لا نجد ألين من هذا الكلام عند ألعن حمقاء الطغيان: «هَلْ لَكَ إِلى‏ أَنْ تَزَكَّى» يبتدئ بالسؤال عن ميله إلى التزكي، دون أن يحتّم عليه أنه قذر فيجب عليه التزكي‏ «هَلْ لَكَ»؟! هل لك ميل و رغبة إلى ما يرغب إليه كل إنسان؟ «أَنْ تَزَكَّى» و لا يخلو من رغبته المتزكون أيضا فكيف بمن سواهم من الأدناس! إن الإنسان كائنا من كان، يشعر دوما بالنقصان، لذلك يحاول فكريا و عمليا أن يزيل عن نفسه و صمة النقصان إلى الكمال و الأكمل، و ما من أحد يرى نفسه بالغا إلى ذروة الكمال رغم «أن حب الشي‏ء يعمي و يصم».

و هذه الحالة هي لزام الإنسان ككائن من الكائنات المخلوقة، مهما كانت ادعاءاته الكاذبة أنه بالغ ذروة الكمال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 82

إذا فكل إنسان- بل و كلّ حيوان- له اندفاع إلى الكمال و الأكمل، و كل مرحلة تالية تزكّ بالنسبة للسابقة و إن كانت هي أيضا تزكيا لسابقتها.

إذا فهذا سؤال لا جواب له إلا الإيجاب: «بلى إن لي رغبة إلى أن أتزكى».

ثم شعور النقص هذا، و أنه متدرج إلى الكمال، يدفعه أن يعتنق عقيدة الإله، الرب الذي لا ينقص شيئا و لا ينقصه شي‏ء، و هو الذي يدرج إلى مدارج الكمال دون أن يتدرج هو نفسه.

ففرعون هذا، الذي ظن أنه الرب الأعلى، عليه أن يشعر بهذا البرهان أنه ليس ربا، و إنما عبد في نقصان، عليه محاولة التزكي، ثم عليه أن يهتدي إلى ربه فيخشاه فلا يطغى، فما ألينه كلاما و أنعمه! و ما أبلغه برهانا و أقومه! «وَ أَهْدِيَكَ إِلى‏ رَبِّكَ فَتَخْشى‏» «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» العلماء باللّه، و ما عدم الخشية من اللّه إلا لعدم العلم و المعرفة به و عدم الهداية إليه.

إن الهداية إلى الرب: «المالك المدبر» هي السبيل المنحصرة في التزكي، فإنه يملك الإنسان فيدبر أمره كأحسن ما يكون دون حاجة منه إليه، و المتزكي عند الرب المحتاج- الذي لا يملكه فلا يملك تزكيته- إنه ما يفسد أكثر مما يصلح.

إن مرض الطغيان المبتلى به فراعنة التأريخ لا علاج له إلا الشعور بالنقصان ثم محاولة التزكي بالهداية إلى الرب تبارك و تعالى، فما أحلى دلالة تضم بيان المرض و علاجه كأتقن و أحسن ما يتصور.

فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى‏. فَكَذَّبَ وَ عَصى‏:

أراه الآية الكبرى، الحسية، بعد ما أراه الآية الكبرى العقلية، ليجمع له الآيتين و يلزمه بالحجتين، فما هي الآية الكبرى هنا؟!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 83

إنها ليست هي الآية الكبرى بين الآيات، و إنما هي منها و كما أراها موسى من قبل: «لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى‏» (20: 23) و إنها هي العصا التي انقلبت ثعبانا مبينا بعد ما انقلبت حية تسعى، هذه العصا التي نتجت عنها آيات تترى:

فقد فلق بها البحر «فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» (26: 63) و ضرب بها الحجر: «فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً» (2: 60) ثم الآية الكبرى:

«فَأَلْقى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ» (7: 107) و 26: 32) آية أراه ربه إياها إذ كان بالواد المقدس طوى، ثم أراها فرعون فكذب و عصى: «فَأَلْقى‏ مُوسى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ» (26: 45).

«فَكَذَّبَ وَ عَصى‏» لم يزده هذا البلاغ إلا فرارا، فلم يفلح هذا الأسلوب الحبيب في إلانة قلبه المقلوب الخاوي من معرفة اللّه، فكذب موسى و استمر في عصيانه للّه و لموساه، و تجاوز عن طغيانه الأول إلى أشرّ و أطغى‏ «فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» تلك الكلمة الوقحة المتطاولة المليئة بالغرور و الجهالة.

«وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى‏. قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى‏» (20: 56- 57) أري آيات اللّه كلها بما فيها من آيات ربه الكبرى، فكذب و عصى.

ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى‏. فَحَشَرَ فَنادى‏. فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏:

ثم- بعد ما كذب و عصى- أدبر عن موسى و عن آية اللّه الكبرى، أدبر يسعى في كيده فحشر حشره و جمع جمعه فنادى نداءه كأحمق حمقاء التاريخ:

«فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى‏» (20: 60): إنه تولى و سعى و جمع كيده و جمعه و عله مرتين: مرة لدعواه: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» و أخرى لمكافحة السحرة بسحرهم: آيات اللّه الكبرى، أو عله مرة واحدة جمع فيها بين الكيدين:

استخف قومه أنه ربهم الأعلى، فأطاعوه فيما أراد.

«فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏»: إنه تدرج في ربوبيته المزعومة المدعاة حتى إذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 84

وصل إلى ذروتها، و التدرج بنفسه برهان لا مردّ له على كذبه في دعوى الربوبية.

يقولها الطاغية مخدوعا بغفلة جماهيره الحمقاء و غفوتهم و إذعانهم له و انقيادهم، أجل و إنها الجماهير الذلول تحني له ظهورها كالحمير فيركبها، و تمدّ له أعناقها فيجرها، و تحني له رؤوسها فيستعلي عليها، و تتنازل له عن حقوقها الإنسانية فيطغى:

«فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ» .. و ما كان له أن يتقول بهذه القولة الكافرة لو وجد أمة واعية أبيّة كريمة مؤمنة عارفة أنه عبد كسائر العباد، إن يسلبه الذباب شيئا لا يستنقذه منه ضعف الطالب و المطلوب.

فرعون في تضاد الآلهة:

إنه قد يعبد آلهة كما يعبدها غيره‏ «وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى‏ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ» (7: 128) آلهته اعتبارا أنه كان يعبدها، أم آلهته لأن قومه كانوا يعبدونها، أم بالاعتبارين.

و قد يدّعي هو الألوهية لأن له ملك مصر بما فيها الآلهة «وَ نادى‏ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ» (43: 51- 52).

و يهدد موسى إن اتخذ إلها غيره، توحيدا لنفسه في الألوهية: «قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» (26: 29) يعني إلها لا أرتضيه و هو الإله الحق، فإنه كان يعترف بوجود أرباب و أنه أعلاهم: «فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» هناك أرباب متفرقون و أنا أعلاهم و ربهم أيضا إذ أملكهم بمالي ملك مصر.

يبقى في طغيانه و غيّه هكذا: «حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (10: 90- 91).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 85

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى‏. إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى‏:

نكال الآخرة تتقدم هنا على الأولى، و لأنها أشد و أبقى، و أنها تشمل حياتي البرزخ و الأخرى، فأما نكال الأولى بما أنه يمثل نكال الآخرة تمثيلا ضئيلا، فهو غرقه بمن معه في اليمّ على حين غرّة و غفلة و طغيان: «وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى‏. فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ. وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى‏» (20: 77- 79).

فلما غشيه اليم بما طغى‏ «قالَ آمَنْتُ‏ .. آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ‏ ...؟ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ» (10: 92).

هذا هو نكاله في الأولى، بقي عذابا على روحه القذرة ما دام بدنه لمن خلفه آية، ثم نراه حين الغرق يدخل جحيم البرزخ، ثم يوم القيامة أشد العذاب:

«فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ» (40: 45- 46)، و على حد تعبير

باقر العلوم عليه السّلام: «أملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 500 عن الخصال عن زرارة عن أبي جعفر (ع) «قال: أملى اللّه لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه اللّه نكال الآخرة و الأولى، فكان بين أن قال اللّه تعالى لموسى و هارون: «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما» و بين أن عرفه الإجابة أربعين سنة ثم قال: قال جبرئيل (ع) نازلت ربي في فرعون منازلة شديدة فقلت: يا رب تدعه و قد قال أنا ربكم الأعلى؟

فقال: إنما يقول هذا عبد مثلك»

أقول و الكلمتان قوله‏ «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» و قوله‏ «آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 86

فإذا كان نكال الأولى عنيفا قاسيا دائبا على روحه ببدنه، فكيف بنكال الآخرة و هو أشد و أنكى و أبقى؟ «إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى‏».

عبرة ما أعظمها بما يرى بدنه القذر في الأهرام، يراه السائحون الوافدون إلى مصر، عبرة لمن يخشى اللّه و يخشى نكاله الآجل و العاجل، و كلّ سائر على نهجه، و كل إنسان يعمل على شاكلته.

\*\*\* [سورة النازعات (79): الآيات 27 الى 33]

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (27) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (28) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها (29) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (30) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها (31)

وَ الْجِبالَ أَرْساها (32) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (33)

.. جولة أخرى لها جرسها الصارخ في أعماق الأسماع، تندّد بالمشركين الطغاة المعتدين المغترين بقوتهم، ردا لهم إلى شي‏ء من مظاهر القوة الإلهية الكبرى الملموسة المحسوسة، التي لا تحسب قوّتهم بجنبها شيئا يذكر.

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً:

قوة و صلابة و رموزا و غموضا، بدءا و عودا.

أَمِ السَّماءُ بَناها:

بناها كسماء لا كسبع سماوات، لأن دحو الأرض و إخراج مائها و مرعاها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 87

كل ذلك كان قبل خلق السماء سبعا كما تفصلها الآيات في «فصلت»\*: «قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ. وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (41: 9- 12).

فخلق السماوات السبع متأخر عن خلق الأرض و تعميرها بمرحلة، و خلق أنجمها بما فيها الشمس متأخر عنه بمرحلتين.

بناها من مادتها المنبثقة عن المادة الأولية «ماء»\* باضطرامها، و هي الغاز «الدخان» «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ» .. بناها و سواها من ذلك الغاز، أن‏ «رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها».

فهنا بنا آن: بناء السماء، و بناء السبع الشداد، و الآيات هذه بصدد بيان البناء الأول، و لقد نبأتنا عن البناء الثاني- من قبل- سورة النبأ.

رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها:

و السمك هو الطاق المسموك بما يسمكه و يمسكه من السقوط، و هو هنا عمد لا ترونها، كما السماوات أيضا بأنجمها: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» (13: 2).

فسمك السماء قبل السبع، و سمك السماوات السبع، إنهما كليهما «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها»

فثمّ عمد و لكن لا ترونها و على حد تفسير باقر العلوم عليه السّلام.

«فسواها»\* سماء يرفع سمكها، فلو لا سمكها لم تكن سماء، بل كانت تتساقط إلى أعماق الأجواء كما سوف تتناثر الكواكب عند قيامتها و استرجاع سمكها و جاذبيتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 88

«فسواها»\* سماء عادلة الأطراف، متساوية الجوانب و الأكناف، دون اختلاف بين أجزائها لأنها كانت كلها الغازات الأولية على حراراتها و ظلماتها و إشراقاتها، فتلك ليلها و هذه ضحاها، إذ لم تخلق بعد شمسها المضحية و شموسها المشرقة و كراتها المستنيرة أحيانا و المظلمة أخرى.

وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها:

أصل الغطش من الأغطش و هو الذي في عينه شبه عمش، و التغاطش هو التعامي عن الشي‏ء، فإغطاش ليل السماء هو جعله مظلما، و علّه يرمز إلى أن الدخان السماوي كان نيرا لما خلق من تفجر المادة الأولية «الماء»\* فلما تصاعد دخانا أظلم: أن أحاطت الظلمة جوانبها المجاورة للفضاء، و النور و الضياء باطن في بطنها، ثم اللّه أخرج ضحاها إذ نشر الدخان في الفضاء و قلبّه ظهر بطن فأصبح ليلا و ضحى، نورا و ظلاما «أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها».

كل ذلك تؤيده السنة المهتدية بالكتاب و على حد تفسير باقر العلوم عليه السّلام‏ «1» كما ترى تفاصيلها في البحث الفصل عن خلق السماوات و الأرض عند مواضعها الأنسب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 501 في روضته الكافي بالإسناد عن محمد بن عطية عن أبي جعفر (ع) أنه قال لرجل من أهل الشام: و كان الخالق قبل المخلوق و لو كان أول ما خلق من خلقه الشي‏ء من الشي‏ء إذا لم يكن له انقطاع أبدا و لم يزل اللّه إذا و معه شي‏ء و ليس هو يتقدمه، و لكنه كان إذ لا شي‏ء غيره و خلق الشي‏ء الذي جميع الأشياء منه فجعل نسب كل شي‏ء إلى الماء و لم يجعل للماء نسبا يضاف إليه. و خلق الريح من الماء ثم سلط الريح على الماء فشققت الريح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الزبد أرضا بيضاء نقية ليس فيها صدع و لا ثقب و لا صعود و لا هبوط و لا شجرة ثم طواها فوضعها فوق الماء، ثم خلق اللّه النار من الماء فشققت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقية ليس فيها صدع و لا ثقب و ذلك قوله: و السماء بناها رفع سمكها فسواها و أغطش ليلها و أخرج ضحاها، قال: و لا شمس و لا قمر و لا نجوم و لا سحاب ثم طواها فوضعها فوق الأرض ثم نسب الخلقتين فرفع السماء قبل دحو الأرض فذلك قوله عز ذكره: و الأرض بعد ذلك دحاها، يقول بسطها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 89

دحو الأرض و طحوها:

وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها:

إن دحو الأرض و طحوها: «وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها» (91: 6) إنه كان أيا كان- بعد خلق السماء، لا بعد السماوات السبع، لما درسناه في الآيات من «فصلت»\* أن تسبيح السماء كان بعد خلق الأرض ببركاتها و جبالها، فما هو دحوها و ما هو تأثيره عليها؟

إن الدحو و الطّحو هما: الرمي بقهر و الإزالة و الرحي و الدحرجة «1»، و الأخيرة هي أشمل معانيها و أكفاها دلالة على أن دحوها هو الحركة المنظمة، أو بدايتها المكمّلة بإرساء الجبال في أعماقها و على حد تعبير

الأمير عليه السّلام‏ «و عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشتاخيب الشم من صياخيدها فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها» و «سكنت الأرض مدحوة في لجة تياره، و ردت من نخوة بأوه و اعتلائه و شموخ أنفه و سمو غلوائه و كعمته على كظة جريئة فهمد بعد نزقانه و لبد بعد زيقانه و ثباته» «2» .. و سكون الدحو هنا هو السكون عن الاضطراب بانتظام حراكها في دحوها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تاج العروس «دحى السيل بالبطحاء رمى، و المطر الداحي الذي يدحو الحصى عن وجه الأرض بنزعه، و الدحو الحجارة المراماة بها، و يقال للفرس: مر يدحو إذا رمى بيده رميا.

و في غريب القرآن للراغب الأصبهاني «دحى المطر الحصى من وجه الأرض، أي جرفها ثم ذكر بقية المعاني المسبقة» و الحركة المنظمة و الدحرجة ظاهرة هنا و هناك.

(2) و بداية الخطبة

«كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة و لجج بحار زاخرة يلتطم أواذي أمواجها و تصطفق متقاذفات أثباجها و ترغو زبدا كالفحول عند هياجها فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها و سكن هيج ارتمائه إذ وطأته بكلكلها و ذل مستحذيا إذ تمعكت عليه بكواهلها، فأصبح بعد اصطحاب أمواجه ساجيا مقهورا و في حكمة الذل منقادا أسيرا» ..

أقول: و الظاهر هنا و من غيره أن الأرض رويت لأول مرة بالغرق و لم يكن سبيل لترويتها إلا هذا، ثم ابتلعت الماء ثم أخرج الماء منها بدحوها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 90

و قد ذكرنا مسبقا- سنادا إلى آيات- أن الأرض كانت متحركة منذ خلقت، ثم جعلها اللّه تعالى ذلولا بعد شماسها، و هنا تعرفنا على بدايتها في انتظام حركاتها أنها بعد خلق السماء قبل تسبيعها.

و في روايات مستفيضة أن الدحو كان من تحت الكعبة- زادها اللّه شرفا-.

فعن إمام المتقين علي عليه السّلام: «إن شاميا سأله عن مكة المكرمة لم سميت مكة؟ قال: لأن الله مك الأرض من تحتها، أي دحاها».

و المك هو الدحرجة كما في القاموس، و

عنه عليه السّلام أيضا: «فلما خلق الله الأرض دحاها من تحت الكعبة ثم بسطها على الماء».

و هذه كرامة لمكة المكرمة أنها نقطة الابتداء لانتظام حركات الأرض الناتجة عنه مختلف ألوان الحياة، و كما أن حج البيت قيام في الحياة و انتظام للحركات الإنسانية في مختلف مجالاتهما «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» أي نقطة تلاق و انطلاق لكافة المتطلبات الحيوية الجماعية الإسلامية السامية.

هذا، و إن تفسير الدحرجة لدحو الأرض ما تصرّح به اللغات الصراح و الأحاديث المفسرة لحق المعني منه، و لا تنافيه اللغة و الأحاديث التي تفسره بالبسط، لأن انبساط الأرض في نفسها و للحياة هو لزام حراكها المنظمة المعقولة الدورانية، إذ كانت لينة تتأثر بالحراك على أثر قانون الفرار عن المركز، و لم يفسره ب «البسط» إلا لغة التفسير، و كما نراه في الكثير من كتب التفسير، و كذلك الأحاديث التي تعني تفسير النتيجة الهامة من دحوها و حراكها، و من الشاهد عليه أننا لا نرى البسط في معنى الدحو إلا بالنسبة للأرض لا سواها! و إن أهم ما أنتجه دحو الأرض و طحوها هو بسطها و إخراج مائها و مرعاها و إرساء جبالها في أعماقها، بعد أن كان ماؤها مخبوا فيها، و جبالها لينة دون رسوّ في قطع أديمها.

إن بداية ظهور الجبال هي من حصيلة الأمواج التي ظهرت على سطح الأرض‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 91

نتيجة الحركات و الاصطدامات بالجو البارد، و قانون الفرار عن المركز، و كما

عن علي عليه السّلام‏ حين يسئل: «مم خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج»

: أي أمواج السطح المذاب، الضارب إلى الانجماد في المواضع المستعدة.

فلقد مدّت الأرض و سطحت على أثر حركاتها الأولية، ثم على أثر دحوها، فألقي فيها رواسي شهقت من فوقها و أرسيت في بطنها: «وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ» (15: 19) «هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً» (13: 3).

و الرواسي الملقاة تعم المخلوقة الممتدة على سطح الأرض إلى باطنها، و التي انبثقت من تفجرات البراكين، و التي سقطت من نجوم السماء.

و من أهم ما نذكره هنا كأبلغ نموذج روائي بعد الآيات ما

عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام‏ بشأن الجبال: «و جبل جلاميدها و نشوز متونها و أطوادها فأرساها في مراسيها فألزمها قرارتها فمضت رؤوسها في الهواء و رست أصولها في الماء، فأنهد جبالها عن سهولها و أساخ قواعدها في متون أقطارها و مواضع أنصابها فأشهق قلالها و أطال أنشازها و جعلها للأرض عمادا و أرزها فيها أوتادا فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها».

فقد سطحت الأرض و مدت بما دحيت‏ «وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ» فهيئت لرسوّ الجبال و إرسائها في قطع أديمها، ثم‏ «أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها».

أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها. وَ الْجِبالَ أَرْساها:

عرفنا مسبّقا أن مياه الأرض كلها من السماء، و هنا نعرف أنها نزلت عليها قبل دحوها و قبل تسبيع السماء و خلق أنجمها، فما كان الماء ليخرج من كبد الأرض- و هي مجنونة الحراك و الحرارة، يتصاعد منها بخارا إلى السماء- لو كانت على حرارتها، أو كان بخارا مكنونا في جوفها لكي لا يفر عنها لو ظهر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 92

على سطحها، حتى إذا دحاها ربّها، فأرسى جبالها المتكونة من الأمواج على سطحها الذائب، أرساها في قطع أديمها بعد ما كانت ليّنة غير راسية، ثم إرساء الجبال- و لزامه برودة الأرض شيئا مّا- هيّأ الأرض لإخراج مائها و من ثم مرعاها: «مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ».

و إرساء الجبال يوحي بتكوّنها قبل إرسائها، و كما الآيات المسبّقة تدل أنها نصبت ثم أرسيت‏ «وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ» ..

فلقد خلقت الأرض محترقة مذابة لا ماء فيها و لا كلاء و لا جبال، ثم اللّه أنزل عليها من السماء ماء بعد ما بردت شيئا مّا، و لكنها ابتلعت ماءها خوف ارتجاعه إلى السماء نتيجة الحرارة الزائدة، و أخذت الجبال تظهر عليها من الأمواج، ثم دحاها فأرسى جبالها و أخرج منها ماءها و مرعاها «1».

مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ‏:

كل ذلك ليمتّعكم و أنعامكم، يمتّع أنعامكم لكي تتنعموا منها، و يمتعكم إلى أجل مسمى لتذكروا نعمة ربكم و تشكروه عليها.

\*\*\* [سورة النازعات (79): الآيات 34 الى 42]

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى‏ (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى‏ (35) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى‏ (36) فَأَمَّا مَنْ طَغى‏ (37) وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (38)

فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى‏ (39) وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى‏ (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى‏ (41) يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (42)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور بالإسناد عن قيس بن عبادة قال: إن اللّه لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحدا، فأصبحت صبحا و فيها رواسي فلم يدروا من أين خلقت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 93

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى‏:

هي الداهية الغامرة المتفاقمة التي تنسي الدواهي كلها، و لا تطاق لمن وافاها «1»، و هكذا سوف تكون الساعة «وَ السَّاعَةُ أَدْهى‏ وَ أَمَرُّ. و ما أمر الساعة إلا كلمح البصر» (16: 77).

إن هناك طامات، داهيات غامرات، و القيامة الكبرى كبراها، فطامة الموت‏ «2»، و طامة قيام القائم‏ «3»، و طامة الرجفة و الصيحة، إنها كلها طامات، إلا أنها غير تامات، إلا الأخيرة الآخرة، فالصيحة و الرجفة الثانية هي الطامة الكبرى التي تغمر الكون أجمع فلا تبقي و لا تذر، لوّاحة للبشر، «يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ».

إن الحياة الدنيا و متعها كلّها متاع ينتهي إلى أجل، فإذا جاءت الطامة الكبرى غطّت كل شي‏ء، على المتاع و على إنسان المتاع، و على الأرض و السماء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). طمه: ملأه، و الماء غمر و الشي‏ء كثر و الأمر عظم و تفاقم، و العدد الكثير و الداهية، و القيامة تطم، أي تغمر كل شي‏ء، و الطمطام وسط البحر، و الطامة الداهية التي لا تستطاع و أصله من طم الفرس إذا استفرغ جهده في الجري، و طم الماء إذ أملأ النهر كله.

(2)

نور الثقلين 5: 506، القمي عن النبي (ص) «كفى بالموت طامة يا جبرائيل! فقال جبرائيل: إن ما بعد الموت أطم و أطم من الموت».

(3)

المصدر في كتاب كمال الدين و تمام النعمة عن أمير المؤمنين (ع) بعد ما يذكر الدجال و من يقتله و أين يقتل «ألا أن بعد ذلك الطامة الكبرى، قلنا: و ما ذلك يا أمير المؤمنين! قال:

خروج دابة الأرض من عند الصفا معها خاتم سليمان .. و ذلك بعد طلوع الشمس من مغربها ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 94

المتاع، إنها تطمّ و تعمّ الكون بمن فيه و بما فيه، و لكي تبدأ الحياة جديدة داخرة، ثم لا يبرز هناك إلا ما سعاه الإنسان و قدّمه لأخراه.

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى‏:

يتذكر ما نسيه أو تناساه، و ما لم يكن ليتذكره يوم الدنيا لغفلته:

«يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» (58: 6): يتذكره ما هو؟ «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ» (82: 5) (عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ» (81: 14) إذ كان حين الدنيا يعلم ظاهره دون باطنه و مصيره، كما و يتذكر بما يسمعه و يراه من أقواله و أعماله، من حلّه وتر حاله، التي كان ربه يستنسخها في ذاته و في أرضه .. «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (3: 30) «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ» (78: 40).

صحيح أن الإنسان يتذكر ما سعاه يوم البرزخ أيضا، و لكنه برزخ و ليس تاما، و كما أن طامته ليست تامة، فيوم الطامة الكبرى سوف يكون تذكر الأعمال تاما كما الجزاء «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى‏» (89: 23) و أنى! ولات حين مناص، و لا تنفعه الذكرى.

وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى‏:

بروزا للرؤية للناظرين، من أهله و سواهم، و بروزا لصلي الغاوين: «وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ» (26: 91). تسعّر الجحيم بمن يدخلها من أصول الضلالة، بعد أن كانت خامدة: «وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ» (81: 12) «ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ» (83: 16).

و الجحيم هي نار شديدة التأجج بوقودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين.

و تبريز الجحيم هو إظهارها بعد خفائها، و لقد كانت الجحيم مع أهلها يوم الدنيا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 95

غافلين عنها، جحيم الذوات و الأفكار و الأعمال، و هي تبرز يوم يقوم الاشهاد:

«لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22) و ما الجحيم يوم الطامة الكبرى إلا بروزا لحقائق الأعمال، مهما كانت أرضها حاضرة.

فَأَمَّا مَنْ طَغى‏. وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى‏:

تقسيم ثنائي للناس أجمعين من أهل الجنة و الجحيم بمن فيهما من درجات، و يذكر لكلّ مرجعه بما قدمت يداه.

«فَأَمَّا مَنْ طَغى‏»: على ربه و على المربوبين، تجاوز عن طوره و عن الهدى، فمدى الطغيان هذا أوسع مما لذوي الجبروت و السلطان، شاملا لكل مجاوز حده، الذي يحيا حياة الطغيان، التي هي ممات للحق و ذوي الحق، و ليس الطغيان إلا نتيجة عدم المعرفة باللّه، و عدم الشعور بالمسئولية، و أن يحسب الإنسان نفسه كأنه الكل: مدار رحى الكون.

«وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا»: إن الطغيان يدفعه إلى إيثار الحياة الدنيا على الحياة العليا، و كما الإيثار يدفعه إلى الطغيان: «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى‏. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى‏» (96: 6).

ليست الحياة الدنيا هي الحياة في دار التكليف، فإن الدنيا مدرسة الآخرة، و إنما أن يعيشها الإنسان حيوانا لا يعرف القيم الإنسانية، فإذا أهملت الحياة العليا، المناسبة للآخرة و الأولى، اختلت كل الموازين و القيم في تقدير الإنسان، و اختلت كل ضوابط الإدراك الحق و السلوك العدل في حياته، و أصبح حيوانا وحشيا على صورة الإنسان.

«فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى‏»: لا في أخراه فحسب، بل و في أولاه أيضا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 96

فبما أن المأوى هو الملجأ و المسكن، فالذي يعيش الحياة الشريرة، فحياته جحيم لنفسه و من سواه، مهما كان غافلا عن جحيم الحياة، و سوف تظهر حقيقة هذا الجحيم يوم الطامة الكبرى.

وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى‏. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى‏:

«وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ»: خاف مقامه، دون أن يخافه: «وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ» (14: 14) فليس خوف المقام هنا إلا لخوف الوعيد الناتج عن مقام الرب .. فما هو المقام؟

مقام الرب هنا هو قيامه بالعدل و الجزاء الوفاق للحسنات و السيئات‏ «1»، هذا هو مقامه و كما شهد: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (3: 18).

و من قيامه بالقسط هو الجزاء العدل على الحسنات و السيئات و إن كانت الحسنات فيها فضلا بعد العدل.

فاللّه تعالى لا يحيف حتى يخاف من جوره: «أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» (24: 50) و إنما يخاف من الجائر الفاجر «تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» (8: 26).

إذا فلا يخاف الرب، و إنما يخاف مقام الرب العاصي لعصيانه، و العادل فلا يعصي: «إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (10: 15).

فخوف اللّه ليس لألوهيته، و إنما لعدله بربوبيته: «إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فإن المقام بين كونه اسم مصدر و اسم زمان و اسم مكان و الأخيران لا يناسبان مقام الربوبية إذ لا زمان له و لا مكان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 97

(5: 28)، فالذين يخافونه فلا يعصونه: «الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» (41: 30). «وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ» (55: 46).

و الجنتان هما الجسدانية و الروحانية و هي أكبر: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 72) «.. لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» (3: 15).

«وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى‏»: إن خوف مقام الرب لا يثمر إلا بنهي النفس عن الهوى‏ «.. إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي» (12: 53) فالنفس البهيمية هي التي تدفع الإنسان إلى خطوات الشيطان و إلى الطغيان على الرحمان و إلى أن يؤثر الإنسان الحياة الدنيا، فليعش الإنسان حياته بجناحي السلب و الإيجاب: أن يسلب عنه هوى النفس الطائشة الطاغية تنزيها و تزكية، و أن يفرض على نفسه خوف مقام ربه تحلية له و تجلية، فيطير بجناحيه إلى معراج المعرفة و العبودية الكاملة: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

«فمن علم أن الله يراه و يسمع ما يقول و يعلم ما يعمله من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى» «1»

«فلا تدع النفس و هواها فإن هواها في رداها و ترك النفس و ما تهوى داؤها، و كف النفس عما تهوى دواؤها» «2»

«و احذروا أهواءكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 507 ح 44 عن الصادق (ع) في الآية.

(2)

في ح 45 عن أبي الحسن الرضا (ع): اتق المرتقى السهل إذا كان منحدره و عرا، قال: و كان أبو عبد الله (ع) يقول: لا تدع النفس ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 98

كما تحذرون أعداءكم فليس شي‏ء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم و حصائد ألسنتهم» «1».

هذه هي الطريقة المثلى في تزكية النفس إذ ألهمت طغواها و تقواها: أن أن يتقي فجورها و يقوّيها في تقواها: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» (91: 9- 10).

و الخوف من اللّه هو الحاجز الصلب أمام نزعات النفس و هوساتها، كما أن نهيها عن الهوى يساعد على خوف أكثر و أتم فهما متناصران في هذا الميدان.

و إنما الإنسان إنسان بهذا النهي و هذا الخوف دون أن يترك نفسه لهواها فتأخذ حريتها فتعيث في الأرض فسادا.

«فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى‏»: في الأولى بحياة سعيدة آمنة أمينة، و في الأخرى بحياة خالدة هي أسعد و أبقى، فهناك جنة في الحياتين و هناك جحيم فيهما.

إن الأول يرتفع و يتهيأ لحياة رفيعة طليقة، و الآخر يرتكس و ينتكس في درك الجحيم إذ هدر إنسانيته فانهدرت، فيرجع أخيرا و قودا للنار كما بدأ الحياة وقودا لمشاكل الحياة الجهنمية الغادرة.

فالمؤمن جنة أينما حل، و الكافر نار حيثما دار، و إلى دار القرار.

و الدواء الأول و الأخير لأدواء الإنسان ككل، ما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «إن الله يقول: و عزتي و جلالي و كبريائي و نوري و علوي و ارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواه على هواي إلا شتت عليه أمره و لبست عليه دنياه و شغلت قلبه بها و لم أوته منها إلا ما قدرت له، و عزتي و جلالي و عظمتي و نوري و علوي و ارتفاع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في ح 49 باسناده إلى أبي محمد الدابشي عن الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 99

مكاني لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا و استحفظته ملائكتي و كفلت السماوات و الأرضين رزقه و كنت له من وراء تجارة كل تاجر و أتته الدنيا و هي راغمة» «1».

\*\*\* [سورة النازعات (79): الآيات 43 الى 46]

فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (43) إِلى‏ رَبِّكَ مُنْتَهاها (44) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (46)

. مرسى الساعة و منتهاها:

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ:

يسألونك المتعنتون عن مرسى الساعة، كما و عن الساعة نفسها: «يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ» (33: 63) فما هي الساعة؟ و ما هو مرساها؟ و ما هو منتهاها؟

أصل الساعة من ساع الشي‏ء إذا ضاع و زال، و ساعت الإبل: سرحت و تخلت بلا راع، فالساعة. هنا و في سواها من آيات إلا القليل، هي وقت ضياع الكائنات و زوالها بأسرها و كأنها سرحت بلا راع يرعاها، و يقال لجزء من الزمان ساعة، لتصرّمه و ضياعه، و كما الزمان كذلك بأسره.

و بما أن زوال الكائنات تستقبله القيامة الكبرى، قيامة الأموات، اعتبرت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 507 ح 48 باسناده إلى أبي جعفر (ع) قال: قال رسول اللّه (ص):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 100

هي أيضا ساعة، فالرجفتان: رجفة الإماتة و رجفة الإحياء، كلتا هما الساعة، و الأولى أولاها و الثانية منتهاها، و «يَوْمَ يَرَوْنَها»: الساعة، توحي إلى الثانية لقوله‏ «لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» فهي إذا ساعة الإحياء. كما أن هنا آيات توحي إلى الأولى و إليهما أيضا.

فالساعة هنا هي زوال الزمان و ضياعه بكائناته، و الانتقال إلى زمان لا زوال له و لا انتهاء ..

فما هو مرساها؟ إنه من الإرساء و هو مقابل الجريان: «قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها» (11: 41) «وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ» (34: 13) «وَ الْجِبالَ أَرْساها» ثبّتها و وتّدها في كبد الأرض.

فمرسى الساعة ثباتها أو زمن الثبات‏ «1» ثباتها واقعيا، أم ثبات الاختلال و الزوال المعنيّ من الساعة، أم وقفة الزمان لهذا الكون، تبدلا إلى زمان دون وقفة و انتهاء.

أَيَّانَ مُرْساها:

أي زمان يكون إثباتها أم ثباتها؟ ..

كل ما نعرف عن الساعة- بما عرفنا اللّه- أنها قريب: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ» (54: 1) «وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» (42: 17) و لا معنى لقربها، إلا أن الكائنات تجاوزت عن النصف من عمرها حين نزول القرآن- إذ يعتبر انشقاق القمر من أشراط الساعة و آيات قربها- و إلا أن كل آت قريب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لكونها مصدرا ميميا أو اسم زمان لا اسم المكان إذ لا معنى لمكان رسو الساعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 101

هذا- ثم لا نعرف- و لا يعرف و حتى النبيين- عن زمن الساعة شيئا، إلا عن علاماتها حينها بما أوحى اللّه: «وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» (16: 77).

فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها:

أنت بعيد عن ذكرى الساعة كلّ البعد، و هي خفيّة لحدّ يكاد اللّه يخفيها حتى عن نفسه المقدسة: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏» (20: 15).

رغم أنه من المستحيل خفاء أمر عن اللّه، و لذلك قال: «أَكادُ أُخْفِيها» لا «أخفيها» إخبارا بشدة خفائها عمن سواه إلى حيث يكاد يخفيها حتى عن نفسه المقدسة و ليس بمخفيها عنها، و إنها من اختصاصات الربوبية علمها و إقامتها:

«إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ» (41: 47) «وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» (43: 85).

و في أحاديث عدة أن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم كان يسأل اللّه عن الساعة، إذ كثرت أسئلة المشركين حول الساعة فنزلت الآية «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها» «1».

إِلى‏ رَبِّكَ مُنْتَهاها:

منتهاها علما و إقامة، و منتهى زمن الدنيا و البرزخ المتداخل معها، و هو الساعة أيضا إذ تضمحل الكائنات، لا منتهى زمن الآخرة إذ لا منتهى لها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 314، أخرجه ابن مردوية عن علي بن أبي طالب عنه (ص) و ابن أبي حاتم و ابن مردوية عن ابن عباس و البزاز و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن عائشة، و أخرجه عبد بن حميد و النسائي و ابن جرير الطبراني و ابن مردوية عن طارق بن شهاب عنه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 102

و إن الساعة ليست هي اليوم الآخر كله، إنما ساعة منه لها بداية: «الرجفة الأولى» و لها نهاية: «الرجفة الثانية» رجفة الإماتة و الإحياء، فإلى ربك منتهاها كما منه مبتدأها.

من هنا و هناك نستوحي أن السؤال عن الساعة كان عن مرساها و منتهاها، عن زمن رجفة الإماتة و الإحياء، و الثانية هي الأصل و هي المعاد، فمنتهى الساعة التي هي الإحياء إنما هو إلى اللّه، لا يشاركه فيه أحد، و لا يعلمه غيره أحد، كما و رجفة الإماتة منه لا سواه، و إنهاء الكائنات إلى ساعة الضياع أيضا منه لا سواه.

إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها:

ليس لك إلا الإنذار بشأنها، دون أن تعلم أو تقدر على شي‏ء منها، و لا يؤثر إنذارك إلا فيمن يخشاها: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ» (2: 46) و أما الناكرون لها و الشاكون فيها فليس لك إلا إلقاء الحجة عليهم، و إن كانوا: «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (2: 6) سواء عليهم إذ لا يتذكرون، لا سواء لك- «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ» (13: 40).

«إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ» (36: 11).

فهذه من حدودك الرسالية أن تنذر بها من ينفعه الإنذار، و هو الذي يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها و يعمل لها و يتوقعها في موعدها الموكول إلى صاحبها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 103

زمن لبث البرزخ:

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها:

يخيّل إلى الناكرين الشاكين في اليوم الآخر و ساعته، يخيل إليهم يوم يرون الساعة: صيحة الإحياء- فإنها من ساعة ذلك اليوم- أنهم لم يلبثوا في الحياة قبلها- برزخ و سواه- لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها، يحسبونهم لبثوا هذا القليل القليل من الزمن، لضخامة وقعة الساعة و قرعة القارعة، بحيث تتضاءل إلى جواره ما لبثوه قبلها بأشيائها و أشياعها و أحداثها، فتبدو في حسّهم كأنها «عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» و هو ليس كما يزعمون.

أو أنه ساعة من نهار: «وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ» (10: 45) بل و يقسمون عليه أيضا: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ» (30: 55).

أو يوما أو بعض يوم: «قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ. قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (23: 115- 117).

أو عشر ليال أو سنين: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً. يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً. نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً» (20: 103- 105).

إن المجرمين- على مختلف دركاتهم- يحسبونهم لبثوا في الأرض- أرض التكليف و أرض البرزخ-: لبثوا ساعة من نهار، أو يوما أو بعض يوم، أو عشية أو ضحاها أو عشر ليال أو سنين، و كلهم على خطأ فيما حسبوه من تحديد زمن مكثهم، إلا في أنه كان قليلا بجنب الحياة الآخرة الخالدة، و قد يصدقهم اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 104

تعالى في أصل القلة: «قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» و يكذبهم في هذه التي زعموها من الزمن، إذ يجيب عن زعمهم‏ «ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ» بقوله:

«وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى‏ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (30: 56).

و القلة لمكث الدنيا هنا قلتان: 1- القلة بجنب الآخرة من كافة الجهات غير التكليفية، و قد صدقها اللّه تعالى تنديدا بمن كان يؤصّلها و يكثرها بنكران الآخرة، أو أنها كمثل الدنيا: «قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (23: 117)، فإن الحياة الدنيا مهما طالت و ازدهرت فهي قليلة بجنب الحياة الخالدة.

2- و قلة يزعمها المتخلفون أننا ما أمهلنا في حياة التكليف إلا قليلا لا يكفي لأداء الواجب، فهذا ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 52).

و هم الذين يلتمسون من اللّه الرجوع إلى الدنيا لكي يعملوا صالحا غير الذي كانوا يعملون، كأن الوقت ما كان كافيا لما هم يأملون: «رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37).

أجل و إن حياة التكليف كثيرة- مهما قلت- لمن أراد أن يتذكر، إذ إنها- كلها- ذكرى لمن ألقى السمع و هو شهيد .. مهما كانت هي و حياة البرزخ قليلة بجنب الحياة الآخرة الخالدة.

و لبث البرزخ يحسب قليلا و هو صادق بما عاشوها من حياة أكثرها النوم، و بما قاسوها إلى الآخرة، و هو كاذب على ما حددوه من ساعة أو يوم أو بعض يوم أو عشر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 105

فأهل البرزخ أغلب أوقاتهم في غفوة و نوم إلى حيث سمي البرزخ مرقدا:

«يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ..» (36: 52) و إنما يقظتهم في الغدو و العشي‏ «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» (40: 46) «وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» (19: 62).

.. فمن قائل من المجرمين أنه لبث ساعة من نهار، و من قائل: عشية أو ضحاها، و كما يناسب يقظتهم، و علّ المسلمين أيضا يجيبون عن قدر مكثهم أنه أحد الجديدين: ليل أو نهار، فإنهم- و معهم غيرهم:

«لا يتعارفون لليل صباحا و لا لنهار مساء، أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا» «1»

فإن ذهبوا في نهار لم يعرفوا له ليلا، أو في ليل لم يعرفوا له نهارا .. لذلك يترددون في قدر مكثهم بين عشية أو ضحاها، أو ساعة من نهار أو عشر، لكن الصادقين في إيمانهم منهم، الذين أوتوا العلم و الإيمان، إنهم لا يحددون موقف البرزخ بهذا و ذاك، و إنما مقالتهم‏ «لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى‏ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (30: 56) .. و لئن قالوا إنهم لبثوا قليلا فقد صدق اللّه مقالتهم: «قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ..» (17: 52)، فإنه- حقا- كان قليلا بجنب الحياة الآخرة، و لأنهم كانوا في البرزخ رقادا نوّما إلا قليلا، فهم- إذا- ينظرون إلى أصل القلة لا حدّها، كما و يصدّق المجرمون أيضا في أصلها و

قد يروى عن الرسول الأقدس في تفسير الآية قوله: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار، قال لأهل الجنة: كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، قال: لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي و رضواني و جنتي، اسكنوا فيها خالدين مخلدين، ثم يقول: يا أهل النار كم لبثتم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن علي أمير المؤمنين في نقل السيد الشريف الرضي في نهج البلاغة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 106

في الأرض عدد سنين، قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، فيقول: بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ناري و سخطي، امكثوا فيها خالدين» «1».

«.. لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» إن هذه الحياة الدنيا التي يتنافس لأجلها المتنافسون و يتطاحنون، و التي يرتكبون لأجلها ما يرتكبون، إنها تنطوي في نفوس أصحابها فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها.

هذه القصيرة العاجلة، و الزهيدة الهزيلة التافهة، أ فمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة .. إنها الحماقة الكبرى، لا يرتكبها ذو حجى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 17، أخرجه ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي عنه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 107

سورة عبس- مكية- و آياتها اثنان و أربعون آية

[سورة عبس (80): الآيات 1 الى 16]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

عَبَسَ وَ تَوَلَّى (1) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى‏ (2) وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى‏ (4)

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى‏ (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَ ما عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (7) وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى‏ (8) وَ هُوَ يَخْشى‏ (9)

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14)

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرامٍ بَرَرَةٍ (16)

عَبَسَ وَ تَوَلَّى. أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى‏:

من هذا العبوس القمطرير؟

العبوس قطوب الوجه من ضيق الصدر لمن كان له صدر، و القطوب المعمّق لسواه: «يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً» (76: 10) و بنفس الإعتبار قيل العبس لما يبس على هلب الذنب من البعر و البول، و عبس الوسخ على وجهه، و قد وصف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 108

اللّه ألدّ أعدائه المعارض لكتابه، بالعبوس: «ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ. فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ. سَأُصْلِيهِ سَقَرَ» (74: 21- 26).

فمن هذا العبوس، ضيّق الصدر، القذر الخلق كالبعر اليابس و البول على هلب الذنب؟ و الذي يعده اللّه صلي سقر لأنه عبس و بسر ثم أدبر و استكبر؟ ..

من هذا العبوس القمطرير الذي يعبس في وجه المؤمن الأعمى الضرير الفقير؟ في حين ينصدى لعميان القلوب من الكفار الأقذار الأشرار؟

من هذا الأحمق الذي يتلهى عمن يسعى إلى الحق و هو يخشى اللّه، و يتصدى لمن استغنى عن اللّه، و هو يسعى ليعيث الفساد في الأرض و يهلك الحرث و النسل.

من هذا الغبي البعيد البعيد الذي يردعه اللّه تعالى بهذا العنف عن فعلته السخيفة و يسوقه إلى التذكرة التي هي في صحف مكرّمة. مرفوعة مطهّرة.

بأيدي سفرة. كرام بررة؟

هل يجرأ مسلم أن يتقول القولة الجاهلة الفاتكة: أنه الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ و هو على خلق عظيم! و العظيم عند اللّه إله العظمة، فما للخلق العظيم أصبح كالأم اللئيم؟ فما لمن شرح اللّه صدره يضيق صدره لما شرحه اللّه به:

يضيق لمن يستعلمه شيئا من القرآن، أ إكراما لألعن الخلق المحاربين للقرآن؟

إن نقلة الأخبار هنا أنه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حاشاه، لم يراعوا كيان الرسالة المحمدية حق رعايتها و لا شيئا منها، أم جهلوا أو تجاهلوا مدى التنديد الشديد في هذه الآيات بشأن الذي عبس و تولى أن جاءه الأعمى، و هم لم ينقلوها إلا عن الهوى، و لم يسندوا فيها إلى ركن وثيق من كتاب أو سنة، إلا نقلا عن هذا و ذاك، عن الذين لا تسمن أقوالهم و لا تغني من جوع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 109

في حين أن الرواية عن أهل بيت الرسالة المحمدية تكذّب هذه الوقيعة بشأن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، تصديقا لطبع الرسالة القدسية، و للقرآن هنا و في سواها من آيات.

فعن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام قوله: «كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال: جاء و مرحبا مرحبا، و الله لا يعاتبني الله فيك أبدا و كان يصنع به من اللطف حتى كان يكف عن النبي مما يفعل» «1».

فالرسول الأقدس يقسم باللّه أنه ليس هو المعاتب بشأن الأعمى، ثم‏

حفيده الصادق عليه السّلام يقول: «إنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي صلى الله عليه و آله و سلم فجاءه ابن أم مكتوم، فلما جاءه تقذر منه و عبس في وجهه و جمع نفسه و أعرض بوجهه عنه» «2».

و

في نقل آخر عنه عليه السّلام: «نزلت في عثمان و ابن أم مكتوم، و كان ابن أم مكتوم مؤذنا لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و كان أعمى فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و عنده أصحابه و عثمان عنده فقدمه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على عثمان، فعبس عثمان في وجهه و تولى عنه» «3».

إذا فلا يعبأ بما يتقوّل أو ينقل أنه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «4»، إذ يتنافى و الكيان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البرهان 4: 428- 2، الطبرسي عنه (ع).

(2) البرهان 4: 428- 1، الطبرسي عنه (ع).

(3) البرهان 4: 427- 1، علي بن ابراهيم عنه (ع).

(4) كما في الدر المنثور 6: 314- 315، و ليس شي‏ء منها عن المعصوم، و حاصلها بإلقاء المكررات‏

«أن النبي (ص) كان عنده رجل أو رجال من عظماء المشركين يدعوهم إلى الإسلام فجاء ابن ام مكتوم- و هو مؤذن الرسول- يسترشده و يستقرئه شيئا من القرآن قائلا: يا رسول اللّه علمني مما علمك اللّه، فأعرض عنه و عبس في وجهه و تولى وكره كلامه و أقبل على الآخرين، فلما قضى رسول اللّه (ص) نجواه و أخذ ينقلب إلى أهله أمسك اللّه ببعض بصره ثم خفق برأسه ثم أنزل اللّه‏ «عَبَسَ وَ تَوَلَّى» عن عائشة و أنس و أبي مالك و الحكم و ابن زيد و ابن عباس».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 110

الرسالي، و القرآن الحاكي عن كيان الرسول و خلقه العظيم، و الآيات في هذه السورة نفسها.

فالآيتان الأوليان تنقلان العبوس و التولي عن غائب: «عبس- تولى- جاءه»، و القرآن موجّه بالذات إلى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو المخاطب في آياته الكريمة لا سواه، إلا بدليل قاطع، و فيما إذا خوطب غيره، فإنما هو بواسطته، إذ إنّ وحي القرآن ليس إلا إليه: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ» (26: 194- 195).

لا يقول: عبست و توليت أن جاءك الأعمى، و إنما «عَبَسَ وَ تَوَلَّى» فمن هذا الذي يشكو إليه اللّه تعالى عنه، هل هو غير من يوحي إليه بالقرآن؟ و إذ كان هو النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهل يشكو إليه عن نفسه المقدسة شكاة منه إليه؟

ثم نرى هنا التفاتا من الغيبة إلى الحضور، فالمخاطب ثانيا هو الغائب أولا، و ليست الغيبة في البداية إلا لأنّ العابس هو البعيد البعيد، لا يستحق الخطاب لبعده بعبوسه عن ساحة القرب، يشكوه ربه إلى نبيه، ثم يخاطبه بعناد و عتاب قاس: «وَ ما يُدْرِيكَ ..»؟ إضافة إلى نسبته إلى الكفر أو الكفران: «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ» و لم يسبق هنا من الكفران إلا العبوس و التولي.

و من وجهة النظرة العامة إلى القرآن فيما يعرّف الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو يكلّفه، نرى من المستحيل أن يكون العابس هو الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: فقد سبقت آية العبس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و الاعتذار مما يظنونه من عبس النبي (ص) أنه (ص) كان مستخليا بصنديد من صناديد قريش و هو يدعوه إلى اللّه و هو يرجو أن يسلم إذ أقبل ابن أم مكتوم، فلما رآه النبي (ص) كره مجيئه و قال في نفسه: يقول هذا القرشي إنما أتباعه العميان و السفلة و العبيد، فعبس فنزل الوحي، كما عن مجاهد.

هذا الاعتذار يتنافى و القرآن القائل: «وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى» إذ لو رجا إيمانه لكان مكلفا بالتصدي له، و يتنافى و خلق الرسول من إكرامه للمؤمنين، فليضرب بهذه الأخبار عرض الجدار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 111

آية الخلق العظيم: «وَ إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ» (68: 4) و لزمته آية خفض الجناح للمؤمنين: «وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ» (15: 88- 89) أ فتحسب الرسول يترك أمر اللّه و هو «أَوَّلُ الْعابِدِينَ» (43: 81) و يترك الخلق العظيم، تكذيبا لما قرره رب العالمين: «وَ إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ»، كل ذلك تصديا و إكراما للطغاة اللئام المستغنين، فيعبس في وجه مؤذّنه الفقير الضرير لأنه استقرأه آيا من الذكر الحكيم، فيتولى عنه توليا عما أمر أن يعيشه طوال حياته المنيرة؟ «وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ»! إن العبوس لم يكن من شيم النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع الأعداء المباينين فضلا عن المؤمنين المسترشدين، و قد أمر أن يصبر نفسه معهم: «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا، وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (18: 28).

و ألا يطردهم: «وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ» (6: 52).

و أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين‏ «وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (26: 215).

و ألا يكون فظا غليظ القلب: «وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (3: 159).

و أن يعرض عن المشركين: «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» (15: 94- 95).

هذه و ما إليها من أوامر و تعليمات ربانية، و إنها من أوليات الشروط الرسالية من بدايتها، أ فهل يتركها الرسول فيعامل مؤذنه الضرير الفقير بهذه الفظاظة و الغلظة فيطرده فيكون من الظالمين التاركين لأوليات شروط الدعوة؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 112

أمن العقل و العدل أن يهتك الرسول العظيم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يفتك به هكذا ذودا عن فرع من فروع الشجرة الملعونة في القرآن: و كما نراه كثيرا «1»؟ و ليس اختلاق هذه الروايات إلا من التعصب الأعمى و اللامبالاة بالدين و عدم الاكتراث بشأن الرسول الكريم، الذي كان يجابه من يهينه بكل لين و احترام، فكيف يواجه هذا المؤمن بكل شقوة و اخترام؟ فهل لأنه سأله عن شي‏ء من القرآن، أو لأنه لا يملك من زخارف الحياة شيئا؟! أو لمجرد أنه جاءه كما الآية تشير:

«أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى‏» لا «أن كلمه» فاستنكر مجيئه و قال في نفسه: يقول هذا القرشي إنما أتباعه العميان و السفلة و العبيد فعبس فنزل الوحي كما عن مجاهد! و هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يمارس طوال حياته و رسالته عشرة الفقراء المؤمنين كما أمره اللّه، و بطبعه الرسالي! ..

«عَبَسَ وَ تَوَلَّى»: عثمان الأموي الارستقراطي الفخور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في كتابنا «علي و الحاكمون» تجد الكثير من هذه الاختلاقات في تفضيل الخلفاء الثلاثة على الرسول الأقدس (ص) نرويها عن مسانيد إخواننا السنة:

ففي نزهة المجالس أن اسم أبي بكر نقش على خاتم النبي بخط الله تعالى.

و عن انس بن مالك كان أبو بكر شيخا يعرف و النبي شاب لا يعرف.

هذه و أمثالها تفصيلا لأبي بكر على النبي (ص) قبل النبوة و بعدها، فيا لها من فضيحة فاتكة هائكة! ثم نرى الخليفة عمر لا يحب الباطل و الله و النبي يحبان الباطل!

فعن الأسود بن سريع قال: أتيت النبي (ص) فقلت: قد حمدت ربي بمحامد و مدح و إياك، فقال: إن ربك يحب الحمد فجعلت أنشده فاستأذن رجل طويل أصلع فقال لي رسول الله (ص):

اسكت، فدخل فتكلم ساعة ثم خرج فأنشدته ثم جاء فسكتني النبي (ص) فتكلم ثم خرج ففعل مرتين أو ثلاثا، فقلت: يا رسول الله من هذا الذي أسكتني له، فقال: هذا عمر لا يحب الباطل.

نرى أمثال هذه المختلقات الزور بين الروآيات عن عالم من الجهل و سوء الأدب، و منها ما وردت في أن العبوس هو الرسول دون عثمان! حفاظا على عثمان الأموي و إزراء بالرسول الألمعي (ص)! فيا له مراما ما أبعده و زورا ما أغفله!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 113

«أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى‏» .. جاءه ابن أم مكتوم مؤذن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلك المؤمن الهرم الفقير الضرير، جاءه بأمر النبي ليحلّ محله و يجلس مجلسه إذ قدّمه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على عثمان في مجلسه:

فقد جاء النبيّ ليستقرأه آيا من الذكر الحكيم، و عنده صناديد قريش و إلى جانبه عثمان، فأكرمه النبي و أجلسه بجانبه و أخّر عثمان، فضاق صدره منه و عبس في وجهه و تولى عنه و تقذر و جمع نفسه عنه، سخطا على عماه و فقره، وردا على حكم اللّه و رسوله، فنزلت الآيات بالتنديد الشديد على عثمان، و ردعته أخيرا عن فعلته المشئومة ارجاعا إلى تذكرة: في صحف مكرمة، بأيدي سفرة، كرام بررة، و الرسول الأقدس من أكرم السفرة و البررة، و قد حدث ما حدث بمحضره الشريف .. لذلك نرى الآيات تقتل عثمان بعد ما تندد به: «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ ..».

هكذا يبدأ الرسول دعوته و رسالته، و بكلمة جامعة لا محيص عنها:

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» فلا موضع- هنا- للأمجاد العائلية، و الفخفخات المالية، و الطنطنات القومية، و الادعاءات الجوفاء، ففي حين نرى سورة فذة تلعن أبا لهب عم النبي و هو من أعرق قريش، نجد سلمان الفارسي يحتل من الكرامة ما يغبطه بها العالمون:

«سلمان من أهل البيت»

«لا تقولوا سلمان الفارسي بل قولوا سلمان المحمدي».

و لذلك نراه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يكرم عبد اللّه ابن أم مكتوم- بعد ما هتكه عثمان- أكثر مما كان يكرمه قبله:

«فلما نزلت الآية دعاه فأكرمه و استخلفه على المدينة مرتين» «1»

، «و كانت عائشة تكرمه بأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم: تقطع له الأترج و تطعمه إياه بالعسل» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 315، أخرجه ابن سعد و ابن المنذر عن الضحاك.

(2) الدر المنثور 6: 315، أخرجه الحاكم و صححه و ابن مردوية في شعب الايمان عن مسروق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 114

كل ذلك إكراما لمن أهانه ابن عفان و إعلانا لمهانة عثمان جبرانا للمهان.

وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى. أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى‏:

ما يدريك أيها الأعمى القلب، لعل هذا الأعمى العين يتزكى أكثر مما تتزكى، بما يستقرئه و يستعلمه النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو- على الأقل- يتذكر بما يذكّره النبي فتنفعه ذكراه في أن يتزكى بها، يتزكى معرفيا ثم عمليا، فما يدريك أن يتحقق هذا الخير الكثير، أن يتطهر هذا الرجل الضرير الفقير الذي جاء الرسول راغبا فيما عنده من الخير الغزير! ما يدريك أن يشرق هذا القلب المنير بما هو أنور بقبس من نور اللّه، فيزداد نورا على نور فيستحيل منارة في الأرض تستقبل نور السماء؟ .. أ فهكذا تواجه المؤمن الفقير؟! أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى‏. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى. وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى‏:

هنا تعلو نبرة الخطاب و تشتد لهجة العتاب أن كيف تقتسم هكذا قسمة ضيزى بين من استغنى و لا يزّكّى و من جاءك يسعى و هو يخشى‏ «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى‏. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى‏» (96: 6- 7) فهؤلاء الطواغيت المستغنون المتأنفون المتعنتون الذين‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (2: 6) الذين لا يتزكون و ليسوا بصدد التحري عن الهدى .. فهؤلاء الحمقاء الطواغيت أنت لهم تتصدى! إن التصدي أن يقابل الشي‏ء مقابلة الصدى، أي الصوت، الراجع من الجبل. «فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى»: تتصوت له كالبوق و كأنه إله يعبد .. إنه يستغني عن شرعة اللّه و يطغى، ثم أنت له و لتبجيله تتصوت و تتعربد ..

ليس إلا لأنك من زمرتهم دون استحياء من النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 115

«وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى»: ما كلّفت أنت بتزكيته، إذ لست رسولا، و لو كنته فإذ هو لا يتزكى فسواء إنذاره و عدم إنذاره، فليس هذا التصدي الباطل يبرره رجاء أن يتزكى، فليس عليك بأس ألا يتزكى، لا سيما إذا كان التصدي له بقيمة إبطال قيم الإيمان و العبس في وجه المجرب الصامد في الإيمان.

أو ماذا عليك ألا يتزكى؟ ماذا يضرك بعد ألّا يهتدي رغم المحاولات في هدايته، في حين أن العبس في وجه المؤمن هو عليك و على كرامة الإيمان! أو: لا يهمك انه ليس بصدد التزكي، و إنما تهمك الظواهر المغرية! «1».

فهذه حالتك الإيجابية و جاه الطغاة الذين لا يرجى خيرهم و هواهم، ثم سلبيتك لمن يسعى و هو يخشى.

وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى‏. وَ هُوَ يَخْشى‏. فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى‏:

من جاءك ساعيا إلى رسول الهدى، جاءك ليجلس مجلسك بمقربة من الرسول، يسعى إلى الخير ليستزيد منه، إلى منار الهدى ليستنير منه، و إلى مدينة العلم ليستعلمه و يستقرئه.

جاء يسعى، مسرعا في مشيه رغم عماه، و متسرعا إلى الاستزادة ابتغاء كل الفرص، مطبقا أمر اللّه في سعيه و سرعته: «وَ سارِعُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ» (3: 133).

من جاء بهذا النمط اللطيف‏ «وَ هُوَ يَخْشى‏»: يخشى الوقوع على الأرض لعماه و سرعته في سعيه، و يخشى الكفار أن يخدعوه أو يغتالوه، و لكنه لا يبالي كل ذلك لأنه يخشى اللّه، دون كبرياء و استغناء و دون أنفة و رياء، و إنما يسعى إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه احتمالات ثلاث في «ما»\* أن تكون نافية أو استفهامية، و على الأول أن تكون أخبارية أو تنديدية أنه لا تفرق عندك تزكيته و عدمها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 116

الرسول، و يقترب إليه منحيا إياك يا عثمان! بأمر الرسول، يسعى بدافع الخشية و: «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» (35: 28) و القرآن تذكرة لمن يخشى دون من يطغى: «ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏. إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى‏» (20: 3- 5) «سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى‏» (87: 10).

«فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى»: أنت الذي تتصدى و تهتم بمن يطغى و لا يزكى، أنت تلهى عمن يسعى و يخشى و يزكى، تلهّى عنه عابسا في وجهه موليا عنه إلى الطواغيت، أ فعبسا في وجه الإيمان و تلهيا عنه إلى وجه الطغيان؟

هنا نسأل ذوي الضمائر الصافية، هل من المحتمل- إذا- أن يكون العابس المولي وجهه عن الأعمى، اللاهي عنه إلى الطواغيت، المتصدي لهم و لا يرجى إيمانهم، أنه الرسول الذي هو خير العابدين و هو على خلق عظيم؟! فبذلك تتهدم دعائم رسالته و أساس دعوته.

كلا- إنه من أرذل الناس و أسوأهم أدبا و أجهلهم بالأدب الإسلامي و الإنساني، إنه فرع من الشجرة الملعونة في القرآن.

«كلا»\*: ليس هذا هو الأدب، ليست هذه هي الشيمة الإسلامية، ليس الإسلام بالذي يقرّك على هذه الحالة الرديئة، و ليس الرسول بالذي يسكت عن التذكرة، و ليس بالذي يقدمك على الأعمى ولى في مجلسك ..

«كلا»\*: بعدا لخلقك اللئيم، البعيد البعيد عما جاءت به الصحف المكرمة بأيدي سفرة، كرام بررة.

إنّ عليك أن ترجع إلى رسالة السماء، إلى كتب السماء، إلى الكرام البررة، لتخرج من هذه اللئامة، لتخرجك من الظلمات إلى النور، إلى صراط العزيز الحميد.

«كلا»\* لا يكون هذا هو النبي البار الكريم، و على حد

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و الله لا يعاتبني الله فيك أبدا» ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 117

«كلا»\* فإنه تذكرة للغافلين، و تنبيه للجاهلين.

كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرامٍ بَرَرَةٍ:

«كلا ..»\* إنها تذكرة رسالات السماء، بأيدي سفراء السماء رجالات الوحي، يقدمهم الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ميثاقا و وثاقا، و هو آخرهم مبعثا.

هذه الدعوة المقدسة مكرمة مطهرة، مستغنية عن كل أحد و عن كل سند، و إنما هي لمن يريدها لأنها دعوة السماء، و لأنها كريمة في كل اعتبار، عزيزة لا يتصدى بها للمعرضين، و لا يتلهى بها عن المؤمنين.

«إِنَّها تَذْكِرَةٌ»: آي الذكر الحكيم هي تذكرة لمن ألقى السمع و هو شهيد.

«فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ»: ذكر ما تذكّره به الآيات‏ «1» تذكرة حاصلها الذكر لمن شاء أن يتذكر .. تذكرة لما سجله اللّه تعالى في كتاب الفطرة و العقل، فإنها لا تجانب الفطر و العقول، و ليست جديدة لا صلة لها بأعماق ذواتنا و ما تتطلبه حيوياتنا، و إنما كيانها أن تذكّرنا بما غفلنا عنه و استغفلناه، بما ران على قلوبنا، و ستر على عقولنا «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى».

فمن الآيات ما تعرفها عقولنا إذ تتذكر بها ما نسيته، و منها ما لا تنكرها لأنها لا تنافيها، فالكل- إذا- تذكرة.

«إِنَّها تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ضمير المذكر في «ذكره»\* لا يرجع إلى «تذكرة»\* فإن الذاكر لا يذكر التذكرة و إنما يتذكر به أمرا آخر كان عنه غافلا، ف (ه) يرجع إلى حاصل التذكرة و هو الأمر الآخر، ذكره: أي ما تذكره التذكرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 118

الصحيفة هي المبسوط من الشي‏ء دون خفاء و خباء، و إنها صحف القرآن في القرآن و في صحف النبيين أجمعين، فإن القرآن يحمل الوحي الصادق النازل عليهم من قبل، و فيه زيادات خالدة، و أنه بينة ما في الصحف الأولى:

«أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى‏» (20: 133) أتتهم في خاتمة الوحي، في القرآن.

و إنها مكرمة عند اللّه و عند ملائكة اللّه و رسل اللّه و لمن ألقى السمع و هو شهيد، مكرمة عند من يكرم عقله و ضميره و يهدف إكرام نفسه في الحياة.

و هي مرفوعة عن وحي الأرض، فإنها وحي السماء، مترفعة عن تدخل الأرض و تحريفها، مرفوعة عن أن تنالها أيدي الدس و التحريف و النسخ و التزييف.

و هي مطهرة من قذارة الباطل و لغو القول و الريبة و التناقض: «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (41: 42) «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ» (86: 14) «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (4: 82).

و جماع القول في تلكم الصحف أنها لا ينقصها شي‏ء من الكمال و الجلال و البهاء و الجمال، فهي الحجة البالغة الدامغة على من تصله، هذه ذاته و طبيعته اللمّاعة.

ثم نرى وسائطها الملائكية و البشرية أنهم كرام بررة، لا يزيدونها إلا جلاء و نورا و بهورا.

«بِأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرامٍ بَرَرَةٍ»: سفرة ربانيون مرسلون، سماويون و أرضيون، أرسلهم اللّه تعالى للبلاغ: من جبريل أمين الوحي و ملائكته الأعوان، إذ ينزل بها على قلب الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاتمة الوحي و أفضله: «نَزَلَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 119

بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ» (26: 194) «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» (81: 21).

و إذ يوحي ملائكته الأعوان معه إلى سائر النبيين ما نجده خالصا موجزا خالدا في الذكر الحكيم ..

و أنهم سفرة: مرسلون سافرون، دائمو الحركة في البلاغ، بوجوه سافرة:

بشّاشة، و صدور سافرة، و قلوب سافرة، و ألسنة ناطقة بالحق سافرة، كيانهم السفور في الحق لا يختبون عن أمر أمروا ببلاغه، يعيشون حياتهم السفارة الإلهية كما اللّه أراد.

فالسفارة هي الكشف و الحركة و التنقل بالكشف، فهم يكشفون الستر عن الحقائق بما أوحي إليهم، و يتنقلون مناكب الأرض لتحقيق هذه السفارة الإلهية، جماعة كشافة و هم كرام بررة «1».

إنهم كرام بررة في رسالاتهم و بلاغاتهم، و ليسوا لئاما خبثاء، و أكرمهم و أبرّهم في بلاغ الوحي هو الرسول الألمعي الأبطحي محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما الأكرم في الملائكة هو جبرائيل و من فوقهم الروح زعيمهم العظيم.

فلينح نحوهم و نحوه في مواجهة المؤمنين أمثال ذلك العابس المتولي اللئيم ليخرج عن عبوسه و لؤمه تخلقا بخلقه العظيم، و ليذّكّر بذكراهم المستغنون الكافرون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و قد يقال أن السفرة من السافرة بمعنى الكتبة و لكنه بعيد إذ أن الكتبة هنا أماهم كتبة الأعمال الكرام الكاتبون- و لا يناسب المقام من عدة جهات- أو أنهم كتبة الوحي فليسوا هم الملائكة و لا النبيون، و الكتبة غير المعصومين ليست لهم تلك الأهمية البالغة التي تخصهم بالذكر دون المرسلين.

و قد يحتمل أن السفرة بمعنى المصلحين، و لا بأس أن يعنى مع المعنى الظاهر، المرسلين.

فإنهم هم المصلحون الكرام البررة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 120

فهذه هي الرحلة الثانية في توجيه ابن عفان العابس و من تصدى هوله، من الطواغيت، بعد تأنيبه أولا، توجيها له إلى الصحف المكرمة بأيدي سفرة و أكرمهم هو الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذي أساء الأدب بمحضره الشريف.

ثم تأنيب ثالث يقتله و أمثاله بالكفران و نسيان نعم الرب المنان، و يقتل من استغنى و لا يتزكى.

[سورة عبس (80): الآيات 17 الى 23]

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21)

ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (23)

.. «قُتِلَ الْإِنْسانُ»: إخبار أنه مقتول هواه و غبائه، قتلته نفسه الأمارة بالسوء، قتلت روحه و ضميره و قلبه، فالمثل العليا فيه مقتولة ميتة مقبورة، و مثل الحيونة و الطغيان فيه حية ماثلة، و كما عرفناه من ابن عفان، و أحرى منه في من استغنى و لا يريد أن يزكى، تنديدا بالمتصدي و المتصدّى له، كل على حدّه.

هذه هي اللعنة التي يستجرها الإنسان إلى نفسه بأخلاقه و أعماله الملعونة، و على حد تفسير

الإمام عليه السّلام: «لعن الإنسان» «1».

أجل إنه إخبار من اللّه بهذه اللعنة، و ليس دعاء و كيف يدعو اللّه! اللهم إلا عن ألسنة السفرة الكرام البررة يدعون لهكذا إنسان بالقتل، أن يقتله اللّه ختما على قلبه و يزيغه‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 510 ح 10 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين علي (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 121

و إنه يستحق القتل على فظيع تصرفه، فإنها صيغة تقبيح و تفضيح، و إفادة إنه يستوجب القتل لشناعته و بشاعته، إن قتلا لأخلاقه التي قتلت انسانيته، أو قتلا و ازهاقا لروحه الجهنمية التي سواء عليها الإنذار و عدم الإنذار:

«وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى».

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ‏:

استفهام انكاري: ما الذي ستره؟ ستر عقله و ضميره و فطرته و بصيرته فأعماه! .. أم فعل التعجب: عجب منه كيف يكفر بربه ناس؟؟؟ ا كيانه؟ كيف كان و كيف صار؟ ..

علام يستغني و يستكبر؟ و لم يتصدى له من يدعي الإيمان، عابسا في وجه المؤمن؟! و الكفر هنا يعم كل ستر و حجاب على بصيرة الإنسان بجنب ربه، شاملا دافة ألوان العصيان و درجاته تجاه رب العالمين‏ «1».

مِنْ أَيِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقَهُ‏:

«هَلْ أَتى‏ عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً» (76: 1) كان شيئا لا يذكر لتفاهته و قذارته لحدّ كان يستحى من ذكره باسمه وقتذاك «مني»\* .. خلقه من هذا الذي لم يكن يذكر، أصل لا قوام له و لا قيمة، عفن نتن رجس مهين، نطفة من منيّ يمنى.

نطفة عجيبة في خلقها و شكلها على حين مهانتها، نطفة أمشاج من بحر لجي من علق. «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ»: الدودات الصغيرة السابحة في البحر المنوي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من كفران النعم و إن كان من الموحد المسلم، و من كفر العصيان كذلك، إلى آخر درجات الكفر، فللشيطان خطوات في الإضلال كلها كفر و ظلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 122

«إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً»: نطفة في وحدتها أمشاج: أخلاط من عناصر عدة، و من أشكال عدة من اخرياتها الخلط الثنوي بين الحيوان المنوي و البويضة «1»، فلما ذا يستغني و أوله نطفة قذرة، و آخره جيفة مذرة، و هو بينهما حمال عذرة؟! و لماذا يستغني و أوله دليل على قدرة اللّه و حكمته أن كيف خلق النطفة؟ و تقديره و تيسره و إلى نهاية أمره، كل ذلك دليل على إتقان الصنع و إحكامه.

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ‏:

«وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» (23: 14) .. هكذا خلقه من نطفة و هكذا قدره جسدانيا و روحيا دون أن يكون خلقه فوضى، دون تقدير و لا غاية.

خلقه من نطفة فقدّره إنسانا، بدّله من دودة تافهة نتنة إلى أحسن المخلوقين، و لأنه أحسن الخالقين .. قدّره و هيأه لتفهم السبيل و تقبّل السبيل.

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ‏:

يسر السبيل ذاته لا أنه يسره لها أو يسرها له. ليت السبيل منفصلة عن ذاته، إنما هي في ذاته- فطرته و عقله- و من ثم يتزود زيادة الهدى من آفاقه:

«سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (41: 53).

إن السبيل هي الدين: المعرفة فالطاعة للّه لا سواه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تجد تفصيل البحث عن كيان المني و النطفة في مناسبات أخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 123

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30).

كذلك و يسره سبيل الشر ليجتنبه كما يسره سبيل الخير ليسلكه: «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» (90: 10).

و التيسير هنا و هناك علمي و تطبيقي، يسرهما اللّه تعالى له في ذاته‏ «فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» (91: 9).

و الهدف الأصيل هو سلوك سبيل الخير على بصيرة «وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» (6: 153).

و أي تيسير أقرب و أسهل من كون السبيل المقصودة مندغمة في ذوات المكلفين، دون حاجة في ابتغائها إلى طي مسافة و غور مفازة، و إنها لهي النعمة الكبرى و الحجة العظمى الربانية أن زوّدنا بسفراء في ذواتنا، و من ثمّ سفراؤهم كرام بررة يذكروننا بما فطرنا ربنا عليه، ثم الكائنات كلها شهود صدق لهؤلاء السفراء في أنفسنا و في الآفاق.

يسره سبيله تعالى و سبل الحياة كلها، لرحلات الحياة و للاهتداء فيها:

«سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى‏» (87: 3- 4).

إنه ليس تقديره الإنسان بالذي ينافيه اهتداء السبيل التي يسره: فإنه تقدير لخلقه، ثم تقدير لأفعاله أن يحصل عديد منها دون اختياره و هي التي لا يثاب عليها و لا يعاقب، و أخرى باختياره و هي التي يعاقب عليها و يثاب، تقديرا و قضاء بالاختيار، و نفس الاختيار من التقدير.

يسره السبيل و أمره بسلوك السبيل و أمهله و عمّره ما يتذكر فيه من تذكر حتى إذا قضى نحبه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 124

ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ‏:

فكما الخلق و التقدير في الحياة الدنيا نعمة، كذلك الموت فإنه قفزة إلى حياة أوسع و أرقى، حياة البرزخ التي تظهر لنا حقائق أعمالنا: رحمه للمؤمنين إذ انتقلوا إلى رحمة اللّه، و لمن سواهم أيضا إذا انقطع بموتهم المزيد من دوافع و أسباب العذاب، و رحمة للباقين أن يتخلصوا من أذاه، و رحمة بصورة عامة إذ لو لا الموت لأصبحت الحياة عذابا فوق العذاب، كيف لا و مع واقع الموت نرى كيف يظلم بعضهم البعض؟ و كيف يفترسون؟! فالموت إذا من رحمات اللّه كما الحياة الدنيا و لأنها مدرسة الآخرة.

و كما الموت له نعمة كذلك قبره بعد الموت- و على حدّ تعبير

الإمام الرضا عليه السّلام: «لئلا يظهر الناس على فساد جسده و قبح منظره و تغير ريحه و لا تتأذى به الأحياء بريحه و بما يدخل به الآفة و الدنس و الفساد، و ليكون مستورا عن الأولياء و الأعداء فلا يشمت عدو و لا يحزن صديق» «1».

«فأقبره»: ينسب قبره إلى نفسه تعالى إذ هو علّمنا كيف نواري سوآت موتانا، «فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين» (5: 31) فهذه بداية معرفة الإنسان كيف يواري سوآت الأموات تحت التراب، و من ثم أمر اللّه تعالى بدفن الأموات كرامة لهم و رعاية، فلم يجعل السنة أن يتركوا على ظهر الأرض للجوارح و الكواسر، و الأمر بالقبر هو الإقبار كما الدفن و هو فعل الإنسان هو القبر، فلذلك نسب الإقبار إلى نفسه لا القبر.

ثم نعمة أخيرة هي مفتاح نعمة الخلود لمن عرف قيمة الحياة و لم يمهلها سدى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 510 علل الشرائع فضل بن شاذان سمع الرضا (ع) فإن قال فلم أمر بدفنه؟ قيل: لئلا يظهر ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 125

ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ‏:

بمشيئته خلقه و قدّره ثم السبيل يسره ثم أماته و أقبره، ثم بمشيئته ينشره مرة أخرى، قفزة إلى الحياة الأخيرة الخالدة، و «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏، وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏».

«أنشره»: بجسمه و روحه و حيث يجمع أجزاءه الأصلية المتوفاة المكفولة عنده و عند ملك الموت و ملائكته: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ. ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (32: 11) توفّيا في الأجساد و الأرواح، فلا تضل عن رب العالمين و عن ملائكة الموت مهما ضلت عنّا «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ ..».

«ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ»: «أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً» (75: 36) كلا: إنه سوف ينشر للحساب بمشيئة من إليه الحساب.

أنشره للحساب بعد طيّه في التراب، و الإنشار هو الإحياء للتصرف:

تصرف رب العالمين في الحساب، و تصرف المربوبين فيما قدموه لأنفسهم، فليس هو الإحياء دون قيد و كما يدلنا قرنه بالحياة: «وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً» (30: 25). و إذا «جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً» فبما أنه حياة التصرف، و إن كان ليس كاملا كحياة النشور يوم النشور، و كما لا ترى الآيات في خلق الإنسان تعبر عنه بالنشور.

ثم- و بعد هذه النعم، و بعد هذه الحجج، هل يا ترى الإنسان قاضيا ما أمره ربه، أمره لصالحه في مختلف مراحل الحياة، لا لصالحه سبحانه.

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ‏:

الإنسان ككلّ، الإنسان كعامة النوع، إن كيانه هو كونه. «كلا»\*:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 126

ليس كما اراده اللّه فيما هداه .. «لما»\*: و حتى قبره .. و حتى نشره‏ «لَمَّا يَقْضِ» لم يؤدّ «ما أَمَرَهُ» اللّه ربه، لم يقض هذه المرحلة على الأرض في الاستعداد ليوم الحساب .. و هو هكذا بطبعه الثاني المتخلف، رغم خطوته المهتدية، فهو هكذا في مجموعه، فوق أن الكثرة تستغني و لا تتزكى، و تتكبر على الهدى، و معها من يعبس في وجه الهدى، ثم لمن استغنى تتصدى.

فيا له مراما ما أبعده‏ «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ»! «إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» (14: 34) و أكفر من كل كفّار: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا» (33: 72) .. فالأمانة قد تؤدّى و قد تحمل، و ليس الإنسان بمؤدّ للأمانات الإلهية لأنه ظلوم جهول، إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر و قليل ما هم، و الباقون يحملون أمانة اللّه و لا يؤدونها.

\*\*\* [سورة عبس (80): الآيات 24 الى 32]

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى‏ طَعامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (27) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (28)

وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلاً (29) وَ حَدائِقَ غُلْباً (30) وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا (31) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (32)

.. فلكي ينتبه الإنسان لشكر الخالق، لينظر إلى طعامه كيف خلق، و ما هو الجدير بطعمه لصالحه، نظرات عدة من جهات عدة لكي يصبح طعامه طعام الإنسان.

فلينظر الإنسان إلى طعامه: هنا الآيات تنبهنا على كيفية خلق طعام الأبدان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 127

ثم يتلوها- و بالأحرى- وجوب النظر إلى كيفية تحصيله من حلاله و حرامه، من ضاره و نافعه، جسدانيا.

فثم إذا ما كان النظر إلى طعام الأبدان واجبا شرعيا، فهل يا ترى النظر إلى طعام الأرواح ليس واجبا، و البدن مدرسة الروح و قنطرة لكماله؟! .. لذلك ترى الإمامين الصادقين يسألان عن معنى الطعام يجيبان:

«علمه الذي يأخذه عمن يأخذه» «1»

تفسيرا موسّعا و بالمصداق الخفي، أو تأويلا و ما أحسنه تنبيها لغير الخالدين إلى الأرض.

إن الطعام ألصق شي‏ء بالإنسان بعد خلقه، و ألزمه له استبقاء لكيانه كحيوان. فهلّا يلصق به كإنسان طعام الإنسان، طعام الروح: المعرفة و العلم، و غذاء القلب: الإيمان، فإذ «لا»\* فإنه قسمة ضيزى، و إلا فلينظر الإنسان إلى طعام الروح ماذا يجب أن يكون و ممن؟ .. إنه من اللّه، من وحيه و إلهامه، من مصادر الوحي و الإلهام، حيث لا يخالطه مثوب الأرض، طعام من الصحف المكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة.

فلو لم ينظر الإنسان إلى طعامه المادي و في صلوحه لغذائه، مرض، أو أنه مسموم، مات، أو في أنه من حل أو حرام عصى ربه، و كل ذلك قابل للجيران و غايته فيما سوى الأخير فناء الجسم و ما عليه لو سلّم القلب من كدر الكفر و العصيان.

و أما إذا لم ينظر في طعام الروح في أصله فيبقى الروح جائعا، أو في نوعه فسمّ الروح أو قتل، فهناك الطامة الكبرى مهما كان الجسم قويا صحيحا ناضجا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 4: 429 محمد بن يعقوب بسنده عن زيد الشحام عن الصادق (ع) و الشيخ المفيد في الاختصاص بسنده عنه عن الباقر (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 128

قد تؤخذ المعرفة من مصدر الضلالة على غرة الجهالة دون نظرة عميقة فتصبح الروح جهنمية شاردة عن مصدر المعرفة، فتقتل بسمها القاتل طول الحياة و إلى الخلود، كهؤلاء الذين يتبعون كل ناعق و ناطق بهواه، همج رعاع، لا ينظرون إليهم نظر العقل، يميلون مع كل ريح و لا يستضيئون بنور العلم، هؤلاء هم المقتولون بذات أيديهم إذ لا ينظرون إلى طعامهم.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى‏ طَعامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا:

هنا نستوحي من النظر إلى طعام الجسم، إلى أصوله و مهيئاته، نستوحي نظرا إلى طعام الروح.

«أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا»: عله أو أنه هو الصب الأوّل على كرتنا الأرضية، إذ كانت محترقة عطشانة، صبّ عليها ماء ثجاجا، ليخرج به حبا و نباتا و جنات ألفافا.

إن درجة حرارة الكرة الأرضية- بداية ترسبها زبدا عن التفجر الأول للمادة الأولية «الماء»\*- إنها كانت هائلة جدا، لم تكن لتقبل الماء و لا أن يتحد جزءاه «الأوكسجين و الهيدروجين» إلا بعد أن هبطت حرارتها إلى زهاء أربعة آلاف درجة حرارية، حينذاك تكوّن الماء في الفضاء الخارجي البعيد عن كرتنا فصب عليها صبا ثجاجا لحدّ غرقت الأرض في ثجاجها، ثم يبست بعد ما؟؟؟ من الماء و أبخرت الباقي فشقت الأرض شقا.

فانشقاق الأرض، المهيأ لخروج النبات فيها، كان متراخيا بزمن عن صب الماء عليها المشار إليه ب «ثم»\*.

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا:

بعد موجان ذائبها، و موجان مياهها، و بعد انجمادها شيئا مّا، انشقت الأرض في ظواهرها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 129

فشقّ الأرض هو المرحلة التالية لصب الماء، فما لم تشق لم ينفذ فيها الماء و لم يخرج منها الكلاء، و بما أن الشق هو الخرم في الشي‏ء، فقد يشمل تفتت صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات و مختلف العوامل الجوية التي تفرض انشقاقات الصخور الصلبة الكاسية وجه الأرض، و لكي توجد الطبقة الطمية الصالحة للزرع.

و لا شك أن هذه الانشقاقات ابتدأت من دحو الأرض و قد عدّلت حركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الشم من صياخيدها، و في الدور الرابع من الأدوار الأرضية حسب التفصيل في الآيات من «فصلت»\*.

فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا:

صبّ ثم شقّ فإنبات الحبّ، أول ما نبت على وجه الأرض و هو من أوليات ضرورات الحياة و أشملها.

الحب هو أصل المأكولات كلّها، تنبت عنه ثم تنبته أيضا استبقاء لها، لكي يبذر مرّ الحياة، فينبت مختلف النبات.

فقد خلق اللّه تعالى حبوب النباتات أولا بعد شق الأرض، ثم أنبت منها نبات الحبوب و نبات الفواكه و الأشجار، و كل نابتات الأرض:

«وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً. لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً. وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً» (87: 14- 16).

وَ عِنَباً وَ قَضْباً:

عنبا و خضروات: بقولات تقضب، أي تقطع مرة بعد أخرى، خضروات متواصلة النبات، تقطع فروعها و تترك أصولها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 130

وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا:

«شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ» (24: 35) «تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ» (23: 20) .. إنها مباركة لحدّ يقسم بها ربها فيما يقسم‏ «وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ» (95: 1) «وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ» (50: 10) شجرتان مباركتان تختصان بالذكر من بين الشجر، و لأنهما أهمها و أعمها و أتمها نفعا.

وَ حَدائِقَ غُلْباً:

البساتين المحوطة ذات الأشجار العظيمة الغليظة.

وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا:

«فاكهة»\* يتفكه بها الإنسان بعد إدام الطعام، عونا على انهضام الطعام، و تصليحا و تغزيرا للحياة.

«و أبا»: عشبا و كلاء، يتمتع بها أنعامكم، و كما تتمتعون أنتم بالفواكه و الحدائق الغلب و النخل و الزيتون و الحب و سائر النبات.

مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ‏:

هذه كلها لكم، و لأنعامكم التي هي أيضا لكم، و التعرف إلى المعني من الأب لا يكلّفنا أكثر من أن نميز بين أكلنا و أكل أنعامنا بين المذكورات، فما هي أكل الأنعام منها؟ و ما هي أكلنا؟ معلوم أن الفاكهة لنا فللأنعام الأب ..

فهل الأنعام تتمتع إلّا بالأعشاب، فلتكن هي الأبّ، ثم للإنسان الفاكهة، مهما اشتركا في البعض من هذه و تلك.

و هنا العجب العجاب من الجهالة المتواضعة! ممن تصدّروا أمور المسلمين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 131

و ادّعوا أنهم من خلفاء الإسلام، كيف لا يعرفون- فيما لا يعرفون- معنى «الأب» كأنهم بدافع التواضع و الحائطة على القرآن جهلوه! و كما

عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام‏ إذ بلغه جهل أبي بكر بالأب: «سبحان اللّه! أما علم أن الأب هو الكلاء و المرعى و أن قوله تعالى‏ «وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا» اعتداد من اللّه بإنعامه على خلقه فيما غذاهم به و خلقه لهم و لأنعامهم مما تحيى به أنفسهم و تقوم به أجسادهم» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 511 في ارشاد المفيد، ينقل الرواية التالية دون الذيل الذي نقلناه في المتن، و قصة «الأب» مشهورة متضافرة عن خليفتي المسلمين «أبي بكر و عمر»:

فقد «سئل الخليفة أبو بكر عن قوله تعالى‏ «وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا» فقال: أية سماء تظلني أو أية أرض تقلني أم أين أذهب؟ أم كيف أصنع إذا قلت في كتاب اللّه بما لم أعلم؟ أما الفاكهة فأعرفها و أما الأب فاللّه أعلم فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليا (ع) فقال: إن الأب هو الكلأ و المرعى».

ذكره الزمخشري في الكشاف 3: 253، و القرطبي 1: 29، و ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير 30، و ابن كثير في تفسيره 1: 5 و صححه في 6، و ابن القيم 158- 159، و الحافظ أبو نعيم الأصبهاني 420 و حلية الأولياء 2: 40، و البيهقي في إعلام الموقعين 29 و صححه، و الخازن في تفسيره 4: 374، و النسفي في هامش الرازي 8: 389، و السيوطي في الدر المنثور 6: 317، و ابن حجر في فتح الباري 13: 23، و الكلبي في تفسيره 4: 18.

و قد قرأ الخليفة عمر على المنبر: «فأنبتنا فيها حبا و عنبا و قضبا و فاكهة و أبا» قال: كل هذا عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت في يده فقال: هذا لعمر اللّه هو التكلف، فما عليك أن لا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعملوا به و ما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه».

أخرجه سعيد بن منصور في سننه و أبو نعيم في المستخرج و ابن سعد و عبد بن حميد و ابن الأنباري و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان و ابن جرير في تفسيره 35: 38 و الحاكم في المستدرك 2: 514 و صححه هو و أقره الذهبي في تلخيصه و الخطيب في تاريخه 11: 468 و الزمخشري في الكشاف 3: 253 و محب الدين الطبري في الرياض النضرة 2: 49 و الشاطبي في الموافقات 1: 21 و 25 و ابن الجوزي في تفسيره 45: 374 و السيوطي في الدر المنثور 6: 317 و كنز العمال 1: 227 و ابن سعد في طبقاته و البيهقي في شعب الايمان و أبو السعود في تفسيره و القسطلاني في ارشاد الساري 10: 298 و العيني في عمدة القاري 11: 468 و ابن حجر في فتح الباري 13: 23.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 132

نرى هنا و هناك كيف نؤمر بالنظر إلى الكون، نظر البصر و البصيرة، النظرة العلمية و الاعتبارية، كل نظر ممكن لنا فيما و هبه اللّه إيانا، و لكننا مع الأسف، تركنا النظرات العلمية في الكائنات لغيرنا، ثم و لم نعتبر بالعبر، عبر هذه الكائنات، و من الناحية الروحية لأنفسنا.

.. إن النباتات التي أنبتها اللّه من حبوبها، لا تحصى عددا و أنواعا، مهما يعددها علم النبات اليوم إلى نصف مليون صنفا، إضافة إلى الأصناف المنقرضة المحفوظ بعضها في المتاحف دون أن يسميها الإنسان باسم‏ «1».

ثم منها ما هو للتغذية، و ما هو للبس، أو للدواء، أو فاكهة، أو ما هو للبهائم.

و إذا ما فتحنا القلع المغلقة علينا في مختلف الحبوب؛ لوجدنا عالما من مختلف العناصر، ليس اختلاف الأصناف فيها إلا لاختلاف المقادير، فالكل متشابهة العناصر.

لنأخذ مثالا حبة القمح التي لا يهمنا إلا أكلها، فإذ نحلل ألف غرام منها نجد الماء فيها 134 غراما و النشاء 663 غ و ملح النوشادر 60 غ و الخشب 30 غ و الزيت 15 غ و المانيزيا 2 و 2 غ و البوتاسا الكاوية 6 و 6 غ و السفور المائي 27 و 9 غ و كبريت العمود المائي 15 غ و إلى عناصر أخرى كالصوديوم .. ثم و نجد أكثر هذه المواد باختلاف المقادير في القطن، فأصبح من الملابس بعد أن كانت في القمح مطاعم، و هكذا في الفواكه: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى‏ طَعامِهِ».

إن النظر التام إلى الطعام لا يتم إلا بدراسة علم الكيمياء و علم النبات و هما أيضا لا يتمان إلا بدراسة علوم عدة، و هذه هي النظرة الأدنى إلى الطعام،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من مقالات «اللوود أ فبرأ» في كتابه «محاسن الطبيعة».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 133

قنطرة لما هو أعلى نطاقا و هو الوصول إلى معرفة أعلى في الحكمة و القدرة الإلهيه، و منه النظرة العميقة الأنيقة إلى طعام الروح: العلم- و كما

عن باقر العلوم عليه السّلام‏ «إلى علمه الذي يأخذه عمن يأخذه».

\*\*\* [سورة عبس (80): الآيات 33 الى 42]

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (35) وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (41) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ»:

الصاخة هي الصاكّة- بشدة صوتها- الآذان؛ فتصمّها، و كما أن لفظها أيضا ذو جرس صاكّ يخرق صماخ الآذان، تناصر اللفظ و المعنى، و لكي نشهد المشهد الهائل، مشهد الفرار دون قرار، للذين تربطهم يوم الدنيا روابط لا تنفصم، و لكن الصاخة تمزقها تمزيقا بما أن لكلّ يومئذ شأن يغنيه، و لحدّ كأنه ينسى حتى نفسه.

إنها يوم الفصل، و منه فصل الأنساب و الأحساب، روابط القرابات و الصداقات، لا يحكم فيها حاكم الأنساب و لا يتساءلون عنها: «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ» (23: 101) و إنما العداء هي التي تنوب كل هذه و تلك إلا للمتقين: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (43: 67).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 134

إنها هي الساعة الصاخة (صيحة الإحياء) فإذا هم إلى ربهم ينسلون، صيحة تصخّ الأسماع و تقرعها، و تجعل الإنسان يفر من ذويه، لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه.

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ...:

و لأن الهول هناك هول نفسي يفزع النفس و يفصلها عن محيطها و عنها أيضا:

«وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى‏ وَ ما هُمْ بِسُكارى‏ وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (22: 2)، لذلك تراه- و بالأحرى- يفر من ذويه الأقربين و الأنسبين‏ «مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ».

فهل يا ترى لماذا الفرار «وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ» (40: 39)؟

فهل لأن كلّا ظالم بحقوقهم فيفر؛ كيلا يطالبوه بظلمهم؟ و ليس كل امرء ظالما! أم مخافة أن يطالبوه بشفاعة و لأنه من أهلها؟ و ليسوا إلا قلة قليلة! أم لأنهم لا ينفعونه شيئا؟ و هذا لا يستوجب الفرار.

أم لأنهم لا يعرفونهم‏ «فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ»؟ فكذلك الأمر! أم مخافة أن يتعلقوا به لماذا قصرت تجاهنا؟ و ليس الكل هكذا! إذا فلما ذا؟ لا نجد أخصر و أشمل من هذا التعبير الذي يشغل الحس و الضمير:

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ‏:

يكفيه- شأنه الشائن، و هوله الكائن إثر الصاخة القارعة، هذا يكفيه عما سواه و عمن سواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 135

هول أول مفاجئ لا يدع الإنسان- أيا كان- أن يفكر في غيره، فهو يفرّ و حتى عن أقاربه، فرارا فكريا فبالأقدام، و لحدّ لا يكاد يرى بعضهم البعض، و كما

يروى عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق و بلغ شحوم الآذان، قيل: يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! وا سوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض، الرجال إلى النساء؟ قال: شغل الناس عن ذلك نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر و مثاقيل الخردل‏ «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» «1».

شأن يغنيه، إضافة إلى المحتملات المسبّقة حسب الدرجات: فرارا عن المطالبة بالتبعات، يقول الأخ: ما واسيتني، و الأبوان: قصرت في حقنا، و الصاحبة: لم تصاحبني كما يجب، و البنون: ما ربيتنا كما يحق.

أو فرارا عن الشفاعات، و الأصل الشامل هو الذي قال اللّه‏ «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ».

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ:

تقسيم ثنائي لوجوه الناس إلى مسفرة، و التي عليها غبرة: مسفرة مشرقة بعد الهول العام، إذ نعرف نجاحها يومذاك، مسفرة لأنها سافرت مع السفرة، كرام بررة، فتلت صحفهم المطهرة، و طبّقتها و عاشتها حياتها، و لأنها اتجهت حياتها إلى الوجهات الربانية و أعرضت عن الشيطانية.

فكما الصبح يسفر بعد الظلام بخرقه، فينير، كذلك هذه الوجوه تسفر بعد ظلام الصاخة، العام، منيرة متهللة مشرقة، تتغير شأنها الذي كان يهمّها و يغنيها، ثم- علّها- تنعطف إلى الذين يلتصقون بها لشفاعتهم، إن قريبا أو بعيدا، «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 317، عن سودة بنت زمعة و سهل بن سعد و أم سلمة و عائشة عن النبي (ص) نقلنا المجموع كرواية واحدة رعاية للإضافات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 136

إنها مسفرة ضاحكة فرحة مستبشرة، تتطلب بشارات الرحمة كما اللّه بشرها يوم الدنيا لهذا اليوم، و لأنها عرفت مصيرها و تبيّن لها مكانها و مكانتها بعد حريتها من هول الصاخة المذهل المبكي.

و إنها الوجوه الناعمة الراضية: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ. لِسَعْيِها راضِيَةٌ» (88: 7- 8).

و الناضرة الناظرة: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ» (75: 21- 22).

وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ. تَرْهَقُها قَتَرَةٌ. أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ:

تعلوها غبرة الحزن و الحسرة و سواد الذل و الانقباض و الانكماش، فهي إذا:

«باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» (75: 25- 24) و هي: «خاشِعَةٌ. عامِلَةٌ ناصِبَةٌ» (88: 2- 3).

وجوه مغبرة عليها غبرة الحزن و الأسى، ترهقها: تغشاها- قترة: هي سواد الذل- و ترغمها، يبقى عليها هول الصاخة، و يزيد إذ عرفت ما قدمت لأنفسها- من سخط شديد و عذاب عتيد.

إن هذه الغبرة الظاهرة على تلك الوجوه هي شي‏ء من فوضى الحياة المغبرة التي عاشوها، و هنا يعرفون بها «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» (55: 41) و كما المؤمنون‏ «سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» (48: 29).

«أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ»: كفروا باللّه و أنعمه، و فجروا حرمات اللّه و ما راعوها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 137

سورة التكوير مكية و آياتها تسع و عشرون‏

[سورة التكوير (81): الآيات 1 الى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (3) وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (4)

وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (6) وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (11) وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (14)

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ‏:

أحداث كونية ضخام جسام تشير إلى أن هذه الكائنات المنسّقة في نظامها و حركاتها سوف ينفرط عقد نظامها و تتناثر أجزاؤها.

فهذه الشمس التي هي نور كل ظلام، و حياة الأحياء مع الماء، هذه النبعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 138

الحيوية النورية الحرارية سوف تموت و تنقرض، تكوّر و تدوّر، فما هو كورها؟

و ما هو دورها؟

فهل إنّ كورها أن يحاط عليها؟ كما: «يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ» (39: 7) إحاطة الليل على النهار بظلامه، و النهار على الليل بضوئه، إحاطة ماحية لكيان كلّ منهما بكل منهما، فكذلك يحاط على الشمس بما يدمرها و يظلم عليها، و هذا هو كور الطاقات المدمّرة للشمس؟

أو كورها في نفس ذاتها بضم بعضها إلى بعض ككور العمامة و لفّها بنحو الإدارة؟

أو انه جمعها و صرعها، بنقص كيانها و نورها؟

أو زيادتها في حرارتها و سرعتها عند احتضارها كما

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «أعوذ من الحور بعد الكور»،

أي من النقص بعد الزيادة.

أو كورها على أخيها الأصغر: القمر، بشمولها عليه‏ «وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ» (75: 8) «1»؟

كلّ محتمل‏ «2»، أو أنها مرادة جمعاء، فإن قيامة الشمس تضم ضمها و لفها و جمعها و صرعها و نقصها في كيانها و زيادة سرعتها و نورها في اللحظات الأخيرة من عمرها «3»، ثم برودتها و انطفاء شعلتها و انكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد الآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و في كور القمر

أخرج البخاري عن النبي (ص) قوله: الشمس و القمر مكوران يوم القيامة (الدر 6: 318).

(2) هذه المعاني اللغوية للكور المستفاد بعضها من القرآن و الحديث، ذكرت في لسان العرب.

و عن ابن عباس تفسير الكور بالانظلام و الاغورار و كما عن مجاهد و سعيد بن جبير الأخير و عن أبي صالح «نكست» و عن مجاهد اضمحلت و عن الضحاك و قتادة ذهب ضوؤها، و مرجع الكل واحد كما عرفناه.

(3) و لعلها المعنية مما

روي عن الرسول (ص) «كورت في جهنم‏

(المصدر)» إن اللحظات الأخيرة من عمرها تصبح كأنها جهنم من شدة حرارتها، إذ تنقبض إلى النهاية فتحترق إلى النهاية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 139

من جوانبها إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء، فسوف تكوّر لا ألسنة لها حداد لها و لا امتداد و لا جريان و لا ضياء، و هذا هو مصير الشموس كلها، إذا جاء أجلها فتتّت و رجعت لحالها الأولى، و أحيلت إلى المصانع الإلهية في العوالم الأثيرية ليصاغ منها عالم جديد.

نرى بعض علماء الفلك يؤكدون أن منبع الطاقة الحرارية للشمس ليس إلّا انقباضها و انكماشها و كورها التدريجي، و هذا هو الأثر الملموس في كل انضغاط و انكماش و لا سيما في الجسم الحار في نفسه كالشمس.

و حسب قانون الجاذبيه ل (نيوتون) نتأكد أن التشعشعات الشمسية هي إلى النقصان المستمر، زهاء كيلو مترين في كل قرنين، و بهذا تتأكد نظرية الإنقاض ل (هلمولتز)، و بالإمكان ألّا يدرك هكذا نقصان في الشمس طول تاريخ الإنسان، لكنه قياسا إلى الزمان في أدوار معرفة الأرض، يظهر كثيرا و ملحوظا، فالقدر الناقص عن جرم الشمس حتى الآن زهاء (1047/ 2) أرجا، و هي أقل بآلاف المرات من الطاقات العامة المنفصلة عنها حتى الآن.

إن نظرية الانقباض و إن كانت بمحل من التصديق، إلا أن من المؤكد وجود منبع آخر لها أثقل من الطاقة الكيماوية و الثقالة، و يقول (جورج قاموف) بعد تحقيقات عدة «1» أن حرارة الشمس من الطاقة تحت الذرية.

و يقول: «ليس بالإمكان أن يتجاوز عمر الشمس (000، 100/ 1) مما هو الآن، لو كان المنبع الحراري لها شيئا من المواد الكيماوية، لذلك فليكن القسم الأكبر من منبعها الحراري من العناصر الخالصة التي هي آخر المطاف للتبدلات الكيماوية لكل العناصر غير الخالصة».

هذا- و حرارة الشمس الآن- في سطحها ثلاثة آلاف درجة و في باطنها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في كتابه موت الشمس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 140

سبعون مليونا، و لو لا نزول الأمطار المتناوبة عليها لأحرقت الأرض و انقرضت هي أيضا قبل أجلها، و كما

عن باقر العلوم‏ قوله: «إن الشمس تطلع و معها أربعة أملاك، ملك ينادي يا صاحب الخير أتمم و أبشر، و ملك ينادي يا صاحب الشر انزع و أقصر، و ملك ينادي أعط منفقا خلفا و آت ممسكا تلفا، و ملك ينزحها بالماء، و لو لا ذلك اشتعلت الأرض‏ «1»».

و يؤيد الرواية ما عن الدكتور (دونالد منزل) الفلكي الأميركي الشهير:

«إن اختلاف الأشكال في القطع المرئية في وجه الشمس، إنها نتيجة نزول أمطار غزيرة دائبة عليها، و قد أظهر هو قطعة من الأفلام المصورة عن الشمس، و فيها صورة أمطار شديدة تنزل على الشمس من ارتفاع ثمانين ألف كيلومتر، رآها مرسلوا الفلكيين في المؤتمر المعني لذلك‏ «2».

إذا فالشمس في كور دائم شيئا فشيئا حتى يخلص دورها فتنتهي إلى كورها الأخير، جارية في هذا الكور لمستقر لها ثم لا دور لها و لا كور: «وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (36: 38).

و مما يطوّل عمرها أكثر، ما تسيل عليها من الأمطار الغزيرة؛ فتمدها في تباطؤ كورها؛ و تمنعها أن تحرق الأرض و سائر الكرات القريبة منها إلى أجل معدود.

وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ‏:

النجم هو الكوكب الطالع، و علّه يعم طلوع التمدن فيه أيضا و أحرى، و الانكدار من الكدرة و هي الظلمة، أو كانكدار الطائر إلى الأرض و هو انقضاضه و سقوطه نحوها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار ج 14 كمباني ص 124 عن الكافي روى الجابر عن الباقر (ع) ..

(2) نقلته جريدة اطلاعات الايرانية المنشورة يوم الخميس 15 ربيع الاول 1369 هجرية قمرية الموافق 1950 ميلادية، نقلته عن مكتوب الدكتور دونالد منزل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 141

فالكواكب الطالعة سوف تغرب عن ضوئها و عن تمدنها، و سوف تتساقط هذه الطائرات الجوية السائرة على أفلاكها، بما معها من الكواكب غير الطالعة:

«وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ» (82: 2) و الكوكب يعم الطالع و سواه، و الانتثار هو من جرّاء الانكدار، كما تنتثر الطير و تتساقط إلى عمق الفضاء عقب انكدار حياتها، فما دامت حية لا تنتثر بمسكة الحياة، فإذا انكدرت عليها حياتها انتثرت.

إن المعني من طلوع الكوكب هو واقع الطلوع، لا بالنسبة لإنسان الأرض، و مع العيون المجردة، إنما واقع الطلوع أينما كان موقعه من السماء.

و الكوكب منذ خلقه ليس طالعا، ثم يتكامل؛ فيصبح طالعا نيّرا، و من ثم قد يصلح للحياة و التمدن و هو الطلوع الأخير.

فمن الكواكب ما لم يطلع بعد، أو هو في الطلوع الأول أو الأخير، و منها ما طلع طلوعا أو طلوعين ثم غروب، و الانكدار يعني الغروب النهائي و الوقوف عن الحراك، و التساقط إلى أعماق الفضاء، فالانتثار هو المرحلة الأخيرة من غروبها «1».

يتبدل النجم كوكبا «لا نجم» ثم ينتثر و ينطمس‏ «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ» (77: 8) طمس الكيان النجومي، طلوعا و حراكا و تجمعا، ارتجاعا إلى الحالة الغازية الأولى التي خلقت هي- بادئ ذي بدء- منها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد يؤيد كون النجم أخص فأكمل من الكوكب أن الآيات المستعرضة للخلق لا تأتي إلا بذكر الكواكب، ثم نرى ما تذكر الحالات المتوسطة و الاخيرة تذكر النجوم، فمن بين ثلاث عشرة مرة تذكر النجوم، لا تجد و لا مرة واحدة استعراض خلقها، و إنما: الاهتداء بها في ظلمات البر و البحر» (6: 97) و انها مسخرات بأمر اللّه (7: 54) و أن لها مواقع (56: 75) ثم انها تطمس و تنكدر، بينما الكواكب تذكر بخلقها، «إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ» (37: 6) ثم قيامتها: «وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ» (82: 7).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 142

«وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ» (86: 9): ترجع بأنجمها إلى ما كانت عليه: «الدخان»:

«.. ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ: ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قالَتا: أَتَيْنا طائِعِينَ، فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (41: 12).

أجل- و إن هناك انكدارا و انتثارا و انطماسا، فالكواكب تنتثر، و النجوم تنطمس و تنكدر، و هذه حوادث جل و طامات كبرى تقضي على السماء و كراتها حيث الطمس هو المحو و إزالة الأثر.

إن النجوم و الكواكب لا تنحصر فيما نراه في السماء بالعيون المجردة أو بواسطة المراصد الفلكية، انها هي العوالم السماوية كلها، التي لا يعلم عددها و مواضعها إلا اللّه، فوراء ما نرى منها بمراصدنا مليارات من الفضاءات و المجرات لا نعرف لها عددا، فمنها ما هي بعيدة عنها بما لم يصلنا ضوؤها منذ خلقت، و بعد مليارات السنين، و الضوء يسير كل ثانية 000، 300 كيلومترا، فيا لها غورا و بعدا عنا! و منها ما انقرضت قبل أن يصل إلينا ضوؤها، و علّ منها ما لن يصل إلينا ضوؤها إلى حين انكدارها و انتثارها، و منها ما لم تخلق بعد: «وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ» (51: 47). إنه تعالى دوما في توسيع المملكة السماوية و حتى القيامة الكبرى، و من ثم سوف يخلق عوالم أخرى، «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» (55: 29).

وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ‏:

.. «وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً»: إن هذه الجبال الرواسي الأوتاد سوف تصبح كالسراب، تحملها القدرة الإلهية و أرضها حمل التدمير: «وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً» (69: 14) بعد ما كانت تحملها قبل قيامتها حمل التعمير: «وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 143

اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» (27: 88): هذه قدرة الصنع و التعمير و تلك هي- قدرة السحق و التدمير و كلتا هما من حكمة الخبير البصير.

و الأنباء المسبقة عن قيامة الجبال في سورة النبأ كافية لحدّ مّا فيما توحي لنا آيتنا هذه، و سوف يأتيكم نبأها الفصل في طيات التفسير.

وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ‏:

العشار- جمع العشراء- هي النوق الحبالى في شهرها العاشر، و هي أعلى ما تكون بما هي قريبة الولد، صاحبة اللبن .. فهي تعطل يوم الطامة الكبرى في الصيحة الأولى: عطلة عن الحراك و الولد و الحليب، إذ تضع حملها قبل أوانه، و يجف حليبها لشدة الوقعة .. و هي تهمل عن صواحبها- «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» و كيف لا؟ و هي الساعة التي: «تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى‏ وَ ما هُمْ بِسُكارى‏ وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (21: 2).

و العشار- بما هي أثمن ما كانت تملكه العرب المخاطبون وقت النزول- إنها، و بصورة عامة، تمثل أثمن ما يملكه الإنسان و يتنافس فيه المتنافسون، فهو يشتغل عنها بنفسه في صيحة الإماتة، و كما يفرعن ذويه في صيحة الإحياء، «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ».

وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ‏:

فما هي الوحوش؟ و ما هو حشرها؟ .. فهل إنها كل الدواب سوى الإنسان؟

و ليست الكل نافره عن الإنسان، متنافرة مع بعض، حتى تكون وحوشا كلّها! أم هي غير الآنسة و المتآنسة من الدواب، و من الإنسان؟ أظنه أسلم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 144

غير الإنسان خاصة، و لأنه أعم، و يساعده عموم اللفظ، و من الإنسان الوحش ما هو أوحش من وحش الحيوان! ثم هل إن حشرها هو جمعها يوم الجمع في صيحة الإحياء كسائر الأحياء من بني الجان و الإنسان؟ قد ينافيه أن الآيات الست الأول من السورة و هي خامستها، أنها كلها تصف حالة الكائنات في رجفة الإماتة، و أن الحشر المطلق هو مطلق الجمع عن تفرق و افتراق دون اختصاص بجمع خاص، فما لوحوش الحيوان تختص بهكذا حشر؟

أم هو جمعها للموت كما الآية تخبر عن رجفة الإماتة؟ و لكنهما الجمع هذا لا يختص بالوحوش، فإنه يعمها و الكائنات الحية و سواها بأسرها.

أم هو جمعها بعد تفرقها، و أنسها بعد توحشها و تمزقها، فإنها نسيت نفسها من هول الواقعة القارعة، فكيف بتفرسها و توحشها؟ .. و إنها تمضي هائمة على وجوهها كأنها زالت طباعها المتنافرة الوحشية، و كما هو الحال في كافة المتنافرين المتوحشين من الإنس و من سائر الحيوان، فهي إنما تفر و تهجم و تضر ما لم تر حادثة أشد و كارثة أعتد، ففيما إذا انفزعت بالفزع الأكبر نسيت و تناست ما بينها من عداء، و تآلفت و اجتمعت و حشرت.

كما و قد يكون هكذا حشر لشمول العدل إذ لا ظلم و لا تخسير، و هو الحشر الأول في القيامة الوسطى، في دولة القائم المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه السّلام إذ

«تصطلح في ملكه السباع» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نجد هذه الجملة في روايات مستفيضة اسلامية و آيات عدة من كتب الأنبياء السابقين فصلتها في كتابي «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و منها: في كتاب أشعياء 11: 6- 10؟؟؟

«فيسكن الذئب مع الحمل و يربض النمر مع الجدي و يكون العجل و الشبل و المعلوف معا و صبي صغير يسوقها 6، ترعى البقرة و الدب معا و يربض أولادهما معا و الأسد يأكل التبن كالثور 7.

و يلعب المرضع على حجر الأفعى و يضع الفطيم يده في نفق الأرقم 8، لا يسيئون و لا يفسدون في كل جبل قدسي لان الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر 9، و في ذلك اليوم أصل يسي القائم راية للشعوب إياه تترجى الأمم و يكون مثواه جيدا 10».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 145

هذا هو الحشر بالمعنى العام: الجمع عن التوحش، و أما فيما إذا كان الحشر إلى اللّه فهو الحياة بعد الموت لعامة ذوي الحياة، و لتجزى كل نفس بما تسعى:

«وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (6: 38) .. و هذا هو الحشر بمعنى الإحياء في صيحة الإحياء، يشمل الدواب و الطير كلّها، وحشا و سواها، إنسانا و سواه، و علّ الدابة في الأرض تشمل ما تمشي عليها و ما في جوفها و في بحارها، دبّا على الماء و الأرض و في باطن الأرض.

و فيما إذا سئلنا عن حشر الحيوان غير الإنسان: لماذا يحشر و يحيى؟ أ لكي تجزى بما تسعى؟ فكيف تجزى الدابة و لا عقل لها و لا شرعة و منهاجا؟

فهنا الجواب: أن الجزاء يعم ذوي الشعور كما تشعر، إن عاقلة أم لا، فإنما المدار في الجزاء معرفة اللّه و إمكانية معرفته، و شعور يميز بين العدل و الظلم، كلّ على قدره، و الطير و الدواب كلها تعرف اللّه تعالى دون تكلف و اكتساب:

«أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ» (24: 41) «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ» (16: 49).

ثم نراها قد تظلم و قد تظلم و هي شاعرة أنه قبيح و اللّه لا يحب القبيح، فلولا شعورها بالقبح فلما ذا تفر من الظلم، أو تعضّ و تركل أو تفترس من يهاجمها من نوعها أو سواه؟

ثم اللّه أحل لنا أكل لحوم قسم منها، فعليه أن يبدلها- بما ذبحت- برحمة منه في حشرها.

و قد نرى الإنسان يظلم ما يملكها فلا يؤدي حقها، و اللّه تعالى أعدل من أن يدرها سدى لا يقتص لها من ظالمها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 146

و كل ذلك يتطلب لها حياة بعد الدنيا، من عدل اللّه و رحمته، و لكي تجزى كل بما تسعى.

هذه الآية هي الفريدة في نوعها و من حيث حشر الدواب، ثم تضافر الروايات تدلنا على ما استوحينا منها «1».

وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ‏:

البحار هنا هي كل البحار، أرضية و سماوية، و التسجير هو تهييج النار، من سجرت التنور إذا أو قدتها، فكيف تهيج البحار بالنار، فأين الماء و أين النار؟

الجواب: أن الآية توحي للمصير الأخير للبحار يوم تكوير الشمس و انكدار النجوم، و أنها سوف تنقلب نارا بعد ما كانت بحارا كالترتيب التالي:

إن البحار تفجّر في البداية: «وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ» (82: 3) تفجّرا على أثر زلزال الأرض و انشقاقها، و التفجر هو الانشقاق الواسع، تفرقا و انشقاقا لمياهها، و تغلغلا عن حراكها الشديدة- و الحركة تولّد الحرارة- و عن ازدياد حرارة الشمس عند تكويرها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

ففي نور الثقلين 1: 592 عن الفقيه‏ أن النبي (ص) أبصر ناقة معقولة و عليها جهازها فقال: أين صاحبها؟ مروه فليستعد غدا للخصومة.

و

في المجمع عن أبي ذر قال: بينا أنا عند رسول اللّه (ص) إذا انتطحت عنزان، فقال رسول اللّه (ص): أ تدرون فيما انتطحا؟ فقالوا: لا ندري! قال: و لكن اللّه يدري و سيقضي بينهما.

و

عن محمد بن جرير و غيره بزيادة: قال أبو ذر: لقد تركنا رسول اللّه (ص) و ما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علما». (الدر المنثور 3: 11).

و

عن الكافي بالإسناد عن سماعة بن مهران قال: أخبرني الكلبي النسابة قال: قلت لجعفر بن محمد (ع) ما تقول في المسح على الخفين؟ فتبسم ثم قال: إذا كان يوم القيامة ورد اللّه كل شي‏ء إلى شيئه، ورد الجلد إلى الغنم فترى أصحاب المسح أين يذهب و ضوؤهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 147

ثم تحوّلها بخارا بخروج الكرة النارية المذابة من بطن الأرض، ثم تحوّل البخار نارا كما كان بداية خلقة الأرض و السماوات و هذا هو تسجير البحار، فإن التسجير هو تهييج النار و كما هم: «فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» (40: 72) فكما النار تحرق بلهيبها دون اقتصار على الإغلاء، كذلك البحار تسجّر، تبدلا إلى لهيب النار بعد أن تفجّر، و كما البحر المسجور من العذاب الواقع: «وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ. إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ» (52: 5- 6).

إن المواد الكيماوية كلما زيدت حرارتها تفسّخت و تفجرت عن تركباتها و أخذت سبيلها إلى البساطة و إلى المادة الفردة الأولية، التي هي آخر المطاف في التقلبات الكيماوية، و هي تتحمل حرارة أشدّ و أكثر، كلما كان التحلّل عن التركبات أكثر و أكثر.

لذلك نجد الشمس في مركزها أثقل و أحر مما في سطحها، إذ إنها تحمل أبسط الذرات الكيماوية «الهيدروجين» التي هي آخر المطاف في التقلبات الكيماوية فيما نعرفه حتى الآن، و ثم إلى المادة الفردة التي لا نعرفها حتى الآن، و قد تحمل مليارات المرات من الحرارة التي نجدها الآن.

و هذه هي مصير كل المركبات و العناصر الكيماوية، ترجع إلى ما كانت، و منها الماء، فالبحار تفجّر و تسجّر، كما الكائنات كلها تسجّر، فلا يبقى إلا مسجور محروق.

أجل- و إن الزلازل و البراكين سوف تزيل الحواجز بين البحار فتغلغل على أثرها، و سائر العوامل الحرارية المسبقة و إلى انفصال ذرتي الماء: الأوكسجين و الهيدروجين، و إلى تفجرهما أيضا .. و آخر المطاف أن البحار تسجّر: تصبح نيرانا ملتهبة هائلة لا يتصور مداها.

و أنّ تفجر قدر محدود من الذرات بالقدرة المحدودة البشرية في القنابل الذرية يحدث الهول الذي لا نتحمله، فكيف بنا إذا انفجرت الذرات كلها و معها البحار، بحار الأرض و السماء؟!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 148

فعن القمي عن الصادق عليه السّلام في الآية قال: «تتحول البحار التي حول الدنيا كلها نيرانا» «1»

وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ‏:

التزويج هو قرن كلّ شي‏ء إلى شيئه، أو مثله، أو ما يحق أن يقرن به، و علّه لا يشمل هنا النكاح لأنه يخص أهل الجنة دون النفوس كلها، و أن الآية تستعرض قيامة الإحياء قبل الحساب و الجزاء و نشر الصحف و تسعير الجحيم و إزلاف الجنة، و قبل أن تعلم كل نفس ما أحضرت‏ «2» اللهم إلا أن يعنى من تزويج الأشرار غير النكاح، و أن خلط الآيات في القيامتين يسمح بشمول التزويج للنكاح و إن ذكر قبل الحساب‏ «3».

إذن فهو التزويج العام يوم القيام، الشامل لكل نفس خيرة و شريرة، قرنا في كل شي‏ء.

من قرن الأجزاء الأصلية المعادة- لكل نفس- بعضها ببعض. دون أن تضل أو أن تتصل إلى غير بدنها، و قرن كلّ نفس ببدنها الأصيل الذي عاشته طوال حياة التكليف، دون تقمّص بغير قميصها، و دون أن تضل الأرواح و لا الأجساد: وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ...

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 514 ح 6.

(2) هذه الآيات تجمع بين علامات قيامة الاماتة و الاحياء، فمن تكوير الشمس إلى تسجير البحار تشير إلى الأولى، و من تزويج النفوس إلى نشر الصحف إلى الثانية، ثم ترجع إلى الأولى في كشط السماء، ثم بقية الآيات إلى الثانية، جمعا بين القيامتين لوحدتهما في الطامة و اتصالهما.

(3) و يؤيده‏

المروي عن الامام الباقر (ع) في الآية قال: أما أهل الجنة فزوجوا الخيرات الحسان، و أما أهل النار فمع كل إنسان منهم شيطان، يعني قرنت نفوس الكافرين و المنافقين بالشياطين فهم قرناؤهم‏ (نور الثقلين 5: 514 ح 7 في روآية أبي الجارود عنه (ع)»

أقول و هذا من بيان بعض المصاديق الظاهرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 149

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (32: 10) «1»، و قرن كل نفس بما تجانسه و تقارنه في عقيدة الإيمان و عمل الإيمان من السابقين و أصحاب اليمين، أو ما تشاركه في تركهما من أصحاب الشمال: «وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً. فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ. وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ. وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» (56: 3- 7) «2»، و قرن كل تابع بمتبوعه و كل مأموم بإمامه: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى‏ صِراطِ الْجَحِيمِ» (37: 22) «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى‏ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى‏ وَ أَضَلُّ سَبِيلًا» (17: 71- 72). و قرن كل ساع بسعيه: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» و قرن المؤمنين بالمؤمنات و الحوريات في الزواج، و غير ذلك من التشكيلات المتجانسة، عدلا في كل مجالاته، إذ ليس الملك هناك إلا للّه الواحد القهار، دون الحياة الدنيا التي يقرن فيها الشي‏ء بضده أو نقيضه.

وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ‏:

الموؤودة من «وأد»\* مقلوب «آد»: أثقل، فهي المثقلة و كما توحي إليه آية الكرسي‏ «وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما»: لا يثقله و يتعبه ثقل السماوات و الأرض،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 319 عن ابن عباس: «ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلك قول الله: و إذا النفوس زوجت» و مثله عن أبي العالية و الشعبي.

(2)

في الدر المنثور 6: 319، أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير سمعت رسول اللّه (ص) يقول: «و إذا النفوس زوجت: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة و النار».

أقول: و هو تزويج كل إنسان بعمله أي قرنه به، و فيه أخرج الفراء عن عكرمة في الآية قال: يقرن الرجل في الجنة بقرينه الصالح في الدنيا و يقرن الذي كان يعمل السوء في الدنيا بقرينه الذي كان يعينه في النار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 150

و كذلك الموؤودة كانت ثقلا عند العرب الجاهلي، و في عصر الصاروخ أيضا من جهات عدة.

ان الموؤودة، المسؤولة- عنها و لها- هي البنت إذ كانت عبئا و ثقلا- زعم العرب الجاهلي- في الحياة: المادية منها و المعنوية سواء، ثقل المعيشة و ثقل العار، فكانوا يثقلونها بالتراب تخفيفا عنهم ثقلي الحياة، و علّها سميت موءودة لهذه الأثقال الثلاثة كلّها.

و رغم أن الوأد «الثقل» الأوّل كان خاصا بالفقراء، و أكثرهم كانوا فقراء:

«وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ‏- ... خَشْيَةَ إِمْلاقٍ- نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ» (6: 151- 17: 31). كان الأخيران يعم عرب الجزيرة كلهم: «وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى‏ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ. يَتَوارى‏ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى‏ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ» (16: 57- 58).

و إذا الموؤودة التي زعمت ثقلا: ماديا و معنويا- و لذلك كانت تثقل بالتراب- إنها سئلت، بأيّ ذنب قتلت.

و لقد كان من هوان تاريخ الإنسان عادة و أد البنات المظلومات خوف الفقر و العار، و القرآن يندد بها في مواضع عدة، و أنهن إذا كن عارا فلما ذا تنسبون إلى اللّه البنات: «أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ» (52: 39) «أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ. وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ. أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ» (43: 16- 18).

يختص القرآن هذه العملية الوحشية القاسية هنا بذكرها في طيّات علامات الطامة الكبرى و آثارها، إيحاء إلى أنها من أقسى و أوحش ما مضى على تاريخ الإنسان، إنها طامة من الطامات، يحاسب بها فاعلها أول ما يقوم يوم الحساب،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 151

يذكره في سياق هذا الهول الهائج المائج كأنه حدث كوني من هذه الأحداث العظام.

إن العرب الجاهلي الوائدين للبنات كانوا على فرق شتى، تعمها الصورة القاسية الوحشية لهذه العملية العارمة.

فمنهم من كانوا يجلسون المرأة حين وضعها فوق حفرة هيئوها من قبل، فإن كان المولود بنتا رمي بها فيها و ردمت.

و منهم من كان يتركها إلى السادسة من عمرها ثم يقول لأمها زينيها و طيبيها لكي أذهب بها إلى أحمامها فيأخذها إلى حميم البئر، يدفعها فيها بكل قساوة و ضراوة، و يهيل التراب عليها «أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ».

و البعض القليل كانوا يمسكونها مهينة «أَ يُمْسِكُهُ عَلى‏ هُونٍ» إلى أن تقدر على الرعي فيلبسها جبة من صوف أو شعر و يرسلها في البادية ترعى له إبله، و فيما إذا تزوجت و مات زوجها جاء وليه فألقى ثوبه عليها منعا لها عن زواج آخر ثم يرثها أو تفتدي نفسها منه ..

هذه و تلك كانت العادة الجاهلية بحق البنات عند العرب، فما كان لقبيل الأنثى أيّ كيان عندهم، بل كنّ أنزل مكانة من الحيوان أيضا و أرذل كيانا.

و لقد كانت في نظر بعض الأجيال صفرا و تحت الصفر، ففي الجيل الخامس الميلادي كانت تعقد المجامع للنظر في: هل هي إنسانة لها نفس إنسانية؟ أم هي دون الإنسان رغم صورتها الإنسانية، و هكذا كان العصر السابق على الإسلام عصر ضياع المرأة، و كان للرجل كل حق عليها و حتى و أدها دون أي نظام يطالبه بالتجريم أو يحكمه بالتحريم، كأن الوأد هو القانون، حتى جاء الإسلام مشنعا بهذه العادات، و متّعها بحقوقها و اعتبرها بنتا و زوجة و أما، و خلّصها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 152

من و أدها و حرمانها حقوقها، و رفع لها من درجاتها كما تحق في كافة مجالات الحياة فردية و جماعية.

فهل تظن الآن أن البنات خلصن من الوأد، و في عصر تحضّر المرأة و تقدمها مع كل ما وصلت إليه المدنية الحديثة؟ .. كلا .. و إنها الآن موءودة أشر مما كانت في الجاهلية الأولى.

إن الآيات تندد بمن يئد البنات أيّا كان، و أدا في التراب أم وأدا في تباب، قبل الولادة و بعدها، جسدانيا أم روحيا، و أحرى أن يسمى الوأد الروحي وأدا! فإنه بعد عن حياة الروح، و ذلك عن حياة الجسم.

فإذا كانت الجاهلية الأولى تئد البنات، فالجاهلية المتحضرة تئدهن مع الذكور بعملية الإجهاض المتبعة في كافة البلاد، و تئدهم جميعا بالأمراض التناسلية الناتجة عن تفشي الفحشاء و الخلط بين الجنسين، لحد تولّد الولائد المرضى، المبتلين بالأمراض المهلكة، أم تقتلها قبل ولادتها، و ما إلى ذلك من ألوان الوأد لحدّ لا يحصى.

و إذا كانت الجاهلية الأولى تدفن البنات تحت التراب مخافة الفقر أو العار، فالجاهلية الأخيرة تدفنهن بشبابها و تدفعها إلى كل عار و دمار و بوار خلقي و رذالات جنسية همجية، وأدا لكرامتها و دفنا لإنسانيتها، جاهلية أعمى من الأولى، غليظة الحس، حيوانية التصور، هابطة في درك البشرية إلى حضيض مهين و ضلال مبين، فقدت المرأة ميزتها الإنسانية و انحطت إلى أحط الورطات و النكبات الحيوانية، لحدّ توزن بثقل جسدها و جمالها و شبابها و نضارتها الجنسية، كأنها حيوانة خلقت لإرضاء ناحية الجنس ليس إلا.

فإذ يصف أمير المؤمنين عليه السّلام الجاهليين الأولين بما يصف- و الآخرون أحرى بوصفه- يخاطب الناس فيه:

«أيها الناس إن الله تبارك و تعالى أرسل إليكم الرسول- إلى أن يقول:- و دفنوا في التراب الموؤودة بينهم من أولادهم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 153

أو لا يختارون دونهم طيب العيش و رفاهية خفوض الدنيا، لا يرجون ثوابا و لا يخافون و الله منه عقابا، حيهم أعمى نجس، و ميتهم في النار مبلس فجاءهم بنسخة ما في الصحف الأولى» «1».

فهل يا ترى إن وأد البنات و قتلهن في أجسادهن مخافة الفقراء و العار المزعوم، هل إنه أوحش و أفحش، أم دفنهن في الملاهي و الشهوات و الدعارات و ألوان العار و البوار، أن يصبحن لعبة للرجال دونما حسّ؟؟؟؟؟ و لا حجز، نتيجة عدم الاكتراث بشأنهن؟

فهذا دفن الروح و الجسم معا و ذاك دفن الجسم، هذا دفن المثل العليا و القيم الإنسانية، و ذاك دفن القيم الجسدانية، فهو أشد من قتل الأجساد و وأدها و كما توحي إليه آيات عدة: «وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ‏- ... أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» (2: 191) (2: 217) و أية فتنة أشد و أكبر من فتنة اللامبالاة بين الفتيان و الفتيات، الناتجة عن تركهم سدى في خوضهم يلعبون و في غيهم يعمهون.

و قد يفسر الإمامان الصادق و الباقر عليهما السلام القتل في الآية: «مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً» (5: 32) يفسر انه بقتل الروح و على حدّ

قولهما: «من أخرجها من هدى إلى ضلال فقد قتلها»

بيانا لأهم المصاديق، كما و يفسر الحياة أيضا بحياة الروح «و من أحياها فكأنما أحيى الناس جميعا»: من أخرجها من ضلال إلى هدى‏ «2».

فسؤال الموؤودة يوجه إلى الآباء الحاليين قبل أن يوجّه إلى القدامى، حيث القتل في عصور الحضارة أشد و أكبر منه في الجاهلية الأولى.

إن موءودة الجاهليات «سئلت» تسأل هي بأي ذنب قتلت: سؤال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 515، الكافي بالإسناد عن مسعدة عن الصادق (ع) عنه (ع).

(2) المصدر 1: 514 ح 153. و مثله عن الباقر (ع) بسند آخر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 154

ترحّم و اعتذار، و يسأل وائدها سؤال تقحّم و إنذار، سئلت:

«لها و عنها».

إن السؤال في لفظ الآية لم يوجّه إلى الوائد و هو المسؤول! إذ خرج بفعلته الوحشية عن أهلية الخطاب، و الموؤودة هي المؤهلة للسؤال، أن تسأل ترحما و اعتذارا بجنب المسؤول، و تنديدا و إنذارا للمسؤول، و كما السيد المسيح سئل:

«وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (5: 116).

فقد انحطت درجة المسؤول هنا و هناك لحدّ لا يوجه إليه و حتى خطاب العتاب فكيف بسائر الخطاب: «وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (2: 174).

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ‏:

نشر الصحف و كشط السماء، فما هي الصحف المنشورة؟ و ما هو كشط السماء؟ فما هي النسبة بينهما إذ قرنا؟

الصحيفة هي المبسوط من الشي‏ء، و هي غير منشورة يوم الدنيا لأهلها، ثم تنشر: تبسط و تخرج عن الخفاء و الخباء، و إنها: صحف الوحي، و صحف الأعمال من الأعضاء و من الأرض، و صحف القلوب و الصدور و الأفكار، التي كانت مبسوطة، عليها سطور الهداية و سجلات الأعمال، و لكنها كانت خفية عن غير أصحابها، أو خفية عن بعض أصحابها، الذين خفيت صحائف عقولهم «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى» و صحائف قلوبهم‏ «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» (83: 14) «وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» (29: 38).

أخفوا على بصائرهم صحف الوحي، و أخفيت عن أبصارهم سجلات الأعمال،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 155

و حقائق الأعمال، و خفيت على أنفسهم أنفسهم فهم في غمرتهم و سكرتهم يعمهون و في غيهم يترددون .. و كان بإمكانهم أن يرووا الصحف صحفا منشورة عندهم، رغم خفائها على من سواهم، و لكنهم عموا و صمّوا حتى جاءهم وعد اللّه.

إن نشر الصحف هناك يفيد كشفها و معرفتها فلا تعود خافية و لا غامضة و هذه العلنية الشاملة يوم المحشر أشد على إنسانها و أنكى، فكم من سوأة يخجل صاحبها منها في نفسه و يرجف و يذوب من كشفها، فكيف إذا رآها منشورة حاضرة مشهودة! إن صحف الإنسان تتكشف للحجة و الحساب، و كما يتكشف الكون، بأرضه كما عرفناه، و بسمائه إذا كشطت: تحللت عن كونها سماء إلى ما كانت عليها من دخان: «يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ» (44: 11) تكشط و تتكشف لتحضير موقف الحساب و مصير أهل الحساب:

«وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ».

فذلك يوم الكشف و الكشط، يوم ظهور الحقائق دون خفاء، فما هو إذن كشط السماء؟

إنه من كشط الناقة- أي تنحية الجلد عنها- و منه استعير انكشط روعه أي زال، فكما الناقة تكشط بعد نحرها فتقطع، كذلك السماء سوف تكشط بعد موتها في الطامة الكبرى، ينحّى عنها جلدها و جلدها، و ينزع عنها رباطها، و ترتجع إلى ما كانت‏ «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ» (86: 9) و أنها تنشق بكشطها: «إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ. وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ» (84: 1- 2) انشقاقا و افتراقا عن امتدادها و التئامها، فكانت وردة كالدهان: «فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ» (55: 37) واهية مسترخية: «وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ» (69: 16) و يومئذ تتساقط و تنتثر أولادها من حجرها و تفرج: «وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ» (77: 8) «وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 156

(82: 2) و فتحت بعد غلقها: «وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً» (78: 20) و تمور و تكون كالمهل: «يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً» (52: 9) «يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ» (70: 8)، و حينذاك ينقضي دور السماء و تطوى طيّا: «يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ» (21: 104) .. يطوى طومار السماء كما تطوى طوامير الإنسان و صحفه، ثم تنشر الصحف المطوية بعد النشر و قيامة الحشر و لتجزى كل نفس بما تسعى.

إنها ليست هي السماء بمفردها التي تكشط و تسترخي عن الجاذبية العامة، إنها رخوة الكائنات كلها أن تعمل فيها فوضى الطاقات رجعا إلى حالتها الأولى، تدميرا شاملا بعد تعمير، فكما اللّه أعطى كذلك اللّه يأخذ.

هنا نعرف أن كشط السماء و قشطها ليس عن جلدها الظاهر فحسب، إنما عن كيانها السماوي- ككل- و إلى طيّها، تبدلا إلى غيرها: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (14: 48) و كما

عن باقر العلوم عليه السّلام‏ في قوله: كشطت، قال: أبطلت‏ «1».

وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ‏:

إن الجحيم قبل دخول أهلها غير بارزة و لا مسعرة، و إنما تسعيرها هو التهاب النار فيها، و إنه بوقود الأجساد الجهنمية و أعمالها من الخالدين فيها، فإنهم‏ «سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» (4: 10) أي يوقدونها: «مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً» (17: 97).

إن السعير هذا معدّ للكافرين مهما كانت أرضها حاضرة، و الإعداء استعداد الواقع لا الواقع نفسه: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً» (34: 64)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 516 ح 14 عن القمي في تفسيره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 157

«بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً» (47: 13) «إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالًا وَ سَعِيراً» (76: 4).

فإعداد السعير شي‏ء و تسعير الجحيم شي‏ء آخر، إذا فالجحيم موجودة الآن دون نار مسعرة، أو أن فيها نار غير مسعرة.

و إزلاف الجنة تقريبها لأهلها إذ قدموا و قربوا لها ما يؤهلهم لاحرازها، قربا بقرب: «وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ» (50: 31) أزلفت للمتقين- إليهم- و علها إلى الجحيم أيضا ليتراءى أهلوهما فتزداد رحمة اهل الجنة و عذاب اهل الجحيم بهذه المواجهة و إزلاف الجنة للمتقين يوحي لمكرمتين: 1- أنها كانت جنة قبل القيامة لأنها من فضل اللّه دون أن تختص بقدر الطاعات، و إن كانت تزيد نضارة و طراوة بدخول أصحابها، 2- أنها على عظمتها تقرب إلى أهلها دون أن يتكلف أهلوها لطي مسافة إليها.

ذلك و لأن النار إنما هي على قدر الأعمال عدلا من اللّه فلا تتأجج قبل أوانها، و الجنة هي على قدر فضل اللّه فليس له حدّ يعرف، و إن كانت الصالحات هي التي تؤهل لإزلافها و دخولها.

و حيث تسعّر الجحيم بوارديها و تزلف الجنة لروّادها الموعودين بها أو الموعوظين لها، عندئذ لا يبقى لدى النفوس أية ريبة في حقيقة ما أحضروها، إذ هم يرون أنفسهم في آثار الأعمال و حقائق الأعمال بعد ما يرون صور الأعمال.

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ‏:

بعد هذه الحوادث العظام، و بعد ما كانت النفوس جاهلة بما عملت، علمت كلّ نفس ما أحضرته من خير أو شرّ، علما بما يرى و يسمع من أفعاله و أقواله:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 158

علم العيان: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (3: 30).

تجدها وجدانا واقعيا فلا تملك إنكارها و لا أن تغير شيئا منها و لا أن تزيد عليها أو تنقص منها، فقد جفّ القلم عما كان و لا يحضر إلّا ما كان.

صحيح أنه تبدّل كل شي‏ء و تغير، و لكنما الأعمال لا تتغير، فإنما تبرز بحقائقها كما ارتجعت الكائنات كلها إلى حقائقها التي صدرت منها.

إن الحياة الدنيا رغم كونها حياة العناء، و لكنها حياة التقديم، تخلّص و تحضر للآخرة، و كتابها: «لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً».

إن الحياة الآخرة حياة العلم الضروري، تعلم فيها ما قدمت شئت أم أبيت، تعلم عن جهل أو تجاهل كما في الكافرين، أم بعد علم كما في المؤمنين، فهم و إن كانوا على علم- مهما اختلفت مراتبه- علم بما يحضرون، و لكنما الغفلة أحيانا من ناحية، و الجهل بحقيقة الأعمال من أخرى، جعلاه جاهلا، ثم يعلمها علم اليقين و عين اليقين و حق اليقين، و إن كان أولياء اللّه الأكرمون يعلمون قبل الميعاد، و كما

عن الإمام علي عليه السّلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا»

و الدنيا كلها غطاء تكشف بالموت، الموت الاختياري عن الشهوات:

«موتوا قبل أن تموتوا»

أو الموت الاضطراري‏ «وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ»: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 159

[سورة التكوير (81): الآيات 15 الى 29]

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (16) وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (17) وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19)

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24)

وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (27) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (29)

. «فَلا أُقْسِمُ»: نجدها في ستة مواضيع أخرى، و منها التي تنحو منحاها هنا: «فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ. وَ ما لا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ. وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» (69: 38- 43) «فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ. وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» (56: 75- 82).

في هذه المواضيع الثلاثة نجد موضوع اللّاقسم أنه صدق القرآن و حيا، و صدق بني القرآن موحى إليه.

ثم نجدها في سواها باختلاف المواضيع: «فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ. وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ. وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ. لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» (84: 16- 18) «لا أُقْسِمُ بِهذَا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 160

الْبَلَدِ. وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ. وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ» (90: 1- 3) «لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ. وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ. أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ» (75: 1- 3) «فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ. عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» (70: 40- 41).

و موضوع اللاقسم في الأخيرين هو القدرة الإلهية على تجديد الحياة يوم المعاد، و لعلّ ركوب الإنسان طبقا عن طبق، و خلقه في كبد، عله أيضا يوحي إليه أو يعمه فيما يعنيه.

إذا فمدار اللاقسم في هذه المواضيع السبعة إنما هو أصل الرسالة القرآنية و أصل المعاد.

فهل يا ترى إن القرآن و هو أعظم برهان، إنه بحاجة إلى برهان سواه، يدل عليه؟ «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ» (29: 51) ..

هذا القرآن- و كله برهان- نور لا تطفأ مصابيحه، هل يحتاج في إثبات وحيه إلى سواه، و هو الشمس تشرق في الظلمات؟! فما بال الشمس تستضي‏ء بنور غيرها، و ما بال النور يستنير بسواه؟ .. كلا: إنه الدليل يدل إلى خير سبيل، برهان لنفسه و فرقان لسواه: يميز الحق عن الباطل في كافة الميادين.

ليست في الرسالة المحمدية أية خارقة تدل عليها كالقرآن و كما يقسم لإثبات هذه الرسالة السامية بحكمة القرآن: «يس. وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (36: 1- 4) فسماع الوحي الذي هو النبوة، و الرسالة على صراط مستقيم، يتوسطهما القرآن الحكيم، برهانا لا مردّ له، لهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 161

إذا فما هي الحاجة لإثبات وحي القرآن أن يقسم له بالخنس الجواري الكنس و الليل إذا عسعس، حتى و الصبح إذا تنفس‏ «1»؟.

فهل في الخنس: (المنقبض المتأخر المستتر) و الجواري الكنس: (المختبئ الداخل في كناسه) هل فيهما دلالة لإثبات وحي القرآن؟ و الكائنات كلها منقبضة متأخرة مستترة تجاه نور القرآن، و برهانه، و هو المنشرح المتقدم الظاهر الباهر كالشمس في رايعة النهار؟! كلا؛ و لا في الصبح إذا تنفس لأنه أول النفس و القرآن بلغ من أنفاس الحياة المعنوية منتهاها.

كلا؛ و لا بمواقع النجوم و هي الظاهرة لكل ذي بصر، رغم أنه لقسم لو تعلمون عظيم! كلا؛ و لا بأيّ من كائنات العالم: «فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَ ما لا تُبْصِرُونَ» إذ لا أظهر من القرآن حتى يظهره و يدل عليه، أ لغيره من الظهور ما ليس له؟

عميت عين لا تراه! ثم و ما هي النسبة الدلالية بين الخنس الجواري الكنس لإثبات وحي القرآن، و الآية تصرح بنفي القسم: «فَلا أُقْسِمُ»: تفريعا على الآيات الكونية السابقة كالشمس المكوّرة و النجوم المنكدرة، أنهما و أمثالهما من نيّرات الكون مصيرها إلى التكوير و الانكدار، و شمس القرآن لا تكوّر و لا تنكدر، و قد تتلألأ أكثر و أكثر حينما النيرات تنكدر، فهي أيضا من الخنّس الجواري‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و قد يشهد له‏

المروي عن علي (ع) في‏ «وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ» قال: «يعني بذلك الأوصياء، يقول: إن علمهم أنور و أبين من الصبح إذا تنفس» (البرهان 4: 433 ح 4)

أقول و هو يؤيد اللاقسم، إذا لا يقسم بالنور لاثبات الأنور، و علم الأوصياء هنا مثل عن علم القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن (11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 162

الكنس، و كيف يقسم بها لإثبات وحي القرآن وضوئه الذي لا يكنس و لا يخنس!: «فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوارِ الْكُنَّسِ».

و قد يجوز- فيما لا يجوز- كون الليل المعسعس و الصبح المتنفس مقسما بهما لمكان. الواو: «و الليل- و الصبح» كما في‏ «وَ الضُّحى‏. وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى‏. ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏» (93: 1- 3): ليس ترك الوحي للفترة التي ترك فيها- و هو سجي ليل النبوة- ليس إعراضا عن النبي بتوديع و لا قلي، إنما هو من اللّه، لحكمة قضت، و كما أنّ استمرارية الوحي- و هو ضحى نهار النبوة- إنه من اللّه تعالى.

كذلك ليس وحي القرآن إلّا كالصبح إذا تنفس، في حين أن ما سواه من وحي الأرض هو الليل إذا عسعس: أن ميزة وحي السماء في نورها كميّزة الصبح أن يشق نوره ظلم الليل الدامس العسعس.

فهذا هو الكتاب المنير، و على حدّ تعبير الرسول البشير النذير:

«هو النور المبين و الحبل المتين و العروة الوثقى و الدرجة العليا و الشفاء الأشفى و الفضيلة الكبرى و السعادة العظمى، من استضاء به نوره و من عقد به أموره عصمه الله و من تمسك به أنقذه الله، و من لم يفارق أحكامه رفعه الله، و من استشفى به شفاه الله و من آثره على ما سواه هداه الله و من طلب الهدى في غيره أضله الله و من جعله شعاره و دثاره أسعده الله و من جعله إمامه الذي يقتدي به و معوله الذي ينتهي إليه أداه الله إلى جنات النعيم و العيش السليم» و «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن .. له نجوم و على نجومه نجوم .. فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة و دليل المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره و لبلغ الصفة نظره ينج من عطب و يتخلص من نشب، فإن التفكر حياة قلب القصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور ..».

و على حد تعبير

علي أمير المؤمنين عليه السّلام: «نور لا تطفأ مصابيحه و سراج‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 163

لا يخبؤ توقده، و بحر لا يدرك قعره، و منهاج لا يضل نهجه، و شعاع لا يظلم ضوؤه، و فرقان لا يخمد برهانه، و بنيان لا تهدم أركانه، و شفاء لا تخشى أسقامه، و عز لا تهزم أنصاره و حق لا تخذل أعوانه ..».

من هنا و هناك نستوحي غنى القرآن البرهان عن أي شاهد و برهان، اللهمّ إلا لمن كلت بصيرته، فليستدل لأنواره المعرفية المعنوية بالأنوار المادية المحسوسة كالضحى و الصبح إذا تنفس، و يستدل لظلمات ما سواه بالليل إذا سجى و عسعس، بما أنهما باهران في المثال، دون الخنّس الجواري الكنّس، إذ الخفي المذبذب، المستتر المختبئ، لا يمثّل الظاهر الجلي، اللهم إلا للدلالة على وحي الأرض الخانس العسّ، «فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ»: فقد يكون، إذن، قسما و لا قسما: «فَلا أُقْسِمُ ..» للدلالة على نور الوحي، و لو أقسمت فإنما لظلمة وحي الأرض، و لكي يعرف تجاهه وحي السماء.

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوارِ الْكُنَّسِ‏:

إن الجواري الكنس هي الخنس بشاهد عدم العطف، خلافا لكافة المفسرين الفاصلين بينهما، كأن الثاني غير الأول و هما واحد! فالخنس هي التي تقبع و تستسر و تخفى و تستتر، كما الكنس هي المتوارية المستخفية: سواء في ذلك النجوم الظاهرة الزاهرة بالليل، و المستسرة المتتبعة بالليل‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 320 عن علي (ع) في قوله تعالى: فلا أقسم بالخنس، قال: هي الكواكب تكنس بالليل و تخنس بالنهار فلا ترى.

أقول: هذا من التفسير بالمصداق الظاهر، و جمع الخنس و الكنس للكواكب يشهد لما استوحيناه من وحدتهما.

و فيه أخرج الحاكم أبو أحمد في الكنى عن العدبس قال: كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين ما الجواري الكنس، فطعن عمر مخصرة معه في عمامة الرجل فألقاها عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 164

و كذلك الشمس الخانسة يوميا، المكورة نهائيا، كما و إن كل طالع في الحياة من الكائنات، إنه بين طلوع و غروب حتى تغرب نهائيا، و قد ذكرت منها مسبقا الشمس و النجوم و البحار و الوحوش و السماء و الجبال، و هي من أبرز و أقوى الخنس الجواري الكنس، تجري دوما طلوعا و غروبا و إلى الغروب الدائب.

لا أقسم بها مهما كانت نجوما و شموسا، و هي مثال لشموس الفصاحة و البلاغة التي خفيت، خنست و كنست، عند بزوغ شمس الرسالة المحمدية في أفق الجزيرة، إذ إن القرآن شمس لا تخنس و لا تكنس، تحريضا للجهال لكي يستيقظوا، و استنهاضا لهم أن يفكروا في القرآن نفسه و لكي ينتبهوا أنه هو برهان وحيه بنفسه، دون حاجة إلى سواه، حيث البراهين كلها خانسة كانسة تجاه القرآن الذي كله برهان، و كيانه- ككل- أنه نور و برهان.

وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ. وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ‏:

«عسعس» لفظة مؤلفة من «عس» مرتين، و أصله طلب الشي‏ء بالليل، و العسعسة من الأضداد، فهي الإقبال و الإدبار: إقبال الليل و إدباره، و إقبال الطالب بالليل و إدباره فيه للحصول على المطلوب‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رأسه، فقال عمر: أ حرورى! و الذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتك محلوقا لأنحيت القمل عن رأسك».

أقول: أ فهكذا يجاب من يسأل عن القرآن؟ فإذا جهل الخليفة معنى آية من القرآن فلما ذا يهتك من يستعلمه؟ و لماذا يفتري عليه؟.

على الحق مع الخليفة يؤدب من يستعلمه و ليس المسؤول من أهل الذكر، و اللّه تعالى يقول:

فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .. و لكنه هل من الخطأ أن يظن بخليفة المسلمين بعض الخير: أنه يعلم بعض الشي‏ء من القرآن فيستعلم؟ أنا لا أدري! (راجع كتابنا علي و الحاكمون في باب ثقافة الخليفة).

(1). في لسان العرب: العسعاس الخفيف من كل شي‏ء، و العسعسة قيل هي الإقبال، و قيل هي الأدبار، و قيل هو من الأضداد كما عن أبي إسحاق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 165

و الليل المعسعس هنا مثال لزمن الفترة الرسالية بين السيد المسيح و سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ كان يقبل أحيانا بظلمات الجهل العارمة، و يدبر أخرى تخفيفا عنها، و لقد كان طلاب الحقيقة في هذه الفترة العس الداعس، كانوا حيارى، بين من لا يجد إلا الظلام، و من يجد خليطا منه و من النور عن كتابات الوحي الخليطة من الغث و السمين.

و الصبح إذا تنفس بالنور و الحياة و الحركة إذ أخذ يفجر ظلم الليل العس، و التنفس هنا خروج ضوء الصبح من عموم غسق الليل، فكأنه متنفس من كرب، أو متروح من همّ، و من ذلك قولهم: قد نفس عن فلان الخناق أي انجلى كربه و انفسح قلبه .. أو بمعنى انشق و انصدع من قولهم: تنفس الإناء إذا انشق و تنفست القوس إذا انصعدت.

و هذا مثال للقرآن إذ أخذ يفجر منذ بزوغه ظلم الأوهام التي خنقت البشرية طوال الفترة الرسالية، ففي الصبح الذي بزغ نور الوحي القرآني على القلب المحمدي، لمست البشرية و تنفست بحياة جديدة بعد موت عارم خيم بظلمه على بني الإنسان إذ كانوا في ليل داج عسعس، و لم تكن الأنوار في الأرض إلا خنسا كنسا: فأنوار وحي الأرض كانت غاربة، و أنوار وحي السماء كانت خليطة بشي‏ء كثير من وحي الأرض، حتى تنفس صبح الرسالة القرآنية، مهيمنة على وحي الرسالات كلها.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ‏:

ليس القرآن قول إنسان و منه، و لا قول ملك و منه، و إنما هو قول رسول إلهي، يحمل هذه الرحمة الواسعة الربانية دون ابتغاء جزاء أو شكور، و هذا هو معنى كرم الرسول، فكما الوحي كرم من اللّه، كذلك من يحمل الوحي كريم يبلغه مهما بلغت به الصعوبات في هذه السبيل دون قهر و لا أجر و لا أنفة و لا كبر، و إنما حياته هي الرسالة الكريمة بدء ختم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 166

و هذه الحقيقة الناصعة لا يستشهد لها بأي من كائنات الوجود «فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَ ما لا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ. وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» (69: 39- 44).

بل و لا بأظهر ما تبصرون‏ «فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ. وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» (56: 75- 82).

فهذه النجوم السماوية الواقعة في عمق الفضاء، من النيازك النارية التي تقذف الشياطين المسترقين السمع في الملأ الأعلى، و الأحجار السماوية التي تقذف شياطين الأرض، و من النجوم الواقعة في مداراتها لتطلع أو لتغرب ... لا أقسم بها لإثبات أن الآي القرآنية هي نجوم سماء الوحي الضاربة في أعماق الأفكار و القلوب، المنيرة للمهتدين، و المظلمة على المعاندين.

لا أقسم بها، لأن نجوم القرآن هي أظهر للبصائر، رغم الأبصار الكليلة التي تعمى عنها أو تتطمى، و كيف يقسم للنجوم الزاهرة الخالدة بالخنس الجواري الكنس!.

و قد يكون لا أقسم في حين كونه «اللاقسم» توجيها لما يصلح أن يكون قسما لمن كان بصره أقوى من بصيرته، جمعا بين جماع الناس، فمن أراد أن يتذكر بالآيات الكونية لإثبات وحي القرآن، فالكون كله يصلح له شاهدا مما يرى منه و ما لا يرى: ما يرى من النجم و الشمس و القمر، و ما لا يرى من العقول و الفكر و الفطر.

و من أراد أن يستدل بالقرآن نفسه على وحيه فها هو القرآن أظهر برهان و أزهره‏ «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 167

فسواء القسم و اللّاقسم هنا و هناك، فالقرآن برهان لا مردّ له على وحيه‏ «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ ..».

«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»: فليس قول محمد و لا جبريل، إنما قول اللّه يحمله الرسول كرسول، فقول الرسول ليس إلا قول المرسل يحمله كما أوحي إليه، فمن هو الرسول هنا؟ هل إنه جبريل رسول اللّه إلى الرسول؟ أم هو الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رسول الرسل و معلم جبريل؟ أم هما المعنيان هنا من: «رَسُولٍ كَرِيمٍ» إذ إن الرسالة واحدة و القول واحد يحمله ملك الوحي إلى رسول الوحي؟

أقول: طالما الرسالة الإلهية تعم الرسولين، و لكنها هنا- حسب القرائن الموجودة- ليست إلا الرسالة المحمدية، حيث الأوصاف الإيجابية و السلبية المسرودة هنا للرسول تختصه بالرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فهنا إنه‏ «كَرِيمٍ- ذِي قُوَّةٍ- عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ- مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ- وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ- وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ- وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ- وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ».

و هناك «و ما هو بقول شاعر- و لا بقول كاهن- فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ. وَ ما لا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ. وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ» (69: 38- 43).

و جلّ هذه الصفات- أو كلّها- لا تنطبق إلا على الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إن كان القرآن قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قول جبريل كرسولين، و لكنما الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو موضوع البحث هنا أصالة كموضوع الرسالة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و عليه يحمل ما

يروى‏ من تفسير «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ» بجبريل و «مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» برسول اللّه‏ كما في نور الثقلين 5: 518، القمي بالإسناد إلى الصادق (ع)

فلا ينافيه ما

عن الرسول (ص) أن‏ «مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ»- أيضا- هو جبريل‏ (المصدر عن: المجمع)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 168

فكلنا نعلم أن جبريل لم يصاحب غير الرسول لكي تستدل بصحبته و عشرته للمخاطبين أنه غير مجنون، و لم ينسب إليه الشعر و لا الكهانة و لا الشيطنة و لا الجنون لكي تنفى عنه، فالمشركون لم يكونوا ليعترفوا بوجوده حتى ينسبوه إليها، و أهل الكتاب كانوا يحترمونه فكيف يتهمونه بالشيطنة و الجنون! في حين أنهم نسبوا إلى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كل هذه: «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ» (34: 8) «أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ» (52: 29) «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (7: 184) ..

«كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» (51: 52).

و من جهة أخرى نعلم أن جبريل ليس هو موضوع الرسالة و الوحي لكي تحاول الآيات إثبات رسالته و أنه لا يسحر و لا يكذب، و إنما دوره دور الوسيط في الوحي المفصّل، و لا يثبت له كيان إلا بعد ثبوت الرسالة المحمدية و سواها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- ثم لا ينافيهما أن الآيات خاصة بالرسول تنزيلا، و كما تدل القرائن فإن أمثال هذه الروايات تحمل تفسير التأويل: أن جبريل (ع) يحمل وحي القرآن كما يحمله الرسول محمد (ص)، فتنزيل الآيات بشأن الرسول و تأويلها بشأن جبريل، و كل من يحمل وحي القرآن من فروع الرسالة المحمدية من أئمة أهل بيته الكرام.

ثم رواية ثالثة تفسر «مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» بالرسول (ص) كما

في الدر المنثور (6: 321)، أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: قال النبي (ص) لجبريل ليلة الإسراء: أكشف عن النار، فكشف عنها، فنظر إليها، فذلك قوله مطاع ثم أمين على الوحي و ما صاحبكم بمجنون، محمد (ص).

في حين نرى ابن عساكر يخرج عن معاوية بن قرة أن الرسول (ص) قال لجبريل: ما أحسن ما أثنى عليك ربي‏ «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» فما كانت قوتك و ما كانت أمانتك؟ ..

فليس من الواجب طرح الروايات التي تفسر الآيات بجبريل، و إنما نقول إنها من تفسير الجري و التأويل، نزلت في رسول اللّه و جرت في كل من يحمل وحي القرآن و أولهم جبريل- تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 169

فهي التي تعرّفنا الغيب و منه الوحي و منه ملائكة الوحي الغائبون عن الإحساس.

إنما موضوع الرسالة هنا هو الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذي صاحبهم عمرا قبلها، و هم ينسبونه إلى الشعر و السحر و الكهانة و الشيطنة و الجنون، الصفات التي تتنافى و الكرامة و المكانة عند اللّه و القوة الروحية التي تؤهله لتلقي الوحي، و المعرفة الإلهية لحد الرؤية: كأنه رآه! «وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ» و كونه مطاعا في دوره الرسالي و أمينا في دعوته.

«ذي قوة»: فكما اللّه هو شديد القوى: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى‏» كذلك الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذو قوة: «ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى‏» قوة معرفيه تؤهله لتلقي الوحي، فليس ضعيفا يتشبث بالشعر و الكهانة و السحر، و لا ضعيف العقل مجنونا، و لا ضعيف التمييز لكي لا يميز وحي الرحمان عن وحي الشيطان، و لا ضعيف الإيمان لكي يخون في الوحي الإلهي- و إنما: «ذي قوة» و كما اللّه شديد القوى.

نلمس هذه القوى الروحية من القرآن نفسه، دون أن تكون دعوى بلا برهان لرسول القرآن، فقوة القرآن تشهد لقوة الرسول و كما قوة الرسول تشهد لقوة القرآن: قوتان متناصرتان.

«عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ»: ذي قوة عند ذي العرش، مكين عنده، أو: ذي قوة، مكين عند ذي العرش، و الأوّل أولى و أليق، أن الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس ذا قوة في موازين الأرض: أنه قوي الساعد شجاع في الحروب، و إنما «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ» و القوة عند اللّه إله القوى، قوة ربانية لا قبل لها و لا مثيل في ملإ العالمين من الملائكة و من الجنة و الناس أجمعين.

و القوة عند ذي العرش- و هو صاحب عرش الألوهية- إنها قوة عرشية تعلو سائر القوى و كما القدرة الإلهية تعلوها، و لكن قوة ذي العرش‏ «شَدِيدُ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 170

الْقُوى‏» و هي من ذاته المقدسة، و أما «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ» فإنما له قوة من القوى غير شديدة، و هي من ذي العرش، دون أن يملك الرسول هذه القوة لذاته، و إنما هي رحمة من اللّه خاصة لرسوله الكريم الأمين.

لكنما القوة هذه على قلتها و عدم شدتها تجاه القوة الإلهية، إنها تعلو القوى غير الإلهية كلها، ملائكية و بشرية و سواهما.

«مكين»\*: عند ذي العرش، إن له مكانة عرشية خاصة عند ذي العرش ليست لغيره من ذوي المكانات من خملة الرسالات الإلهية.

مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ‏:

«مطاع» عند ذي العرش يطيعه من عنده من أصحاب القوى و ذوي المكانات، و كما نرى جبريل، رسول اللّه إلى الرسل، يخدمه و يطيعه، فليس كيانه إلا كيان الوسيط بينه و بين اللّه، لا لأن الرسول بحاجة إلى وساطته- إذ هو أقرب إلى اللّه و أقوى- و إنما لكي لا يظن به الناس ما ظنوه في بعض المرسلين من الألوهية كأنهم يقولون من عند أنفسهم دونما وحي، فإذ يصرح الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن جبريل هو الوسيط بينه و بين ربه في وحيه، فهنا تنطمس الظنون: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى‏ لِلْمُسْلِمِينَ» (16: 102).

فليست الغاية من نزول روح القدس إلا تثبيت المؤمنين، لئلا يقولوا ما قيل من قبلهم للرسل إنهم آلهة كما ظنوا في المسيح عليه السّلام.

«ثَمَّ أَمِينٍ»: عند ذي العرش، أمين على وحي اللّه و رسالة اللّه و دين اللّه، و لقد عاش قبل الرسالة أيضا أمينا لحدّ سموه محمّد الأمين، و هذه الأمانة المسبقة في الناس و عند الناس، تجعله- و بالأحرى- أمينا عند اللّه: «قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 171

(10: 16): عمرا بوفور العقل و الأمانة، فكيف تتهمونني الآن بالجنون و الخيانة؟! فالأمين عند الرعية أحرى له أن يكون أمينا عند ذي العرش، فهو إذ لا يخون الناس و هم ضعفاء، فكيف يخون اللّه و هو شديد القوى؟! .. أجل و إن وحي القرآن ليس ليحمله إلا رسول كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين.

فلو لا الكرم- و هو الرحمة العظيمة الواسعة دون ابتغاء أجر- لكان وحي القرآن في مضيق يختص بمن يؤتي الأجر دون الناس كافة! و لو لا القوة العرشية لما كان بمستطاعه تلقي الوحي- فأين التراب و رب الأرباب- .. إنه لا بد من قلب عرشي قوي لكي يقوى على تلقي الوحي من ذي العرش.

و لو لا ها لما كان يقوى على إبلاغ الوحي كما يجب، صبرا على المزالق و المشاق في سبيل الدعوة الشاقة.

و لو لا مكانته العظيمة عند اللّه لما كان يستحق هذه الكرامة الخاصة في تحمل الوحي الأخير و حمله إلى الناس كافة.

و لو لا أنه مطاع في دوره الرسالي، و عند وسائط الرسالة و عمال رب العالمين، لما استطاع أن يحقق و يطبق الرسالة الخالدة.

و لو لا الأمانة لكانت منه الخيانة، أو ممن كانوا يتربصون الدوائر بوحي القرآن أن يبدلوه و يحرفوه كما حرفوا كتب السماء من قبل.

و لكن أمانته و قوته و صموده و صلابته و مكانته جعلت وحي القرآن خالصا عن كل شين، خالدا إلى يوم الدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 172

وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ‏:

لقد اتهموه- فيما اتهموه- بالجنون، لا المشركون فحسب، بل و أهل الكتاب أيضا، و هم يعلمون أنه صاحب وحي و إلهام كما التوراة تشير:

ففي الأصل العبراني من «كتاب هوشع 9: 5- 9»:

(مه تعسو ليّوم موعد و ليّوم حك ادوناي 5 كي هنيّه هالخو ميشود ميصرييم تقبصم موف تقبرم محمّد لكسفام قيموش ييراشم حوح باهاليهم 6 بائوا يمّي هفقوداه بائوا يمّي هشّلوم يدعو ييسرائل إويل هنابئ مشوكاع إيش هاروح عل رب عونحا و ربّاه مسطماه 7 صوفّه إفرييم عم إلوهاي نابى‏ء فح ياقوش عل كال دراخايو مسطماه ببيت إلوهايو 8 هعميقوا شيحمطو كيم هكيبعاه ييزكور عونام ييفقود هطوتام 9):

أي: «ما ذا تصنعون يوم الاحتفال و يوم عيد الرب 5 ها إنهم يرتحلون لأجل الخراب، فمصر تجمعهم و موف تدفنهم و «محمد»\* لفضتهم و القرّاص يرثهم و العوسج يستولي على أخبيتهم 6 تأتي أيام التمييز، تأتي أيام الجزاء، سيعلم إسرائيل:- أن النبي السفيه و رجل الروح مجنون لكثرة إثمك و شدة الحنق 7 إن النبي رقيب، أ فرأيتم عند إلهي قد صار فخ صيّاد على جميع طرقه و حنقا في بيت إلهه 8 لقد توغّلوا في الإفساد كما في أيام جبعة فهو يذكر إثمهم و يفتقد خطاياهم 9» «1».

هذه الآيات المبشرة بسيدنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تندد باليهود الذين اتهموه بالجنون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير هذه الآيات إلى كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ص 73- 79.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 173

و هم يعلمون أنه صاحب الروح الرسالية، اتهموه لكثرة إثمهم و حنقهم و هم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (2: 146). «وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» (68: 51).

و تقول التوراة أيضا: «يدعو ييسرائيل إوايل حنبيا مشوكاع إيش هاروح عل روب عونخا و رباه مسطماه»:

«بنو إسرائيل يعلمون و يعرفون أن النبي الأمي المجنون صاحب روح إلهامي و صاحب وحي».

هكذا يجابه و يواجه أعقل العقلاء: أنه مجنون- مستور العقل- لا لشي‏ء إلا لأنه يدعوهم إلى غير ما يشتهون؟ فهل لأنه يضاد آراءهم المفندة أصبح مجنونا؟

إذا فكل الناس مجانين لأنهم- كلهم- مختلفون في آرائهم، يجنن بعضهم البعض! فمجانين بالإجماع!.

أو لأنه يعمل الأعمال المجنونة من ضرب و فتك و هتك و سب و قتل و حركات أخرى لا يصدقها العقل. فما هي؟ إنها ليست إلا التوجيهات التي تصدقها العقول و الفكر و الفطر، فإذا دحض حججهم و فنّد آراءهم يتمسكون بما يزيف مكانته، من الجنون و السحر و الكهانة و الشعر دونما حجة إلا الدعايات و العربدات الهمجية.

«وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ»: إنه لبث فيكم عمرا قبل الرسالة و صاحبكم عاقلا صادقا أمينا لحد سمّي بمحمد الأمين، فهذه المصاحبة العاقلة الأمينة هي الكافية لدفع تهمة الجنون عن ساحته القدسية، فإذا جاءكم بما يصلحكم تقولون إنه لمجنون؟

و ما هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 174

وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ. وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ‏:

فمن هذا الذي رآه الرسول الكريم بالأفق المبين، الرؤية التي عدّت من دلائل رسالته الإلهية و من مفاخرة المعنوية؟

هل إنه جبريل وسيط الوحي؟ و لم يسبق له ذكر! و الآيات المسرودة تركّز على رسول واحد، محمد أم جبريل، فهل رأى أحدهما نفسه في الأفق المبين؟

ثم رؤية الرسول لجبريل لا تختص بالأفق المبين، فلقد كان يتشرف ملك الوحي بحضرة الرسول عدد الوحي المفصل، مئات المئات من المرات، ثم ليست رؤيته لجبريل من مفاخره، و لا دليلا على رسالته، و إنما سماع الوحي و معدّاته الروحية، و إنما رؤية الرسول هي مفخرة لجبريل، رؤية التلميذ أستاذه في تعليم الوحي، رغم أنه كان وسيطا في ألفاظ الوحي و شيئا من معانيه حسب مقدرته.

فإنما الرؤية هنا كمال المعرفة و الزلفى الممكنة للممكنات، للرسول الأمين، أن رأى ربه بالأفق المبين: «بِالْأُفُقِ الْأَعْلى‏» أعلى الآفاق المعرفية بأعلى الآفاق الكونية: «وَ النَّجْمِ إِذا هَوى‏. ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى‏. وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى‏. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى‏. وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى‏. ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏. فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏. ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏. أَ فَتُمارُونَهُ عَلى‏ ما يَرى‏. وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى‏. ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى‏. لَقَدْ رَأى‏ مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى‏. أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى. وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى‏. أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى‏. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى‏» (53: 1- 22).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 175

هنا الآيات تركز على التعليم و الرؤية، و ليس لرؤيته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جبريل، و لا أنه وسيط وحيه، ليست لهما كثير أهمية، و لا أن هناك من ينكر الرؤية و الوساطة:

أبعد التصديق أنه نبي؟ أم مع نكران نبوته؟ فلا تصل النوبة- إذا- إلى نكران الرؤية! و كما درسناه مسبقا في سورة النجم، بشهادة الآيات أنفسها و الروايات:

ليس شديد القوى إلا اللّه‏ «1»، و إنما رسوله- أيا كان- هو ذو قوة، لا شديد القوى.

و شديد القوى- هنا- أوحى إلى عبده ما أوحى، فهل يا ترى أن محمدا تنزّل إلى درجة العبودية لوسيط الوحي المفصّل؟ .. ثم جبريل لم يصاحب الرسول إلى عمق المعراج، إلى سدرة المنتهى، فكيف رآه الرسول عند السدرة نزلة أخرى؟

ثم القسمة الضيزى بين رؤية محمد ما رأى، و بين رؤية المشركين اللات و العزى و مناة الثالثة الأخرى، ليست هذه القسمة الضيزى «الظالمة» إلا في رؤية الإله، إن رؤية بالبصر كاللات و العزى، أم بالبصيرة كما رأى الرسول ربه بنور المعرفة و اليقين لآخر درجات الإمكان، فنكران رؤيته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ربه هكذا، في حين يرى المشركون أربابهم، هذا هو القسمة الضيزى، لا نكران رؤية جبرائيل! فقد درج الرسول بكيانه ككل، بجسمه و روحه، درج فعرج إلى الأفق الأعلى، و لأنه ذو مرة: (قوة) فاستوى: استولى على الكون أجمع، و إلى أعلى الآفاق: الآفاق الكونية إذ وصل إلى سدرة المنتهى، منتهى الكون و كاهله، واضعا قدميه عليه فرأى من آيات ربه الكبرى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في دعاء الندبة «يا شديد القوى يا من على العرش استوى- و في دعاء: يا شديد القوى و يا شديد المحال»

و

في نهج البلاغة: شديد القوى يعني به اللّه‏ و كما في تفسير القمي أيضا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 176

و إلى أعلى الآفاق العقلية و المعرفية من الملائكة و المرسلين، فقد عرج الرسول الكريم إلى معراج تلكم الآفاق، خارقا حجب الظلمات و النور، فما زاغ بصره و بصيرته، و ما نقص في معرفة ربه، «وَ ما طَغى‏»: ان يراه ببصر العيان، أم يعرفه بالبصيرة حق المعرفة، و إنما ازدلف إليه و عرفه كما يمكن، خارقا كافة الحجب إلا حجاب ذات الألوهية، المستحيل خرقه.

إن الرؤية هذه هي رؤية الفؤاد بنور اليقين‏ «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏» «1» فللقلوب أبصار كما للقوالب: «قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ. أَبْصارُها خاشِعَةٌ» (79: 7- 8): أبصار القلوب الكليلة أو البصيرة النيرة و كما في العلوي:

«و أنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة» و عند ما يسأل: هل رأيت ربك؟ يجيب: كيف أعبد ربا لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان، و لكن رأته القلوب بحقائق الإيمان».

و

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لم أره بعيني و رأيته بفؤادي مرتين ثم تلا «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى»

و هذا جوابا عمن سأله هل رأيت ربك» «2» و

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في البحار ج 6 ص 380، عن ابن عباس قال: قال النبي (ص) فيما احتج على اليهود: .. حتى انتهيت إلى السماء السابعة فجاوزت سدرة المنتهى عندها جنة المأوى حتى تعلقت بساق العرش فنوديت من ساق العرش: إني أنا اللّه لا إله إلا أنا السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤوف الرحيم، فرأيته بقلبي و ما رأيته بعيني.

و

في 398 عن انس قال: قال رسول اللّه (ص) لما عرج بي إلى السماء دنوت من ربي حتى كان بيني و بينه قاب قوسين أو أدنى.

و

في 399 عن حمران قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول اللّه عز و جل في كتابه‏ «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏» فقال: أدنى اللّه محمدا منه فلم يكن بينه و بينه إلا قعص لؤلؤ فيه فراش يتلألأ.

أقول: اللؤلؤ هذا المتلألئ هو نور الذات الأزلية التي لا تظهر إلا له سبحانه لا سواه.

(2) في الدر المنثور 6: 124، أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي عن بعض أصحاب النبي (ص) قال: قالوا يا رسول اللّه (ص) ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 177

«نوراني أراه» «1»،

و

قال: «رأيت نورا» ..

كل ذلك إشارة إلى المعني من الرؤية: أنها كمال المعرفة بعد خرق الحجب الممكن خرقها لأفضل الكائنات و أشرف الموجودات.

و الرسول الكريم و إن كان عارفا بربه حق المعرفة طوال حياته الرسالية- مهما اختلفت درجاتها طولها- إلا أن طبيعة الحال تقضي في معراج هكذا، و إلى الأفق الأعلى، واضعا قدميه على كاهل الكون، تاركا ما سوى اللّه تحت قدميه و بقالبه، بعد أن تركها بقلبه المنير، متخليا متحللا منقطعا عما سوى اللّه و حتى عن نفسه المقدسة، مشتغلا بربه دون سواه، منعزلا عمن أرسل إليهم لهذه الفترة، فهذه الحالة تقتضي أن يكون هناك من ربه‏ «قابَ قَوْسَيْنِ»: ليس بينه و بين اللّه أحد و لا حجاب‏ «أَوْ أَدْنى‏»: ليس و حتى نفسه المقدسة و هي أقدس الحجب النورانية:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| «بيني و بينك إني ينازعني‏ |  | فارفع بلطفك إني من البين» |

فلم يبق آنذاك حجاب عن المعرفة إلا حجاب ذات الألوهية الذي لن يرتفع أبدا، فقد خرق- إلى الأفق الأعلى و فيه- خرق حجب الظلمة و حجب النور، ناسيا لها و تاركا إياها مشتغلا بربه، و لو أن بقيت هذه الحالة التجردية للرسول الكريم لاشتغل عن الكون و عن رسالته و عن نفسه و قضى نحبه، و هذا باب من المعرفة لا يعرفها إلا صاحب المعراج، و هي التي استدعاها موسى فأجيب:

«لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي» إذ ليس في وسعه العروج إلى هذا الأفق المعرفي كما لا يتسع الجبل فوق ما يتحمل.

«وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ»: ليس الرب على غيبه بخيلا:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر أخرج مسلم و الترمذي و ابن مردويه عن أبي ذر قال: سألت رسول الله (ص) هل رأيت ربك. فقال: نوراني أراه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 178

«عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً» (72: 27).

ليس الرب ضنينا برسوله الكريم على غيبه الممكن كشفه على غيره، كما و أن الرسول ليس على غيب ما أوحي إليه بضنين على الناس أجمعين، فلا ضنة لا هنا و لا هناك، فقد كشف اللّه عن غيب معرفته و عن غيب وحيه لرسوله الكريم ما لم يكشفه لأحد من العالمين، ليس لأنه ضنين على من سواه من المرسلين، و إنما لأن القلوب أوعية المعارف، لا تعي إلا على قدرها، فلو حملت فوق مستطاعها لتفتتت كما و الجبل لم يتحمل لما تجلى ربه له فوق ما يتحمل، مثالا لموسى إذ سأله منتهى المطاف في المعرفة، أنه لا يتحمل.

و لكن الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يؤهل لهكذا كشف عن الغيوب المكنونة الممكن كشفها، فإذ ليس اللّه على الغيوب هذه ضنينا، و قلب محمد يعيها، و إذ ليس محمد على بلاغ الغيب ضنينا- و لأنه يحمل الشريعة الإلهية كلها، و يتحمل عب‏ء الرسالات كلها- لهذا و ذاك‏ «رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ» «فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏».

«وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ»: فهل الشيطان الرجيم يوحي بهذا المنهج القويم لحدّ يفوق سائر الوحي النازل على أنبياء اللّه من قبل؟

ثم هل الشيطان يعارض نفسه في شيطنة العقائد و التصرفات- طوال وحيه- و يحافظ على كرامة اللّه و دين اللّه كما نلمسه تماما في وحي القرآن؟

فوحي القرآن ليس صادرا إلا عن اللّه- قضية قياسها معها- فليس وحيا نفسيا من كاهن و لا مجنون و لا عاقل يتكلم عن وحي نفسه و إن كان عن عقل و صفاء، و ليس وحيا من كاهن و لا شاعر و لا ساحر و لا شيطان و لا مؤمن عاقل عبقري إليه، فإننا لا نجد أيا من هذا و ذاك يلمح من هذا الوحي العظيم، و هو بنفسه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 179

يشهد علميا و عقليا أنه وحي اللّه ألقاه إلى رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ‏:

أين تذهب بكم المذاهب و تتيه بكم عن هذه المواهب: عن هذا الوحي القويم و هذا الرسول النبي الكريم؟ أين تذهبون و أنى تأفكون، من حيث لا تعلمون و لا تعقلون؟ أين تذهبون في أقوالكم و ادعاءاتكم و أحكامكم: أين تذهبون منصرفين عن الحق و هو يواجهكم أينما ذهبتم و حيثما كنتم، و ما ذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون؟.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ‏:

إن وحي السماء و رسل السماء- و بالأحرى رسول الرسل و أم الكتب- إنها لا تأتي بما ينافي العقول و الفطر أو لا يلائمها، و إنما كيانها: «ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» ذكريات تذكرهم بما نسوا أو تناسوا، بما درنت و رانت قلوبهم و كسفت عقولهم و مسخت فطرهم.

إن هذه الذكرى الرسالية تتركز على الأحكام الكلية العقلية و المصاديق الجزئية، إزاحة لشبهات العقول، و إنارة الدروب عليها، لتسابق فيما هو خيرها في الأولى، و إن كان الإنسان كإنسان الأرض لا يستطيع أن يعرف كافة الحكم في الأحكام الجزئية اللهم إلا ما يذكّرنا وحي السماء ..

فوحي القرآن و نبيّ القرآن ليس له كيان إلا «ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» تذكيرا عن الغفلة و الغفوة و الجهل و الجهالة، ذكرا بما هو منقوش في كتاب الفطرة، و تعرفه العقول المستقيمة .. «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 180

فكما المقوّم يجب أن يكون مستقيما، كذلك المقوّم، عليه أن يشاء الاستقامة و يعمل لها: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30).

فمشيئة الاستقامة تأخذ بالإنسان إليها حيث المقومات من وحي السماء و رسل السماء تترى و «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ».

وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ‏:

هل إن آية المشيئة هذه تعلّق مشيئة الإنسان بمشيئة اللّه: أنه مسيّر في مشيئته و ليس مخيّرا؟ و هذا خلاف الواقع الملموس، و لا تلائمه الآية المسبّقة:

«لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» إذ توحي باختيار الإنسان في مشيئة الاستقامة و سواها.

نقول انها- على احتمال ظاهر بين محتملاتها «1»- تخرج الإنسان عن استقلاله في مشيئته، و تجعله بين أمرين:

«لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين»

فلا هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و احتمال آخر: و ما تشاؤون استقامة إلا أن يشاء اللّه ذلك الاستقامة، فليست مشيئة اللّه لتحقيق الاستقامة و الهداية إلا بعد مشيئة العبد و هذا عكس الاحتمال الأول إذ كانت المشيئة الالهية فيه هي السبب لمشيئة العبد المحققة للاستقامة و الهداية.

و مشيئة العبد مشيئتان: مشيئة أولى في البداية، و ثانية لتحقيق الغاية، و مشيئة اللّه كذلك هنا في مرحلتين: تشريعية و تكوينية، فما لم تكن الأولى لم تتحقق المشيئة الثانية للعبد لعدم الدلالة، و ما لم تكن الثانية لم تتحقق كذلك لأمرين في الخير و أمر واحد في الشر، يزيد الخير على الشر في مشيئة التوفيق و يشتركان في عدم تحقق المراد إلا بإرادة اللّه التي هي آخر المطاف في أسباب تحقق الغاية.

(راجع كتابنا حوار بين الآلهيين و الماديين بات الأمر بين الأمرين).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 181

مخيّر في مشيئته الاستقامة كمفوّض إليه أمره‏ «1»، و لا هو مسيّر في أمره، و إنما هو بين مشيئتين: من اللّه و من نفسه: فمن نفسه: أنه يختار و يشاء الاستقامة بما جعله اللّه مختارا، و من اللّه ان وفقه للوصول إلى ما يشاء من الاستقامة، فلو لا توفيق من اللّه لم تكن مشيئة الإنسان- أيا كان- لتوصله إلى واقع الاستقامة فالتذكر بذكر القرآن، «اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» و «ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ» «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ».

إلى صراط مستقيم فإذا لم يكن واقع الهداية بمشيئة الرسول، و إنما له و عليه الدلالة فحسب، فأولى بمن سواه ألّا يقدروا على واقع الهداية لأنفسهم، و إنما يملكون- هم- مشيئة الاهتداء و الاستقامة فالذكر، ثم الرسول دليلهم في مسير الهداية تشريعيا، ثم اللّه من وراء القصد يهديهم إلى واقع الهداية تكوينيا، ف «ما تشاؤون:

(تحقق الهداية مشيئة تحقيق توصلكم إلى حق الهداية) إلا ان يشاء الله (أيضا لكم إياها تشريعيا و تكوينيا، و لأنه) رب العالمين».

إذا فتحقق الاستقامة و الهداية، بحاجة أولا إلى مشيئة من المستقيم تكوينيا، ثم مشيئة من اللّه تشريعيا للدلالة على كيفية الاستقامة و الهداية، ثم مشيئة منه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و يشهد له ما

أخرجه ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما نزلت‏ «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» قالوا: الأمر إلينا إن شئنا، و إن شئنا لم نستقم، فهبط جبريل على رسول اللّه (ص) فقال: كذبوا يا محمد! «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» ففرح بذلك رسول اللّه (ص).

و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن القاسم بن محيمر قال: لما نزلت‏ «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» قال أبو جهل أرى الأمر إلينا فنزلت الآية، الدر المنثور 6- 22.

أقول فالآية كما حققناه تعني نفي التفويض في الأمر كما الأولى تدل على نفي الجبر، فليس إلا أمر بين أمرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 182

تعالى تكوينيا أن يوفقه و يسهل له الوصول إلى واقع الهداية و الاستقامة فلما تحققت المشيئتان الإلهيتان تبعتهما مشيئة العبد الأخيرة الملامسة لواقع الهداية و الاستقامة، و كل هذه نجدها في الآيتين: «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ»: مشيئة أولى للمستقيم‏ «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ»: مشيئة ثانية، و هي مع واقع الهداية و الاستقامة، و مشيئة تشريعية و تكوينية من اللّه تتوسطان مشيئتي العبد المستقيم- إذا- فلا جبر في الهداية و لا تفويض بل أمر بين الأمرين، أمر من اللّه و أمر من العبد، لذلك فلتنسب الهداية إلى اللّه- و أحرى له- و إلى العبد أيضا لاختياره، و هذه في الحسنات أن اللّه يشاء و يدبّر و يوفق:

«يا ابن آدم أنا أولى بحسناتك منك و أنت أولى بسيئاتك مني»

ذلك لأن اللّه تعالى لا يشاء السيئة لا تشريعيا و لا تكوينيا، و إنما لا يجبر العبد على فعل السيئة و لا على تركها، و له المشيئة التشريعية ألا يعصى، فإذا خالف أمر اللّه و شاء المعصية يذره اللّه تعالى في طغيانه يعمه و في غيّه يتردد، إذ لا جبر في ترك المعصية كما لا جبر في فعلها.

و بما أن المخاطبين هنا هم المستقيمون، و من أصدق مصاديقهم هم الرسل و الأئمة المعصومون، لذلك وردت عن الصادقين أنهم هم المعنيون بالآية كما

عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام قال: إن اللّه جعل قلوب الأئمة موردا لإرادته فإذا شاء اللّه شيئا شاءوه و هو قوله: «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» «1»،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 519 ح 30 القمي حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن أحمد عن أحمد بن محمد اليساري عن فلان عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 183

و

عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام: و إن فعل أمنائه فعله كما قال: و ما تشاؤون إلا أن يشاء اللّه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر ح 31 في كتاب الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عنه (ع) يذكر فيه جواب بعض الزنادقة عما اعترض به على التنزيل ..

أقول: و هذا استيحاء لطيف إذ يربط مشيئة أمناء اللّه بمشيئة اللّه، و هذه هي العصمة في المشيئة تعصمهم و حتى عن أية مشيئة قبل أن يشاء اللّه، المشيئة التشريعية و التكوينية سواء، و إن كانوا يشاءون دائما الاستقامة و الهداية، و لذلك نجد اللّه يعصمهم و يهديهم لأفضل درجات الهداية، و هنا بحث فصل نوافيكم به في طيات التفسير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 184

سورة الانفطار- و آياتها تسعة عشر

[سورة الانفطار (82): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (1) وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (3) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (5)

.. إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ‏:

علمت نفس- بعد قيامة الإماتة بانفطار السماء و انتثار الكواكب و تفجّر البحار، و بعد قيامة الإحياء ببعثرة القبور- علمت نفس ما قدمت و أخرت؟

إن الانفطار هو قبول الفطر، و أصل الفطر الشق طولا، و ذلك قد يكون على وجه التعمير: «قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ..»

(21: 56)، و قد يكون على وجه التدمير: «تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا» (19: 90) «السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا» (73: 18).

فالأول شق إلى البناء حيث انشقت السماء عن الدخان: «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ‏ .. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ» كما الثاني شق إلى الغناء: «يَوْمَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 185

تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ» و ذلك يوم تدميرها و رجعها إلى ما كانت من دخانها: «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ»، و كما شرحناه مسبقا في سورة التكوير و الإنشقاق عن كشط السماء و قشطها، أنها سوف تنمحي عن كيانها السماوي و تنحّى عنها جلدها و تنشق، فهي يومئذ واهية و وردة كالدهان و تمور مورا و تصبح كالمهل.

وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ‏:

هنا شبهت الكواكب بلآلئ منظومة انخرط سلكها فانتثرت و تفرقت، إنها تنتثر بعد تماسكها في أفلاكها جارية بسرعات هائلة، ممسكة في داخل مداراتها، مرفوعة في أجوائها بعمد لا ترونها: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» فثم عمد و لكن لا ترونها، أعمدة القوة الجاذبية و سواها التي نجهلها حتى اليوم، فلما ذهبت هذه القوى التي تشدها و تربطها في سماواتها و مداراتها، ذهبت- إذا- في الفضاء بددا كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها.

فهل إنها- و كما يزعمها السذج- تتناثر على أرضنا؟ كلا؛ فإن أرضنا- و هي من أصغر الكواكب- تنتثر معها إلى أعماق الجو و تنطمس و تنمحي و ترجع- كأمها السماء- إلى حالتها الأولى «دخان»\* و علّها- و معها الكائنات كلها- ترجع إلى «الماء»\* المادة الفردة الأولى.

أجل- و إن الكواكب تنتثر كما النجوم تنطمس و تنكدر و تندحر:

حادثات جلل تقضي على المملكة السماوية بأمر الملك العلام.

وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ‏:

و كما عرفناه مسبقا في التكوير، سوف يعم البحار- كل البحار- تفجير يتلوه تسجير، فتصبح نارا هائجة ملتهبة بالتفجرات، فالحرارات التي تتحكمها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 186

فترجعها إلى ما بدأت، رجعا إلى النار و إلى المادة الفردة، و كما

جاء عن الصادق عليه السّلام: «تتحول البحار التي حول الدنيا كلها نيرانا» «1».

وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ‏:

و هذه قيامة الإحياء، تبعثر القبور و تخرج الأجساد من الأجداث: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً» (70: 43) «فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى‏ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (36: 51).

و لنعرف هنا ما هي القبور و بعثرتها؟ إن القبور هي مخابئ الأبدان و أجداثها، فالقبر- لغويا- مقر الميت أيا كان: جوف البر أو البحر، في جسد حيوان يأكل إنسانا، أم في جدث التراب، أم على وجه الأرض، أم أيّا من الأماكن، فإن الأبدان لا تضل عن علم اللّه كما الأرواح لا تضل، مهما ضلت عن علمنا.

و «بعثر» كلمة مركبة من «بعث أثير» و آيته أنها تشمل المعنيين:

فبإثارة القبور تبعث ما في القبور، إثارة القبور و ما في القبور، دون أن يضل شي‏ء من الأجزاء الأصيلة لكل جسد و في كل جدث: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (32: 10- 11) ترجعون إلى من: «لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ» (34: 3).

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ‏:

علمت نفس: خيّرة أم شريرة- دون استثناء- علمت علما شاملا كما الجزاء هناك كامل، علمت بعد جهل تام يوم الدنيا، و بعد علم غير تام يوم البرزخ، كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 514 ح 6.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 187

الجزاء هناك برزخي دون تمام، فالبرزخ برزخ من كافة الجهات، و منها العلم بحقيقة الأعمال كالجزاء بالأعمال .. فما هو المقدم من الأعمال و العقائد و الأقوال و ما هو المؤخر؟

من الثابت قرآنيا أن كتاب الأعمال لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها «يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ» (75: 14) فالمقدّم أيّا كان و المؤخر أيا كان، إنهما سوف يحضران يوم القيامة و في موقف الحساب، دون مغادرة لشي‏ء منهما و لا مثقال ذرة إلا أتى اللّه بها و كفى به حفيظا و حاسبا.

علمت نفس ما قدّمت: من الأعمال المنقطعة غير المستمرة خيرا أو شرا، و ما أخرت مما له استمرار يؤثر، من خير أو شر، فالثاني من الآثار و الأول مقدم و كلاهما مكتوبان يحضران يوم القيامة: «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» (36: 12) فالأعمال و إن كانت كلها مقدمة ليوم الحساب، إلا أن البعض منها مؤخرة أيضا بعد ما قدّمت، تبقى دائبة تقدّم دوما ما دامت سنّة يعمل بها طوال زمن التكليف، سنّة حسنة أو سيئة، فللعامل المبدع المبتدئ نصيب مما عملوا بها و لا ينقص أولئك من أجورهم في الحسنات، و لا من أوزارهم في السيئات، و كما نجدها أصلا ثابتا في الآيات و في الروايات المأثورة عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من أهل بيته الكرام عليهم السلام و في تفسير هذه الآية بالذات‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 520 عن المجمع: جاء في الحديث أن سائلا قام على عهد النبي (ص) فسأل فسكت القوم، ثم أن رجلا أعطاه فأعطاه القوم، فقال النبي (ص): من استن خيرا فله أجره و مثل أجور من اتبعه غير منقص من أجورهم، و من استن شرا فاستن فعليه وزره و مثل أوزار من اتبعه غير منقص من أوزارهم، قال: فتلا حذيفة بن اليمان‏ «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ ..».

أقول: و في الدر المنثور 6: 322، أخرجه الحاكم و صححه عن حذيفة عنه (ص) من قوله «من استن- إلى- و أخرت ..» و هي من المتواتر معنويا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 188

و: علمت نفس ما قدمت من خير و ما أخرت من شر، فإن الخير تقدّم للإنسان و الشر تؤخر، كما و يشير إليه القرآن: «وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ» (2: 223) «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً» (78: 40) «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى‏. يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي» (89: 24)، «إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ. نَذِيراً لِلْبَشَرِ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ» (74: 29- 31): تقدّم في الحياة بتقديم الصالحات، و تأخر عن الحياة تأخرا عن الصالحات و تورّطا في الطالحات، فالحري للإنسان كإنسان، و الذي يحيى يوم الحساب للحساب، حري له أن يقدم لحياته الأخرى من الصالحات، فإن الطالحات تسبّب التأخر عن الحياة السعيدة، و إن كانت الأعمال كلها- خيرها و شرها- تقدم ليوم الحساب، «لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ» (59: 18).

و الآية: «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ» تتحمل المعنيين، أن الإنسان سوف يعلم خيره و شره، ما قدمه و أثاره‏ «1».

و هناك نفوس قدسية علمت حقائق أعمالها قبل موتها و قبل قيامتها، هي‏

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نفوس المعصومين، فلا تشملهم «نفس» |  | لأنها منكرة لا تستغرق النفوس، |

و علها- أيضا- تشير بتنكيرها إلى النفوس العادية غير البالغة درجة العصمة، فها هو

أمير المؤمنين علي عليه السّلام يقول: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا»!

\*\*\*\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما أخرج الدر المنثور عن عكرمة و قتادة و مجاهد، قولهم في الآية: ما أدت إلى اللّه مما أمرها به و ما ضيعت (6: 322).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 189

[سورة الانفطار (82): آية 6]

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)

خطاب جميل جليل يهز الإنسان في كيانه الإنساني إذ يستيقظ إنسانيته، و يحرض وجدانه و شعوره، و يدخل من قلبه شغافه، و ينبّهه أنه كإنسان، لا يحق له الغرور بربه الكريم، فما الذي يغره بربه و يلهيه عن خالقه؟!

يقول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «غره جهله» «1»،

و يشرحه‏

عليّ عليه السّلام: «أدحض مسئول حجة، و أقطع مغتر معذرة، لقد أبرح جهالة بنفسه إياه، يا أيها الإنسان ما جرأك على ذنبك و ما غرك بربك، و ما آنسك بهلكة نفسك، أما من دائك بلول، أم ليس من نومتك يقظة، أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك، فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظله، أو ترى المبتلى بألم يمض جسده فتبكي رحمة له، فما صبرك على دائك، و جلدك على مصابك، و عزاك عن البكاء على نفسك و هي أعز الأنفس عليك، و كيف لا يوقظك خوف بيات نقمة، و قد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته» «2».

أجل، و إن جهله و جهالته بربه يغره به، أن يحسب نفسه كأنه يستقل عن اللّه أم يترفع عنه أو يفسق عن طاعته.

و من الجهل غرور بعض الناس بكرم اللّه، قائلين:- حينما يسأل أحدهم عما قصر- «الله كريم»! جاهلين أو متجاهلين أنه كريم عادل، و من عدله ثواب الصالحين و عذاب الطالحين: «نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ» .. فأي فرق بين من يعصيه ناكرا كرمه، و من يعصيه جاهلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 323، أخرجه عبد بن حميد عن صالح بن مسمار قال: بلغني أن النبي (ص) تلا هذه الآية «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» ثم قال: جهله.

(2) نور الثقلين 5: 521، عن نهج البلاغة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 190

موقفه في كرمه؟ فكلاهما غرور بالرب الكريم! أجل و كما سبق‏

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «غره جهله»

: بكرم الرب أو بمقام الكرم.

إن واقع الكرم الربوبي، الذي نلمسه و نعيشه دائبا، إنه يستتبع العلم به، و هو يقتضي العلم بموقف الكرم هنا و في الآخرة، ففي الأولى وسعت رحمته كلّ شي‏ء، و في الآخرة يصيب بعذابه الناكبين عن صراطه المستقيم، و هو أيضا من عدله و من رحمته لمن يستحقها: «قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ» (7: 156).

فكرمه و رحمته الواسعة يوم الدنيا يدفع العقلاء النابهين إلى طاعته و شكره، و رحمته المكتوبة يوم الآخرة للمتقين تمنعهم عن التورط في عصيانه و حرماته، و كرمه للعاصين يحرضهم على التوبة و الإنابة إليه، و ألّا يعتبروا عصيانه غنما لموقف كرمه، و لا سيما في المعاصي الكبيرة التي لا تكفّر: «.. إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31) ..

فإنما الغرور بالرب، الدافع إلى التساهل في طاعة اللّه، و إلى التورط في حرمات اللّه، هذا الغرور ليس إلّا بدافع الجهل بكرمه و الجهل بمعنى كرمه و موقفه تعالى في كرمه و رحمته: «.. وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ» (27: 40) إذا فليس يقتضي كرمه العفو عمن كفر، فإنما يراد هنا أنه لا تضره معصية من عصاه كما لا تنفعه طاعة من أطاعه، إنه غني كريم.

إن أوّل الكرم الرباني للإنسان هو إنسانيته‏ «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم، في بنيته و روحه و مهيئاته للبلوغ إلى ذروة الكمال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 191

فهذا الخطاب المنبّه العتاب ينادي في الإنسان أكرم ما في كيانه: «إنسانيته» المتجلي فيها كرمه و تكريمه: «وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ ..

وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى‏ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» (17: 70).

فما هذا الغرور بربك الذي أغدق عليك من كرمه هذا الإغداق، و أغلق عليك أبواب الجهل و الغرور هكذا إغلاق، بما بصرك في فطرتك و عقلك و أنبيائه و بيناته! و هناك مغريات و مغرّات عدة منبثقة كلها عن الجهل و الجهالة باللّه، و أما العلماء باللّه فلا يغترون بما يغترّ به الجاهلون: من غرور الأماني: «وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» (57: 14) و من الحياة الدنيا: «ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» (45: 35) .. «فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» (31: 33) .. و من الافتراء باللّه: «وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» (3: 24) .. افتراء الظلم: أنه كريم بالمتخلفين المتورطين في اللامبالاة، و افتراء الكذب: أنه لا يدخلهم النار بل و يجمعهم مع الأبرار ..

و من تقلّب الذين كفروا في البلاد: «لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» (3: 197).

فهذه المغيرات المغريات المغرّات من الأماني و الغرور و من الحياة الدنيا و قول الزور على اللّه و من تقلّب الذين كفروا في البلاد .. هذه و أمثالها لا تغرّ و تغري إلّا الجاهلين باللّه، و على حدّ

قول الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «غره جهله».

فالغرّة هي الجهالة و الغفلة، يقال: غررت فلانا، أي أصبت غرّته، و لا يؤتى الإنسان و يصاب إلا من غرّته و غفوته و غفلته عن اللّه، و على حد

قول الإمام الصادق عليه السّلام: «من كان ذاكرا للّه على الحقيقة فهو مطيع و من كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 192

غافلا عنه فهو عاص، و الطاعة علامة الهداية و المعصية علامة الضلالة و أصلها من الذكر و الغفلة «1».

فالغرور هو كلما يغر الإنسان من مال و جاه و شهوة و أماني و ضلال، و سمي الشيطان غرورا لكثرة ما يغر الإنسان ..

ثم الخطاب نفسه يدلنا أن المخاطبين هم المغرورون المكذبون بالدين من سائر العصاة غير الآئبين و غير التائبين ..

\*\*\* [سورة الانفطار (82): الآيات 7 الى 8]

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (8)

إشارة عابرة إلى الكرم المعطوف في إنسانيته، في خلقه و تسويته و عدله و تركيبه في الصورة الإنسانية الجميلة صورة و سيرة، علانية و سرا، و هو في هذه المراحل مخلوق في أحسن تقويم في جسمه و روحه.

خلق و تسوية و تعديل، كل تلو الآخر، و إلى تركيبه في صورة إنسانية بمختلف الأشكال و الأجناس و الحالات على وحدة الصورة الإنسانية فيما به الإنسان إنسان.

و لقد كرّمنا ربنا و أكرم بنا في هذه المنازل كلها، آخذا بنا من النقص إلى الكمال و الأكمل‏ «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ».

فما هي التسوية بعد الخلق؟ و ما هو التعديل بعد التسوية، ثم ما هو التركيب في الصورة المقصودة؟

نقول إن تسوية الإنسان هي تكملة الناحية الجسدانية و لكي تصلح لقبول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة أحسن كتاب في المعارف و الأخلاق ينسب إلى الامام الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 193

الروح الإنسانية: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» (32: 7- 9) «أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا» (18: 37) «أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى‏. ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى‏» (75: 37- 39) «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى» (84: 2) «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» (91: 7- 8).

نستوحي من هذه الآيات البينات أن الخلق هو تكملة الجسم، و تسويته هي تهيئته لكي يقبل الخلق الآخر و هو الروح، فخلقه يعم مراتب التكامل الجنيني كلها: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» (23: 12- 14) فهذا الخلق الآخر عله تسويته بعد ما سواه جسدانيا، لقبول هذه التسوية الروحانية.

و أما عدله فعلّه تعديل قواه في الناحيتين الجسدانية و الروحية، كلا بالنسبة لزميله، أو قرينه، أو البيئة المنفصلة عنهما، سواء داخل الرحم أم خارجه، فهذه الحالات الخمس بحاجة إلى تعديل لكي يصلح الإنسان الجنين أم سواه للحياة و إدمانها:

1- فما لم تتناسب قوى الإنسان و أعضائه لم تتناصر في كيانه الواحد، 2- و ما لم تتلاءم الطاقات الروحية لم يك بالإمكان أن تتوحد فتوحّد الحياة صالحة، 3- و ما لم تتوافق جنود الروح و الجسم لا تشكل إنسانا واحدا، 4- و ما لم تلائم حيوية الجنين فضاء الرحم لم تستقم الحياة هناك، 5- و ما لم تتناسب هذه الكيانات الموحدة الحياة الخارجية استحالت الحياة و إدمانها بعد الولادة .. فهذه كلها تعديلات لجزأي الإنسان بعد الخلق و التسوية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 194

«فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ» .. إنها ليست صورة ركّبنا فيها ربنا بعد الخلق و التسوية و العدل فحسب، إذ لم يفرّعها على الثلاثة الأول، فالنص «في»\* لا «ففي»\* و علّ الصورة تشمل صورة الحياة بعد الولادة، فإن المدبّر الحكيم يفيض علينا الصور الحياتية كما نرسمها و يشاء «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» صورة اختيارية لنا.

كما و تشمل الصور الجنينية الجسدانية و العقلية، التي يفيضها اللّه تعالى على الجنين دون اختيار من الجنين، من ذكورة و أنوثة، و جمال و قبح، و نقص و كمال و من مختلف الألوان و البنى و القوى، و من عقلية قوية و متوسطة و دانية، أو جنون و خبل و من .. كل ذلك حسب الحكمة العالية و وفق مقتضيات الوراثة جسميا و روحيا «وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» و قد يركز الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تفسيره للآية حول اختلاف الصور، على الوراثة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 323، أخرج البخاري في تاريخه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن شاهين و ابن قانع و الطبراني و ابن مردويه من طريق موسى بن علي بن رياح عن أبيه عن جده أن النبي (ص) قال له: ما ولدك؟ قال: يا رسول اللّه (ص) ما عسى أن يولد لي، إما غلام و إما جارية، قال: فمن يشبه؟ قال: يا رسول اللّه (ص) ما عسى أن يشبه إما أباه و إما أمه، فقال النبي (ص) عندها: «مه»\* لا تقولن هذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر اللّه كل نسب بينها و بين آدم فركب خلقه في صورة من تلك الصور، أما قرأت هذه الآية في كتاب اللّه‏ «فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ» من نسلك ما بينك و بين آدم.

و رواه مجمع البيان عن الامام الرضا (ع) عن آبائه عن النبي (ص) باختلاف يسير.

و

في الدر أيضا: أخرج الحكيم الترمذي و الطبراني و ابن مردويه بسند جيد و البيهقي في الأسماء و الصفات عن مالك بن حويرث قال: قال رسول اللّه (ص): إذا أراد اللّه أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق و عصب منها، فإذا كان اليوم السابع أحضر اللّه كل عرق بينه و بين آدم، ثم قرأ «فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ».

و

فيه أخرج الحكيم الترمذي عن عبد اللّه بن بريدة أن رجلا من الأنصار ولدت له امرأته غلاما أسود، فأخذ بيد امرأته فأتى بها رسول اللّه (ص) فقالت: و الذي بعثك بالحق لقد تزوجني بكرا و ما أقعدت مقعده أحدا، فقال رسول اللّه (ص): صدقت إن لك تسعة و تسعين عرقا و له مثل ذلك، فإذا كان حين الولد اضطربت العروق كلها ليس منها عرق إلا يسأل اللّه أن يجعل الشبه له.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 195

إن الرب الكريم يركبنا في صورة من هذه و تلك، ما شاء من حالة و قوة و ما إلى ذلك، فالصورة هي البنية التي تميل بالتأليف إلى ممايلة الحكاية، و هي من «صاره» إذا ماله .. فهي تعم صور الخلق و التسوية و التعديل أولا، و صور الحياة أخيرا.

و التركيب تخليط، و الإنسان خليط منذ البداية إلى النهاية، فإن نطفته أمشاج: أخلاط «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً» (76: 2).

«ما شاءَ رَكَّبَكَ» تركيب أجزاء الجسم بعضها ببعض، و تركيبه بالروح كالعكس، و تركيب أجزاء الروح.

فكيان الإنسان هو مشيئة اللّه و كرمه، فما هذا الذي يغره بربه الكريم؟

إن خلق الإنسان في صورته الإنسانية- أيا كانت- السوية المعدلة الجميلة «1» لمما يفرض عليه كإنسان أن يفكر فيه طويلا فيزداد شكرا لربه الكريم، فقد كان له أن يركبه في صورة مشوهة و سيرة لئيمة و لكنه ما فعل، و كما

عن الصادق عليه السّلام: «لو شاء ركبك على غير هذه الصورة» «2».

إن دراسات علم الأعضاء و الأجزاء و الدراسات المعمقة في بيئات الأرواح، إنها تعجز أن توصل الإنسان إلى جزء من مليارات الدقائق في خلقه و تسويته و تعديله، التي ندرسها في طيات الآيات التي توحيها لنا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 522، في أمالى الشيخ الطوسي باسناده إلى أبي جعفر الباقر (ع) إن النبي (ص) قال لعلي (ع) قل: ما أول نعمة أبلاك اللّه عز و جل و أنعم عليك بها؟ قال:

أن خلقني جل ثناؤه و لم أك شيئا مذكورا، قال: صدقت- إلى قوله- فما الثالثة؟ قال: أنشأني فله الحمد في أحسن صورة و أعدل تركيب، قال: صدقت.

(2) نور الثقلين 5: 522.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 196

[سورة الانفطار (82): آية 9]

كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9)

إن دافع الغرور- الأصيل- هو الجهالة، و أجهل الجهالة هو التكذيب بالدين: بطاعة اللّه و الجزاء عليها، تكذيبا عقيديا أو عمليا، فقد تتخذون كرمه تعالى ذريعة إلى اللامبالاة بشأن الطاعة، و هذا تجاهل عن معنى كرمه و مداه و مورده، و هذا تكذيب بالجزاء العدل الوفاق يوم الجزاء، و من لا يفرق بين المسلمين و المجرمين ليس كريما، و إنه لئيم ظلوم: «أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ» (38: 36) و ذلك في معنى تركه تعالى الإنسان سدى هملا، رغم كرمه بخلقه و عنايته بهم في البداية، فكيف يتركهم سدى في النهاية: «أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً» (75: 36) «أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ» (23: 115) «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» (38: 27).

فالتمسك بكرمه تعالى في عفوه عن المفسدين المجرمين تكذيب بالدين كل الدين: بالدين العقيدة: أنه تعالى ظلوم يلعب بخلقه، و يعبث بهم و يتركهم سدى عملا، و بالدين الجزاء: أنه يسوي بين المجرمين و المسلمين إما جهلا أو ظلما أو خلفا لوعده أو خوفا أو لؤما أو ما إلى ذلك من نكران الحق في اللّه أو نكران الإله الحق و تكذيبه في واقعه و أقواله و وعوده.

إنه ليس التكذيب بالحياة بعد الموت فقط، بالذي يغر المغرورين، إنما التكذيب بالجزاء الوفاق يوم الدين، و التكذيب بما يتطلبه الجزاء الوفاق من صفات اللّه الحسنى، أو التكذيب باللّه و وعوده، كل ذلك يغر الإنسان و كما تغره الرحمة الإلهية اللانهائية و الشفاعة و المغفرة، و أخيرا أنه تعالى ليس بحاجة إلى تعذيب العاصين.

فالتصديق بالإله الحق و صفاته الحسنى، و بالجزاء الحق، و العرفان بحدود

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 197

الشفاعة و الغفران، و التبصّر إلى المعرفة الحقة في أمور الدين، كل ذلك يصد الإنسان عن الغرور بربه الكريم.

فما يكذب القلب بالحساب العدل و متطلباته ثم يستقيم على هدى و لا خير و طاعة.

إن ناكر الحساب العدل و الجزاء الوفاق لا يندفع إلى أدب و لا طاعة، و لا يهتدي إلى نور أو كتاب منير، و لا يستيقظ فيه ضمير، حتى يعقل الدين عقل وعاية و رعاية كما هو الدين، و كما ينطق به القرآن المبين، و دراسة حدود العفو و الغفران و ظروفهما، و حدود الشفاعة و تكفير السيئات، نجدها في طيات الآيات التي توحي لها فصلا واضحا.

\*\*\* [سورة الانفطار (82): الآيات 10 الى 12]

وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (10) كِراماً كاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (12)

كما أن الرب الكريم لم يخلقكم لعبا و هملا في بدايتكم و غايتكم، كذلك لم يترككم و أعمالكم هملا و سدى عابثين، فقد بعث عليكم حافظين من الملائكة و النبيين، يحفظونكم من أمر اللّه: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..» (13: 11) حفظا صادرا من أمر اللّه، حفظا لنفسه عن دوافع الموت و الدمار، و حفظا على أعماله، رسلا من اللّه للحفاظ و الحفظ الحق:

«وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ» (6: 61): يحفظونكم و أعمالكم ثم يتوفونكم بأجسادكم و أرواحكم و أعمالكم دون تفريط و لا مثقال ذرة.

إنّ الحافظين قد يكونون لئاما جاهلين فلا يؤبه بحفظهم، و لا يرسل ربنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 198

هكذا حافظين، و إنما يبعث كراما كاتبين عالمين لا تخفى عليهم خافية و لا يعزب عنهم عازب.

إن الأوصاف المسرودة للحافظين هنا تثير في قلوب الناس إحساس الخجل و التجمل بحضرتهم، إنهم كرام يعلمون كلّ شي‏ء من ظاهر الإنسان و خافيه، و إنهم كاتبون فلا ينسون، إذا فالأعمال تبقى ليوم الحساب لتشهد بواقعها في موقف الحساب.

و كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «.. فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم ..» «1».

و على حدّ

قول حفيده الإمام الصادق عليه السّلام في شأن الملائكة الموكلين: «استعبدهم على خلقه ليكون العباد لملازمتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة و عن معصيته أشد انقباضا، و كم من عبد يهم بمعصيته فذكر مكانها فارعوى و كف فيقول: ربي يراني و حفظتي علي بذلك تشهد، و إن الله برأفته و لطفه و كلهم بعباده يذبون عنه مردة الشياطين و هو ام الأرض و آفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله إلى أن يجي‏ء أمر الله» «2».

«كِراماً كاتِبِينَ»: و الكتابة هي الثبت، و اللائق برسل اللّه الحافظين، و اللائق بحضرة الربوبية، و اللائق لإثبات الحجة يوم الحساب، ان يكون ثبت الأعمال كأثبت ما يمكن و أبقاه، و هو ثبوت الأعمال بأقوالها و أفعالها، بأصواتها و صورها، تسجيلها في مسجلات خواطرهم المقدسة، و مسجلات أعضاء العاملين،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 323، أخرجه البزاز عن ابن عباس.

(2) نور الثقلين 5: 522 في الاحتجاج للطبرسي يسأل السائل أبا عبد اللّه الصادق (ع):

ما علة الملكين الموكلين بعباده يكتبون ما عليهم و لهم و اللّه عالم السر و ما هو أخفى؟ قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 199

و مسجلة الأرض و فضائصها، و أمثالها من مسجلات عارفة عالمة أو سواها «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها».

هذه هي كتابة الأعمال كما يشهد بها الاعتبار و تشهد بها الآيات و الروايات، لا نقش الحبر على الورق إذ لا حجة فيه، و كما

عن الإمام موسى الكاظم عليه السّلام: «.. فإذا فعلها (الحسنة) كان لسانه قلمه و ريقه مداده و أثبتها له ..» «1».

أجل، و إنه كتاب ورقه اللسان القائل، و الأعضاء العاملة، و ريقه نفس القول و العمل، و الكرام الكاتبون- الحفظة منهم- الملائكة الموكلون بالمكلفين، يحفظونه من أمر اللّه و يحفظون له و عليه أعماله بإذن اللّه.

\*\*\* [سورة الانفطار (82): الآيات 13 الى 19]

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (15) وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (16) وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (17)

ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

».\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 524، أصول الكافي باسناده إلى عبد اللّه بن موسى بن جعفر عن أبيه (ع) قال: سألته عن الملكين هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أن يفعله أو الحسنة، فقال (ع): ريح الكنيف و الطيب سواء. قلت: لا، قال: إن العبد إذا هم بالحسنة خرج نفسه طيب الريح، فقال صاحب اليمين لصاحب الشمال: قم فإنه قد هم بالحسنة، فإذا فعلها كان لسانه قلمه و ريقه مداده و أثبتها له، و إذا هم بالسيئة خرج نفسه منتن الريح، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين: قف فإنه قد هم بالسيئة، فإذا هو فعلها كان لسانه قلمه و ريقه مداده و أثبتها عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 200

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ‏:

لا بعد الموت فحسب، بل و منذ كونهم أبرارا، فإن البرّ هو النعيم بذاته، لنفسه و لمجتمعه، مهما كان بروز نعيمه بحقيقته يوم القيامة الكبرى، فلفظ الآية «لَفِي نَعِيمٍ» يوحي ظرفا فعليا مستمرا لنعيمهم، لا «سوف ينعمون» لكي يختص نعيمهم بالمستقبل، فهم نعيم و في نعيم، حاضرا و مستقبلا و غابرا، ما داموا أبرارا.

وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ‏:

كما «وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ» ما داموا فجارا، فهم جحيم: نار شديدة التأجج، يوم الدنيا و يوم الدين، هم وقود نيران الخلافات و العداءات و الويلات يوم الدنيا- و على أثره- هم وقود الجحيم يوم الدين، يصلون الجحيم بأفكارهم و أعمالهم و ذواتهم، فما الصلي إلا وقودا، و ليس كل أصحاب الجحيم وقودا لها:

«فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى. لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» (92: 15- 17).

فهنا شقي و هنا أشقى، و لا يصلى النار إلا الأشقى، و إن كان يدخلها كلّ من الشقي و الأشقى، فالأشقى صلاء و وقود، و الشقي يحرق به، و قد يجنّبها بعد ما ذاق جزاءه الوفاق.

فالصلي هنا ليس دخولا في النار كما يزعم، و إنما هو إيقاد، كما الاصطلاء هو الاستيقاد: «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» (28: 29).

لذلك لا نرى صلي الجحيم- حسب القرآن- إلّا للأشقين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 201

الكذابين‏ «1»، و كما نرى آيات الوقود و الحصب تختص بهم: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (3: 10).

فرؤوس الكفر و أسس الضلالة كما كانوا- هم- وقود النار و صليها يوم الدنيا، يعيشون حياتهم التضليل و التدجيل، كذلك هم صلي النار و وقودها يوم الدين جزاء وفاقا، فهم يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة و من أوزار الذين أضلوهم دون أن ينقص أولئك الأذناب من أوزارهم شيئا.

وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ‏:

فالوقود لا يغيب عن ذاته، و أصحاب الجحيم الذين يصلونها لا يغيبون عنها ما داموا و دامت، إلا بعد فنائهم بفنائها، كما الوقود يحرق بنفسه و يحرق ما دام موجودا ثم لا حريق و لا محروق.

و كما أنهم لم يكونوا ليغيبوا يوم الدنيا عن وقودهم- تصرفاتهم الجهنمية- كذلك يوم الدين، فما هم عنها بغائبين.

و هذه الآيات ثنائية التقسيم، تتحدث عن موقف هؤلاء الذين محضوا الإيمان محضا، أو محّضوا الكفر محضا، فإما إلى النعيم و فيه، دون أن يمسهم عذاب، و أما إلى الجحيم و فيها، دون أن تمسهم رحمة، ثم المتوسطون- و هم درجات-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «سَيَصْلى‏ ناراً ذاتَ لَهَبٍ» (111: 3) «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً» (4: 56) و الآيات: 88: 4 و 84: 12 و 87: 32 و 17: 18 و 92: 15 و 4: 10 و 14: 29 و 38: 56 و 58: 8 و 36: 64 و 52: 16 و 69: 31 و 74: 26 و 4: 115 و 4: 30 و 37: 163 و 38: 59 و 83: 16 و 56: 94 و 19: 70.

نرى في هذه الآيات كلها كيف يختص الصلي بالمكذبين و الكافرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 202

ليسوا في جحيم خالص و لا نعيم خالصة، مهما كانت جحيم الخجلة فنعيم العفو و الرحمة و الشفاعة، أو جحيم النار غير خالدين فيها أو خالدين غير آبدين، ثم إلى نعيم مقيم، فهم بين جحيم و نعيم، ثم إن مرجعهم لإلى النعيم، كما كانوا يوم الدنيا بين برّ و فجور ثم ماتوا مؤمنين و لو شيئا مّا، أو ماتوا فاسقين دون محض الفسق و اللامبالاة.

وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ. ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ‏:

«وَ ما أَدْراكَ»؟ سؤال تهويل و تجهيل و تجليل: أن حقيقة يوم الدين ليس بالأمر الهيّن الذي يدركه الإنسان إلا بوحي السماء .. فإذ أنت دريت ما يوم الدين ما كان يدريك إيّاه وحي الأرض و عقل الأرض و علمها .. إنما وحي السماء ليس إلّا، فالإنسان- أيّا كان- يجهل يوم الدنيا حقيقتها، فأحرى به أن يجهل يوم الدين‏ «1».

و الدين هو الطاعة و لها يومان، يوم تطبيقها: يوم الدنيا، و يوم بروزها بحقيقتها في جزائها و هو يوم الدين، فيوم الدنيا هو يوم الدين تشريعيا ككل، و تكوينيا بالاختيار، و يوم الدين هو يوم الدين تكوينيا دون اختيار، و إنما جزاء الاختيار وفاقا و عدلا، أو فضلا.

«ثُمَّ ما أَدْراكَ»؟ علّ الدراية الثانية هي عين اليقين و حقه لما تقوم القيامة، كما الأولى هي علم اليقين، و في كلتا المرحلتين ليست الدراية إلا من رب العالمين، لكنما الرسول عرف يوم الدين حق المعرفة و اليقين قبل القيامة: حيث النص:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التعبير «ما أَدْراكَ» يختلف عن‏ «ما يُدْرِيكَ» إن الأول سؤال عما تحقق، عن سببه، و الثاني عما بالإمكان أن يتحقق، عن سببه و كما يروى عن ابن عباس «كل ما في القرآن من قوله تعالى: ما أدراك، فقد أدراه، و كل ما فيه من قوله عز و جل: ما يدريك، فقد طوي عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 203

«ثُمَّ ما أَدْراكَ» و لم يقل «ثم ما يدريك» أدراه إياه وحي السماء كأنه رآه و أكثر، و كأن القيامة قامت، طالما لم يدر وقتها، فإنما علمها عند اللّه لا يجليها لوقتها إلا هو.

فهكذا سؤال يوقع في الحس عظمة الموقف و أن الأمر أعظم جدا و أهول من أن يحيط به إدراك البشر المحدود، فهو فوق كلّ تصور مألوف و كل واقع معروف.

يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ‏:

هنا نعرف و ندري شيئا مّا من يوم الدين، و ما يختلف به عن يوم الدنيا أنه: يبطل ملك بني الدنيا إلا من تملكه رضا اللّه فيملكها بإذنه، فيقف موقف الشفاعة بإذن اللّه «من أذن له الرحمان و رضي له قولا».

نحن نملك أسبابا يوم الدنيا بما ملّكنا اللّه إياها، و لكنها تنقطع يوم الدين:

«وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ» (2: 166) .. كما نقوى شيئا ما من القوى يوم الدنيا ابتلاء و تكليفا ثم لا نملك شيئا منها يوم الدين: «وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (2: 165).

صحيح إننا ما كنا نملك يوم الدنيا شيئا إلا مجازا و تخويلا من شأن التكليف، و لكننا نفقد المجاز أيضا يوم الدين، و لا يبقى أمر و لا ملك إلا اللّه الواحد القهار: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (40: 16) و الملك هذا من الأمر الذي كلّه يومئذ للّه.

إنه العجز الكامل و الشلل الشامل، و انفصال بين النفوس و انشغال عنها، «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» (80: 37) و لو انشغلت نفس عن نفسها، و اتجهت إلى غيرها، لم تكن لتفيده و تغنيه، إذ لا تملك هناك شيئا لنفسها فضلا عمن سواها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 204

و على حدّ تعبير

باقر العلوم عليه السّلام‏ إن الأمر يومئذ للّه و الأمر كله للّه، إذا كان يوم القيامة بادت الحكام فلم يبق حاكم إلا اللّه‏ «1».

إن الأمر كله للّه يوم الدين، أمر الملك و الإحياء و الإدانة و العفو و الشفاعة و الحكم و التنفيذ و ما إلى ذلك، و إن كان كذلك يوم الدنيا، إلا أنه حررنا يومها في بعض الأمر، و خيّرنا بين الإيمان و الكفر، و لأنها دار التكليف.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 527 ح 28 روى عمرو بن شمر عن جابر عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 205

سورة المطففين- مكية- و آياتها ست و ثلاثون‏

[سورة المطففين (83): الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3)

.. هذه السورة تهدّد المطففين شؤون الناس و حقوقهم، المقتسمين الحقوق بينهم و بين الناس قسمة ضيزى، كأنهم يملكونهم بأنفسهم و أموالهم، يحسبونهم قطب الرحى تدور عليهم و لصالحهم الكائنات كل الكائنات.

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ‏:

فالويل هو الهلاك و الخسار و البوار و الدمار، لفظة تقال في مواقف التأوه و التقبيح، لفظة الذم و السخط لمن يسبّبون الويلات النفسية و العقائدية و الاقتصادية و العملية .. و هؤلاء الذين يهددهم القرآن بالويل، هم ويل في صفاتهم و أفعالهم و أفكارهم و تصرفاتهم، فذواتهم ويل .. أينما حلت، لأنفسهم و لمجتمعهم.

و الويل من اللّه ليس دعاء و التماسا، فمن هذا الذي يلتمس منه ربنا لتحقيق غير الحاصل؟ اللهم إلا نفسه المقدسة، فهل يا ترى إنه يلتمس من نفسه؟! كلا و إنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 206

خبر لا دعاء، يخبر عن واقعهم أنه ويل ما عاشوا تلكم التخلفات، ويل في الأولى و الآخرة.

و التطفيف- رغم ما يقال- لا يختص بالمال و لا بالشي‏ء القليل الطفيف، فهل إن واقعة الطف- تلك الحادثة الدامية الكبرى!- هل إنها كانت خفيفا طفيفا؟.

كلا: إنه الانتقاص بحق الآخرين و بخسهم في أشيائهم: أنفسهم و نفائسهم‏ «وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (7: 85) .. أشياءهم كل أشيائهم: الأشياء النفسية: العقلية و الإيمانية و العلمية و العرضية و أشباهها، و الأشياء المالية و كل ما يتعلق بالناس أيا كان.

و بعد كل ذلك فالآيات التالية تفسر التطفيف دون حاجة إلى مفسر سوى القرآن: «الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ».

الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ‏:

فالاكتيال يوحي بالاحتيال في الشراء، ثم «على»\* هنا بدل «من»\* توحي إلى الإضرار و البخس و التطفيف في هذا الاكتيال الاحتيال، احتيال في الإضرار، فلم يقل «إذا كالوا من الناس» و هو يعني أخذ الحق وافيا دون نقصان، على أن أخذ الحق في الاشتراء لا يخلف ويلا، اللهم إلا إذا جمع مع بخس الحق في البيع، و ليس هذا تطفيفا في كلتا الحالتين، و إنما في البيع فحسب، و الظاهر هنا أن كلا البيع و الاشتراء تطفيف.

إنهم يستوفون في اكتيالهم بشتى ضروب الاحتيال و الزور و الغرور، كأن لهم سلطانا على البائعين يجعلهم يستوفون كما يهوون فوق حقهم بسلطان الرئاسة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 207

و الجاه القبلي، و سلطان حاجة الناس- المدقعة لما في أيديهم، و احتكارهم للتجارة لحدّ يضطر الناس إلى تقبل هكذا اكتيال عليهم ..

و ليس استيفاؤهم من أموال الناس فحسب، بل و من أرواحهم و مشاعرهم أيضا عن طريق العقائد الباطلة، فهم عند ما يشترون منهم ما عندهم ببخس الثمن و استيفاء المثمن، يشترون كيانهم أيضا و يملكونهم بأموالهم، فهم محتكرو النفوس و النفائس .. يملكون أصواتهم و ذاتياتهم ببخس الثمن كما يملكون أموالهم به.

وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ‏:

و مرة أخرى يملكونهم عند ما يبيعونهم، فلا يكيلون لهم و لا يزنون، و إنما يكيلونهم و يزنونهم: أنفسهم و أموالهم و كيانهم ككلّ، فيخسرونهم هنا كما أخسروهم هناك، ملكية معقدة مزدوجة، دون أن يبقوا لهم رمقا و لا نفسا و لا نفسا، و هذا أخطر دركات التطفيف، و قد يكون الاشتراء السليم و البيع المخسر داخلا في نطاق الآية و لكنه تطفيف طفيف لا ويل له إلا في هكذا جمع خاسر و قسمة ضيزى، أنه يستوفي حقه مشتريا و لا يوفي حق الآخرين بائعا، و لكنما الويل كل الويل لمن يخسر في الحالتين، و لذلك نرى الإسلام يرفع صوته عاليا معلنا لحرب الويل في وجه البخس الساحق الماحق على جمهرة المحتكرين المستغلين المسيطرين على الجماهير الفقيرة المحطمة البائسة، دون أن يخدّرهم و يصبّرهم على الظلم و الضيم حياتهم.

فهذا سوط الإسلام و صوته يرفعه عاليا على رؤوس الفرعونية الكافرة و القارونية الجائرة، و البلعمية المائرة، ثالوث منحوس طوال التاريخ: الاستعمار و الاستثمار و الاستحمار، و قد تجتمع في شخص واحد، ثلاثة في واحد، و واحد يحمل ثلاثة، فرعون قارون بلعم، إله واحد في أقانيم ثلاثة!. يستحمر الناس فيخدّرهم و يصبّرهم على الظلم و الضيم، و يستعمرهم و يستثمرهم، و رمزا إلى حرب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 208

شعواء ضد هذا الثالوث يؤمر الحاج أن يرمي الجمرات الثلاث إشارة إلى وجوب ضرب الثالوث ابتداء من الشيطان الأكبر، جمرة العقبة. ثم مردته، و لكيلا يكبروا فيصبحوا كمولاهم.

و القرآن يرفع سوط الويل من هذا الثالوث المنحوس و يحرض الشعوب المحطمة لينهضوا نهضة مدمرة لإيقاف هذه النحسة عند حدها، و ليعيش الناس على رغد الأمن و العيش، في حياة سليمة مسلمة غير مستسلمة للظلم و الضيم.

فكما الويل للمطفّفين، كذلك هو للمطفّفين الذين يحنون ظهورهم لمن يستحمرهم و يستثمرهم و يستعمرهم و يمتص دماءهم، اللهم إلا الضعفاء الذين لا يعرفون حيلة و لا يهتدون سبيلا، فعلى المؤمنين ذوي الحنكة و القوة الحفاظ عليهم و الدفاع عنهم.

فآية التطفيف لا تختص بالطفيف منه مهما كان مورد نزولها تطفيف الكيل في المبايعات، فقد «نزلت على نبي اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين قدم المدينة و هم يومئذ أسوء الناس كيلا فأحسنوا الكيل‏ «1» و حذّرهم الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تطفيف الكيل‏ «2» و لكنما الآية تذكر الكيل في الاشتراء كمثال، كما توحي إليه إضافة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 324 عن ابن عباس و رواه علي بن ابراهيم القمي في تفسيره عن أبي الجارود.

(2)

الدر المنثور 6: 324 عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه (ص): ما نقض قوم العهد إلا سلط اللّه عليهم عدوهم و لا طففوا الكيل إلا منعوا النبات و أخذوا بالسنين.

و

في تفسير الرازي (ج 31: 88- 89) «و قيل: كان أهل المدينة تجارا يطففون و كانت بياعاتهم المنابذة و الملامسة و المخاطرة فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله (ص) فقرأها عليهم و قال: خمس بخمس، قيل: يا رسول الله (ص) ما خمس بخمس؟ قال: ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم و ما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر و ما ظهر فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت و لا طففوا الكمل؟؟؟ إلا منعوا النبات و أخذوا بالسنين و لا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 209

الوزن في البيع، و دون اختصاص بكيل شي‏ء أو وزنه، و إنما «كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ». كيل المشترين و وزنهم بما يتعلق بهم، كأنما البائعون لهم و المشترون منهم هم متع لا يملكون لأنفسهم شيئا إلا قدر رحمة المطففين، يعيّشونهم كأرذل العيشة و أنذل من عيشة الحيوان، و لكي يعيشوا مترفين على مساعي هؤلاء المستضعفين المنكوبين المرضوضين، عمال لا يحق لهم الحصول على ما يحصّلون!\*\*\*

[سورة المطففين (83): الآيات 4 الى 6]

أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (6)

.. و الظن هنا مطلق الاعتقاد الراجح، عقليا أو قلبيا، فالمعتقدات العقلية- غير المتعاملة مع الواقع العملي- هي ظنون قلبية، و إلى درجة الشك و النكران، و المتعاملة منها مع الواقع هي ظنون قلبية إلى الصعود و إلى درجة اليقين القلبي، و الظنون العقلية هي شكوك في القلب، و حق الظن أيا كان أن يردع الإنسان عن التخلف، سواء أ كان ظنا عقليا فشك قلبي، أ يقينا عقليا فظن قلبي، فأي منهما حصل- لمن يحترم عقله و يخاف سوء الحساب- إنه كاف أن يكفّه عن التطفيف و أكل أموال الناس و إيكالها، و هدر نفوس الناس و إبطالها، و استخدام سلطان الزور بحقهم، فالأعمال ليست إلا صورا واقعية عن نفسيات الإنسان، و على حدّ تعبير

الإمام الصادق عليه السّلام: «القلوب أئمة العقول و العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس و الحواس أئمة الأعضاء» «1».

و من أعجب العجاب أن يقين الحساب قد يتمثل شكا في الواقع، و على حد تعبير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار، باب العقل و الجهل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 210

الإمام الرضا عليه السّلام: «ما خلق الله يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت» «1».

أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ‏:

فاللامبالاة هذه في تصرفاتهم تشهد كأنهم لا يظنون البعث لأي مرحلة من مراحل الظن، و بعضهم كأنهم يوقنون بعدم البعث! و الخطاب العتاب هذا، تنديد بمن يظن و من لا يظن، فالأولون يحق لهم بحكم ظنهم بالحساب أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا و أن يزنوها قبل أن يوزنوا، فلا يطففوا في معاملاتهم مع الناس في أموالهم و أحوالهم.

و الآخرون كان عليهم أن يعتبروا بالآيات الآفاقية، و يتذكروا بفطرهم و عقولهم أن البعث و الحساب حق لا محيد عنه.

و قد عبر عن يقين العقل هنا بالظن- حيث يشمله- توهينا لهكذا يقين، كيف لا يظهر في العمل الخارجي! عكس ما عبّر عن يقينه الصالح بالظن في قوله تعالى: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ» (2: 45) فبما أن الخشوع من حالات القلب، فظن الخاشعين كذلك قلبي و ليس عقليا، هذا الظن الذين يجعلهم خاشعين للّه خاضعين، فليست الصلاة و لا سواها من تكاليف، كبيرة لهم ثقيلة ..

فهذا الظن لا يظهر في العقل إلا كدرجة عالية من درجات اليقين، كيف لا و الكثير من المصدقين بعقولهم لا يخشعون و لا يصدقون بأعمالهم.

و قد أوّل الظن هنا و هناك باليقين في المروي عن مولانا أمير المؤمنين عليه السّلام دون أن يكون تفسيرا لغويا و إنما جري و تطبيق: «الظن ظنان ظن شك و ظن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخصال للصدوق بالإسناد عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 211

يقين، فما كان من أمر المعاد من الظن فهو ظن يقين، و ما كان من أمر الدنيا فهو على الشك‏ «1» و هو يعتبر الظن في الآيتين ظن اليقين‏ «2». مهما كان في آية المطففين شاملا لظن الشك أيضا، فإن الإمام يبيّن هنا المصداق الخفي (ظن اليقين) دون نكران لسائر الظن.

ألا يظن أولئك الظانون حتى يدفعهم ظنهم إلى العدل في الناس، و لم لا يظن هؤلاء الشاكون في البعث، و دلائل العلم باهرة و شواهده ظاهرة.

ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم؟! عظيم ما أعظمه مدى الدهر إذ يقوم الناس بأرواحهم و أجسادهم من أجداثهم، يقومون لأعظم عظيم، للّه رب العالمين، لحساب عظيم، يقوم هذا الصغير الصغير لغير النهاية، لهذا العظيم العظيم لغير النهاية، يقومون له- لا- إليه، فإن رب العالمين لم يكن بعيدا عنهم قبل قيامهم و في دنيا الحياة، مهما كانوا- هم- عنه بعيدين.

فهم يومئذ يقومون له، بعد ما كانوا قائمين في دنيا الحياة لأنفسهم إلا قليلا، فهؤلاء القلة القائمة للّه طوال الحياة، يقيمهم اللّه له ليريهم أعمالهم بالحسنى، و الكثرة القائمة لأنفسها يقيمهم اللّه ليجازيهم بما عملوا جزاء وفاقا، «قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ» يوم الدنيا، و لكي تقوموا له أيضا يوم الدين فيقيمكم في عليين.

يوم يقوم الناس لرب العالمين: ليروا ربوبيته العالمية حقها يوم الجزاء، فإن ربوبيته تعالى يوم الدنيا قائمة على أساس الاختبار و الإختيار و التكليف، ثم هي قائمة يوم الدين على أساس الحساب و الجزاء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 528 عن الاحتجاج للطبرسي.

(2)

المصدر عنه (ع) فيما يكون تأويله على غير تنزيله قوله: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ» أي: يوقنون أنهم مبعوثون، و مثله قوله: «أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» أي: ليس يوقنون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 212

إنه يوم القيامة، لقيام الناس‏ «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ» و قيام الإشهاد «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» و قيام الحساب‏ «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ» و قيام عالم جديد بعد خراب العتيق‏ «وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ» (26: 90) قيامات و قيامات في قيامة واحدة، «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

يوم يقوم الناس- متجردين- لرب العالمين، ليس لهم يومئذ مولى سواه، و لا رب سواه، فقد ضلت الأرباب، و تقطعت الأسباب، و الأمر يومئذ للّه.

\*\*\* [سورة المطففين (83): الآيات 7 الى 17]

كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (8) كِتابٌ مَرْقُومٌ (9) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11)

وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلاَّ بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (16)

ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)

.. كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ‏:

الفجّار هم الذين يفجرون ستر العبودية و الحياء، المتجاوزون الحدود المقررة لهم، الهاتكون لها، و الفجور يقابل التقوى و هي الحفاظ على شؤون العبودية:

«وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» (91: 7- 8).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 213

و الكتاب هنا و في أمثاله هو كتاب الأعمال و مسجلاتها الضوئية، صوتية و صورية، أن تسجّل في نفوس الفجار و في أعضائهم و في الأرض و الفضاء كما تدلنا آيات سجلات الأعمال و الأقوال، فإن الكتاب هو المكتوب أي المثبت، و الأشياء الثابتة عن المكلفين، التي تليق أن تكون حجة لهم أو عليهم يوم الدين، إنها ليست إلا صور الأعمال و أصوات الأقوال، و كما

يروى عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «إن الملك يرفع العمل للعبد يرى أن في يديه منه سرورا حتى ينتهي إلى الميقات الذي وصفه الله له فيضع العمل فيه فيناديه الحبار من فوقه:

إرم بما معك في سجين، و سجين: الأرض السابعة، فيقول الملك ما رفعت إليك إلا حقا فيقول صدقت إرم بما معك في سجين» «1».

و هذه الأعمال الشريرة الفاجرة تجعل من روح الفاجر سجينا كما أنها أيضا سجين، و هي تدخل سجين، و على حد

قول باقر العلوم عليه السّلام: «و أما الكافر فيصعد بعمله و روحه حتى إذا بلغ السماء نادى مناد اهبطوا به إلى سجين ..» «2».

و السجين مبالغة في السجن، و كتاب الفجار بأنفسهم و أعمالهم لفي سجين، سجين لا يظهر تماما يوم الدنيا، و هو يبرز تماما يوم الدين.

«كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ»: ليس كما يزعمه المطففون و المجرمون كل المجرمين أنهم متحللون عن أعمالهم و عقباتها، فلا حساب و لا جزاء، و أنهم أحرار يوم الدنيا و أحرار كذلك يوم الدين، لو كان هناك حساب أو لم يكن ..

إنهم يزعمونهم أحرارا و ليسوا إلا في سجين، فأرواحهم سجون الفضائل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 325، أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: حدثني رسول اللّه (ص) ...

(2) نور الثقلين 5: 530 نقلا عن مجمع البيان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 214

و المعطيات الربانية، تسجنها و تدفنها، و أعمالهم سجون لهم و لمجتمعهم، هؤلاء المطففون و أمثالهم البخلاء الذين يحصرون و يسجنون كل شي‏ء لهم و لشهواتهم، و لا يسمحون لأحد حرية إلا و يحددونها، و لا ثروة إلا و يستغلونها، و لا وجاهة إلا و يستقلونها .. فيحسبون أنفسهم كل شي‏ء، و لا يعتبرون غيرهم إلا خداما لهم و لكي يستعمروهم و يستثمروهم و يستحمروهم ..

فهؤلاء الفجار البخلاء الذين ليس كيانهم في المجتمع إلا أنهم سجون للناس و هم أحرار في استغلالهم، و يحسبونهم أنهم يحسنون صنعا.

هؤلاء هم السجين، أنفسهم، نفوسهم و أعمالهم، إنهم أولا و أخيرا سجّين و في سجّين.

وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ. كِتابٌ مَرْقُومٌ‏:

هنا تبرق حقيقة- كانت خفية- هي أن السجين- و في القيامة- هو كتاب مرقوم، و هو الخط الغليظ، إنه ليس كتابا مخطوطا بالمداد لكي تكون دلالته غير ظاهرة و قابلة للتأويل أو التكذيب، و إنما «كِتابٌ مَرْقُومٌ» مكتوب بخط غليظ، بقلم القدرة و النور، حيث تكتب و تسجل صور الأعمال و أصوات الأقوال في نفوس المجرمين و أعضائهم و سواها.

فلو كان الكتاب السجين مخطوطا بالمداد فما هي الحاجة لتوصيفه بالمرقوم؟

فكل كتاب من شأنه أن يحمل- و لا أقل- خطوطا! .. ثم كيف يكون كتاب الفجّار في كتاب مرقوم، فهل كتاب في كتاب؟.

فإنما السجين، و هو سجين الجحيم و من أسجن ما فيه من السجون، إنه ليس إلّا نفس النفوس و الأعمال، فإنها الكتاب المرقوم، الظاهر الذي لا يمكن إنكاره.

فكتاب الفجار، و هو الاضبارات و المسجلات لأعمالهم الفاجرة، هذا الكتاب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 215

في سجين، في كتاب مرقوم، مما يدل على أن سجين الجحيم ليس إلا أعمالهم، كتاب فجورهم، الذي كان خفيا عنهم يوم الدنيا، ثم يبرز مرقوما ظاهرا يوم الدين: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22).

هذا و كما يقال أن خلافك هذا لفي سجن، إشارة إلى أن السجن نتيجة الخلاف، كذلك كتاب الفجار، نفوسهم الفاجرة بأعمالهم الشريرة، إنها لفي سجين، لفي جحيم هي حقيقة تلكم الأعمال، يحرق الفاجر بما أو قده، بوقوده الذي هو نفسه و أعماله: «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» (21: 98).

لذلك نرى بعد آيات عدة يقول: «ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ»، أي: لمحرقوا الجحيم، بماذا؟ بكتاب الأعمال، بالأعمال أنفسها، و بالنفس المجرمة الشريرة.

إذا فكتاب الفجّار هذا هو في نفسه الجحيم و هو السجين، و هو الكتاب المرقوم، الواضح الخط، الغليظ المحتوى.

إن كتاب الفجار- الخفي يوم الدنيا، غير المرقوم في أبصارهم الكليلة- سوف يكون في كتاب مرقوم، سوف يخرج عن الخفاء، فبصرك اليوم حديد، فالكتاب الخفي‏ «كِتابَ الفُجَّارِ» هو في كتاب جليّ في النهاية، كما كان الجلي في الخفي في البداية، و كلاهما سجين و في سجين، سجين يوم الدنيا و سجين يوم الدين.

أو إنه كتاب مرقوم ليوم الدنيا و الدين، مرقوم لمن رقمه مهما كان خفيا في الأولى عن أبصار الناظرين، و هذا الكتاب المرقوم لفي سجين، في حفاظ اللّه تعالى دون أن يمحى منه شي‏ء إلى أن يشهد يوم الحساب، فمعنى الآية إذا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 216

إن أعمال الفجار لفي سجين إلهي، محفوظ ثابت، و السجين هو الكتاب المرقوم، ظاهر بذوات الأعمال و الأقوال.

فيا لهذا الكتاب المرقوم من جلاء و ظهور، مرقوم بخطه الذاتي إذ كتب:

«إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 29) .. يا له‏ «لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً» (18: 49) .. فهكذا رقم أوّلا.

ثم يتحول رقمه هذا- الظاهر- إلى رقمه الملكوتي الحقيقي، تحوّل الأعمال إلى نتائجها، جزاء ذاتي بنفس الأعمال، دون أن يكون جزاء قانونيا فقط، إنما جزاء تكويني: أن تتحول الأعمال إلى نتائجها «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» (53: 42) يجزى الساعي نفس سعيه، الجزاء الأوفى، جزاء وفاقا في السيئات و جزاء كريما في الحسنات.

فالإنسان نفسه كتاب، لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ‏:

وا حسرتاه في ذلك اليوم العصيب إذ برزت كتب الفجار بأرقامها، للمكذبين يوم الدين، أ فهل يكذبون أيضا بما عملوه يوم الدنيا حيث يظهر مرقوما يوم الدين؟

وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ‏:

فإنما الاعتداء و الإثم هما القائدان صاحبهما إلى التكذيب بيوم الدين، فالفطرة السليمة لا تكذّب، و العقل لا يكذب، و واقع الحياة لا يكذب، و إنما المعتدي الأثيم يكذب به، و لكيلا يرى أمامه عقبة كئودة، يكذب بالجزاء العدل الوفاق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 217

مهما صدّق بالبعث، إلا أنه بعث عبث، أو يصدق بالحساب، لكنه حساب فوضى، و مهما يكن من شي‏ء فالمعتدي الأثيم يركز في جرمه على نكران الجزاء الوفاق، و لكي يصدقه البسطاء المتخلفون، يكذب آيات البعث و الحساب ضمن ما يكذب، راميا لها أنها من أساطير الأولين و خرافاتهم، ليس لها أصل سماوي، أو إذا كان فإنما هو من الديانات السابقة فلا جديد إذا في القرآن يفرض علينا اتباعه:

إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ‏:

خرافاتهم و أوهامهم المختلقة المسطورة التي تنتقّل للتّفكّه، أو الآيات التي نزلت على أنبياء اللّه من قبل، إذا فلا جديد في القرآن من حقائقه و خرافاته:

«وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (16: 24) أنزل في قرآنه ما كان ينزله في كتاباته من قبل: «وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى‏ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا» (25: 5) «لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (23: 83) «1».

فأين‏ «آياتُنا»؟ و أين‏ «أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ»؟ فآيات اللّه هي بأنفسها تدل على أنها إلهية إذ لا يسطع عليها إلّا اللّه، و الأساطير الخرافية بأنفسها تدل على أنها من غير اللّه، بل و من السفهاء، و من حماقة التعبير أن يقال عن آيات اللّه أنها أساطير الأولين، و ليس هكذا حكم أحمق إلا لأن قلوبهم أصبحت مقلوبة بما كانوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أساطير أما جمع الجمع، أي: أسطر و أسطور و أسطار، فهو بمعنى ما سطره و كتبه الأولون، أو جمع أسطور و أسطير و هو أيضا ما يكتب، و لكنما الأسطور هو الحديث الذي لا أصل له، فالأساطير أعم مما سطره الأولون و لا أصل له أو ما له أصل قديم، و على الوجهين فرمي القرآن بأنه أساطير الأولين تجعله لا شي‏ء، إما أنه لا جديد فيه و إن كان صحيحا، أو أنه من خرافات الأولين!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 218

يكسبون، فليست هنا أية حجة و دافع لهم في هكذا تعبير إلا رين قلوبهم الناتج عن الاعتداء و الإثم المتواصلين، فبين القلوب و الأعمال تعامل مزدوج يؤثر فساد كل في الآخر، كما يؤثر صلاحه في صلاح الآخر.

إنّ فريتهم هذه على آيات اللّه البينات يدفعها عجزهم عن الإتيان بمثلها، و إن ادعوا أنهم قادرون عليها «وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (8: 31).

فلو استطاعوا لأتوا بسورة مثله و هم يحتالون كل الحيل أن يعارضوها، و هم بأمس الحاجة لعرقلة دعوة القرآن، و لكنهم لم يفعلوا و لن‏ «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» (2: 23- 24).

لا يقدر على ذلك لا أهل الكتاب من كتابات الوحي، و لا المشركون- و أحرى- من كتابات الأساطير.

كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ‏:

إنها ليست آيات اللّه هي الأساطير، و إنما هي شموس الهداية لأولي الأبصار دون عميان القلوب‏ «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (22: 46)

«فإن كثرة الذنوب مفسدة للقلب» «1»

و

«هي ترين كما يرين السيف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

كما في الدر المنثور 6: 326 عن أبي الخير قال: قال رسول الله (ص): أربع خصال تفسد القلب، مجاراة الأحمق، فإن جاريته كنت مثله و إن سكت عنه سلمت عنه، و كثرة الذنوب مفسدة للقلب، و قد قال: بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، و الخلوة بالنساء و الاستمتاع منهن و العمل برأيهن و مجالسة الموتى، قيل: و ما الموتى، قال: كل غني قد أبطره غناه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 219

و جلائه» «1»

و هي تقلب بمواقعة الخطيئة فيصير أسفله أعلاه و أعلاه أسفله كما عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة من آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «2».

و القلوب هنا و في سواها من آيات هي قلوب الأرواح، التي هي بيضاء بما فطرها اللّه تعالى، و هي تشتد بياضا بمواصلة الطاعات، و تسودّ بمتابعة السيئات إلى أن تصل إلى مرحلة الختم فلا ترى أبصارها نورا و إنما تعمى عن مشاهدة الحقائق‏ «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» (35: 40).

أجل- إن مكاسب السوء تعمي القلوب و تجعلها مقلوبة ترى كلّ شي‏ء عكس الواقع، فإنها تحجبها عن النور و تحجب النور عنها و تفقدها الحساسية شيئا فشيئا حتى تتلبد و تموت.

فمن غفل عن ذكر اللّه و اتبع هواه أغفل اللّه قلبه: «وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (18: 28) و إثم الجوارح ينحدر إلى القلوب فتصبح آثمة كما هي‏ «وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ» (2: 283) و ذكرى آيات اللّه البينات ليست إلا لمن كان له قلب واع‏ «إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى‏ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ» (50: 37) و من ختم على قلبه بمكاسبه السوء ليس له قلب فلا يتذكر بآيات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 531 عن الكافي بإسناده عن النبي (ص) قوله: تذاكروا و تلاقوا و تحدثوا فإن الحديث جلاء للقلوب، إن القلوب ترين كما يرين السيف و جلائه.

(2) و

في الدر المنثور 326 عن عبد اللّه بن عمر عن النبي (ص) في حديث: و لن يعذب اللّه أمة حتى تعذر، قالوا: و ما عذرها؟ قال: يعترفون بالذنوب و لا يتوبون و لتطمئن القلوب بما فيها من برها و فجورها كما تطمئن الشجرة بما فيها حتى لا يستطيع محسن يزداد إحسانا و لا يستطيع مسي‏ء استعتابا، قال اللّه: كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

و

فيه 6: 325 عن النبي (ص) إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه و إن عاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الرين الذي ذكر اللّه في القرآن‏ «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 220

اللّه، دون المؤمن البصير «وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» (64: 11).

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ‏:

ليس كما يزعمه المجرمون أن لهم الحسنى في الآخرة أيضا كما لهم في الدنيا على حد قولهم: «وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى‏ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى‏ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ» (41: 50).

«كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» .. كما حجبوا أنفسهم يوم الدنيا عن البينات فختم اللّه على قلوبهم، كذلك يحجبهم عن ربوبيته المتمثلة في رحماته يوم الدين، و من أعظمها جنة المعرفة و الرضوان، محجوبون عن ربهم لا عن اللّه، فإن الذات الإلهية محجوبة في الدارين و عن العارفين باللّه أيضا فضلا عن سواهم، و إنما يحجبون عن ربهم كما كانوا محجوبين عنه يوم الدنيا، رغم أنهم لا تظهر لهم الحقائق يوم الدين حقها فلا يبقى حجاب‏ «وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» (22: 25)، و لكنهم بعيدون عن جناب الربوبية حجاب المعرفة و الواقع.

هؤلاء هم الفجار، و أما المؤمنون فغير محجوبين عن ربهم، «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ» (75: 22- 23) وجوه الأبصار إلى ربوبيته، الظاهرة في نعمه، و وجوه البصائر إلى ربوبيته الباطنة في معرفته و قربه و رضاه، رغم الفجار، «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» (75: 24- 25) باسرة في الوجهين، كليلة في الحالتين: «وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ‏ ... وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (3: 77).

إن هناك حجبا عن ذات اللّه و ليست للّه، فالخلق كلهم محجوبون عن ذات اللّه حجاب البصر و البصيرة، سواء المؤمن و الكافر، و ليس اللّه محجوبا عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 221

ذوات المخلوقين، فهو أقرب إليهم منهم إلى أنفسهم‏ «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (10: 16).

و إن هناك حجبا عن الرب، عن ربوبيته و معرفته، و ليست إلا من الخلق لا من الرب، سواء حجب الظلمة و حجب النور، و قد تخرق هذه الحجب بما يسعى السالك في سبيل المعرفة حسب الشرع، و ما يؤيده اللّه تعالى و يجذبه إليه و على حدّ تعبير

الأمير عليه الصلاة و السلام: «و أنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة»

و قد خرقت هذه الحجب كلها لمعراج الرسول الأقدس في مقام‏ «أَوْ أَدْنى‏»! و الطرق إلى اللّه بعدد أنفاس الخلائق.

فما بقي في قلب الإنسان نور، فبقدر هذا النور ينظر إلى معدن العظمة يوم الدنيا و بالأحرى يوم الدين.

فليس حجاب الفجار هو عن الرؤية لكي يعني أن المؤمنين سوف يرون اللّه،

«إن الله تعالى لا يوصف بمكان يحل فيه فيحجب عنه فيه عباده، و لكنه يعني أنهم عن ثواب ربهم محجوبون» «1»

ثواب الزلفي و المعرفة و الرحمة، كلّ حسب سعيه.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ. ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ‏:

هؤلاء المجرمون سوف يصلون الجحيم: يوقدونها بأعمالهم المرقومة، فلقد كان كتابهم سجينا و في سجين، و هذا هو وقود الجحيم، هم بأنفسهم المجرمة و أفكارهم و أعمالهم، أولئك هم وقود النار، و كما كانوا يوم الدنيا وقود النار.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 532 عيون الأخبار عن الامام الرضا (ع) و في التوحيد روى عن علي عليه السّلام مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 222

فهذا جحيمهم الناتج عن أفكارهم و أعمالهم، يحرقون به، ثم مع الجحيم التأنيب مع ما شاهدوا من سوء أعمالهم و عله أمرّ من الجحيم و أدهى، يؤنبون بأمور عدة، منها «.. هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» .. كنتم تكذبون بيوم القيامة، قيامة الأموات و قيام الحساب و الجزاء الوفاق، و إن النار تصلى بالأعمال و الأفكار النارية فهي وقودها، «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

\*\*\* [سورة المطففين (83): الآيات 18 الى 24]

كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (19) كِتابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22)

عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24)

كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ‏:

كلا! ليس كما يزعمه الأشرار أن لهم عقبى الدار إن كانت لها عقبى، كما لهم دنيا الدار، فإن كتابهم لفي سجين طوال الحياتين على عكس كتاب الأبرار.

و أما عليّون فقد قيل إنه اسم أشرف الجنان كما أن سجينا اسم لأشر النيران، و قيل: إن مفرده «علي»\* كثير العلو، و عليون هم الأعلون المقربون.

هذا، و لكنما القرآن نفسه يفسر «عليين» ب «كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» ف «عليون» على أية حال يوحي بالعلو العال، كما سجين يوحي بالسفال، فكتاب الأبرار إذا هو عليون و في عليين، و كما أن الأبرار هم عليون، علو الذات المنحدر إلى علو الأعمال و الصفات، المسجلة في مختلف السجلات عالية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 223

رفيعة، ثم ظاهرة يوم القيامة في جنات عاليات و نعم خالدات، عكس ما كان كتاب الفجار.

فالأبرار هم عليون يدخلون بعليين الأفكار و الأعمال في عليين الجنات، فمن هم الأبرار و من هم المقرّبون الذين يشهدون كتابهم المرقوم؟

الأبرار جمع البرّ مقابل البحر، استعير منه التوسع في الخير، فالأخيار كلهم هم الأبرار، من خالق البر و الأبرار، «إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ» (52: 28) و من سفرته‏ «كِرامٍ بَرَرَةٍ» (80: 16) ثم سائر المتقين المقربين و من دونهم.

و آية الأبرار هنا إنما تعني المتقين غير المقربين من الخلق أجمعين، فإن المقربين هم يشهدون كتابهم المرقوم، ثم اللّه ليس له كتاب مرقوم له أو عليه.

فالمقربون هم المصطفون من الأبرار الذين قربهم اللّه تعالى إليه زلفى:

«السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ» (56: 10- 13) و لو كانوا هم كلّ المتقين لما كانوا قلة من الآخرين، و ثلّة من الأولين، لأن شريعة الآخرين هي الخالدة إلى يوم الدين، فليكونوا هم الثلّة و الأولون القلة، كلا- و إنما أصحاب اليمين من الآخرين هم الثلة، و المقربون و هم النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عترته المعصومون هم القلة عددا وجاه النبيين و الوصيين السابقين‏ «وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ. فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ» (56: 85- 88) ..

فالأنبياء من المقربين و كما المسيح عليه السّلام‏ «وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ» (3: 45) و من الملائكة أيضا مقربون‏ «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» (4: 172).

و من الشواهد على أن المقربين أعلى منزلة من الأبرار، أنهم: يسقون‏ «عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ».

ثم كتاب الأبرار، المرقوم، يشهده المقربون، فإنهم شهداء الأعمال،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 224

ف «عليون الأبرار» هو كتاب مرقوم يشهده المقربون، شهودا يوم الدنيا و شهود، يوم الدين، فشهادتهم في الأولى شهادة تلقّ، و في الآخرة شهادة إلقاء يوم يقوم الأشهاد، و الكتاب المرقوم هنا- كما في كتاب الأشرار- هو الأعمال التي ترقم بصورها و أضوائها و على حدّ

قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب مرقوم في عليين‏ «1».

الطينة العليينية و السجينية:

قد يشمل عليّون الأبرار طيناتهم كما السجين طينات الأشرار، كما في أحاديث عدّة، و لكن هل يا ترى أن اللّه يخلق الأبرار- حين يخلق- أبرارا، و الأشرار أشرارا؟ فما هذا إلا تسييرا في البر و الشر ينافي التخيير، اللهم إلا أن يعنى من الطينة الروحانية منها، الحاصلة من الأعمال الصالحة للأبرار، و الطالحة للأشرار، على توفيق من اللّه للأبرار نتيجة برهم، و ختم على قلوب الأشرار نتيجة شرهم، و لذلك نرى‏

باقر العلوم عليه السّلام يقول: «إن الله خلقنا من أعلى عليين و خلق قلوب شيعتنا مما خلقنا و خلق أبدانهم من دون ذلك فقلوبهم تهوي إلينا لأنها خلقت مما خلقنا» ثم يقرأ الآية «كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ..» «2»،

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «إن الله تبارك و تعالى خلقنا من نور مبتدع من نور سنخ ذلك النور في طينة من أعلى عليين» اه «3».

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ‏:

و هو عليّون الجنة بعليين الأعمال، و تنكير «نعيم»\* هنا يوحي إلى تفخيمه، فكما هم كانوا أبرارا: متوسعين في الخير، فليكن نعيمهم واسعا، ثم و أوسع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 327 أخرج ابن مردويه عن أبي إمامة قال: قال رسول اللّه (ص):

(2) نور الثقلين 5: 533 ح 31 الكافي بالإسناد إلى أبي حمزة الثمالي عنه (ع).

(3) المصدر ح 32 علل الشرائع بإسناده عن زيد الشحام عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 225

مما عملوا بفضل اللّه، جزاء فضلا فوق الوفاق، طالما كان جزاء المجرمين الجزاء الوفاق.

و كما الجحيم هي نار شديدة التأجج للفجار، فليكن النعيم رحمة كثيرة التبهج للأبرار.

عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ‏:

و الأرائك جمع أريكة، و هي سرير السلطان، فارسية قديمة و كما في «أوستا زرادشت» نرى «أرائك»\* بمعنى سرر السلاطين.

فالأبرار الذين كانوا- على الأكثر- فقراء منكوبين محجورين مهجورين يوم الدنيا، لم تكن أصحاب الأرائك تعتني بشؤونهم و لا تعتبر لهم وجودا، هؤلاء سوف يجلسون في الجنة على الأرائك ينظرون: ينظرون إلى رحمات اللّه و ما وعدهم ربهم، و ينظرون إلى خدامهم و الحواجب فيها، و ينظرون كذلك إلى أصحاب النار محتقرين إياهم.

إنهم ينظرون حيث يشاءون دون غضّ و لا غضاضة من مهانة أو مشقة، و ظاهرهم يوحي عن باطنهم.

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ‏:

الظاهر هو عنوان الباطن، فكل نظرة إليهم تكشف عن نضرة النعيم دون أن يظهر منهم شي‏ء بلفظة قول أو إشارة، فهم نعيم بكيانهم ككل، لا بؤس فيهم و لا عبس.

\*\*\*

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 226

[سورة المطففين (83): الآيات 25 الى 28]

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26) وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)

خمر الدنيا و الآخرة:

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ‏:

يسقون من رحيق، و ما أدراك ما الرحيق، إنه الخمرة الصاخبة الخالصة من كل غش، و ليست كخمر الدنيا التي هي غش للعقل و غش للجسم، غش للفرد و غش للمجتمع، و كلها غش، و إن كان فيها نفع فإثمها أكبر من نفعها بكثير.

لنأخذ مثالا على الخمرين، إنسانين، أحدهما أبو لهب عم النبي، و ثانيهما هو النبي الأقدس، فهل يا ترى أن اشتراكهما في الاسم و في الهيكل الإنساني يجعلهما في مستوى واحد؟

كذلك البون بين خمر الدنيا التي يستر و يخمر عقل الإنسان و إنسانيته، و يستر عليه صحته، و خمر الآخرة التي تستره عما سوى اللّه و ترفعه إلى درجات من معرفة اللّه ما كان ينالها لولاها، و تصلح و تصحح جسمه، و القرآن يصف خمر الجنة بما يخرجها عن كل غول و تأثيم‏ «وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (47: 15) لذة في العقل و الروح، و لذة في الجسم، و لذة في المنظر، و لذة في الطعم، و خمرة الدنيا مرة في طعمها، مرة إذ تنقص العقل و تنقضه، و مرة إذ تضر بصحته، و إن كان الجاهلون يحسبونها لذة، فلأنهم يتحللون بسكرها عن أحكام عقولهم و عما يقيّدهم في الحياة، لذة حيوانية عابرة تخلّف ذلة كيانية لهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 227

«يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ» (52: 23) و خمر الدنيا فيها كل لغو و كل تأثيم‏ «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ» (2: 219) و الإثم ما يبطئ عن الخيرات، فخمر الدنيا تبطئ عن الخيرات، و خمر الآخرة تعجل له الخيرات و تفتح له أبوابها.

و لقد وصفت الرحيق بصفات عدة تميّزها عن خمر الدنيا و لحدّ عبّر عنها بالرحيق كما في سواها من آياتها الواصفة لها في الجنة، اللهم إلا واحدة تقرنها بما يخرجها عن شرها «وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» (47: 15).

«يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» (37: 45- 47) «بيضاء»\* و ليست خمر الدنيا بيضاء، «لذة»\* و ليست هي لذة و إنما مرة تعقّب لذة خيالية نتيجة التحلّل عن العقل‏ «لا فِيها غَوْلٌ» و هو إهلاك الشي‏ء من حيث لا يحسّ، و خمر الدنيا تهلك العقل و الجسم من حيث لا يحس، «وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» لا ينزعون عن عقولهم و لا يفرغون‏ «وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ» (56: 18- 19) لا فيها صداع الرأس و لا فراغ العقل و نزفه.

فأين الخمر التي هي بيضاء لذة للشاربين لا غول فيها و لا لغو و لا تأثيم و لا صداع و لا نزف و هي صاخبة خالصة من كل غش، أين هي من خمر الدنيا:

حمراء نقمة للشاربين، فيها كل غول و كل لغو و تأثيم، و كلها صداع و نزف و هي شائبة مغشوشة؟

نجد بينهما بونا شاسعا لحد يحق تفريقهما في الاسم أيضا، و لذلك لا تسمى خمرا إلا في آية واحدة و لتوحي أن في خمر الآخرة ما في خمر الدنيا من لذتها- إن كانت لها لذة- و زيادة فوق الوصف، دون أن تحمل إثمها و غولها و نزفها و شرها و ضرها! و هذه الخمرة الطيبة إنما يشربها من ترك خمرة الدنيا الخبيثة و كما

في وصية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 228

الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلي عليه السّلام: يا علي! من ترك الخمر لغير اللّه سقاه اللّه من الرحيق المختوم، فقال علي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لغير اللّه؟ قال: نعم و اللّه صيانة لنفسه فيشكره اللّه تعالى على ذلك‏ «1».

فالرحيق (خمر الجنة) كما أزيل عنها اسم الخمر، كذلك أوصافها بما وصفت بصفات طيبة هي «مختوم ختامه مسك و مزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون».

«رَحِيقٍ مَخْتُومٍ»: فالرحيق المختوم، و كل طعام و شراب مختوم، إنه أصلح للشرب و التناول لسلامته عن تصرف الهواء و تدخل الجراثيم، فإنه مختوم عن التفاعلات الخارجية و تأثيراتها.

ثم هي مختومة في الخيرات كما هي مختومة عن الشرور، لا خير إلا و قد جعله اللّه فيها، و لا شر إلّا أنها مختومة عنها، رحيق مختوم عما يرهق من أضرار و مختوم فيما يرغب فيه الأبرار.

هذه الخمرة هي أشرف أصناف الخمر في الجنة، و لأنها مختومة بالمعنيين و ليست كذلك خمر النهر «وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» و أن لها مزاجا من عين المقرّبين من تسنيم.

فهذه معدّة في أوانيها مقفلة مختومة تفضّ عند الشراب، فما هو ختامها؟

خِتامُهُ مِسْكٌ‏:

ختم بالمسك، دون الوحل المختوم به خمر الدنيا، و ختامه: عاقبته، مسك عطر في الروح و عطر في العقل و عطر في الجسم، كما أن بدايته مسك،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 534 من لا يحضره الفقيه عنه (ص) و القمي عن الصادق (ع) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 229

خلاف خمر الدنيا إذ هي عفنة بدايتها، و شريرة نتن ختامها، لا تأتي إلا بكل شرّ و رذيلة.

ففي مسك الخمرة و ختمها بالمسك، فيه إناقة و رفاهية، صورة لا يدركها البشر إلا في حدود المعهود من الدنيا.

وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ‏:

من المفروض أن يتنافس العقلاء في الختام المسك عاجلا و آجلا، لا في الشهوات العاجلة الفانية النتنة، فليتنافسوا في عليين و في النعيم المقيم، و في نضرة النعيم، و في رحيق مختوم بالمسك، و كلّ نعيم الجنة مسك.

فالتنافس هو تمنّي كل نفس مثل النفيس الذي يكون لغيره، و لا نفيس في الدنيا إلا ما يقدّم للأخرى، فإنما الأولى بئيسة تعيسة إلّا ما حوّل منها إلى مزرعة الآخرة، و في ذلك فليتنافس المتنافسون.

إن التنافس في نعيم الآخرة يرتفع بأرواح متنافسيها جميعا، بينما التنافس في أمر الدنيا ينحط بها جميعا، إلا أن يكون لدنيا الآخرة، فدنيا المتقين آخرة، و لأنها مزرعة الآخرة، لا يبصرون إليها فتعميهم، و إنما يبصرون بها فتبصّرهم و تقربهم إلى اللّه زلفى.

فعلى المؤمن التنافس في ذلك، تاركا تنافسات الهوى و الردى، و إنه توجيه يمد بأبصار أهل الأرض و قلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة، بينما هم يعمّرونها و يقومون بالخلافة فيها، عمران المدرسة للدراسة، لا المستنقع الآسن و الطويلة العالفة لحيونة الحياة و الإخلاد إلى أرضها و سجينها.

وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ. عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ‏:

إن لهذا الرحيق مزاج من تسنيم: عين المقربين، و لأنه يقرب شاربيه إلى اللّه، فإنه خمرة تخمر عن العقول ظلمها، و تزيد الإنسان معرفة و سكرة باللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 230

و التسنيم ضد التسطيح، ماء بالجنة يجري فوق الغرف يتسنم عليهم من الأعالي إلى الأسافل، عين فوقانية المصدر و النبع، تنحدر مسنّمة العليين، و إنما يشرب بها المقربون، و للأبرار مزاج منها للرحيق المختوم، و إن للمتقين عيونا دون التسنيم: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ. فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ» (51: 15) «عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً» (76: 6).

و الكوثر- علّه- العين أو النهر أو الحوض الخاص بأقرب المقربين، محمد و آله الأنجبين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، عيون ثلاث لكل أهل خاص، و إن كان الكل له نصيب من العين الأعلى مزاجا في شرابه كما في رحيق الأبرار.

\*\*\* [سورة المطففين (83): الآيات 29 الى 36]

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ (30) وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى‏ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (32) وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (33)

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (36)

. أصل الجرم هو قطع الثمرة سواء عن نفسه أم عمن سواه أيضا، فالمجرمون هم الذين قطعوا عن فطرهم متطلباتها، و عن عقولهم حاجياتها، و عن حياتهم أهدافها اللائقة بها، ثم هم يعيشون حياة الإجرام لمجتمعهم، فهم رؤوس الضلالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 231

طوال التاريخ: «وَ ما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ» (26: 99) و هم أعداء النبيين:

«وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» (25: 31) و هم قطّاع سبل الخير في البلاد: «وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ» (6: 123).

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا:

قطعوا ثمرة الهدى عن شجرة الإنسانية، و انقطعوا عن اللّه إلى سواه، هؤلاء المنقطعون عن ثمار الحياة:

كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ‏:

يضحكون منهم ساخرين ناقمين أن آمنوا بربهم و انقطعوا إليه‏ «هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ» (5: 59) و غريب في نوعه كيف يضحك المنقطع عن كل خير من المتصل الواصل إلى كل خير؟ هل لفقرهم؟ و ليسوا كلهم فقراء، و ليس الفقر دافعا عقليا إلى الضحك، أم لضعفهم عن رد الأذى، و ليسوا دوما و لا كلهم ضعفاء، و ليس الضعف مادة للسخرية، أم لإيمانهم؟ إذ زعموا الإيمان رجعية و انعزالية عن الحياة، و هو الحياة كلها! و إذا كان الإيمان رجعية سوداء و الإجرام تقدمية بيضاء فليحاول هؤلاء القدامى في إقناع المرتجعين دون أن يضحكوا عليهم، فما الضحك و الهزء إلا عجزا عن العلاج، و جهلا و سوء أدب، ثم‏ «ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ» إلا رسالة شيطانية مجرمة!.

تقول الروايات «إن أكابر المشركين كأبي جهل و الوليد بن المغيرة و العاصي ابن وائل السهمي كانوا يضحكون من عمار و صهيب و بلال و غيرهم من فقراء المسلمين و يستهزئون بهم، و أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم جاء في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون و ضحكوا و تغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 232

الأصلع فضحكنا منه، فنزلت الآية قبل أن يصل علي و أصحابه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم» «1».

و هكذا يكون دور الإجرام طوال التاريخ ألا يكتفي المجرمون بعملياتهم الإجرامية، بل و يحاولون بشتى الأساليب أن يجتثوا جذور الإيمان، و من أخريات الوسائل و أشنعها عادة الاستهزاء علّ المؤمنين ينضموا إلى صفوفهم و كلا، إذا كانوا مؤمنين حقّا.

وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ‏:

مرور التنابز و التغامز، هؤلاء المجرمون الأوغاد يواصلون دورهم الإجرامي إذ يمرون على المؤمنين الأوتاد، مرورا ساخرا مائرا علّهم يرتبكون و ينكسرون، تغامزا بالعيون و الأيدي، و تنابزا بالألقاب الساخرة المرذولة قائلين: انظروا إلى هؤلاء الرجعيين كيف يتعبون أنفسهم و يحرمونها لذاتها الحاضرة لوعود كاذبة و أوهام لا أصل لها، و يخاطرون بأنفسهم طلب الثواب! وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى‏ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ‏:

مرحين بطرين مما فعلوا بالمؤمنين، آخذين ذلك فكاهة لأهلهم لعلهم يفرحون و يمرحون، كأنهم انقلبوا عن أفلام ممرحة و مسرحيات مفرحة، راضين عن أنفسهم الحقيرة الرديئة، مبتهجين بما فعلوا دون أن يتلوموا أو يندموا و يشعروا بحقارة ما صنعوا، فويل لهم مما كسبت أيديهم، و ويل لهم مما يصنعون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ج 31 ص 101 و نور الثقلين 5: 535 عن علي ابن ابراهيم قال: نزلت في علي بن أبي طالب (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 233

وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ‏:

هنا يوحّد المجرمون ثالوثهم بحق المؤمنين: «إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ» ضلّوا سبيل الحياة و متطلباتها فعاشوا كأنهم أموات، تركوا لذة الحياة و نضارة الحياة و حبسوا أنفسهم عن الشهوات، إن هذا إلا ضلال مبين! و لا أعجب من هذا الحمق العميق أن تحسب الهدى ضلالا و الضلال هدى، فالفجور لا يقف لحدّ، و كلمتهم هذه من أفجر ما يتصور، و لذلك لا تستحق الجواب إلّا كسخرية نزيهة عالية من هؤلاء الأغبياء الذين يتدخلون فيما ليس لهم:

وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ‏:

فمن هذا الذي و كّلهم للحفاظ على المؤمنين؟ فهذا فضول على فضول:

أن تسمّى الهدى ضلالا، و أن يتدخل في شؤون المؤمنين بلا رسالة ممن له أمرهم، اللهم إلا رسالة الشيطان! ثم و في الآخرة، إذا المؤمنون في الجنة و المجرمون في النار نرى معاكسة بين الفريقين:

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ. عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ‏:

المؤمنون يضحكون عليهم جزاء وفاقا بما كانوا هم عليهم يضحكون، كما و يضحك عليهم ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب و تضحك عليهم الجنة و النار بما كانوا يصنعون، «عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ» إلى مقاماتهم العليا و نعيمهم المقيم، تعرف في وجوههم نضرة النعيم، و ينظرون إلى دركات المجرمين، إلى وجوههم الباسرة التي رهقها قترة و ذلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 234

هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ‏:

فقد كانوا يزعمونهم حافظين على المؤمنين موكّلين، يحاولون إخراجهم من الإيمان إلى الكفر، من الرجعية السوداء إلى التقدمية البيضاء! فهل ثوّبوا؟

و من ذا الذي يثيبهم إلا الذي عاشوا عمالته: الشيطان الرجيم، فهل بإمكان الشيطان أن يثيب حزبه كما وعدهم؟: «وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (14: 22).

فطالما المجرمون يوجعون قلوب المؤمنين المضطهدين لأنهم مؤمنون، فهم إذا بحاجة إلى بلاسم لقلوبهم المجروحة يوم الدنيا و لكي يواصلوا نضالهم، فاللّه هو الذي يراهم كيف يتفكه بآلامهم المتفكهون، إذن فهو الذي يبلسم قلوبهم إذ يفنّد آراء المجرمين، و إذ يسخر منهم سخرية رفيعة فيها تلميح موجع، طالما لا تحسّه قلوب المجرمين المقلوبة، و لكن قلوب المؤمنين تستنيمها و تستريح إليها.

ثم هو الذي يذكرهم مشاهدهم معهم يوم القيامة، و لكي يعدّوا لها عدتهم، و لا يفشلوا فيما هم فيه من حياة إيمانية طيبة، رغم آلامها الجسدانية، فهم ليسوا ممن يعيش حياة الجسد، إلا كمزرعة و وسيلة للحياة الروحانية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 235

سورة الإنشقاق- و آياتها خمس و عشرون‏

[سورة الانشقاق (84): الآيات 1 الى 25]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (1) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (2) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ (4)

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (5) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً (8) وَ يَنْقَلِبُ إِلى‏ أَهْلِهِ مَسْرُوراً (9)

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً (11) وَ يَصْلى‏ سَعِيراً (12) إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14)

بَلى‏ إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً (15) فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ (17) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (19)

فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20) وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (24)

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 236

سورة تحمل عرضا عن البعض من مشاهد الانقلاب الكوني عند الساعة و كما سبقت بصور أخرى في سور: «النبأ- الانفطار- التكوير ..»

و لكنما طابع الانقلاب هنا يظهر في مطلع الاستسلام و الذلّ لإرادة الرب، طالما كان فيما قبلها في جوّ عاصف قاصف، و لكي يتنبّه الإنسان النسيان عن غفوته و بطشه.

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ‏:

بما أن الشقّ هو الخرم الواقع في الشي‏ء، فانشقاق السماء هو اخترامها و افتراقها عن التئامها، و انشقاق السماء- و ليست كواكبها- يدلنا على أنها جرم متراكم و ليست جوا خاليا فيها كواكبها، إنها جرم و إن كانت تختلف خفة و ثقلا، و من أثقل أثقالها كواكبها التي خلقت من تجمّع أجزائها و أجرامها، و المملكة السماوية دوما في التوسع: «وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ» (51: 47).

فانقلاب السماء يومه هو انشقاقها، كما انقلاب نجومها و كواكبها هو انطماسها و انكدارها و انتثارها دون انشقاقها، حيث القرآن يختص السماء بالانكشاط و الإنشقاق، و يختص كواكبها بالانطماس و الانكدار و الانتثار.

و على أية حال فلا مجال للانشقاق إلا في جرم متصل ملتئم، و على أثر انشقاقها تنقلب عن صلابتها و توهى: «وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ» (69: 16) و هيا لحدّ الدّهان: «فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ» (55: 37) و كلّ شي‏ء استرخى رباطه فقد و هي، و من رباط السماء الجاذبية العامة، فالسماء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 237

مرفوعة يوم الدنيا «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» فإذا انفلت رباط العمد غير المرئي و استرخى، فهي إذا تنشق، كما الكواكب تنطمس و تنكدر.

و على أثر انشقاقها تكشط: انخلاعا عن جلدها و جلدها: «وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ» (84: 11) و تفرج: «وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ» (77: 8) و تفتح:

«وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً» (78: 20) و تطوى: «يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ» (21: 104) يطوى طومارها، فهي يومئذ واهية تمور مورا، و وردة كالدهان، و أخيرا تنقلب إلى ما كانت: دخانا: غازا متسانخ الأجزاء: «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ» (86: 9) «يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ» (44: 11).

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ‏:

سمعت لربها في انشقاقها لحد شكت من وقعة سماعها، سماعا تكوينيا إذ أجابت ربها في انشقاقها، كما أجابته مع زميلتها (الأرض) عند تكوينها:

«فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ ..» كناية عن نهاية طوعها لربها و عدم تمنّعها عن إرادته تعالى.

«و حقت»\*: جعل حق الطاعة و السماع في ذاتها، المفتقرة جوهريا إلى ربها، الذي: «بيده ناصة كل شي‏ء» و «مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ».

أجل إنها «حقت»\* لا أنها «حق لها» فحقّ الطاعة ليس لها منفصلا عن كيانها، و إنما في جوهر ذاتها، فلتأذن لربها و تشكو من وقع أذنها، إذ لا تملك لنفسها إلا أن تأذن، كما الكائنات كلها «أذن»\* لربها، في تعميرها و تدميرها.

وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ‏:

مدّ التدمير في النهاية، كما مدّت مد التعمير في البداية، و بمدّها ألقيت فيها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 238

و عمّرت رواسيها و جرت أنهارها: «وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً» (15: 19) ثم بمد التدمير تلقي ما فيها و تتخلى:

وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ‏:

«وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها»: انقلبت ظهر بطن على أثر زلزالها و مدها العنيف و رجفتها الأولى المدمّرة.

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ‏:

كزميلتها السماء على سواء في الأولى و الآخرة، فكما البداية لم تكن صدفة و فوضى، أو تدخلا من غير اللّه أيا كان، كذلك النهاية ليست إلا بإرادته تعالى‏ «فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى‏» (53: 25).

«إِذَا السَّماءُ .. يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ» .. و هنا نسأل: أين جواب «إذا»\*؟

هل إنه محذوف ليذهب ذهن السامع إلى أيّ مذهب ممكن فيكون أدخل في التهويل؟ أو أن آية الكدح جملة معترضة لتزوّد الإنسان بذكرى ما تتطلبه حياة الحساب، ثم بعدها آية الجواب: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ ..»؟ أو إن «إذا»\* ظرف لدور الكدح إلى الرب و لقائه، كدحا يختص بأهوال القيامة و أحوالها، قيامة الإماتة و الإحياء؟ كلّ محتمل، و خيرها أوسطها، إذ لا يحصر كدح الإنسان بأهوال القيامة رغم الأخير، و لا يهمل «إذا»\* بلا جواب، رغم الأول، فالقرآن جواب عن غير سؤال، فكيف لا يجيب عما يطرحه من سؤال! يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ‏:

و كما الكائنات كلها من أرضها و سماواتها كادحة إلى ربها فتلاقيه.

«يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ»: الإنسان، لا الناس و لا الأناسي، خطاب شخصي مع كل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 239

إنسان إنسان، و ليدل أن الكدح للجميع لا المجموع، فكلّ كادح، و على كلّ أن يكون كادحا.

فما هو الكدح في ذاته؟ و ما هو هو إلى ربه؟ و ما هو الم؟؟؟ وقى بعد الكدح؟ هل هو الكدح بنتاجه؟ أم هو الرب المكدوح إليه؟

الكدح هو السعي و العناء، و هو دون الكدم، و حقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الإنسان أيا كان، و إن اختلف نوعه: نفسيا و جسدانيا، و إن اختلفت مراتبه حسب اختلاف الكادحين، و إن اختلفت أهدافه، فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض، و واحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكدح ..

فأنت أنت يا إنسان تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحا على أية حال.

ثم الكدح أيا كان لا يقف لحده أو يفنى، إلا أن يجتازه إلى آثاره عاجلا و آجلا، شئت أم أبيت، و إلا أن يجتاز بك إلى ربك: «إِنَّ إِلى‏ رَبِّكَ الرُّجْعى‏» شئت أم أبيت، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» شئت أم أبيت، فلا محيد لك و لا محيص عن هذين المصيرين اللذين ينتظرانك بعد الكدح، في حياة الكدح و بعدها.

و إذا كنت- و لا بد- مسيّرا إلى هذا المصير، فأحسن السير تحسن المصير، كن كادحا إلى ربك عن تقصّد و إخلاص، و إلى نتائج كدحك عند ربك، لتخرج يوم العرض و الحساب عن الشغب و الإفلاس.

فكدحك أيها الإنسان كدحان: كدح نتاجه كدح و أشقى هو للحيوان، و كدح نتاجه راحة و رضوان من اللّه و هو كدح الإنسان، فكن كادحا كإنسان، تراعي في أعمالك مرضاة اللّه تكسب الدارين، و الثانية أسعد و أبقى: «وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 240

و إذا كان واقع الكدح إلى لقاء نتاجه و إلى لقاء اللّه، فالحريّ بمن يحترم عقله أن يتقصد هذين اللقائين و يعمل لهما، دون أن يتجاهلهما، كما الكثيرون من من الكادحين يتجاهلون، كأنهم موقنون ألا لقاء هنا و هناك.

«يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ»: متعب نفسك‏ «إِلى‏ رَبِّكَ» الذي رباك كيف تكدح تكوينيا و تشريعيا «فملاقيه»: ملاقي كدحك و ملاقي ربك، فلتكن عاقلا في كدحك لكي يكون اللقاء مشرّفا سعيدا يوم الدنيا و يوم الدين في اللقائين.

الكدح الصالح- نفسيا و جسدانيا- ينتج لقاء صالحا في الدنيا، معرفيا عن النفسي منهما، و حيويا معيشيا عن الآخر .. و ينتج- و بالأحرى- لقاء صالحا و أصلح يوم الآخرة: إذ تلاقي ربك لقاء المعرفة العالية، و لقاء الزلفى و الرضوان، نتيجة الكدح في سبيل اللّه، و تلاقي عملك كذلك: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ..» فاستعدّ ليوم اللقاء و لأيام اللقاء، و لتعمل عملا صالحا و لا تشرك بعبادة ربك أحدا.

إن الإنسان- كائنا من كان- إنما يعيش بعمله، عيشة الإنسان أم عيشة الحيوان، فليكن إنسانا كما ربّاه ربه، و ليستعد للقاء ربّه بعمله.

شريعة الكادحين:

إن شريعة القرآن و سواهن شرائع إلهية غير محرفة، إنها شريعة الكدح إلى اللّه في كافة النشاطات و المجالات، و لا ترضى لأحد حياة الأريحية، و أن يجعل كلّه على غيره،

«ملعون ملعون من ألقى كله على الناس».

فبإمكان الإنسان أن يعيش الكدح إلى اللّه حياته في كافة الحقول: عبادية و سياسية و اقتصادية و ثقافية و حربية، و أضرابها من حقول الحياة التي تتطلب- كلّ حسبها- أتعابا فكرية و عضلانية و سواها؛ فتصبح أعماله و أفكاره‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 241

- كلها- في سبيل اللّه: يعبد اللّه للّه، و يسوس عباد اللّه سياسة صالحة للّه، و يزرع للّه، و يتجر و يعمل و يصنع للّه، و يتعلم للّه، و يحارب في سبيل اللّه، فيجعل كافة ميادين الحياة محاريب يتمثل فيها هو مطيعا لأوامر اللّه، و كما الكون أجمع محراب واسع تسجد فيه الكائنات لربها طوعا أو كرها ثم إليه يحشرون.

فطوبى للكادحين إلى ربهم إذ لا يدركون عناءه بما ينتظرهم من رحمة خالدة، و رضوان من اللّه أكبر .. و بؤسا و تعسا للكادحين إلى الشهوات الفانية، فإنهم سوف يدركهم كدحهم السيّئ الماكر جزاء وفاقا، و لا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله.

طالما حياة التكليف هي حياة الكدح و الأتعاب، و لكنها تنتهي بلقاء الرب- مشرّفا- لو كانت متجهة إلى الرب: «كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ» ثم في لقاء اللّه و لقاء الأعمال يوم اللقاء، إنّ فيه راحة خالصة: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» حياة راحة خالصة لا تخالط تعبا و لا شغبا.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً:

تقسيم ثنائي لمصير الكادحين من الأخيار و الأشرار، و عرض للقاء الأعمال يوم العرض الأكبر، و قد عبّر عنه بالكتاب: الحالة الثابتة من الأعمال و النيات و الأقوال، بما استنسخها اللّه تعالى بأقلام الأمواج على صحائف الأجواء و الأعضاء و الأكناف: «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و إذا استطاع هذا الإنسان الضعيف أن يستخدم الأمواج و تحويل الصور و الأصوات على الشاشات التلفزيونية و أضرابها، فلله تعالى كتاب لأعمال الإنسان فوق هذا الكتاب: «مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها، و وجدوا ما عملوا حاضرا و لا يظلم ربك أحدا» (18: 49).

و قد يعنى من الكتاب هنا كتاب الشريعة، يؤتاه يمين المؤمنين إذ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 242

عاشوه يمين الحياة و ركنها في الدنيا، و يؤتاه شمال المجرمين أو وراء ظهرهم كما عاشوه هكذا، صورة طبق الأصل و لا يظلمون نقيرا: «فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم و لا يظلمون فتيلا» (17: 71) «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ» (69: 19- 20).

و قد تدل قراءة الكتاب (17: 71) و استقراؤه (69: 19) أنه ليس كتاب الشريعة، فإنه لا يختص بأصحاب اليمين، فليكن هو كتاب الأعمال، و معه كتاب النجاح يؤتاه أصحاب اليمين بأيمانهم علامة النجاح، أو كتاب السقوط يؤتاه أصحاب الشمال بشمائلهم علامة السقوط، و لا ينافيه تسويف الحساب: «فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً» إذا عني منه كتاب التبشير أو الإنذار قبل الحساب، للتدليل على موقف الحساب.

«فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً»: لا يلاقي صعوبة في حسابه، فلا يحاسب على سيئاته، و لأنه ترك الكبائر: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31) و لأنه كان تائبا منيبا إلى ربه نادما عما اقترفه من اللمم: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ» (53: 32)، و لأنه عاش يمين الحياة بترك كبائر الإثم و الشهوات، و كان مبدؤه في الحياة أنه من أصحاب اليمين، و أولئك هم الذين يقرءون كتابهم مسرورين بما فيه، و يدعون أهل المحشر- كذلك- ليقرأوا كتابهم ابتهاجا بما فيه، و من هنا نعرف أن هذا ليس حسابا «فليس أحد يحاسب إلا هلك، و إنما ذلك عرض و على حد قول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1»، و بما أن الكتاب فيه النجاح، و يشير إلى يسر الحساب، لذلك:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 6: 329، أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن المنذر و ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه (ص): «ليس أحد يحاسب إلا هلك،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 243

وَ يَنْقَلِبُ إِلى‏ أَهْلِهِ مَسْرُوراً:

فمن هم أهله؟ فهلل إنهم ولده و زوجه و ذووه الأقربون؟ «فيومئذ لا أنساب بينهم و لا يتساءلون» و قد يفر منهم: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ. وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ» (81: 36)، أو هم أهلوه اليمينيون؟ أم هم و معهم كل من كانوا معه في يمين الحياة؟ أم أهله الذين أعدهم اللّه له في الجنة؟ كلّ محتمل، إلا الأول، و الآية تشملهم إلا إياه، ينقلب إلى أهله مسرورا هناك، بعد ما كان مذعورا خائفا هنا، مما يجري عليه و عليهم في سجنهم، في الحياة الدنيا، بما ذاقوا من حمقاء الطغيان.

«و الناس يومئذ على طبقات و منازل، فمنهم من يحاسب حسابا يسيرا و ينقلب إلى أهله مسرورا، و منهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم لم يلبسوا من أمر الدنيا بشي‏ء، و إنما الحساب هناك على من تلبس بها هاهنا، و منهم من يحاسب على النقير و القطمير و يصير إلى عذاب السعير» «1».

فالذين يدخلون الجنة بغير حساب هم السابقون، و الداخلون بحساب يسيرهم أصحاب اليمين، و الذين يحاسبون على النقير و القطمير هم أصحاب الشمال، و هناك من يدخل النار بلا حساب و هم أصحاب الوراء، و لأنه لم يبقوا لأنفسهم مجال الرجاء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقلت: أليس اللّه يقول: فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا؟ قال:

ليس ذلك بالحساب و ذلك العرض، و من نوقش في الحساب هلك»

و

فيه عنها: سمعت رسول اللّه (ص) يقول‏ في بعض صلاته: اللهم حاسبني حسابا يسيرا، فلما انصرف قلت: يا رسول اللّه (ص) ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه، إنه من نوقش في الحساب هلك.

(1). نور الثقلين 5: 537 عن كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين حديث طويل يذكر فيه أحوال القيامة و فيه يقول ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 244

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً. وَ يَصْلى‏ سَعِيراً:

هؤلاء هم الذين جعلوا كتاب الشريعة وراءهم ظهريا، مستدبرين إياه حياتهم، و مستقبلين الشهوات حياتهم، تبنوا الحياة كحيوان، و لم يفكروا في حياتهم كإنسان، فلقد عموا عن رؤية آيات اللّه، و صمّوا عن سماع كلمات اللّه، و بذلك تؤتاهم كتبهم وراء ظهورهم فلا يقرءونها و لأنهم أعمون: «فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى‏ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى‏ وَ أَضَلُّ سَبِيلًا» (17: 72) «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى‏ وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً. قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى‏» (20: 126)، و عل وراء الظهر إشارة- أيضا- إلى طمس وجوههم وردها على ادبارها: «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى‏ أَدْبارِها» (4: 47) أو علهم فرق شتى: بين عمي لا يبصرون، و من ردت وجوههم على ادبارهم، و من يجمع لهم الأمران، أو أنهم يؤتون كتابهم بشمالهم من وراء ظهورهم، كلّ محتمل تشملها الآية.

هذا- و إن كان البعض من أصحاب الشمال أيضا يصلون الجحيم مع أصحاب الوراء، و علهم من الذين يخرجون عن النار قبل فنائها، و أنهم كانوا هم المساعدين الأول لرءوس الضلالة: «.. وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ. وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ. يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ ... خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ» (69: 29).

هذا التعيس البئيس الذي قضى حياته كدحا إلى الوراء، رغم كدحه إلى الأمام: إلى ربه، شاء أو أبى .. و هذا الأعمى الذي استقبل حيوانية الحياة الهابطة إلى دركات اللذات، و استدبر الحياة العليا .. هذا هو الذي يدعو بالويل و الهلاك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 245

«فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً»: هلاكا مثابرا: مواظبا على إتيانه، ليس صدفة و دون سبب، فقد كان الهلاك معه، ثم برز يوم البراز .. يدعو ثبورا و أي ثبور؟

لا ثبورا واحدا و لا من نوع واحد: «دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً. لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً» (25: 14).

إنه كان ثبورا في كيانه، لنفسه و لمجتمعه، في أعماله و أقواله، في حله و ترحاله، في عقائده و أفكاره، و ما كان يدعو إلا سرورا، غافلا عما تقدمه نفسه، ثم هنا لك يدعو ثبورا.

«وَ يَصْلى‏ سَعِيراً»: ثبور يدعو ثبورا، و سعير يوقد سعيرا، و لا يظلمون نقيرا .. و كل ذلك لماذا؟ و الجواب: انه ثبور حق بسرور باطل، و عقيدة باطلة و حياة عاطلة.

إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً. إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ:

مسرورا بحيونة الحياة لظنه أن لن يحور، فأخذ حريته في الثبور دون أن يقف لحد.

مسرورا بما هو فيه، غافلا لاهيا عما يعنيه، لا يحسب له حسابا، و لا يرجو لنفسه ثوابا و لا عقابا: «ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ» (24: 75): حياة الفرح و المرح، دون تعقل و إناقة.

«إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ»: ظن أن لن يتردد إلى ربه و إلى عمله، لن يكدح إلى ربه فلن يلاقيه بعمله و لماذا؟ هل لأن ربه كان عنه غافلا غير بصير؟

بَلى‏ إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً إنه يتردد و يحور، و ربّه بعمله له بالمرصاد، و لأنه كان به بصيرا، بما منه و ما فيه، بظاهره و خافيه، فكيف لا يحيره إليه يوم الجزاء، هل لعجز

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 246

أو نسيان، أو ظلم و طغيان؟ أم لماذا؟ «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ» (14: 42).

هنا يعبر عن البعث بالحور، لأنه ردة إلى الحياة للجزاء، و كما يدور الحائر إلى حيث كان، فما الحياة إلا دائرة نسير عليها من نقطة حياة التكليف، ثم نرجع إلى نقطة الانتهاء: حياة الجزاء، نقطتان متلازمتان كأنهما واحدة، و لأنهما يتشاركان في مبدء الحياة، يدور الإنسان فيها على محور الشخصية عبر الحوادث و الحالات و إلى المنتهى ثم لسنا بحاجة في البرهنة على حور الحياة، زيادة على واقع الكائنات، فهنا الشفق، و الليل و ما وسق، و القمر إذا اتسق: أدلة كونية تمثل لناحور الحياة و دورها .. و اللّه تعالى لا يقسم بها لفقد البرهان، و إنما هو قسم بشي‏ء من البرهان، و ثم ينفيه موجّها إلى برهان أعمق، و تبيان أعرق، هو أدلة الفطر و العقول.

فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ. وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ. وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ. لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ‏:

«فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ»: الشفق هو ضوء النهار المختلط بظلام الليل عند الغروب، شفق لعنايته المختلطة بالخوف و هو الإشفاق، فهو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب، خاشع لضوء النهار، مرهوب بظلام الليل، بين الخوف و الرجاء.

«وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ»: و كما في الشفق جمع بين المتفرقين: ضوء النهار و ظلام الليل، كذلك الليل واسق: يجمع بين المتفرقات، فهو يجمع و يضم و يحمل الكثير من أشياء و أحياء و أحداث و مشاعر و عوالم خافية ساربة في الأرض، غائرة في الضمير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 247

«وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ»: اجتمع نوره و تبدّر و تكامل و اطّرد، كما في ليلة بدره و تمامه، فائضا على الأرض الظلماء الداعس، بنوره الحالم الجابر لهذه الظلم.

قسما بالليل و ما وسق و القمر إذا اتسق، و لا أقسم بالشفق فإنه خلط لا يبين، و إنما الليل و ما جمع، يجمع و يؤوي المتفرقات، على غفلة و غفوة منها، كذلك حياة التكليف تجمع الأعمال و الأقوال في متون المسجلات العضوية و الأرضية بفضائها، طالما المكلفون عنها غافلون، و لكنما قمر الساعة يوم يقوم الحساب، إنه سوف يتسق، يجمع نوره ليري الناس أعمالهم، طبقا بحديد البصر يوم الحساب، عن طبق في كلال البصر قبل يوم الحساب: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»، فطالما ظلام ليل التكليف يمنع عن ظهور الأعمال، و لكنه لا يمحيها، ثم القمر المتسق يبرزها يوم البروز.

فلا أقسم بالشفق، و لأنه مشتبه خليط، فلا يقسم به لإثبات حقيقة ناصعة، إنما أقسم بما يمثّل ركوب طبق عن طبق، حال عن حال، أقسم بالليل و ما جمع، و لا بد لهذا الجمع الأليل من ظهور، و إلا فلما ذا جمع، و قد يظهر الجمع الخفي بالقمر إذا اتسق: تجمّع نوره و تبدّر، و حينئذ لا تخفى منهم خافية، و هذا طبق عن طبق.

إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه .. لتركبن طبقا عن طبق، فإنما طبق اللقاء، لقاء الرب و لقاء الأعمال، إنه ناتج عن طبق الكدح.

«لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ»: الطبق هو المطابقة، و هو جعل الشي‏ء فوق آخر بقدره.

إن كل حالة لاحقة للإنسان، لهي طبق عن سابقتها و نتيجة عنها «طَبَقاً عَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 248

طَبَقٍ» اللاحق صادر عن السابق، لا «طبق بعد طبق» دون رباط بين الطبقين، إنما «عَنْ طَبَقٍ»، فالإنسان إنما يركب- طوال الحياة: حياة التكليف و حياة الحساب- يركب مراكب الحالات اللاحقة عن الحالات السابقة: ركوب الجزاء الصادر عن العمل.

فالحياة الدنيا طبقات بعضها عن بعض، و البرزخ طبق عن الدنيا، و الآخرة طبق عنهما «1»، تطابقا في المساعي، على قدر السعي و الساعي، بكدّه و كدحه‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

كل لاحقة من حياة، مطيّة لسابقتها حسب الأعمال و النيات، يخلقها الإنسان بما تقدمه نفسه‏ «وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً» .. أحوال كأنها مطايا يركبها الكادحون، واحدة بعد واحدة، حتى تنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى مرحلة جديدة هي حياة الجزاء التمام، كالأحوال المتعاقبة الكونية:

طبق الليل و ما وسق بعد الشفق، ثم طبق القمر إذا اتسق، و حتى ينتهي إلى وضح النهار إذ يلاقون أعمالهم ظاهرة باهرة، و لا تخفى عليم خافية.

لتركبن: جميعا و مجموعا- جميعا لكلّ طبقه كأفراد، و مجموعا لكلّ أمة مثال ما للسابقة، نتيجة التماثل الأممي في التصرفات الجماعية، و الكثير من الروايات تشير إلى الطبقات الجماعية لأمة الإسلام، فيهم و في قادتهم الروحيين و أئمتهم الطاهرين: و كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «لتركبن سنة من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، و القذة بالقذة، لا تخطون طريقهم، و لا يخطي شبر بشبر و ذراع بذراع و باع بباع، حتى أن لو كان من دخل حجر ضبّ لدخلتموه، قالوا: اليهود و النصارى تعني يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! قال: فمن أعني؟ لتنقضن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين عن المجمع روي مرفوعا عن النبي (ص) أن قوله طبقا عن طبق معناه:

حياة ثم موت ثم بعث ثم جزاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 249

عرى الإسلام عروة عروة، فيكون أول ما تنقضون من دينكم الإمامة و آخره الصلاة «1».

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إن للقائم غيبة يطول أمدها، قيل و لم ذلك يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! قال: لأن اللّه عز و جل أبى ألا يجري فيه سير الأنبياء عليهم السلام في غيباتهم، و أنه لا بد من انتهاء مدة غيباتهم، قال اللّه تعالى:

«لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» أي: سير من كان قبلكم» «2».

فأمة الإسلام يركبون سنن الأمم السابقين، طبقا عن طبق، و لأن كل مستقبل ابن ماضيه «جبر التأريخ» و أنهم يحذون حذوهم مخيّرين لا مسيّرين، و أن اللّه يجمع في محيى الأمم القائم بالعدل، ما جمعه من ميّزات قادة التاريخ:

الروحيين، و ليكمّل المسيرة، و يطبّق السيرة كاملة قاهرة، يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا.

فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ‏:

هذه موحيات الإيمان كونيا و فطريا و عقليا، تواجه بصر الإنسان و بصيرته، و تتكاثر عليه أيا كان و أينما كان، و تستجيش مشاعر التقوى و تستأصل دوافع الطغوى، و تحمل الإنسان على الإيمان‏ «فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»؟ ماذا حصل هنا و هناك فلا يؤمنون‏ «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» فإنارة العقل مكسوف بطوع الهوى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 538- 539 عن تفسير علي بن ابراهيم القمي.

(2) نور الثقلين 539 عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى حنان عن أبيه عنه (ع) و

فيه عن الباقر (ع) في الآية، قال: يا زرارة! أو لم تركب هذه الأمة بعد نبيها طبقا عن طبق في أمر فلان و فلان و فلان؟» يعني الخلفاء الثلاثة الأول؟

و

فيه عن أمير المؤمنين (ع) في حديث تفسيرا للآية «أي: لتسلكن سبيل من كان قبلكم من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 250

«وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ»: لا يخضعون له غايته، رغم أن القرآن مثال عن العظمة الإلهية، فكما السجود من الخلق لزام للخالق، كذلك لكلامه.

ليس السجود المأمور به، المندّد بتركه- هنا- سجود التلاوة، إذ ليست تلاوة القرآن- ككلّ- بالتي تفرض السجود هذا، و النص‏ «إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ» لا «آيات السجدة» و لا «هذه الآية» إضافة إلى أن الآية هذه ليست لتطلب السجود لنفسها و إلا لدار، و إنما تطلب لغيرها من القرآن كقرآن، فليس إلا القرآن كله، لا آيات السجدة بخصوصها، و لقد أجمع أصحابنا أنها ليست من آيات السجدة الواجبة، اللهم إلا استحبابا و رجحانا.

و ليست كذلك سجود الصلاة، إذ لم تأمر الآية بالصلاة، و لا القرآن كله يأمر بها.

إذا فهو غاية الخضوع للقرآن إذا قرئ، و أدنى ما يتطلبه الخضوع هو الاستماع و الإنصات: (خضوع السمع) ثم التفهم: (خضوع الفهم) ثم الإيمان الصالح: (خضوع القلب) ثم العمل الصالح: (خضوع الجوارح) و سجود اللسان و هو الترتيل في قرائته و إبلاغه و نشره: و خضوع ككل: أن يعيش الإنسان القرآن- حياته بكل طاقاته- بما فيه.

هذه الآية تندد بالكافرين كيف لا يؤمنون بالقرآن، و من جراء الإيمان لم لا يسجدون و يخضعون للقرآن، أ خروجا عن فطرة الإنسان، الخاضعة لكل جمال و كمال، فهل تجد أجمل من القرآن و أروع منه، في كل ما يتطلبه الإنسان كإنسان من كمال و جمال؟

و إذا كان الإيمان يفرض- لأول وهلة- غاية الخضوع للقرآن، و أدناها الاستماع له و الإنصات، فأحرى أن يكون واجبا على المؤمنين و قد اجتازوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 251

المرحلة البسيطة الأولى! فما للمؤمنين لا يؤمنون؟ و إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون، إذا فلا يرحمون، تنقطع عنهم الرحمة الإلهية بتركهم أدنى مراتب الخضوع للقرآن: «وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (7: 204).

إنه لا يختص القرآن هنا بقرآن الصلاة جماعة، و إن نزلت الآية في شأنها، حيث المورد لا يخصص، إنه القرآن المطلق لأنه قرآن، و إن كان فرض استماعه في الصلاة أولى، و الآية هذه تأمر باستماعه و الإنصات له إذا قرئ، و تعد بالرحمة، و تهدّد بانقطاعها لو لا الاستماع و الإنصات.

و الآية الأولى‏ «.. لا يَسْجُدُونَ» تندّد بمن لا يخضع للقرآن إذ يقرأ، و تعتبر هكذا خضوع من حصائل الإيمان لأول وهلة منه، إذا فتارك الاستماع و الإنصات للقرآن خارج عن أولى متطلبات الإيمان، منقطع عن الرحمة الإلهية التي وعدها المؤمنون.

و هل يا ترى إن عظيما من العظماء إذا كلّمك مخاطبا، ثم لم تستمع له و لم تنصت- و لو كان لصالحه هو لا أنت- فما هي إذا حالته؟ فهلا يغضب أن هتكته و لم تحسب له حسابا؟ إذا فما ظنك برب العالمين الذي يخاطبك في قرآنه- لك و لصالحك أنت- ثم أنت تلهو عنه إلى غيره من أشغال، أو إلى كلام غيره؟ أ فلا تستحق إذا انقطاع الرحمة و التنديد الشديد: أنك لم تؤمن؟! و تقول الروايات كما تقوله الآيتان، أن فرض الاستماع المنصت لا يختص قرآنا دون قرآن، و لا حالة دون حالة، فهو عام في كافة المجالات قدر المستطاع.

فلأهمية فرض الاستماع نرى عليا عليه السّلام يسكت في صلاته لمن يقرأ في غير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 252

صلاة، و القارئ مشرك، و الآية- في قصد القارئ- تندّد به عليه السّلام‏ «1».

و ما يظهر منه كأنّ فرض الاستماع خاص بصلاة الجماعة الجهرية «2» يحمل على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 113 بإسناد صحيح عن معاوية بن وهب عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سألته عن الرجل يؤم القوم و أنت لا ترضى به في صلاة يجهر فيها بالقراءة؟ فقال: إذا سمعت كتاب اللّه يتلى فانصت له، فقلت: إنه يشهد علي بالشرك! قال: إن عصى اللّه فأطع اللّه، فرددت عليه فأبى أن يرخص لي، قال: فقلت له: أصلي إذا في بيتي ثم أخرج إليه؟ فقال:

أنت و ذاك، و قال: إن عليا (ع) كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكوا و هو خلفه: «وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ» فأنصت علي تعظيما للقرآن حتى فرغ من الآية، ثم عاد في قرائته، ثم عاد ابن الكوا فأنصت علي (ع) أيضا ثم قرأ، فأعاد ابن الكوا و أنصت علي (ع) ثم قال به: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ» ثم أتم السورة ثم ركع، و رواه العياشي عن أبي كهمس عن أبي عبد اللّه (ع) من قوله: قرأ ابن الكوا.

و

فيه عن تفسير العياشي عن زرارة قال: سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول: يجب الإنصات للقرآن في الصلاة و في غيرها، و إذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات و الاستماع.

و

فيه عن المجمع عن عبد اللّه بن أبي يعفور عن أبي عبد اللّه (ع) قال: قلت له: الرجل يقرأ القرآن و أنا في الصلاة هل يجب علي الإنصات و الاستماع؟ قال: نعم إذا قرء القرآن وجب عليك الإنصات و الاستماع.

(2)

نور الثقلين عن الفقيه في رواية زرارة عن أبي جعفر (ع) قال: و إن كنت خلف الامام فلا تقرأ شيئا في الأوليين و أنصت لقرائته، و لا تقرأن شيئا في الأخيرتين فإن اللّه عز و جل يقول للمؤمنين: و إذا قرئ القرآن- يعني في الفريضة خلف الامام- فاستمعوا له و انصتوا لعلكم ترحمون، و الأخيرتان تبعا للأولين.

أقول: عدم القراءة في الأخيرتين خلاف الإجماع سواء عني بها الحمد أم التسبيحات، فالحديث مشوش متنا، و غير صريح دلالة على اختصاص وجوب الاستماع بمورد خاص، و هو الحديث الوحيد هنا، و آخر مطافه- لو عارض القرآن- أن يضرب عرض الحائط.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 253

أنه أفضل الموارد، و لأنه مورد نزول الآية، و عموم اللفظ في الآية لا ينافي خصوص المورد «1».

فالقرآن- إذا قرئ- يجب الاستماع إليه و الإنصات له، سواء أ كان القارئ مسلما أم سواه، مكلفا أم سواه، قراءة دون واسطة أو بالوسائل، متصلة بالقارئ، أم منفصلة مسجّلة، و ما لم يصل إلى حدّ الحرج، أو المشقة غير المتحملة، أو لم يكن هناك واجب أهم منه.

كل ذلك لإطلاق الآيتين، ثم أدلة نفي العسر و الحرج، و تكافئ الدليلين في الفرضين، أم تقدم البعض على البعض- تأمل.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ‏:

يكذبون بالإيمان، و بدلالات الإيمان، و بما يتطلبه الإيمان من السجود للقرآن، يكذبون لأنهم كفروا، رغم نصوع البرهان.

وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ‏:

ما يخبونه من الكذب و التكذيب، و من التدغيل و التدجيل، في أوعية الضلالة: من أنفسهم الشاردة، و قلوبهم الماردة، و من شياطينهم المردة، و أجوائهم المظلمة، و أقوالهم اللئيمة، و أفعالهم المنافقة، فهم يعيشون وعي الكفر و إيعائه‏ «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ».

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ‏:

ليست لهم بشارة إلا الإنذار، فبشارتهم هي الإنذار، فالعذاب الأليم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور عن ابن عباس قال: صلى النبي (ص) فقرأ خلفه قوم فنزلت «و إذا قرئ القرآن ..»

و في معناه روايات مستفيضة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 254

خفيف تجاه كفرهم، إذا فهو بشارة لهم حالكونه عذابا، بشارة للصالحين أن اللّه لا يسوي بينهم و هؤلاء، و بشارة للمجتمع أن الكافر سوف يذوق و بال أمره، و بشارة للكفار أنفسهم و لكي ينتهوا عن كفرهم، و بشارة لهم أخيرا إذ لم تبق لهم بشارة إلا العذاب تهكما و تنديدا، و تقحما و تبديدا.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ‏:

لا يمنّ عليهم، و لا يقطع عنهم، إذ آمنوا و أصلحوا، و وعوا و أوعوا، و عاشوا حياة صالحة مصلحة، اللهم اجعلنا منهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 255

سورة البروج- مكية- و آياتها اثنتان و عشرون‏

[سورة البروج (85): الآيات 1 الى 22]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (1) وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (4)

النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (6) وَ هُمْ عَلى‏ ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ (9)

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (13) وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14)

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (16) هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19)

وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 256

قصور السماء:

وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ‏:

البروج هي القصور العالية المتبرجة بالزينة، سواء أ كانت في المدن السماوية التي عمّرها ربها أم عمّرها إنسانها أم غيره من العقلاء المتمدنين، و على حد تعبير

أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودين من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتين و خمسين سنة» «1».

بروج في مدن السماء، أم مستقلة مبنية خارجة المدن النجومية، و الجمع المحلى باللام (البروج) يقتضي شمول البروج هذه، كل القصور السماوية، مشيّدة و سواها و كما في الأرض: «أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» (84: 78) و من مدرّعة مجهّزة بالمدفعيات و القاذفات، و سواها: «وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ. وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ» (15: 8) «تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً. وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً» (25: 61).

فبروج السماء- إذا- قصور عالية: من محصّنة جعلها ربها في السماء حفظا عن مسترقي السمع من الشياطين، و سكنا للملإ الأعلى:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض الأصحاب عن الصادق (ع) أن عليا (ع) قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 257

«لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ» قصور هي حصون و مدرعات و قاذفات جوية تقذف مسترقي السمع من كل جانب: «دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ».

و من قصور بناها إنسانها في مدن السماء، و علنّا في المستقبل نتسافر و نتزاور كما القرآن يشير: «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (24: 29): جمع الدواب المنبثة بين الأرض و السماء، الدواب العاقلة بدليل «هم»\* في «جمعهم»\* جمعا قبل القيامة الكبرى عن الانبثات، لا جمعا ليوم الجمع، و أما أيّنا أسبق في الغزو؟ إنسان الأرض إلى السماء، أم إنسان السماء إلى الأرض؟ لا ندري.

أجل- فإنما بروج السماء هي قصورها، و هي معناها لغويا و في القرآن، و كما العقلية الإسلامية تصدّق في تصريحات أصحاب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1» و

قد يروى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ أنها الكواكب،

و لكنها هي الكواكب المتمدنة ذوات القصور، دون أن يكون للبروج معنيان اثنان، و يشهد له تفسيره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم البروج المشيدة بالقصور «2».

هذه هي البروج المعنية في السماء، القصور و الكواكب ذوات القصور، المزينة المتبرّجة بألوان الزينة، المدرّعة و المزودة بالمدفعيات و القاذفات، إذا كانت إلهية أو ملائكية، و الآهلة بسكانها العمار المتمدنين إذا كانت بشرية،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 331، أخرج ابن المنذر عن الأعمش قال: كان أصحاب عبد اللّه يقولون في: و السماء ذات البروج- ذات القصور- و فيه أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال:

البروج قصور في السماء.

(2) و

فيه أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه‏ أن النبي (ص) سئل عن السماء ذات البروج فقال: الكواكب، و سئل عن: الذي جعل في السماء بروجا، فقال: الكواكب، قيل: بروج مشيدة، فقال: قصور،

أقول: يعني بالكواكب، التي لها قصور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 258

فهي كلها بروج على أية حال، على اختلاف ارتفاعاتها و مهيئاتها و سكانها- و تبرجاتها.

هذه- لا كافة الكواكب، إذ لا وجه لتسميتها بالبروج و لا مجازيا، حيث الكواكب لا تشبه القصور إلا في علوّها، و ليس كلّ عال قصرا، و إلا فلتكن الفواكه فوق الأشجار، و السروج فوق المنار، لتكن بروجا! فليست البروج هي الأشياء الموضوعة على المرتفعات، و إنما القصور الرفيعة المتبرجة أيا كانت، و التعبير الصالح عن الكواكب هو المصابيح: «وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ»:

قناديل منيرة علقت على متن السماء، أو مسامير من فضة وتّدت فيها، و إن كانت النجوم- و هي أخص من الكواكب- علّها هي الكواكب التي طلع فيها التمدن و منه قصورها.

ثم و ليست البروج هنا هي البروج الاثني عشر النجومية التي قررها الفلكيون‏ «1»، حيث القرآن لم ينزل وفق اصطلاحات علماء الفلك، و لا غيرهم من المصطلحين، و إنما نزل للناس أجمعين، بلغة العرب الفصحى، التي يعرفها كل عربي فصيح، و ليس في أخبارنا كذلك، ما يؤيد تلكم البروج‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البروج حسب اصطلاح المنجمين هي منازل الشمس و القمر، يسير القمر في كل برج منها يومين و ثلاثا، فذلك ثمانية و عشرون منزلا، ثم يستتر ليلتين، و مسير الشمس في كل برج منها شهر، و البروج الاثني عشر هي الصور النجومية التي اعتبرها المنجمون و هي: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت، و فلك البروج دائرة ترسمها الشمس في سيرها في السماء في سنة واحدة، و تقسم الدائرة إلى اثني عشر كل واحد منها 30 درجة.

(2) و

في نور الثقلين 5: 541 عن روضة الكافي باسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين (ع) إن للشمس ثلاثمائة و ستين برجا، كل برج منها مثل جزيرة من جزائر العرب، و تنزل كل يوم على برج منها ..

أقول: عل هذه البروج هي قصور في فلك الشمس، هي في كواكب على مسير الشمس، أو مستقلة كل بحاله في هذا المسير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 259

وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ:

يوم القيامة الكبرى، يوم يقوم الأشهاد، يوم العرض و الحساب و الثواب و العقاب.

وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ:

الشهادة هي الحضور مع المشاهدة، بالبصر أو بالبصيرة، تلقيا لما يحصل كما يحصل: «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ» (22: 28) أو إلقاء له كذلك: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» (24: 24).

و الشاهد الأول هنا هو اللّه تعالى، فإنه خالق الشهداء و موفّقهم لتلقيها و إلقاءها و المهيمن على ذلك كله.

ثم النبيون و الملائكة و الأرض بأجوائها و أكنافها، و الإنسان نفسه، و بأعضائه و أجزائه كما عرفناها مسبقا، و الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو شهيد الشهداء بعد اللّه تعالى بين المرسلين، يوم الدنيا و يوم الدين: «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ» (16: 89).

فهو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتلقى الأعمال و الأقوال و النيات، بما وفق اللّه له و وفقه اللّه، يتلقاها في حياته و بعد مماته و إلى يوم الدين، ثم يلقيها يوم تقوم الأشهاد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه عن كتاب الخصال عن أبان بن تغلب قال: كنت عند أبي عبد اللّه إلى أن قال في مقارنة بين نفسه المقدسة و بين علماء اليمين: إن عالم المدينة يعلم ما في للحظة الواحدة مسيرة الشمس، تقطع اثني عشر برجا و اثني عشر برا و اثني عشر عالما، فقال له اليماني: جعلت فداك ما ظننت أن أحدا يعلم هذا أو يدري ما كنهه.».

أقول: لو كانت هي البروج النجومية لم يكن علمها خاصا بعالم المدينة، الامام الصادق (ع) إذ يعرفها الفلكيون و كثير سواهم، إذا فلا تؤيد البروج النجومية- تفسيرا ل «السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ» لا تؤيد لا لغويا و لا قرآنيا و لا روائيا فأين يذهبون!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 260

و الشاهد هنا يعم كافة الشهداء: «إلهيا و ملائكيا و بشريا و كونيا و عضويا، تلقيا و إلقاء بأنواعها، فليس الإفراد و التنكير في «و شاهد» يعني فردا ما، و إنما هو لتعظيم جنس الشاهد أيا كان.

«و مشهود»: مشهود هو الأعمال تلقيا، و مشهود به هي إلقاء: شهده و شهد به، و مشهود له أو عليه هو العامل، و مشهود فيه مكان الشهادة بنوعيها، فلم يقل: «و مشهود عليه أو له أو فيه أو به» و لكي يشمل الكل إذ ألغيت المتعلقات و جرّد المشهود، عنها: «وَ مَشْهُودٍ».

ثم الشهادة- تلقيا و إلقاء- تختلف حسب اختلاف الشهود، فالشهود النفسية و العضوية و الكونية تتلقى و تلقي صور الأعمال و أصوات الأقوال، و الشهود الملائكية و البشرية يشهدون باللسان كما شهدوا بالأبصار و البصائر و حفظوا بالأذهان، و علّ الشهود الملائكية- إضافة إلى اللسان- يشهدون بما كتبوا، لو أن كتابة الأعمال تشملها، فالملائكة هم الكرام الكاتبون.

من هنا نعرف أن مختلف الروايات في تفسير «شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ» تعني المصاديق التي تشملانها:

فإذا يفسر الشاهد باللّه فلأنه خالق الشهداء و موفّقهم لتلقّيها و إلقائها، المهيمن على ذلك كله، كما المشهود هنا أيضا يوم الدين‏ «1».

و إذ يفسر بمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المشهود بيوم القيامة، فإنما محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هنا المتلقي للشهادة يوم الدنيا، و الملقي لها يوم الدين، و هو مشهود فيه: «ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» (11: 103) «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن ابن عباس.

(2) عن الامام الحسن بن علي (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 261

أو أن الشاهد ابن آدم و المشهود يوم الدين، فبما أن الإنسان بأعضائه يتلقى أعماله و يلقيها يوم تقوم الأشهاد «1».

أو أن الشاهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المشهود أمير المؤمنين عليه السّلام فلأن الرسول يجاء به شهيدا على كافة المكلفين و لهم، فهو يشهد لعلي- فيمن يشهد لهم- أنه أدّى ما عليه و لم ينقص‏ «2».

أو أن الشاهد يوم الجمعة و عرفة و المشهود يوم القيامة، فلأن الأيام- بها و بأماكنها و بمن فيها- تشهد لنا أو علينا، في يوم القيامة «3»، و قس عليها غيرها «4».

كما و أن عليا- حسب القرآن- من شهود الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ» (11: 17) فقد تلاه: تبعه في رسالته، و خلفه في أمته طوال الرسالة و بعدها حتى قبض.

\*\*\* قسما بالسماء ذات القصور المدرّعة القاذفة للشياطين يوم الدنيا و يوم الدين:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن مجاهد.

(2) عن الامام الصادق (ع).

(3) عن النبي (ص) و الباقر (ع).

(4)

كيوم الغدير، يوم شاهد و مشهود، مصباح الشريعة عن خطبة لعلي (ع)، و أن الشاهد محمد و المشهود يوم عرفة، عن الامام الحسن (ع)

و

روى‏ أن رجلا دخل مسجد رسول اللّه (ص) فإذا رجل يحدث عن رسول اللّه (ص)، قال: فسألته عن الشاهد و المشهود، فقال: أما الشاهد فيوم الجمعة و أما المشهود فيوم النحر، فجزتهما إلى غلام كأن وجهه الدينار و هو يحدث عن رسول اللّه (ص) فقلت: أخبرني عن شاهد و مشهود، فقال: نعم، أما الشاهد فمحمد و أما المشهود فيوم القيامة، أما سمعت اللّه سبحانه يقول: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً» و قال: «ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» فسألت عن الأول فقالوا: ابن عباس، و سألت عن الثاني فقالوا: ابن عمر، و سألت عن الثالث فقالوا: الحسن بن علي (ع)، (نور الثقلين 5: 542- 543).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 262

«إن الذين كفروا لا تفتح لهم أبواب السماء و لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط» (7: 40).

و قسما باليوم الموعود الذي تعرض فيه الأعمال و الخلائق، و قسما بشاهد و مشهود، إذ يغرق المكلفون في جو الشهود، و إذ تلتقي السماء ذات البروج و اليوم الموعود و شاهد و مشهود.

قسما بهذه و تلك لقد حدث حادث في تاريخ الإنسان يجرح الأكباد و يقرح العيون: «قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ ..» أ فهل تزعم أن ظلامتهم تذهب هدرا، و الكون بمن فيه و ما فيه شهود؟:

قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ:

الأخدود شقّ في الأرض مستطيل غائص، و جمعه أخاديد، و النار ذات الوقود هي التي أضرمت و أوقدت في الأخدود، لحدّ أصبح الأخدود كأنه نار ذات وقود، إيحاء بتلهّب النار في الأخدود كله، كأن لم يبق أخدود إلا الوقود «1» فنفس الأخدود ضيق، ثم قلبه نارا ضيق على ضيق و عذاب فوق العذاب.

و أصحاب الأخدود هم الجبابرة الذين أوقدوا النار في الأخدود، لا المؤمنون الذين أحرقوا فيها، لأن أصحاب الأخدود- حسب النص- قتلوا، و المؤمنون أحرقوا، و لا يعبّر عن الحرق بالقتل، و إن كان هو أيضا قتلا و لكنه بالحرف،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). النار ذات الوقود بدل الاشتمال عن الأخدود، جي‏ء به كبدل الكل مبالغة في الوقود، و هنا رواية في النار لطيفة:

عن الخصال عن المفضل بن عمر عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سألته عن النيران فقال «أربعة: نار تأكل و تشرب، و نار تأكل و لا تشرب، و نار تشرب و لا تأكل، و نار لا تأكل و لا تشرب، فالتي تأكل و تشرب فنار ابن آدم و جميع الحيوان، و التي تأكل و لا تشرب فنار الوقود، و التي تشرب و لا تأكل فنار الشجر، و التي لا تأكل و لا تشرب فهي نار القداحة و الحباحب» (نور الثقلين 5: 547).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 263

كما المقتول بالصلب يقال عنه مصلوب، لا مقتول: «وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ».

هذا- و لأن الضمائر التالية كلها ترجع إلى المحرقين لا المحرقين: «إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ. وَ هُمْ عَلى‏ ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ ..».

«قتل»\*: إنه إخبار عن قتل أرواحهم و ضمائرهم لما أقدموا على إحراق المؤمنين، فهم قتلوا إذ قتلوا، رغم حياتهم في الجسد، قتلوا ضمائرهم قبل أن يقتلوا المؤمنين، فالضمائر الإنسانية الحية، و الأرواح الطاهرة، لا تسمح لأصحابها هكذا قساوة و ضراوة، أن يلقوا المؤمنين و المؤمنات- بأطفالهم و ضعفائهم- في النار، و هم قريبون من عملية التعذيب البشعة، يشاهدون أطوارها، و فعلة النار في هذه الأجسام الطاهرة، و هم في لذة و سعار.

أجل إنه إخبار بقتلهم و ليس دعاء، فإنه لا يليق بساحة الربوبية، إخبار عن ماضيهم يوم الدنيا، و عن مستقبلهم يوم الدين، كيف يلاقون جزاءهم الوفاق يوم التلاق.

قصة أصحاب الأخدود:

تختلف الروايات في: من هم أصحاب الأخدود؟ أنه مهرويه بن بخت نصر؟

حفر أخدودا لدانيال و أصحابه، و أوقد لهم نارا فلم يحرقوا، فاستودعهم فيه بين الأسد و السباع بألوان العذاب حتى خلصهم اللّه منه كما عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1».

أقول: إنه لا يلائم سياق الآيات الظاهرة في وقوع النقمة عليهم‏ «وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا ..» «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا ..» أي: أحرقوا، فلا نصدق أنه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

أو «أنه ذو نواس- آخر ملوك حمير- تهود و اجتمعت معه حمير،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 543 في كتاب كمال الدين و إتمام النعمة باسناده عنه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 264

ثم حمل من بقي على النصرانية بنجران أن يتهودوا فأبوا، فاتخذ لهم أخدودا و أشعل فيه النار، فمنهم من أحرق بالنار و منهم من قتل بالسيف، و مثل بهم كل مثلة، و بلغ عدد الضحايا عشرين ألفا» «1».

أقول: و ما سوى أخدود النار لا يلائم الآيات.

و رويت روايات أخرى مختلفة في أصحاب القصة و كيفيتها، لا تهمنا تفاصيلها، فنجمل عنها كما القرآن أجمل، و لندرس فيها درس التضحية و الفداء في سبيل اللّه، و كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «ما ذكرت أصحاب الأخدود إلا تعوذت بالله من جهد البلاء» «2».

و

عن حفيده الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «قد كان قبلكم قوم يقتلون و يحرقون و ينشرون بالمناشير، و تضيق عليهم الأرض برحبها، فما يردهم عما هم عليه شي‏ء مما هم فيه، من غير ترة و تروا من فعل ذلك بهم و لا أذى، بل ما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، فاسألوا ربكم درجاتهم، و اصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم» «3».

إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ. وَ هُمْ عَلى‏ ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ:

قتلوا «إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ» على الأخدود- لا فيه- على شفير النار و مشارفها، البعيدة عنها عرضا و عمقا، دون أن يتأثروا بها، إلا تفرّجا و نزهة، فالداخل في النار لا يقعد فيها، إنما يقوم و يقعد و يقفز محاولة الفرار.

«وَ هُمْ عَلى‏ ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ»: حضور يسمعون صرخاتهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 544 في تفسير علي بن ابراهيم القمي.

(2) الدر المنثور 6: 333، أخرجه عبد الحميد عن الحسن عنه (ص)، و ابن أبي شيبة عن عوف عنه (ص).

(3) نور الثقلين 547 في روضة الكافي محمد بن سالم بن أبي سلمة عن أحمد بن الريان عن أبيه عن جميل بن دراج عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 265

و تسبيحاتهم، و يرون ما تفعل النار بجسومهم الطاهرة، شهود: شهادة تلق مما فعلوا، و شهود- يوم تقوم الأشهاد- شهادة إلقاء بأعضائهم و أجزائهم، بألسنتهم و أسماعهم و أبصارهم، فهم شهود هنا و هناك، و هم مشهود عليهم بأعمالهم هناك في اليوم المشهود: «وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ» (41: 22).

وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ:

إن نقمة الإيمان هي دور المؤمنين طوال تاريخ الإنسان، فليطلب المؤمنون أن يفرغ عليهم ربهم صبرا و يتوفاهم مسلمين: «وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ» (7: 126) «قُلْ‏ ... هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ» (5: 59).

إن قتل المؤمن لإيمانه هو أشد الكفر: «وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً» (4: 93):

يقتل مؤمنا لإيمانه و إن كان القاتل في زمرة المؤمنين! فكيف بالكافر!.

فيا حمقاء الطغيان! هل إن الإيمان باللّه يستوجب النقمة: و النكران بالعقوبة و باللسان؟ و هو اللّه العزيز في ألوهيته فأحرى أن يؤمن به، و هو الحميد في عزته فأحرى أن يؤمن له! اللّه العزيز الحميد.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ:

يملك الكون كلّه، و يشهد عليه كلّه، و سوف يشهد قبل الشهود و معهم يوم تقوم الأشهاد، ماذا نقمتم من المؤمنين به؟ فهو شاهد يوم ذاك، و أعمالكم مشهود بها، و أنتم مشهود عليكم، و القيامة مشهود فيها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 266

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ‏:

«فتنوا»\*: أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، و استعمل في إدخال الإنسان النار، و عله أيضا لهذه الغاية، قصدت أم لا.

فأصحاب الأخدود أحرقوا المؤمنين و المؤمنات بالنار نقما منهم و كراهية لهم، فلم يقصدوا تخليصهم بهذه الفتنة عما ربما يلتصق بالمؤمن من رداءة، و لكن اللّه فوقهم، حقق فيهم معنى الفتنة فصبروا عليها و ماتوا مخلصين، ذهبا خالصة عن الأخلاط، فلاقوا ربهم خلّصا عن الرداءة.

هذا- و على سبيل التهكم- يفتن الكافر أيضا على النار: «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ..» (51: 13): فتنة بفتنة، تتشاركان في الحرق، و تختلفان في نتاجه صالحا و طالحا، فالفتنة، منها مفلحة كما للمؤمنين، و منها مسقطة كما للكافرين‏ «أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ» (9: 49).

«إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ» بمختلف العذاب و عذاب الحريق، «ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ» الجزاء الوفاق: «عَذابُ جَهَنَّمَ» كمبدأ العذاب الذي ذاقه المؤمنون منهم‏ «وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ» بما أحرقوهم في الأخدود، جهنم بما فعلوا، و حريق بالأخدود، و لكن أين حريق من حريق؟ في شدته و مدته، في؟؟؟؟، و عدّته، في عذابه و رحمته!.

فحريق الأخدود نار أوقدها إنسانها للعبه، و حريق جهنم نار سجّرها جبارها لغضبه، ثم الأوّل تنتهي للحظات، و الآخر آباد لا يعلمها إلا اللّه، و مع حريق الأخدود رضي اللّه عن المؤمنين، و انتصار لحق الإيمان، و مع حريق الآخرة غضب اللّه و الارتكاس الهابط الذميم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 267

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ:

فالمؤمن حياته الجنة، و الكافر حياته النار، و جنة الأبرار لا تختص بدار القرار، إنهم يلتذون بما ينقم منهم في سبيل اللّه، فطالما أجسادهم تعذب في جحيم الدنيا، لكنما الأرواح تلتذ بالفداء، ثم لا تحس آلام الأجساد، ثم هم يوم القيامة ينعمون، و ذلك الفوز الكبير: الظفر بالخير مع حصول السلامة، و هذه هي النجاة الحقيقية، و النجاح الكبير في معارك الحياة.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ:

بطش رباني ما له من فواق، دون بطشهم الهزيل الصغير، بطش الضعاف المهازيل، بطش الأحمق الذليل! البطش هو تناول الشي‏ء بصولة، منها ظالمة و منها عادلة، و بطش الرب جزاء عن صولتهم الظالمة، بصولة عادلة، و في‏ «بَطْشَ رَبِّكَ» تطييب لنفس النبي الأقدس، و لكي لا يحسب لهؤلاء البطاشين حسابا: «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ» (14: 43).

إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ:

قسما بالسماء ذات البروج. و اليوم الموعود. و شاهد و مشهود: قتل أصحاب الأخدود .. إن الذين فتنوا .. إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ و يعيد.

فهي كلها أجوبة الأقسام كلها، لأنها تصلح لها، و الصلة بينها و بينها معلومة بما سبق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 268

وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ:

و حتى لأمثال أصحاب الأخدود لو تابوا و آمنوا و أصلحوا، فإنه منبع الغفران و الود، بودّه يغفر، و بمغفرته يودّ، أ فلا تائب يتوب و آئب يؤوب!.

فتأخير بطش الرب- الشديد- ليس للغفلة أو الإهمال، فالظالم في قبضته بدءا و عودا فأين يفر؟ فقد يؤخر علّ البطاشين المتخلفين يتوبون، و لأن اليوم عمل و لا حساب، و غدا حساب و لا عمل.

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ. فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ:

صاحب عرش الألوهية، و لقد ذكر العرش في واحد و عشرين موضعا من القرآن، مقرونة بقرائن قاطعة لفظية و عقلية، تدل على أنه ليس عرشا يتكى عليه، و إنما هو كناية عن ملكه تعالى، و نفاذ أمره في مملكة الوجود، و استيلاء سلطانه على رعيته.

إن ألوهيته تعالى و نزاهته عن ذوات المخلوقين و صفاتهم، إنها برهان لا مرد له- عقليا- أن الذات و الصفات و الأفعال المنسوبة إليه، مجردة عما للمخلوقين، فإذ ينسب إليه العرش فهو إذا يجرد عن عروش المخلوقين المحتاجين إليها، و المتكئين عليها، فهو مجيد في ألوهيته و في عرشه‏ «ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ» و عروش الخلق ليست مجيدة: متسعة في الكرم و الجلال، و إنما ضيّقة داثرة متواضعة.

و لمجده تعالى في عرشه، هو «فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» و غيره تعالى من أصحاب العروش مغلوب على أمرهم، لا يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون، إذ ليسوا أمجادا في ذواتهم و صفاتهم و عروشهم‏ «1».

إنه ليس إمهاله المجرمين لعجز أو جهل أو بخل أو نسيان أو ظلم و أمثالها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تجد البحث الفصل عن العرش في المواضيع الأنسب فالأنسب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 269

و إنما إملاء و ابتلاء، و لكي يثبت أنه‏ «فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» يفعل- أحيانا- بالمجرمين ما لا يمكن أن يفسّر بالصدفة أو العادة، و إنما القصد الخارق للعادة، و لكي ينتبه الغافلون.

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ. فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ:

فقد أغرق اللّه فرعون و جنوده في اليمّ بعد ما نجّى بني إسرائيل، و نجّى فرعون ببدنه ليكون لمن خلفه آية: «وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى‏. فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ» (20: 78).

و قد أخذ اللّه ثمود بعذاب بئيس بعد ما أوعدهم، بما كذبوا صالحا و عقروا الناقة: «و يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله و لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب. فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. فلما جاء أمرنا نجينا صالحا و الذين آمنوا معه برحمة منا و من خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز. و أخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود» (11: 68).

«بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا» و أخذ الكفر شغاف قلوبهم، إنهم‏ «فِي تَكْذِيبٍ» يعيشون التكذيب كأنهم غريقون في يمّه‏ «وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ» لا فيهم، إذ هو بعيد عن ذواتهم بعد القرب و المعرفة، و بعد الذات و الصفة، فهو من وراءهم محيط، نافذ فيهم علمه، غالبة عليهم قدرته، قريب في بعده، و بعيد في قربه، محيط بهم و بعالمهم، لا يفلت منه أحد، و لا يغيب عنه أحد، و بيده ناصية كلّ شي‏ء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 270

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ:

«بل»\* ليس كما يزعم أن القرآن قد ينال منه بزيادة أو نقصان، كما أن أمة القرآن ينال منهم بين الأمم، «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ»: واسع في الكرم و الجلال، كما اللّه مجيد، و لا نجد وصف المجد في القرآن إلا للقرآن بعد اللّه تعالى:

«ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ، قُرْآنٌ مَجِيدٌ»، فكما من المستحيل أن ينال من ذات اللّه و صفاته و أفعاله‏ «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ»، و ليس مغلوبا في أمره، كذلك القرآن- حسب هذا النص- مجيد: واسع في كرمه و هدايته سعة الرحمة الإلهية، جليل عزيز لا يذل و لا يغلب، و ما أكذوبة تحريف القرآن إلا ذلا و دمارا، يتنافى و مجده، و هو المجيد الرفيع العريق الكريم، و هل أمجد من قول اللّه ذي العرش المجيد؟

و من لطيف الأمر أن اللّه تعالى يسوّي بين مجده و مجد كتابه في الأصل و في العدد: مرتين مرتين‏ «1».

«فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» ضمن اللّه تعالى حفظه عن التحريف و التصريف، أيا كان، بزيادة أو نقصان، أو أي تحوير و تغيير: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (15: 9) تأكيدات ست في جماع من القدرة و الرحمة الربانية تؤكد حفظ القرآن عن الضياع و التحريف.

فلقد حفظ القرآن المجيد، في لوح محفوظ: صفحة لائحة ظاهرة لمن يتمجد به من المكلفين، لا في لوح عند اللّه، أو عند رسول اللّه و عترته المعصومين فحسب، فإنّ ما هنا لك ليس لائحا إلا عند أهله، و لوح القرآن مجيد واسع الكرم، فهو محفوظ في كافة الألواح، ألواح الصدور و الصحف،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ق و القرآن المجيد (50: 1) بل هو قرآن مجيد، إنه حميد مجيد (11: 73)، ذو العرش المجيد. و قد بحثنا عن صيانة القرآن عن التحريف في كتابنا (المقارنات) ص 227 و نبحث في طيات الآيات المناسبة هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 271

و ألواح الألسن الناطقة به، و لا يقدر أحد أن يغيره فإنه مضمون الحفظ بالقدرة الإلهية.

و كما اللّه عزيز: غالب ممدوح، كذلك كتابه عزيز: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ. لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (41: 42).

فالقرآن عزيز كمن أنزله، لا يغلب في الحجاج و لا من أيّ تغلّب، عزيز في دوامه، عزيز في تبيانه و أحكامه، فلا يأتيه الباطل و إن أتاه المبطلون، نور لا تطفأ مصابيحه، و سراج لا يخبؤ توقّده، يذهب كل قائل بقوله ضياعا، و اللّه بقوله ثابت لا يضيع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 272

سورة الطارق- مكية- و آياتها سبع عشرة

[سورة الطارق (86): الآيات 1 الى 17]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ (1) وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (4)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ (7) إِنَّهُ عَلى‏ رَجْعِهِ لَقادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (9)

فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ (10) وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (11) وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (14)

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (15) وَ أَكِيدُ كَيْداً (16) فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (17)

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ. وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ. النَّجْمُ الثَّاقِبُ‏:

قسما بالسماء: الأجواء الواسعة الحاملة لمواكيد الكواكب، و قسما بالطارق:

النجم الثاقب، فما هو الطارق؟ و ما هو النجم الثاقب؟ و ما هو الرباط بين السماء و الطارق، و بين الحفاظ الإلهي على كل نفس؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 273

الطارق هو الإنسان الذي يطرق ليلا فيدق الباب، فإن الطرق هو الدّقّ، كما المطرقة هي المدقة، و يسمى الآتي ليلا طارقا لأنه يأتي في وقت يحتاج فيه إلى الدق أو ما يقوم مقامه، للتنبيه على طروقه و الإيذان بوروده.

و النجم هو الكوكب الطالع بنوره- و عله بطلوع التمدن فيه أيضا- و الثاقب: هو النافذ بنوره و بطرقه، يثقب ظلام الليل بنوره، و يظلم الحياة على مسترقي السمع الشياطين، بوقعه: «إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ».

فالسماء حفيظة لأولادها الكواكب، و طوارقها الثواقب، حفيظة للملإ الأعلى أن يسّمّع إليهم: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ»:

المدرعات الجويّة التي تثقب بنيازكها النارية النورية سرّاق السمع.

فالنجوم الثاقبة الطارقة ليلا هي نور حياة للمهتدين، و ظلم على حياة المعتدين كما و أن آيات الوحي تثقب بأنوارها ظلمات الضلالات، و تثقب بوقعها كيان الشياطين، و من أثقب النجوم في سماء الوحي هو الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1».

قسما بهذه النيازك النارية و الطوارق النورية، الثاقبات الحافظات للكيان السماوي، إن واقع الحفاظ لا يختصها، و إنما يعم كل نفس: بشري و ملائكي و جني و حيواني و سواها، حفظا عن الأخطار الموجهة إليها، و من أخطارها الموجهة إلى غيرها:

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ:

إن كل نفس إلا «2» عليها حافظ إلهي، أو ملائكي و بشري بأمر اللّه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في نور الثقلين 5: 550 ح 3 عن تفسير القمي عن الصادق (ع).

(2) تجي‏ء «لما»\* بمعنى «إلا»\* في موضعين: أن، و القسم كقولك سألتك باللّه لما فعلت، و يحتمل أنها مخففة فاللام للتأكيد و «ما»\* صلة مؤكدة، و الأول أصح و الثاني مشوه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 274

أو كوني كذلك: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (12: 64) و هذه مقتضى ربوبيته: «وَ رَبُّكَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ حَفِيظٌ» (34: 11) هو حفيظ:

و «هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً» (6: 61): حفظة يحفظونهم في حياتهم، صادرين من أمر اللّه: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (13: 11): يحفظون نفوسهم بأبدانهم طوال الحياة و بعد الممات، فلا تذهب سدى: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» و يحفظون أعمالهم و يكتبون: «وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ. كِراماً كاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ».

إن كل نفس إلا عليها حافظ، عليها دنيا و عقبى، عليها روحا و جسما، عليها أعمالا و أقوالا، و عليها دينا و دنيا، فإن نجوم الاهتداء تثقب القلوب المقلوبة المظلمة ببوارق الهداية: من عقله و فطرته: رسولان هما لزام الإنسان، و من آفاقه المحيطة به: رسالة الكون، و من رجالات الوحي: رسالة السماء، فيا قبحا لمن لا يحسب لهذه الحفظة حسابا، فينفلت من حزب الرحمان إلى حزب الشيطان، و إلى حرب الرحمان! و هذه النجوم تثقب الضالين بحيلهم فينهزمون: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» (17: 82).

فليست هنا لك- إذا- هيصة و فوضى، دون حراسة إلهية و لا حفيظ، إنما هو الحفاظ الدقيق المباشر و غير المباشر، و سوف يظهر يوم تقوم الأشهاد.

و لكي يعلم الإنسان أنه محفوظ بعمله ليوم تقوم الأشهاد فلا ينكر البعث و المعاد، فلينظر:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 275

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ‏:

«لينظر مم خلق»؟ و لكي يعرف مصيره، فمبتدء الخلق- دائما- آية مصيره، فعبر هذا النظر سوف يعتبر أنه ما هو في ماضيه؟ و كيف يكون مصيره و مرجعه؟.

لينظر مم خلق؟ بعد ما يعلم أنه خلق: هل خلق هو نفسه؟ أم خلق مثله؟ أم خلق من غير خالق؟: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْ‏ءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ» (52: 35).

ثم لينظر من أية مادة خلق؟ خلق من ماء دافق: يخرج بدفق، و رغم أنه ماءان:- يخرجان من بين صلب الرجل: عظام ظهره الفقارية، و من ترائب المرأة: عظام صدرها العلوية- رغم ذاك يعبّر هنا عنها بماء واحد، علّه بما أصبحا واحدا من أمشاج: أخلاط: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ» (86: 7):

فهما ماءان و أمشاج، أصبحا و أصبحت ماء واحدا لوحدة التشكيل و الاتجاه إذ مزجا و مشجت.

ما كانت البشرية- طوال تاريخها- لتعرف أن الجنين مخلوق من هذين الماءين، إنما المزعوم: أنه من ماء أبيه، أو الذكر من الذكر و الأنثى من الأنثى، كانوا يزعمونه هكذا حتى نزول القرآن، إذ صرح هنا و هناك أن الجنين- أيا كان- مخلوق من الماءين، و اكتشفوا علميا في منتصف القرن الأخير: أن في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل، و في عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة، حيث يلتقيان في قرار مكين فيصبحان ماء الجنين! فمن الماء الدافق إلى الإنسان العاقل الناطق!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 276

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ‏:

الصلب ما فيه النخاع الشوكي الذي فيه مجمع الأعصاب، فلو انكسر الصلب أو اصطدم لم يقدر الإنسان على الجماع و التوليد، فمنشأ النطفة الرجولية إنما هو الصلب، و إن كان المني ينحدر منه دوما إلى البيضتين: الخزانتين الاحتياطيتين، و الماء الدافق يدفق من الصلب و الترائب، و من خزينتي الاحتياط، و علها كمساعدة لنشوء الجنين.

و الترائب جمع تريبة و هي موضع القلادة من صدر المرأة، فهي ضلوع صدرها، أو مقاديم بدنها من الثديين إلى الوركين: استيحاء من جمع التريبة، فالترائب- إذا- هي مقاديمها كلها ابتداء من موضع القلادة، و سوف نوافيكم في بحث فصل عن النطفة و تطوراتها في سورة العلق.

إِنَّهُ عَلى‏ رَجْعِهِ لَقادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ. فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ:

إن الذي قدر على بدئه، لقادر أيضا على رجعه: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) إنه على رجعه: إرجاعه إلى ما كان- كيفما كان- لقادر.

رجع أوّل: أن يرجعه اللّه إلى ما كان من ماء دافق: «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» (21: 104) «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» (7: 29): و دون رجع إلى الصلب و الترائب.

و رجع ثان إلى ما كان من الخلق الكامل: يخلق من هذا الماء كما خلق أول مرة، دون الزوائد غير الثابتة، و إنما البدن الذي عاشه طواه حياة التكليف، و كما

«سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الميت يبلى جسده؟ قال: نعم، حتى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 277

لا يبقى لحم و لا عظم إلا طينته التي خلق منها فإنها لا تبلى، تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة» «1»

: «ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ» (31: 28).

و رجع ثالث ترجع فيه روحه إلى قالبه الأصيل، الذي عمل فيه ما عمل حياته.

و رجع رابع ترجع فيه أعماله و أقواله كما صدرت، ذلك بأن اللّه كان حفيظا عليه بروحه و ببدنه الأصيل و بأعماله، دون أن تضل منها شي‏ء و حتى عن ملك الموت: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (32: 11).

«يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ»: السرائر جمع السريرة و هي الطوية في النفس أو غيرها، من أسرار و أفكار، و إبلائها إظهارها، فإنه ظهور الحقيقة بعد خفائها، و بالبلاء يظهر الخفاء، فعامة السرائر سوف تظهر كأشهاد، يوم تقوم الأشهاد:

مما أسره الإنسان في نفسه أو أبداه: «إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ» (2: 284) فما يبديه أيضا يبقى سرا يسجّل في المسجلات الإلهية، ثم لا يبقى سر مما أسره أو أبداه إلا و يبلى يوم تبلى السرائر، و قد يعد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمثال الصلاة و الزكاة من السرائر التي سوف تبلى‏ «2» حال أنها ليست من الأسرار الخافية إلا شذرا نذرا فيما يخفيه صاحبه، إلا الصوم الذي هو سر بطبعه، و قد عده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في عداد غير الأسرار كالصلاة و الزكاة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار ج 7 ص 43 ح 21.

(2)

في الدر المنثور 6: 336، أخرج البيهقي في شعب الايمان عن أبي الدرداء قال:

قال رسول اللّه (ص): ضمن اللّه خلقه أربعة: الصلاة و الزكاة و صوم رمضان و الغسل من الجنابة و هن السرائر التي قال اللّه‏ «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 278

إن السرائر المكنونة و المطوية سوف تبلى، تخرج عن ظلمات الأسرار بطوارق الأشهاد، بإرادة اللّه، و كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر، و كما ينفذ الحافظ إلى المحجوبة بالسواتر، كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة و كل ناصر:

«فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ»: فلا هناك له قوة ذاتية تدافع عنه، و لا ناصر عرضي يناصره، فيا له من ضعف مضاعف حين تتكشف أسراره في نهاية المطاف، و عند انقطاع الأعمال و الآمال! وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ‏ «1»:

إن الكائنات كلها رجعيات، ترجع إلى ما كانت، و ترجع أماناتها كما أخذت: فالسماء سوف ترجع دخانا كما كانت: «يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ» و هي ترجع أماناتها إلى الأرض دوما: من أبخرة المياه الصاعدة إليها، إذ تتحول ثلوجا و مياها، ثم توزع في أكناف الأرض حقا و عدلا، هذه السماء لا تتأبى عن رجوعها لقيامتها، و لا عن رجعها أماناتها، على عظمتها و سعتها! فهل إن هذا الإنسان الصغير الصغير يتأبى عن رجعه؟ أو يقدر أن يخبئ أعماله و أفكاره في نفسه و في الأشهاد؟! وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ‏:

تتصدع لقيامتها، و تنصدع عن مواليدها، كأم تلد مواليدها بنطف المياه السماوية: ماء دافق يخرج من صلب السماء، و بالبذور المخبئة في ترائب الأرض، فتلد مواليد النباتات، و من ثمّ الحيوانات.

أ فلا تدل السماء برجعها، و الأرض بصدعها، و الطارق بثقبها، على إمكانية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الرجع استعمل لازما و متعديا «لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ» «لئن رجعك الله إلى طائفة» و هما المقصودان هنا معا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 279

رجع الإنسان شاء أم أبى، و عدل اللّه و رحمته يفرضان هذا الرجع، و لتجزى كلّ نفس بما تسعى! ثم قسما بسماء الرسالات الإلهية، التي ترجع أمانات الوحي إلى أصحابها، و قسما بأراضي القلوب المتصدعة بآيات الوحي النازلة لها:

إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ‏:

الهزل هو كل كلام لا تحصيل فيه تشبيها بالهزال، فللقرآن تحصيل قولا و مصداقا، فهو فصل مقالة و خبرا، يفصل بين الغث و السمين و الخائن و الأمين، فهو مقالة يدل بحكمته على أنه كلام اللّه جدا، و ليس هزلا، و هو خبرا- و من بين أخباره- خبر صدق: أن الإنسان سوف يرجع لفصل القضاء، كما السماء و الأرض راجعتان، فالكائنات كلها راجعة إلى ربها، مؤدية أماناتها! فليكيدوا- إذن- كيدهم، فما ذا يؤثر كيدهم، فما كيد الكافرين إلا في ثياب:

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً. وَ أَكِيدُ كَيْداً. فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً:

كيد بكيد، جزاء وفاقا، و أين كيد من كيد؟ فهم يكيدون جهالا عجزة خونة، يظنونهم ألّا حراسة عليهم و لا حول و لا قوة! و اللّه يكيد بتسجيل أعمالهم، و إملائهم‏ «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 183)، و بالختم على قلوبهم، و عدم تأييدهم للخير إذ تركوه عمدا، و عدم الفصل بينهم و بين شرّهم إذ اقترفوه عمدا، ثم يفاجئهم يوم تقوم الأشهاد بالأشهاد، فما له من قوة و لا ناصر! «أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ» (52: 42).

فأنا «الله»\* إذ أمهلهم، ليس عن عجز و قصور، أو جهل و فتور: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (3: 178) «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ. إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ» .. أنا أمهلهم هكذا، فأنت أيضا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 280

«فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً»: فقد يكفيهم كيدي رغم إمهالهم، فمهّلهم مدى حياة التكليف دون جزاء وفاق، فاليوم عمل و لا حساب، و غدا حساب و لا عمل.

و امهلهم رويدا: قليلا: أترك كفاحهم إلى حين، و حتى تؤمر به، إذ كان الأمر في مكة تركا، و لعدم الإمكانات الحربية، و في المدينة حربا، دفاعا و انتقاما.

ثم- و لجزاء أشدّ و أنكى- أمهلهم إلى القيامة الوسطى: قيام القائم المهدي عليه السّلام الذي يدمّرهم تدميرا «1».

ثم أمهلهم للقيامة الأولى: الموت، إلى العذاب- شيئا مّا- في البرزخ.

ثم للقيامة الكبرى، إذ يلاقون فيها جزاءهم الوفاق، و لا يظلمون فتيلا.

فهنا تمهيل إلى يوم الدين، و هناك إمهال رويدا رويدا، إلى الحرب و إلى دولة القائم، و إلى نار البرزخ، ثم إلى آخر المطاف في التمهيل‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 553 ح 19 في رواية القمي عن المعصوم في الآية: «لو قد بعث القائم (ع) فينتقم لي من الجبارين و الطواغيت من قريش و بني أمية و سائر الناس»

أقول و هذا من التفسير ببعض المصاديق.

(2) بناء على ما فسرناه يختلف التمهيل عن الإمهال دون أن يكون تكرارا، و قد يوحي إلى ذلك نفس صيغة التفعيل و هي للتكثير و هو يعني هنا المهلة الكثيرة، و صيغة الإفعال و هي للدفعة، و هي تعني المهلة القليلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 281

سورة الأعلى- مكية- و آياتها تسع عشرة

[سورة الأعلى (87): الآيات 1 الى 19]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى‏ (3) وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى‏ (4)

فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى‏ (5) سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏ (6) إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى‏ (7) وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى‏ (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى‏ (9)

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى‏ (10) وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى‏ (12) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى‏ (13) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14)

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا (16) وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ (17) إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى‏ (18) صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ (19)

». سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى‏:

هنا و هناك الربّ يتبارك بذاته القدسية، و يأمر بتسبيحها و ذكرها، و قد يحلّ محلّها اسمه تعالى: «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» (23: 14)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 282

«تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ» (55: 78) «يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ» (62: 1) «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ» «اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً» (33: 41) «وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ» (73: 8).

فما هو تسبيحه؟ و ما هو تسبيح اسمه؟

التسبيح هو التنزيه عما لا يليق- أيا كان- في ذاته تعالى أو صفاته أو أفعاله، فتسبيح الذات هو تقديسها عن ذوات الممكنات، فذاته خلو من ذوات المخلوقين، كما أن ذواتهم خلو من ذاته:

«لا هو في خلقه و لا خلقه فيه، هو حلو من خلقه و خلقه خلو منه» «1»،

فلنذكر ذاته القدسية و نسبّحها و نباركها كما هو أهله و مستحقه.

ثم الاسم منه لفظي، و منه وصفي، و منه عيني، فإذا نذكره باسم لفظي ليدل عليه، فلنسبّح اسمه عن أسماء المخلوقين، الدالة على النقص و الحدوث:

«وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ» (7: 180) «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 159): فإنهم لا يصفونه و يسمونه إلا بما وصف به نفسه و سماها.

و أسماؤه الوصفية هي صفاته تعالى، ذاتية و سواها، فلنسبّحه في صفاته عن صفات المخلوقين، مهما تشابهت التعابير، فلا نعني من: أنه تعالى عليم قدير حي، ما نعنيه من مفاهيم و معاني في خلقه، بل: أنه لا يجهل و لا يعجز و لا يموت، فليس لنا إلا السلب، نعني به إيجاب سواه، رغم أننا لا نحيط به علما.

و أسماؤه العينية هي خلقه كما خلق و هدى، لا بما غيّروا بأنفسهم: فمن أسمى هذه الأسماء هم أطيب الطيبين من المعصومين المكرمين، محمد و آله الطاهرين، فإنهم من هذه الأسماء الحسنى، كما و علمهم اللّه آدم دون ملائكته:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن الامام الرضا (ع) التوحيد للصدوق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 283

«وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (2: 32).

عرضهم- لا عرضها- فالأسماء هنا «هؤلاء و هم» و لهم أسماء جهلها الملائكة، فما أقدسها أسماء: دلالة على القدسية الإلهية! و ما أكرمها ذوات! ثم الكائنات كلها أسماء اللّه، الدالة عليه، بما هي مخلوقات، لا و المختلقات الزائدة الناقصة من انحرافاتها و انجرافاتها.

«اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى»: فهل في الكون أرباب عدّة هو أعلاهم؟ نقول:

أما أرباب مفوّضون مستقلون؟ فلا! و إنما الكلّ مربوبون لرب العالمين، فالقوى الروحية- الملائكية و البشرية- تربي، و لكنها بإذن اللّه، برسالة الوحي أم سواه، و القوى المادية تربي، إلا أنها بإذن اللّه، فكل القوى المربية ترجع إلى اللّه تكوينيا و تشريعيا، لا تملك لأنفسها نفعا و لا ضرّا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا، و سبحانه تعالى من ربّ أعلى، أن يكون معه أرباب متشاكون، مستقلون أو مسموح لهم، و إنما مربوبون يربون بإذنه تعالى.

و لأن التربيات كلها راجعة إلى الرب الأعلى، فليسبّح اسمه لا سواه، فلا يقرن اسمه بسواه، و كما أمر الرسول الأقدس أن نسبّحه تعالى هكذا في سجود الصلاة قائلين: سبحان ربي الأعلى‏ «1» و كما أمرنا أن نقولها إذ نسمع الآية أو نقرؤها «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 554، العياشي عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت‏ «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» قال رسول اللّه (ص): اجعلوها في ركوعكم، و لما نزلت‏ «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» قال (ص): اجعلوها في سجودكم، و أخرجه أحمد و أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن الجهني مثله (الدر المنثور 6: 338).

(2)

أخرج أحمد و أبو داود و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن ابن عباس‏ أن رسول اللّه (ص) كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى، قال: سبحان ربي الأعلى‏ (الدر المنثور 6: 338).

و

في المجمع قال الباقر (ع) إذا قرأت‏ «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» فقل: سبحان ربي الأعلى، و إن كنت في الصلاة فقل فيما بينك و بين نفسك»

أقول: يعني بها غير حالة السجود.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 284

و علّ الأعلى هنا تعني- فيما تعنيه- أعلى درجات الربوبية في تربية الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لمكان «ربك»\* لا «رب العالمين» و كما الإنسان- ككل- احتل بين الخلق أحسن الخلق: «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» فلا خالق سواه، و إنما جمع الخالقين- علّه- يعني خالقياته تعالى، فكذلك‏ «رَبِّكَ الْأَعْلَى»:

أعلى الربوبيات.

و نستوحي من هنا: لماذا

كان الرسول عليه السّلام يحب هذه السورة «1»؟

فحقّ له أن يحبّها و هي تتضمن تسبيح ربه الأعلى، و هي تختصه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمكانة مرموقة من التربية الإلهية هي الأعلى بين ملاء العالمين من الملائكة و الجنة و الناس أجمعين! فليسبح- إذن- اسمه تعالى أيا كان، و هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا اسمه، و أعظم أسمائه العينية، فلينزّه تربيته الرسالية و قبلها، عما لا يليق بالرسالة العليا، و ليعرف أنه أوتي ما لم يؤت أحد من العالمين، و ليعلم مع ذلك أنه لا يملك شيئا:

«وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً» (17: 87).

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى‏:

سبح اسمه كرب العالمين، و من ربوبيته الخلق و التسوية و التقدير و الهداية:

«رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» (20: 50) هداية عامة: من تكوينية لا عن شعور للمهتدي، أم غريزية، أم فطرية، أم فكرية عقلانية اختيارية، و من تشريعية، ثم و تكوينية بعد تطبيق الشريعة:

«و لو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 523 عن علي (ع) قال: كان رسول اللّه (ص) يحب هذه السورة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 285

النخلة، لتدقيق تفصيل كل شي‏ء و غامض اختلاف كل حيّ، و ما الجليل و اللطيف و الثقيل و الخفيف و القوي و الضعيف في خلقه إلا سواء (عن علي عليه السّلام).

وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى‏. فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى‏:

المرعى كلّ نابتات الأرض، التي يأكلها إنسانها و حيوانها، رطبا و يابسا، ما دام خضرا نضرا، ثم يجعله اللّه غثاء: يطفح على المياه، أو تفرقها الرياح، أو متفرقة في بطون الأرض، «أحوى»: شديد السواد، و منه الفحوم الحجرية، التي تصنعها يد القدرة الإلهية، لمكان «جعله»\* و إن كان يشمل الفحوم الأخرى أيضا، فإن صنع الإنسان من صنع اللّه، لأنه بعقله و بصنعه من صنع اللّه.

و كما المرعى يفيد، كذلك غثاؤه الأحوى يفيد، يفيد فعلا حرارة مطبوعة للدف‏ء و الطبخ، و يفيد أحيانا غذاء لذيذا: دهنا و صبغا للآكلين، عملية شجرة الزيتون، كما اخترعوه في القرن الأخير «1».

سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏. إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى‏:

أقرأه: جعله قارئا بعد أن لم يكن، و بما أن الرسول كان قارئا القرآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في مجلة مصرية مؤرخة 23 أغسطس 1925 م: «نشرت (التاجليشه رونتشا) خبرا مؤداه: أن حكومة برلين و بروسيا قد منحتا شركة (ايفانج) إعانة قدرها مليونان و خمسمائة مارك ذهبا، لتنشئ بها مصنعا لاستخراج الزيت من الفحم على طريقة (برجيوس) و سينشأ هذا المصنع في (فنسلاوس) في (سيليزيا) السفلى، و يجهز بآلات تستطيع أن تصفي مائتي ألف طن من تراب الفحم سنويا.

و مخترع هذه الطريقة هو الأستاذ (برجيوس/ من (هيدلبرج) اخترعها في سنة 1903 م، و خلاصتها أنه يستصفي تراب الفحم مع الهيدروجين في جو يصل الضغط فيه إلى مائة و خمسين أو مائة درجة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 286

منذ نزوله و حتى نزول آية الإقراء، فليكن الإقراء- هذا- غير الذي كان، و النص هنا: «فَلا تَنْسى‏» يميزه بعدم النسيان، المتفرع على هذا الإقراء الخاص، فلقد كان حتى الآن يقرأ، و كان يكرر الآيات لكي لا ينسى‏ «1»، محاولة بشرية لحفظها، و لكنها ليست بالتي تطمئن الإنسان، فقد ينسى- رغم كافة المحاولات- و قد ينسى أنه ناس.

و العصمة- و لا سيما في الرسالة الأخيرة الخالدة- إنها لزام الرسالة: في تلقي الوحي و إلقائه و تطبيقه، و إلقاء الوحي كما أوحي، بحاجة ملمة إلى الحفظ الدائب، و دون تكلّف زائد، و ليكن كل محاولاته في تبليغ الوحي و تطبيقه.

فهذه بشارة له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم برفع عناء الحفظ، تريحه و تطمئنه على القرآن، بحفظه في قلبه و على لسانه، و كما وعد بالحفاظ عليه في أمته و إلى يوم الدين عن تحريف المبطلين، و إدغال الدجالين، و قد عرفناه مسبّقا، و كما وعده بجمعه و قرآنه كتابا مفصلا، بعد نثره في نزوله نجوما حسب الحاجات: حفظا مركزا لا تتخلله أية ريبة و شائبة.

و لقد كان القرآن ينزل على قلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل‏ «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ»، ثم أخذ يمزج قلبه المنير، و يدخل شغافه لحدّ أصبح قلبه قرآنا لم يبق مجال لنسيانه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 339، أخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «كان النبي (ص) إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من الوحي حتى يزمل من ثقل الوحي حتى يتكلم النبي (ص) بأوله مخافة أن يغشى عليه فينسى، فقال له جبريل: لم تفعل ذلك؟ قال:

مخافة أن أنسى، فأنزل اللّه‏ «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏ إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ»

و

فيه عنه أيضا: كان النبي (ص) يستذكر القرآن مخافة أن ينساه، فقيل له كفيناك ذلك و نزلت‏ «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 287

فالنازل على السمع قريب إلى النسيان، ثم بعيد عنه إذا نزل إلى القلب، ثم مستحيل إذا ضمن اللّه تعالى عدم النسيان، و هكذا استمر وحي القرآن على قلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دون أن ينسى و لا حرفا منه أو نقطة!.

«إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ»: سنقرئك من القرآن ما يحمل كل شي‏ء، إلا ما شاء اللّه اختصاصه بذاته المقدسة من علوم الغيب‏ «1»، فقد استقصى اللّه في القرآن ما كان و ما يكون و ما هو كائن، و قصّه للنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يستثن إلا ما شاء اللّه اختصاصه بنفسه المقدسة، فآية الإنساء- إذا- من آيات أن محمدا لم ينس ما أقرأه ربّه!.

«فَلا تَنْسى‏ إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ»: و احتمال ثان أن يكون الاستثناء بالمشيئة عن‏ «فَلا تَنْسى‏»: لا تستطيع دوافع النسيان و عوامله أن تنسيك شيئا من القرآن على وجه الإطلاق، فإن اللّه غالب على أمره، و لئن كان هناك عامل- و لن يكون- فلتكن مشيئة اللّه، و لا يعني هذا الاستثناء أن اللّه ينسيه شيئا مما أقرأه، فإنه أسوء العسرى بعد إذ وعده باليسرى: «فَلا تَنْسى‏»! .. و إذا كان هنا موقع للنسيان، فما هو موقع التعليل؟:- «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى‏»؟ فهل هو إلا تأكيدا لعدم النسيان، فما النسيان إلا من ضعف الإنسان، و قد جبر بالإرادة الإلهية: «فَلا تَنْسى‏» أو من الجهل بعوامل النسيان ظاهره و خافيه، ف: «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى‏» أو بدافع الضغط على النبي في نسيان القرآن، فلما ذا- إذن- بشّره: «فَلا تَنْسى‏»؟

و لماذا وعده دون فصل:

وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى‏:

و لماذا ينسيه ما يأمره بتذكيره؟:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذا إذا كان المستثنى منه هو الأقراء، و لأنه أصل الكلام، و حينئذ لا مجال لشطحات المبشرين، مزمرين و مطبلين أنه (ص) نسي شيئا من القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 288

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى‏:

ليس الجواب إلا أن الاستثناء هنا من الإقراء، و إذا كان من‏ «فَلا تَنْسى‏» فلما يأتي:

1- إن الاستثناء بالمشيئة هنا قد يكون كما في شعيب عليه السّلام: «قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب و الذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين. قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها و ما يكون لنا أن نعود فيها إلا إن يشاء الله ربنا ..»

(7: 89)، فهل بالإمكان- واقعيا أم عقليا- أن يشاء اللّه عود رسوله و المؤمنين في ملة الشرك، فليمكن- إذن- أن يشاء نسيان محمد قرآنه العظيم! 2- و قد يكون الاستثناء هنا لكي يعلن ربّنا أنه ليس مسيّرا في استبقاء وحي القرآن في قلب الرسول، و ألّا ينسى، و كما في القرآن كله: «وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً» (17: 86) و كما ترك الوحي عليه ردما من الأيام لحد ظن صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه تعالى ودّعه أو قلاه، حتى نفاه تعالى: «ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏». كل ذلك لكي يعلم النبي و نعلم معه، أنه لا يستقل في وحي القرآن.

و مهما يكن من شي‏ء فلا دلالة هنا على ما يهواه المبشرون من أن محمد نسي من القرآن و هذا يتنافى و عصمته في البلاغ‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من هؤلاء الأستاذ الحداد اللبناني، إذ يقول فيما يقول: الظاهرة الأولى نسيان النبي بعض ما يوحى إليه‏ «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏ إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى‏ وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى‏» فالاستثناء «إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ» يفيد بأن اللّه قد يشاء أن ينسي النبي بعض ما يوحى إليه، فهل يصح أن يوحي اللّه شيئا ثم يأمر بنسيانه، هل كان النسيان مقصودا؟ آية التبديل (نحل 101) و آية المحو (رعد 41) توحيان بأن النسيان قد يكون مقصودا من اللّه و من النبي، فكيف تنسجم العصمة في البلاغ و التبليغ مع مبدإ النسيان و واقعه» (من كتابه الكتاب و القرآن) و قد أجبنا عنه في كتابنا «المقارنات» (ص 194- 205) و سوف نبحت عن آيتي التبديل و المحو في محالها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 289

وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى‏. فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى‏:

فهناك يسرى في تلقي الوحي: ألا يشتبه عليه وحي الرحمان بوحي الشيطان، و يسرى في تبليغه: ألا ينساه، و يسرى في تطبيقه: أن يلائم حياة الإنسان إلى يوم القيام، مهما كانت هنا و هناك عسرى في الدعوة في جهات أخرى: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً» و يسره يغلب عسره، عسر مؤقت و يسر دائم!.

و اليسرى هي الحياة اليسري: أيسر الحياة، في أعسر الظروف و المجالات، و قد يسره ربه: «نيسرك» لا أنه «يسر له» مما يدل أن اللّه جعل الرسول يسرا في ذاته، يسرا في إمكانياته، مهما كانت الظروف صعبة ملتوية.

«فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى‏»: فبما أنك لا تنسى وحي الرسالة، و أن اللّه يسرك لليسرى، فذكر إن نفعت الذكرى: نفعت بالفعل: «لمن أراد أن يتذكر أو أراد نشورا» و لتعش الذكرى حياتك كما عاش ذكر اللّه قلبك، و أخذ كتاب اللّه شغافه، فذكّر حيثما تجد فرصة للذكر، و منفذا إلى القلوب، و وسيلة للبلاغ، و حاول كافة المحاولات في خلق مجالات للذكر علّهم يتذكرون، و لا تقل: العالم كالبيت يؤتى و لا يأتي! فهذا نفع فعلي للذكرى لمن أراد أن يتذكر، أو أنها تحثه لإرادة الذكر، و أما من لا يتذكر بها، فنفع الذكرى له ليس إلا أنها حجة عليه: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» فذكرهم لحدّ الحجة، فإن الذكرى عذر أو نذر، ثم تصبح لغوا إذ لا نذر و لا عذر، إذا فذكرهم ثم ذرهم: «وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ‏ ... أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا ..» (6: 70) و الابسال التسليم للهلاك بسوء العمل، و ما لم تكن الذكرى لم يكن العمل سوءا .. ثم اترك الذكرى حين لا ينفع لا هدى و لا حجة، لمن ثبتت عليه: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا» (53: 29).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 290

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى‏. وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى. الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى‏. ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى‏:

فنفع الذكرى لمن يخشى هو أن يخشى، و للأشقى أن يتجنبها عن حجة فيصلى النار الكبرى: «وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (17: 15).

«ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها»: فلا يحسّ عذابها و يرتاح منها «وَ لا يَحْيى‏»: عائشا كالأحياء، لامسا طراوتها، متنحيا عن ضراوتها، فلا الموت يدفع عنه عذابها، و لا الحياة تجلب له متطلباتها، فهو بين الموت و الحياة: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى‏ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37) تأتيهم بواعث الموت، و لا يأتيهم قضاؤه، فبالحياة هناك إنما يذوقون آلام الموت، و بالموت يحرمون آمال الحياة.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى‏:

إن التزكي هنا هو التطهر عن كافة التعلقات بما سوى اللّه، بالنفس و النفيس، و بالأهلين، التعلقات المادية و المعنوية، إلّا ألّا يؤصّلها، و إنما يتذرعها إلى اللّه دون أن يحسب لها حسابا إلا هذا الحساب، فلو أمكنه تحصيل مرضاة اللّه بغيرها لرفضها، و لم ينظر إليها أبدا، فهو- إذا- يعيشها ليعيش مع اللّه حياة طيبة.

قد أفلح المتزكي هكذا، فالتزكي هو الوسيلة الوحيدة لإفلاح السبيل، و نجاح الدليل،

«من خاف الله أخاف الله منه كل شي‏ء، و من لم يخف الله أخافه الله من كل شي‏ء» عن الإمام الرضا عليه السّلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 291

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى‏:

فبما أن الصلاة معراج المؤمن و لقاء اللّه، فهي للتحلية و التجلية، فلا بد لها قبلها من تزكية و تخلية، ثم لا بد للصلاة من افتتاحية تعلن أن صاحبها تزكى:

و علّها تكبيرة الإحرام «الله أكبر»: أكبر من أن يوصف، فلا كبير معه حتى يكون هو الأكبر، و إنما أكبر من أن يوصف، ثم رفع اليدين عندها إلى شحمتي الأذنين، إنه يعلن حقيقة التكبيرة: أنها جعل ما سوى اللّه وراءك ظهريا، ثم أن توجه وجهك للذي فطر السماوات و الأرض.

و من ذكر الرب- و أفضله- البسملة مفتتح الحمد، فالصلاة بلا تكبيرة و بسملة، دخول في الدار، دون استئذان و استئناس من صاحب الدار! هذا- و المروي عن الرسول الأقدس يوافق الآية شمولا لأصناف الزكاة و الصلاة، و على حد

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من شهد أن لا إله إلا الله و خلع الأنداد و شهد أني رسول الله، و ذكر اسم ربه فصلى: هي الصلوات الخمس و المحافظة عليها و الاهتمام بمواقيتها «1»»

فإذ يفسرها صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- أيضا- بزكاة الفطرة و صلاتها أو الصلاة على الميت، يعني به تفسير المصداق‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 336، أخرج البزاز و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه عن النبي (ص) في قوله: قد أفلح من تزكى، قال: ..

(2)

المصدر عن النبي (ص) أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد و يتلو هذه الآية.

و

في نور الثقلين 5: 556 من لا يحضره الفقيه: سئل الصادق (ع) عن هذه الآية فقال: من أخرج زكاة الفطر، قيل له: و ذكر اسم ربه فصلى، قال: خرج إلى الجبانة فصلى»

أقول يحتمل الصلاة على الميت و كذلك صلاة الفطر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 292

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا. وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏. إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى‏. صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏:

بل تؤثرون الحياة الدنيا على الحياة العليا، و هي تمنع العباد من سخط اللّه، و على حد

قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا آثروا صفقة دنياهم ثم قالوا: لا إله إلا الله ردت عليها و قال: كذبتم» «1».

ثم إن الصحف الأولى، و منها صحف إبراهيم و موسى، إنها تصدق ما في هذه السورة من أن ربوبية الرب بالنسبة لرسولنا الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هي أعلى الربوبيات بين حملة الرسالات، مسبّحة مقدسة في كتابات الوحي من قبل كما فصلناه في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية)، كما و أن عدم نسيان القرآن و تيسيره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأمر الرسالة، هما في الصحف الأولى، و ما يروى أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 340، أخرجه البيهقي في شعب الايمان عن أنس قال: قال ..، و

فيه أخرج عن ابن عمر أن النبي (ص) قال: لا يلقى اللّه أحد بشهادة أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له إلا دخل الجنة ما لم يخلط معها غيرها- رددها ثلاثا- قال قائل من قاصية الناس:

بأبي أنت و أمي يا رسول اللّه! و ما يخلط معها غيرها؟ قال: حب الدنيا، و أثرة لها، و جمعا لها، و رضا بها، و عمل الجبارين.

و

فيه أخرج أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللّه (ص) قال: من أحب دنياه أضر بآخرته، و من أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى.

و

فيه عن عائشة عنه (ص) قال: الدنيا دار من لا دار له، و مال من لا مال له، و لها يجمع من لا عقل له،

و

فيه عن الحسن قال: قال رسول اللّه (ص): حب الدنيا رأس كل خطيئة.

و

في نور الثقلين 5: 557 عن علي بن الحسين (ع) «الدنيا دنياءان دنيا بلاغ و دنيا ملعونة و أمل لا يدرك و رجاء لا ينال».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 293

الآيات الأربع الأخيرة هي في الصحف الأولى، هو من باب التطبيق‏ «1»، فالمشار إليه هو كل ما في السورة، و كما عن نفر من أصحاب النبي و التابعين‏ «2».

ثم القرآن بصورة عامة، فيه نسخة ما في الصحف الأولى‏ «أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى‏»، و على حد

قول علي عليه السّلام: «فجاءهم بنسخة ما في الصحف الأولى و تصديق الذي بين يديه و تفصيل الحلال من ريب الحرام» «3».

و لا يعني أن القرآن ترجمة لهذه الصحف، و لا سيما الموجودة منها الآن، لأنه يكذب شيئا كثيرا من محرفاتها و خرافاتها الدخيلة، و يصدّق بعضا تكميلا له أو نسخا و كرمز للخلود «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبي ذر قال: قلت يا رسول اللّه اللّه (ص) هل أنزل عليك شي‏ء مما في صحف ابراهيم و موسى؟ قال: يا أبا ذر! نعم‏ «قَدْ أَفْلَحَ‏ ... وَ أَبْقى‏- إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى‏ صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏.

(2) كابن عباس و سعيد بن المسيب و السدي و أبي العالية و قتادة و عكرمة كما في الدر المنثور 6: 341.

(3) نور الثقلين 5: 558 ح 228 مسعدة بن صدقة عن أبي عبد اللّه (ع) عنه (ع).

(4) تجد تفصيل البحث عن نسبة القرآن إلى الصحف في كتابنا (المقارنات) من ص 147 جوابا عن شطحات الحداد، و تجده أيضا في طيات الآيات المناسبة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 294

سورة الغاشية- مكية- و آياتها ست و عشرون‏

[سورة الغاشية (88): الآيات 1 الى 26]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (2) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (3) تَصْلى‏ ناراً حامِيَةً (4)

تُسْقى‏ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (6) لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (8) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (9)

فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (10) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (11) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (12) فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (14)

وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16) أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19)

وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (24)

إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (26)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 295

\*\*\* هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ:

الغاشية- جمعه غواش- من أوصاف الساعة، مبالغة في الغشي: الستر الشامل، و الساعة تغشى الناس حشرا: «وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً» (18: 47) كما تغشاهم إماتة في قيامتها: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ» (44: 11) و تغشى الكفار منهم عذاب النار: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ» (7: 41)، و في غاشية الحشر:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ:

تقسيم ثنائي للذوات الشريرة و الخيّرة، فالوجوه هنا هي الذوات، حيث الضمائر و الصفات و الأفعال الراجعة إليها، لا تناسب إلا الذوات‏ «1»، عبّر عنها بالوجوه لا تجاهها نحو العرض و الحساب، و استقبال الساعة لهم بوجوهها كلها.

ثم هذه الوجوه تشمل وجه الظاهر و الباطن، و من الباطن: وجه العقل و الصدر و القلب و السر و الخفي و الأخفى، وجوه سبعة تغشاها الساعة، فهي- كلها- خاشعة: «وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» (42: 45).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالخشوع و صلي النار و السقي من عين آنية و صلي النار الحامية، و طعامهم، ثم الراضية، و عدم سماع اللاغية .. كل ذلك لا يناسب إلا الذوات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 296

و الخشوع هو الضراعة سواء في الظاهر أو الباطن، ما لم يقرن بما يدل على الأول، و إن كان هو الأكثر استعمالا، إذا فغاشية الساعة تغشى الوجوه كلها فتصبح خاشعة كلها.

عامِلَةٌ ناصِبَةٌ:

عاملة عملت في دنياها لهواها، و هنا تحصد نصبها و تعبها، و عاملة تعمل يوم الغاشية، متعبة نفسها لخلاصها، و لات حين مناص، و مضى دور الخلاص، فقد مضى دور العمل و الأمل، فلا أمل و لا عمل، و هي بعملها يوم الدنيا، هنا وقود للنار تصلاها:

تَصْلى‏ ناراً حامِيَةً:

توقد نارا قدّمها من قبل، و هي ذات حمى: «ولادة و إيلادا»: ولدت من الجواهر المحمية، من جواهر ذواتها الشريرة، و تولد حمى: حرقة حاسمة، لا تبقي و لا تذر. لوّاحة للبشر، و كما حمت يوم الدنيا في جحيم ذواتها، و أحرقت ضميرها و فطرتها، جوّها و مجتمعها! تُسْقى‏ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ:

عين بلغت إناها لشدة غليانها، حامية آنية: «يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ» (55: 44) «وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ» (47: 15).

لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ‏:

لا يطعمون إلا الضريع، فما هو الضريع؟ نقول: إنه من الضراعة، فطعام أهل النار يضرعهم و يذلهم و يبكيهم، بدل أن يفرحهم و يغنيهم، و من المضارعة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 297

المشابهة، فإن طعامهم يشبه الطعام و ليس به، و لذلك لا يسمن و لا يغني من جوع، و هما الأصلان في خواص الطعام، فليس الضريع طعاما من سنخ واحد، و كما أن وصفه هنا يشهد، و كما اللغة تشهد، فإنها لا تعرف طعاما خاصا اسمه ضريع، و كذلك سائر القرآن يشهد، إذ يذكر لهم أطعمة عدة كلها ضريع بمعنييه، كالزقوم: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ» (44: 46) و غسلين: «وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ» (69: 36) «وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ» (73: 13) غصة و غم في أرواحهم، و غصة في الحلقوم، فطعامهم كله ذا غصة ضريع، لا يسمن و لا يغني من جوع، كما أن كله غسّاق:

«إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً» (78: 25) يغسق و يظلم على آكله حياته، و يحبّذ إليه مماته: «وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً».

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ. لِسَعْيِها راضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ. لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً:

لم يعطف الوجوه الناعمة على الخاشعة للبون البعيد بينهما، و عدم الانعطاف بينها و بينها، فهذه ناعمة ناضرة ضاحكة مستبشرة مبيضة، و تلك خاشعة مسودة باسرة عليها غبرة ترهقها قترة «1»، فأين وجوه من وجوه! و كيف يعطف بينهما و إن في التعبير؟

هذه ناعمة: ظاهرة البهجة و السرور، من النعومة: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ» و ناعمة: متنعمة يبدو عليها النعيم، و يفيض منها الرضى:

«لِسَعْيِها راضِيَةٌ»: راضية عما سعت، مرضية لربها، فهي عاملة في دنياها، راضية في أخراها، دون نصب و تعب، خلاف العاملة الناصبة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الآيات 3: 16 و 75: 24 و 80: 40.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 298

«فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ. لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً»: كلمة ذات لغو، فالنار فيها كل كلمة لاغية، يتلاغى أهلها فيها، و الجنة خلو عن أية لاغية، يتلاقى أهلها مع بعض و مع خزنتها بكل حنان و احترام، كلماتهم حكمة، و حركاتهم حكمة، و لأنهم دخلوها بالمعرفة و الحكمة، فليست هي إذا مكان اللهو و اللغو و الغفلة عن اللّه، و لا التحرر عن قيود العقل و الإيمان و المعرفة، رغم أنها ليست بدار التكليف، فالواجبات التي هي لزام العبودية و المعرفة، و المحرمات التي تنافيها، إنها تبقى على حالها في الجنة، و لكنها تطبّق هناك دون تكلّف و بلاء، و إنما الابتلائية منها و الامتحانية، هذه هي التي تترك فيها، إذ لا بلاء هناك و لا تكليف، ففيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين، و لكن أهلها لا يشتهون الظلم و الضيم، و لا يلتذون بالمحرمات الذاتية، لأنهم ظهروا على الحقائق كلها و ظهرت لهم، و أنها ليست دار التزاحم و اللااطمئنان: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ» (44: 51) «وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ» (47: 36) فلا أضغان تدفع إلى المنافرات، و لا تزاحم ينافي الأمن، «وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى‏ سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ» (15: 47).

فهذه هي الجنة العالية، و ليست دانية فيها الرذالات و جماع العادات و التصرفات السيئة، أن أهلها تركوا المحرمات لفترة قصيرة يوم الدنيا، و لكي يتحرروا فيها لغير النهاية! و تفصيل هذا البحث إلى محالها المختلفة في طيّات الآيات.

هذه هي اللذة الروحانية في جنة الرضوان، ثم تتلوها الجسدانية في جنة النعيم:

فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ. فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ. وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ. وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ. وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ:

عين جارية: جنسها، و ليست صنفا خاصا، أو عينا واحدة، و إنما ينابيع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 299

متدفقة من تسنيم و سلسبيل، و الماء الجاري يجاوب الحسّ بالحيوية، و الروح بالانتفاض و الانقباض، و السرر المرفوعة لها جمالها و جلالها، و الأكواب جمع كوب: قدح لا عروة له، رمزا إلى سعتها، و لأن العروة تجمع القذارات تحتها، و ليست جمع الكوبة: الطبل الذي يلعب به، فليس في الجنة لغو و لا تأثيم، و النمارق هي المساند. مصفوفة بعضها إلى بعض. و الزرابي هي البسط الفاخرة، مبثوثة منتشرة على أرض الجنة، للزينة و الراحة سواء.

فهذه هي البعض من أثاث بيت الجنة، فيها اللذة كلّها، و الراحة تمامها، و المتعة بكاملها، دون تعب و عناء، أو شغب و شقاء.

أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ‏:

حض النظر إلى ما حضر لعرب البادية، و ليس إلا الإبل التي يعيشها، و الأرض التي يطؤها، و الجبال التي يراها، و السماء التي فوقه، قطعا للأعذار، و تقريبا للأنظار، فلا أحد إلا و يعيش براهين على وجود اللّه تعالى، لا يستطيع التحلل عنها، حتى عرب البادية الذين يعيشون أنفسهم بآبالهم، و هي كل ما يملكونه حياتهم، و من الغريب أنها أكمل الحيوان و أنفعه و أجمعه لصالح المعيشة و الراحة:

فهي ركوبهم بأحمالهم، و منها شرابهم و إدامهم، و من أوبارها و جلودها ثيابهم و فرشهم: كمواد أولية للحياة، ثم إن لها خصائص تخصها بين الحيوان:

فهي على عظم منافعها قليلة التكاليف، صابرة على الجوع و العطش و الكدح، تأكل ما لا يأكله سائر الحيوان، و هي على قوتها و ضخامتها ذلول يقودها الصغير فتنقاد له، و تنهض بحملها و هي باركة، بخلاف سائر الحمولة، و بإمكانها الصبر على الجوع و العطش لمدة أسبوع، و أن تمشي يوميا خمسين فرسخا، تمشي في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 300

الرمضاء، و في الثلوج المغطية للطريق و لا تضل الطريق، حتى و في الليلة الظلماء، و لا تنسى الطريق الذي مشته لمرة واحدة، و عنقه كسلّم يمد ركابها و هي قائمة، ففيها جماع ما في مختلف الحيوان، و زيادات تخصها، فلا عجب أن تعد في عداد الأرض و الجبال و السماوات، من آيات اللّه البينات، التي تدل على وجوده و قدرته و حكمته، و أن وراء الكون إرادة و تصميما، دون صدفة و لا فوضى.

فليست الإبل آية لأصحاب الإبل فحسب، و كما القرآن لا يختصهم بها، بل هي آية لهم و لمن سواهم أن ينظروا إليه كيف خلقت؟ هذه الكيفية العجيبة الفريدة بين سائر الحيوان، ما يحق لها أن تفرد بمؤلف ضخم، علّنا نعرف البعض من عظمة هذه الخلقة العجيبة.

وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ‏:

و أولى الناس بالنظر إلى السماء هم سكان الصحراء، كيف رفعت بلا عمد؟

و كيف انفصل دخانها عن مادتها الأولية المضطرمة؟ و كيف اقتسمت إلى السبع؟

و كيف نثرت فيها النجوم بلا عدد و لا عمد، و كيف و كيف، مما يتطلب سماء واسعة من البحث و التنقير، ليعرفنا على أوسع مما نعرف من حكمة الخبير البصير.

«وَ إِلَى الْجِبالِ» مختلف الجبال‏ «كَيْفَ نُصِبَتْ»؟ مما سقطت عليها من على السماء، و ما تدفقت عليها نتيجة البركانات، و ما تجمدت عليها إثر الأمواج الناتجة عن دوران الأرض و اصطكاكها بالفضاء المجاور البارد، و كما

سئل علي عليه السّلام «مم خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج»

و علها تعم الأمواج الجوية السماوية،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 301

و الجوفية، و كذلك السطحية الأرضية، فالأمواج- إذا- تشمل كل صنوف الجبال:

فمن الجبال ما هي في دور الطفولة كجبال (الأنديس) بأوروبا، و لا تزال ترتفع و تنمو كأنها حيوان، و كجبال (الألب)، و منها ما بلغ أشدّه كجبال (البرنيس) بأوروبا، و منها ما شاخت و هرمت كجبل (المقطم) بمصر، و جبال (الفوزجيش) و منها ما أخذت سبيلها إلى الفناء، كجبال (وايلس) بأوروبا، و منها و منها .. و كل هذه لا تخلو عن أنها خلقت من الأمواج، أمواج البراكين و الفيضانات، و أمواج الدوران الأرضي، و أمواج الأمطار السماوية، من المواد الحجرية و من الأحجار، و من الأمواج البحرية، و كما يقول العلم الحديث: إن الجبال تخلق أولا في البحر، و كما يرى في بعض الجبال مواقع و محار و أنواع الصدف و عظام السمك، مما يدل أنها خلقت في البحار، ثم يبست أو انتقلت مياهها فبرزت.

«وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ»: جعلت سطحا يمشى عليها و يسكن فيها و لم تكن مسطحة قبله، إذ كانت محترقة ملتوية شموسا لا تذل لراكب، و لا تحن لعائش، «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها ..».

و من الناس من يخيّل إليه أن سطح الأرض ينافي و كرويتها، و إن هو إلا نظرة سطحية قاصرة، حيث السطح هنا مقابل الشماس غير الذلول، و المنقبض أكنافه غير الباسط، فهل يا ترى إنه السطح مقابل الحجم؟- مهما كان الحجم كرويا أم سواه- فكيف بالإمكان أن يجعل الحجم- هكذا- سطحا؟ كلا، إنه السطح عن الانكماش و الانقباض، انقباضا حراريا و من حيث الميعان، و انقباضا يعني عدم التسوية و الصلوح للسكن، فقد سطحها بعد انقباضها، و ذللها بعد شماسها: «فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 302

فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ. إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ. فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ:

فذكّر بالآيات الآفاقية و الأنفسية، و بالآيات القرآنية التي تضمها و زيادة، فذكّر، فليست حياتك الرسالية إلا تذكيرا، و بالتبشير و الإنذار، ليست لك سيطرة تشريعية تسن الأحكام، و لا تكوينية تهدي من تحب، أو تجبرهم على الهدى، «نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» (50: 45) و إنما الجبار المصيطر هو: «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ» (59: 23) «وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» (6: 107)، فلا أنت مصيطر جبار، و لا وكيل عن المصيطر الجبار، إنما أنت رسول، و ليس لك إكراه الناس على الإيمان، فليس الإيمان بالذي يكره عليه، و لا أنت قادر عليه:

«أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (10: 99) فأولا و أخيرا، «لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ» (2: 272) و إنما عليك ذكراهم: «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ» (13: 40): لا تملك من أمر قلوبهم شيئا حتى تقهرها على الإيمان، فإنما القلوب بين أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء.

فذكّر و داوم في ذكراك‏ «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ» فإنه لا تنفعه الذكرى، فذكر إن نفعت الذكرى و «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ. إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ» و ليست إلا سيطرة الجهاد و الدفاع: (العذاب الأصغر) لا العذاب الأكبر: «فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ»: بعد ما يعذبهم بك، و بالقائم المهدي من ذريتك، و بمن معكما و بينكما من المناضلين، يعذبهم بكم العذاب الأصغر، ثم يعذبهم في البرزخ العذاب الأوسط.

إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ‏:

فليس إياب الخلق إلّا إليه، و لا حسابهم إلّا عليه، و أنت المذكر، لست‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 303

إلا إياه، و على حد قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1» و غيره يؤوّل أو يضرب عرض الحائط «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 343، أخرج الأعلام عن جابر قال: قال رسول اللّه (ص): أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم و أموالهم إلا بحقها، و حسابهم على اللّه، ثم قرأ: «فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ».

و

عن علي (ع) جوابا عن كيفية الحساب: كيف يحاسب اللّه الخلق على كثرتهم؟ قال:

كما يرزقهم على كثرتهم، قيل: فكيف يحاسبهم و لا يرونه؟ قال: كما يرزقهم و لا يرونه، (نهج البلاغة).

(2)

في زيارة الجامعة عن الامام الجواد (ع) «و إياب الخلق إليكم و حسابهم عليكم»

و في معناها روايات عدة كالمروي‏

عن الامام موسى الكاظم (ع) أنه قال: يا سماعة إلينا إياب هذا الخلق، و علينا حسابهم، فما كان لهم من ذنب بينهم و بين اللّه عز و جل حتمنا على اللّه عز و جل في تركه لنا، فأجابنا إلى ذلك، و ما كان بينهم و بين الناس استوهبناه منهم فأجابا إلى ذلك و عوضهم اللّه عز و جل.

و

عن الامام الصادق (ع): إذا كان يوم القيامة و كلنا اللّه بحساب شيعتنا فما كان للّه سألنا اللّه أن يهبه فهو لهم، و ما كان لنا فهو لهم ثم قرأ الآية: «إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ» (نور الثقلين 5: 568- 569).

أقول: آخر المطاف في تأويل أمثال هذه الأحاديث أنها تعني إثبات الشفاعة لهم (ع) فهناك إيابان و حسابان: أصل و فرع، فالأصل للّه، و الفرع لهم بإذنه، كما فصلناه في أبواب الشفاعة، و أما القول «حتمنا على الله» فتأويله رده، تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 304

سورة الفجر- مكية- و آياتها ثلاثون‏

[سورة الفجر (89): الآيات 1 الى 30]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ الْفَجْرِ (1) وَ لَيالٍ عَشْرٍ (2) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (3) وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (4)

هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5) أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (6) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (8) وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (9)

وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (14)

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ (16) كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَ لا تَحَاضُّونَ عَلى‏ طَعامِ الْمِسْكِينِ (18) وَ تَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا (19)

وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (20) كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَ جِي‏ءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى‏ (23) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (24)

فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (25) وَ لا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (26) يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلى‏ رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبادِي (29)

وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (30)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 305

\*\*\* وَ الْفَجْرِ. وَ لَيالٍ عَشْرٍ. وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ. وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ:

الفجر هو الشق الواسع، سواء في الخير أو الشر، و منه الفجور فإنه شق واسع لستر العفاف، و من شقّه الخيّر شقّ ظلام الليل واسعا يتبين كخيط أبيض من الخيط الأسود، ثم يتوسع إلى انمحاء ظلم الليل تماما، فالفجر- إذا- ساعة تنفس الحياة في يسر و عافية: «وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ» (81: 17) ففرح و ابتسامة، كأن تفتحه ابتهال بدلال! فما هو الفجر هنا؟ إنّه هو كلّ فجر من كل ليلة، و فجر شمس الرسالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 306

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 307

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 308

المغرب) و شفعها الصلوات الشفع (الرباعيات) و صلاة الشفع (ركعتا الليل) «1».

و الوتر بين الأيام ثالث أيام التشريق، و الشفع الأوّلان:

«فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى‏» «2»

(2: 203).

و الوتر بين الأوصياء الأوفياء هو علي عليه السّلام، و الشفع الحسنان- عليهما السلام- «3».

«وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ»: إذا يسري في الظلمة ابتعادا عن النور، ثم يسرى إلى النور بعدا عن الظلمة، و نهاية المطاف هو النور، فإن للحق دولة و للباطل جولة.

فالمراد بسرى الليل دوران فلكه، و سيران نجومه حتى يبلغ غايته، و يسبق في قاصيته، و يستخلف النهار موضعه، و علّ الليل هنا هو من الليالي العشر، كليلة العاشور، و ليلة القدر، و ليلة النحر «4»، فإنها تسري، و تنتج آخر المطاف نهار الضياء اللامع.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 346 عن عمران بن حصين‏ أن النبي (ص) سئل عن الشفع و الوتر فقال: هي الصلاة بعضها شفع و بعضها وتر.

(2) الدر المنثور 6: 346 أخرجه ابن جرير عن جابر أن رسول اللّه (ص) قال:.

أقول: و قد وردت روايات أخرى في تأويل الشفع و الوتر كلها من باب التطبيق، تشملها الآية الكريمة.

(3) رواه القمي في تفسيره.

(4)

البرهان 4: 457 عن الباقر (ع) أنه ليلة الجمع و هو النحر، إذ يجتمع فيه المفيضون من عرفات في المزدلفة، ثم إلى منى للنحر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 309

هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ:

«لِذِي حِجْرٍ»: ذي عقل‏ «1» يحجره عما ينافي العقل، و هو يحجر ما يعقله العقل، هل في ذلك- الأقسام الشاملة للكائنات كلها- قسم للعقلاء؟

أجل! و تمام القسم!.

فلقد أقسم اللّه هنا بالمختلفات: بالفجر، فمنه صادق و منه كاذب‏ «2»، و بالليالي العشر: الظاهرة في الظلام، الباطنة في النور، فهي على ظلمها خير من الفجر الكاذب، و بالشفع و الوتر: حقه و باطله، و بالليل إذا يسر: يسري لكي يزداد ظلما، ثم يستقبل الفجر فوضح النهار: هل في ذلك قسم لذي حجر؟.

قسما بهذه و تلك .. إن ربك لبالمرصاد، فكن ذا حجر تحجر ما ينفعك لحشرك، و تهجر ما يضرك‏ «3».

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ. إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ:

فمن هم عاد؟ و ما هي إرم ذات العماد؟

إن عادا- هنا- هم عاد الأولى، قوم هود عليه السّلام: «وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى‏» (53: 50)، و لا نعرف عن الثانية شيئا، ثم أصلهم هو عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح، و قد أنذرهم أخوهم هود بالأحقاف: بلاد الرمال:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 571 عن الباقر (ع).

(2) الكاذب هو المستطيل طولا كذنب السرطان، و الصادق هو المستطير عرضا في أفق السماء، فهو مبدأ النور و مبدأ أحكام شرعية.

(3) ألم تر- إلى- عذاب: جملة معترضة يستعرض ماضي العصيان من عاد و فرعون و ثمود، أكبر حمقاء الطغيان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 310

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 311

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 312

«فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ»: و هذه من مكشوفات الاستعارة، يعني بها العذاب المؤلم، و النكال المرمض الممرض المرضض، حيث السوط سبب للعقوبات الواقعة، فإذا صبّ عليهم كان أمض و أوقع.

أو أن السوط هنا مصدر يعني أوقع عذاب يخالط الجسوم بالدماء و اللحوم، فيسوطها سوطا إذا حرّك ما فيها و خلطه.

فحين يذكر السوط نذكر لذع العذاب، و بالصب فيضه و غمره، اجتماع الألم اللاذع، و الغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فهذا سوط العذاب، فكيف بنفس العذاب الذي يرقبهم يوم يقوم الأشهاد:

«إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ»: «إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً. لِلطَّاغِينَ مَآباً» و ربك يرصدهم عليها، و قد ينالهم يوم الدنيا سوط منها، يرقبهم يرصدهم و لا يخفى عليه منهم شي‏ء في الأرض و لا في السماء، «لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ»

«و لئن أمهل الله الظالم فلن يفوت أخذه و هو له بالمرصاد، على مجاز طريقه، و بموضع الشيحا من ساغ ريقه» (علي عليه السّلام).

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ‏:

تنديد بما يخيّل إلى جهال الناس أن السعة في الحياة إنعام و إكرام، و ضيقها مهانة و ابتلاء، فلو بسط اللّه له في الرزق ظنه إكراما باستحقاق، مهما كان بعيدا عن طاعته، رغم أنه بلاء- و من أشد البلاء- و ليس جزاء: «وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 313

بَصِيرٌ» (42: 27) و لو قدر عليه رزقه لظنه بلاء و ابتلاء و مهانة، مهما كان في طاعته، و هو أخف البلاء، و الحياة الدنيا كلها بلاء، ما يلائم طبع الإنسان و ما ينافره، و هذا باب من التضليل يضل فيه الكثير ممن لا يعرفون اللّه، و لأن الدنيا دار عمل و لا حساب، و الآخرة دار حساب و لا عمل، فكم من مطيع للّه يضيّق عليه لكي لا يطغى، و ليبل ببلاء أخف و أدنى، فنراه يترك الطاعة إلى المعصية إذ يحسبه مهانا في طاعة اللّه! و كم من عاص موسّع عليه بلي به كبلاء شديد، يظنه مكرما في معصية اللّه، فيزداد عصيانا و طغيانا، رغم أنه إمهال و إملال: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (3: 178) «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 183).

لذلك ترى المؤمنين- على الأكثر- يبلون ببلاء أخف: ضيق المعيشة، و الكفار بما هو أصعب: سعة الرزق، و نرى من يسقط في بلاء السعة، أكثر بكثير من الساقطين ببلاء الضيق: «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (21: 35) و إن بلاء الشر خير من بلاء الخير- ما تحسبه خيرا-: من السعة، و ما تظنه شرا: من الضيق! هنا نلمس لطافة التعبير في ابتلاء الإكرام بالنعمة، و ابتلاء غير الإكرام بالضيق، أنه ليس في قياس الواقع، إنما كما يظنه الإنسان، و لذلك يفنّد كلا التصورين أخيرا:

\*\*\*؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 316

إنها آية متشابهة ترد إلى محكماتها ك: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» (42: 11) «أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ مُحِيطٌ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» (20: 110): ما تصرح أن لا انتقال له مكانا و لا زمانا و لا حيطة و لا علما و لا قدرة، فإنها من صفات المخلوقين.

ثم هي تفسّر بنفسها لمن هو أعمق في النظر، و على حد

قول الإمام الرضا عليه السّلام: «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله»

و أما عالمه فلا يشتبه:

فإن الفعل- أيّ فعل- من أقرب القرائن للمعني من فاعله، كما الفاعل- أي فاعل- قرينة على المعني من فعله، فإذا نسب المجي‏ء إلى من يطير أو يمشي، فهو المعني منه، و إذا نسب إلى ما لا يطير أو يمشي قطعا للمسافات، فالمعني كما يناسبه، ك «جاءت فكرة صديقي إلي و ذهبت فكرتي إليه»: فهذا انتقال غير مكاني، و فيما إذا نسب إلى المجرد عن هذا و ذاك، لتجرد ذاته، و عدم انتقال- أو تكامل- صفاته، إذا يجرّد مجيئه عما يناسب المخلوقين إلى ما يناسب ساحة الربوبية، كمجي‏ء أمره بالحساب و الجزاء، فلقد كان هذا الأمر شأنيا موعودا يوم الدنيا، ثم يتحقق يوم الجزاء، و هذا هو مجي‏ء الرب، لا بذاته، و لا بعلمه و قدرته، إنما بربوبيته، فهو ربّ يوم الجزاء، كما كان ربا يوم الدنيا، إلا أن ربوبيته يوم الجزاء هي الجزاء، و في يوم الدنيا هي التدبير و التكليف، فانتقال شأن الربوبية من وعد الجزاء إلى واقع الجزاء، يعبّر عنه بمجي‏ء الرب ..

و كما الآيات توحي: «فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ» (40: 78) «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ» (16: 33)، فإتيان الرب الإله بأمره هو المعني هنا و هناك، و إتيانه بذاته ليس إلا اقتراح المشركين و انتظارهم: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 317

إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ» (7: 158):

و هكذا يكون دائما دور الصفات و الأفعال المنسوبة إلى اللّه تعالى، أن لزامها تجريدها عما للمخلوقين من أفعال و صفات، تسبيحا لذاته و أفعاله و صفاته عما للمخلوقين: «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

«وَ جاءَ رَبُّكَ» بأمره‏ «وَ الْمَلَكُ» حاملين أمره لتحقيقه‏ «صَفًّا صَفًّا»:

جنود مصطفون مصطفّون‏ «عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ‏ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ».

وَ جِي‏ءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى‏:

هل إن مجي‏ء جهنم هو بروزها؟: «وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ» (26: 91) «.. لِمَنْ يَرى‏» (79: 36) و لأنهم كانوا في غفلة منها و غطاء: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» .. أو أنه مجي‏ء عذابها:

«وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ» (81: 10) بعد أن لم تكن مسعرة؟ أو أنه مجيئها من مكان إلى مكان؟ كلّ محتمل، و الكل أجمل، رعاية الجمع بين شاهد القرآن و السنة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فمن القرآن الآيتان، و من السنة ما

عن أبي سعد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية تغير وجه رسول اللّه (ص) و عرف حتى اشتد على أصحابه ما رأوا من حاله، و انطلق بعضهم إلى علي بن أبي طالب فقالوا: يا علي! لقد حدث أمر قد رأيناه في نبي اللّه، فجاء علي (ع) فاحتضنه من خلفه و قبل بين عاتقيه، ثم قال: يا نبي اللّه بأبي أنت و أمي ما الذي حدث اليوم؟ قال:

جاء جبرائيل فأقرأني: «وَ جِي‏ءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» قال: فقلت: يجاء بها؟ قال: يجي‏ء بها سبعون ألف يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ثم أتعرض لجهنم فتقول: مالي و لك يا محمد! فقد حرم اللّه لحمك علي، فلا يبقى أحد إلا قال: نفسي نفسي، و ان محمدا يقول: أمتي أمتي‏ (الدر المنثور 6: 6: 3، أخرجه ابن مردويه عن الخدري عنه (ص).

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 320

فهذا الخطاب- إذا- مستمر طول الحياة و عند الموت و في القيامة، لكلّ أهله، و كلّ في وقته .. يخاطب المؤمن على طول الخط: في الدنيا لكي يستزيد في رجوعه إلى اللّه، و عند الموت و القيامة ليجزي بما قدّم، و يخاطب الكافر يوم الدنيا ما بقي له أجل للإصلاح، ثم ينقطع عنه هذا الخطاب إلى خطاب آخر:، خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 321

سورة البلد- مكية- و آياتها عشرون‏

[سورة البلد (90): الآيات 1 الى 20]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (1) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (2) وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ (4)

أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً (6) أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ (9)

وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14)

يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (19)

عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)

\*\*\*

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 322

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ. وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ «1»:

هذا البلد هو مكة المكرمة، البلد الحرام الآمن، حسب الشرع و التكوين الإلهي، أكثر من سواه، و رغم مكانته الروحية لا يقسم اللّه به هنا، و علّه فقد حرمته بما استحل أهلوه حرمة الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

«وَ أَنْتَ حِلٌّ»: حلال- بهذا البلد «2»، و إنما حرمته لأنه البلد الحرام الآمن، مطاف الموحدين، و محرم الرسالة القدسية المحمدية، فإذا أصبح مطاف المشركين، و مزار الأوثان، و الرسول حلال فيه: ماله و دمه، أرضه و عرضه، إذا لا أقسم به و لا أحترمه، في حين أقسم به لأنه بلد أمين: «وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» (95: 3) أقسم و لا أقسم من جهتين، دون تنافر بينهما و لا تناحر.

أو: لا أقسم به، تعظيما له فوق العادة، لا لأنه البيت الحرام، إنما لأنك حلّ: حال- بهذا البلد «3». فقد كان المشركون يحترمون البيت لحدّ اللاقسم- احتراما- أو القسم كذلك، ثم يهتكون حرمتك، و أنت الأصل في حرمته، فأنا لا أقسم احتراما لهذا البلد لأنك حلّ: حال- بهذا البلد، و لا أقسم هتكا له لأنك حلّ: حلال فيه مهتوك. فأنت أنت الحرمة كل الحرمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لا أقسم هنا كما في أشباهه، لنفي القسم، و عدم إعادة (لا) في والد و ما ولد- و هو قسم- فيه دلالة زائدة على نفي القسم.

(2)

عن الصادق (ع) في تفسير الآية: «و أنت حلال منتهك الحرمة، مستباح العرض لا تحترم، فلا يبقى للبلد حرمته حيث هتكت.

أقول: و في معناه روايات متضافرة تفسر الحل بالحلال، و لا أقسم، بنفي القسم.

(3) يبعد معنى الحال للحل- لو عني بخصوصه-، فان الحال هو النازل في مكان، و الرسول ما نزل مكة، و إنما كانت مولده و موطنه، و ان الحلول يعبر عنه بما هو أخصر، ك (و أنت في هذا البلد).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 323

لهذا البيت، و كثير هؤلاء الحهال الذين يحترمون الزمان و لا يحترمون صاحب الزمان، و يكرمون المكان و لا يكرمون من به كرامة المكان!.

صحيح أن مكة لها حرمتها فوق البلاد كلها، لكنها ليست إلا لأن يعبد فيها ربها و يكرم رسوله، و تحل مقامة فيها رسالته، و أما إذا كانت مهتوكا فيها حرمة اللّه و رسوله، فهل يا ترى تبقى حرمته، لأحجار وضعت فيها فوق بعض، و أوثان علّقت عليها، و مكاء و تصدية و أمثالها من فضائح!.

أو: و أنت حلّ: حرّ- بهذا البلد، تفعل فيه ما تشاء بالمشركين، الذين استحلوا حرمته و حرمتك، و قد تكون الثلاثة مرادة «1» و ما أجمعها و ألطفها كما هو دأب القرآن، و يعني من حلّه عليه السّلام حريته بما يفعل بالمشركين بعد فتح مكة، فلا أقسم به: لا أحترمه، و أنت خارج عن عقدك الماضية، حرّ فيما تريد بأهله‏ «2».

وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ:

لا أقسم بهذا البلد، و إنما أقسم بمن به حرمة البلد: «والِدٍ وَ ما وَلَدَ»:

آدم و من ولدهم من النبيين‏ «3»، ابراهيم و ولده المعصومين، محمد و ولده الطيبين من صلبه: فاطمة و الأئمة الأحد عشر، من الحسن عليه السّلام إلى القائم عليه السّلام،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و على الثالث: فالواو استئنافية، بخلاف الأولين إذ كانت فيهما حالية، و هنا روايات مستفيضة تؤيد الثالث.

(2) كما

عن سعيد بن جبريل قال: لما فتح النبي (ص) الكعبة أخذ أبو برزة الأسلمي سعيد بن عبد اللّه بن خطل فضرب عنقه و هو متعلق بأستار الكعبة، فأنزل اللّه: «لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ.

وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ» و هو أحد الأربعة الذين لم يؤمنهم النبي (ص)، و روي مثله في معنى الحل عن مجاهد و أبي صالح و قتادة و عطية و الحسن و الضحاك و عطاء و ابن زيد و ابن عباس.

(3) رواه في مجمع البيان عن الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 324

أو من هو وليد عقله الرسالي: علي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كما

قال: ولّدني رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بمناسبة الحال، و أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو مجمع معاني الوالد الروحي، و ولده مجامع فضائل الولادة الروحانية، قد يكونان هما المعنيان من:

«والِدٍ وَ ما وَلَدَ» و يجري في غيرهما من المعصومين جريا على ضوئهما، فقسما بمحمد و عترته الطاهرين المكابدين الكادحين:

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ:

«كبد»: مشقة، فالإنسان مخلوق في كبد و كدح و كدّ «1» و هو لزامه حتى الموت، فإذا رأيت كبدا في هذا البلد، ما لم يره أحد في تاريخ الرسالات، فلك الراحة إذ كان في سبيل الطاعة. دون المكابدين الكادحين الذين يعيشون حياتهم كبدا على كبد، و كدّا على كدّ: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (18: 104).

هؤلاء هم! و أما أنت فمهما بلغ بك الكبد، و مهما تكبدت اتعابا: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً»، و لا يبدل كبدك يسرا ما لم تقتحم العقبة و العقبات عبر الرسالات»، على حدّ

قول الإمام الحسن عليه السّلام: لا أعلم خليقة يكابد من الأمر ما يكابد من الأمر ما يكابد من الإنسان، يكابد مضايق الدنيا و الآخرة «2»،

إن انفصال النطفة من الصلب و الترائب يخلف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الكبد معروفة، و الكبد و الكباد توجعها، و الكبد أصابتها.

(2) تفسير البرهان 4: 463 نقلا عن الزمخشري في ربيع الأبرار، و في الدر المنثور 6: 353، أخرجه ابن المبارك في الزهد، و عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عنه (ع) إلى قوله:

«الإنسان»\*.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 325

كبدا للزوجين رغم اللذة حاله، ثم الخلية الأولى لا تستقر في الرحم إلا بمكابدتها لخلق ظروف ملائمة لحياتها و غذائها، و لا تزال تمارس كبدها في منازلها حتى تنتهي إلى المخرج فتذوق من المخاض ما تذوقه أمها، و قد تصل لحد الاختناق في مخرجها من مكابد الرحم إلى مكابد الدنيا، ثم الكبد لزام الولد بينه و بين الموت، و بعده الراحة لمن كابد في سبيل اللّه، و العاهة لمن كابد في سبيل اللهو.

و الكبد هو العظم- أيضا- فكبد كل شي‏ء عظم وسطه و غلظه، فالإنسان- إذا- مخلوق وسط الخلق و كبده عظيما غليظا، فهو مجبول على شعور العظمة و الكبرياء «1»، كما هو مخلوق في كبد المشقة، كبد على كبد، فكلما كانت العظمة أكثر فالمكابدة على قياسها أكثر.

هذا- و مع أنه مخلوق من ضعف: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ» (30: 54): من مني يمنى حالة الضعف، و على ضعف: «وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً» (4: 28)، فهو حكيم الخلق و عظيمه بين الخلق، و هو ضعيف تجاه التقادير الإلهية، مهما كان عظيم الخلق! و قد ينسى الإنسان أو يتناسى كبد المشقة و الضعف، و يعيش كبد العظمة و الترف، فيضل عن واقعه، فيحسب أن لن يقدر عليه أحد، و أنه يتغلب المقادير بما له اللّبد:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من هذا الكبد انتصاب قامته بخلاف سائر الحيوان، كما

عن حماد بن عثمان قال: قلت لأبي عبد اللّه (ع): إنا نرى الدواب في بطون أمهاتها أيديها الرقعتين مثل الكي فمن أي شي‏ء ذلك؟ فقال: ذلك موضع منخريه في بطن أمه، و ابن آدم منتصب في بطن أمه، و ذلك قول اللّه عز و جل: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ» و ما سوى ابن آدم فرأسه في دبره و يداه بين يديه‏ (نور الثقلين 5: 580).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 326

أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ. يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً، أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ:

و اللّبد هو المال الكثير الذي قد تراكب بعضه على بعض، من لبد الأسد، و كما تتلبد طرائق الشعر و سبائخ القطن، أو بمعنى اللزام الدائب، كأنه من كثرته لا يزول.

فقد يتمنع من الإيمان، و لأنه أهلك ماله اللّبد في الصدّ عن الإيمان، و على حدّ ما يروى عن علي عليه السّلام بشأن عمرو بن عبدود «1»، أو مؤمن يمنّ على اللّه أنه أنفق مالا غزيرا في سبيله، و الإنفاق الحق بلا حساب هو من العقبات التي على المؤمن اقتحامها و لكي يعقّب راحة طويلة.

أ يحسب هذا المتفاخر المتكاثر: «أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ» إذ أعطى ما أعطى و منع ما منع، و صدّ ما صدّ، بلى إن ربه كان به خبيرا، بصيرا به و قادرا عليه.

أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ. وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ‏:

عينان، علّهما البصر و البصيرة، فبعين البصر يبصر الآفاق فيحوّل نتائجها إلى منظار البصيرة، أو هما عينان ظاهران، و آخران سواهما: عين العقل و الفطرة، و هذا قياس الشفتين، و بهذه الأجهزة الأنيقة: «هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين عن الباقر (ع) في: «أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً» قال: هو عمرو بن عبدود حين عرض عليه علي بن أبي طالب (ع) الإسلام يوم الخندق، و قال: فأين ما أنفقت فيكم مالا لبدا، و كان أنفق مالا في الصد عن سبيل اللّه، فقتله علي (ع): «أ يحسب أن لم يره أحد- قال:

في فساد كان في نفسه ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 327

نجدي التقوى و الطغوى، الخير و الشر «1»: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» و النجد هو المرتفع العالي، فإلهام الفجور و التقوى ليس بالأمر المخفي، و إنما كالنار على المنار، و الشمس في رايعة النهار، فكأنه تعالى بفرط البيان لهما قد رفعهما و نصبهما للناظرين، لمن له عينان يبصر بهما و يتبصّر.

فهذه هي الهداية التامة: الاهتداء إلى الخير لنطلبه، و إلى الشر لنخالفه، و هذا السلب و الإيجاب للوصول إلى نجد الصواب، بحاجة ملمة إلى اقتحام العقبة:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ:

العقبة هي المرقى الصعب الملتوي من الجبال، القمم التي عليها النجدان، فلا بد للإنسان المخلوق في كبد، أن يكابد في اقتحام العقبة: رميا بنفسه فيها مهما كانت شديدة مخيفة، فإن أمامها أخوف و أشدّ، و هي بعد اقتحامها حياة سليمة قاضية على كل كبد و إلى الأبد، و القمة العليا من هذه العقبة، هي فكّ رقبة: أن تفك رقبتك من حبائل الشيطان، ثم تربطها بحبل الرحمان، معتصما به حياتك: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا».

فاقتحم بنفسك و نفسك هذه العقبة القمّة، لكي تسهل لك سائر العقبات، و تهون عليك تبعات دنيا الحياة ... تفك رقبتك عن أسر الهوى التي ألهمك اللّه إياها في نجد البشر، ثم تواصل في سبيلك إلى الهدى التي ألهمتها في نجد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 581 و الدر المنثور 6: 353 عن رسول اللّه (ص) أنه قال: أيها الناس هما نجدان، نجد الخير و نجد الشر، فما جعل نجد الشر أحد إليكم من نجد الخير، و الدر المنثور عن علي (ع) مثله، و الكافي عن الصادق (ع) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 328

الخير، و من الخير أن تحاول في فك رقاب الآخرين أيضا، فتعيش الفكّ لنفسك و من سواك، و لتخلق جوّا حرّا عن أسر الشيطان.

أجل: و إن فك رقبة عما سوى اللّه و عمن سواه، هو العقبة، أو أنه اقتحامها، فكّ بالاقتحام، أو فك هو الاقتحام.

فك رقبة، لا عتقها، فعتقها عمل فردي لا يطيقه إلا الأقلون، و الفك أعم من الفردي و الجماعي، فالذي يقتحم العقبة بغية هذا الفك، إذ رآه كافيا لنفسه و سواه فهو، و إلا كان عليه لزام أن يضم إليه الآخرين، و إلى طاقاته طاقات الآخرين، لتحقيق الفك أخيرا، و فك الرقاب هكذا، و من أيسرها عتق الرقيق، ينتج عن فكها عن النار في دار القرار «1» .. عقبة لو تخطاها لوصل، و لو تخلفها فشل، فالإنسان أمام العقبة، بين مقتحم و اصل، و نائم فاشل، و أين و اصل من فاشل؟ و أين مجاهد مكابد من متساهل قاعد، ألا فخففوا عن عقبة الآخرة باقتحام عقبة الدنيا، و على حد تعبير

الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن أمامكم عقبة كئودا لا يجوزها المثقلون، فأنا أريد أن أتخفف لتلك العقبة» «2»

و ليست العقبات هنا إلا في طريق السالكين، و عليها يكون بهر الأنفاس، و شدة الضغاط و المراس، ثم العقبات في العقبى هي للواقفين عن الحراك، و السالكين سبل الهلاك، الذين لم يقتحموا العقبة هناك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين عن أبان بن تغلب عن أبي عبد اللّه (ع) قال: قلت له جعلت فداك قوله:

«فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ» قال: من أكرمه اللّه بولايتنا فقد جاز العقبة، و نحن تلك العقبة التي من اقتحمها نجا، قال: فسكت (ع) فقال لي: فهلا أفيدك حرفا خيرا لك من الدنيا و ما فيها؟

قلت: بلى جعلت فداك، قال: قوله‏ «فَكُّ رَقَبَةٍ» ثم قال: الناس كلهم عبيد النار غيرك و أصحابك، فإن اللّه فك رقابهم من النار بولايتنا أهل البيت.

(2) الدر المنثور 6: 355 عن أبي الدرداء سمعت رسول اللّه (ص) يقول: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 329

أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ:

«أَوْ إِطْعامٌ»: قد تكون «أو»\* هنا للجمع، في المعنى الجامع للرقبة، المسبق، و هي- في نفس الوقت- للتخير المتدرج: أن غير القادر على فك رقبة يطعم، فيحسب له حساب الفك‏ «1».

و المسبغة هي شدة الحاجة و الرغبة إلى الطعام، فإن السغب هو الجوع مع التعب فإطعام اليتيم ذي المقربة: القرابة، و المسكين: الذي أسكنه العدم، ذا متربة: أسكنه على التراب، هذا الإطعام هو من العقبة الواجب اقتحامها للوصول إلى نجد الخير.

ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ:

صبرا عن الشر على نجده، و صبرا على الخير في اقتحام عقبته، تواصيا به كعمل جماعي- لا فردي- به و بالمرحمة: مرحمة الخير على نجده، و هاتان الطاقتان مع الإيمان، هي التي يتطلبه اقتحام العقبة، و محاولة دائبة في تقدم، و لكي يصل السالك إلى قمة الخير ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين عن الإمام الرضا (ع) في الآية: علم اللّه عز و جل أنه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنة.

أقول: لحديث السابق دليلنا على الأول، و هذا يدل على الثاني، و الجمع أجمل فيما يتحمل، أو أن «أو»\* هنا للجمع جمعا بينهما- تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 330

أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ:

الذين عاشوا من الحياة يمينها.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ:

مؤصدة تقصدهم و تأصدهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 331

سورة الشمس- مكية- و آياتها خمس عشر

[سورة الشمس (91): الآيات 1 الى 15]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها (1) وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها (2) وَ النَّهارِ إِذا جَلاَّها (3) وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (4)

وَ السَّماءِ وَ ما بَناها (5) وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها (6) وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها (7) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (9)

وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (10) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (12) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (14)

وَ لا يَخافُ عُقْباها (15)

\*\*\* أقسام ثمانية، ابتداء بمشاهد الكون، الآفاقية: سماوية و أرضية، و انتهاء بنفس الإنسان و الذي سواها، تتقدم على حقيقة ناصعة هي المقصود

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 332

بالأقسام: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» إيحاء بأن الإنسان نسخة كاملة عن كتاب التكوين، بإمكانه أن يعتبر في نفسه بما يشاهده في الآفاق، «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

قسما بالشمس: عامة، و حين تضحى: ترتفع عن أفقها، و هي أروق ما تكون في هذه الفترة و أحلى، و بالقمر إذا تلاها: في طلوعه بعد غروبها، تلوّا في الإشراق منذ هلاله إلى تبدّره و قبيل انمحائه، أم في اكتساب النور، حالا دائبة لا تختص بحال دون حال، فهو يتلو الشمس بنور طفيف شفيف صاف.

و قسما بالنهار إذا جلّى الشمس كما الشمس تجليه، حين تصل إلى وسطه فلا تخفى على الناظرين .. و بالليل إذا يغشى الشمس بنهارها، و السماء و القدرة الخلاقة البانية، التي بنتها، و الأرض و ما حركها و أزالها عن مقرها، و نفس إنسانية و سواها من أمثالها، و ما سوّاها، فألهمها:- أبلعها و أدغم فيها و عرّفها- فجورها و تقواها.

و هل يا ترى إن هذه الكونيات لا تعني- في الأقسام بها- إلا ظواهرها؟

أجل إنها تعنيها و ما يناسب النفس المسوّاة و إلهام فجورها و تقواها، و على حدّ

تأويل الإمام الصادق عليه السّلام إذ سئل عن‏ «وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها» قال: الشمس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم به أوضح الناس عز و جل للناس دينهم‏ «وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها»:

أمير المؤمنين عليه السّلام تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نفثه رسول اللّه بالعلم نفثا «وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها» ذلك أئمة الجور الذين استبدوا بالأمر دون آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جلسوا مجلسا كان آل الرسول أولى به منهم فغشوا دين اللّه بالظلم و الجور فحكى اللّه فعلهم فقال: و الليل إذا يغشاها «وَ النَّهارِ إِذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 333

جَلَّاها»: الإمام من ذرية فاطمة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسأل عن دين رسول اللّه فيجليه لمن سأله فحكى اللّه عز و جل قوله فقال: «النَّهارِ إِذا جَلَّاها» «1».

أقول: و من هنا يظهر الوجه في اختلاف الماضي‏ «إِذا جَلَّاها» عن المضارع‏ «إِذا يَغْشاها»: فإن ضحى الشمس المحمدي غشيّ في مستقبل عتيد، و يستمر: بالليالي الظلماء من دويلات الجور، و إلى أن يسفر صبح الدولة المحمدية من جديد في زمن القائم المهدي عليه السّلام فإن نهار دولته سوف يجلى شمس الرسالة المحمدية بعد غروبها، و يجعلها أكثر مما كان و أوسع مما كان «أين محيى معالم الدين و أهله. أين قاصم شوكة المعتدين. أين هادم أبنية الشرك و النفاق!».

قسما بهذه الآيات الكونية، و المحاولات الإيمانية و اللاإيمانية، و بالسماء معدن الرحمة، و الأرض قابلها: كسماء الوحي و أراضي القلوب الواعية، و قسما بالنفس و الذي سواها، كنموذج شامل كامل عن كائنات الوجود كلها، الجامع فيها ظلم الليل المغشّي، و نور النهار المجلّي- قسما بهذه و تلك و هؤلاء:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها:

و المعني من النفس الملهم فجورها و تقواها- هنا بين معانيها- هو الروح ككلّ، دون الجسم: «خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ» (4: 1) و لا الأمارة بالسوء:

«إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» (12: 53) و لا اللوامة: «وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» (75: 2) و لا المطمئنة: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» (89: 27) و هي كلها من شؤون الروح، كما القلب و الصدر و العقل و اللب و أمثالها، هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 585 عن روضة الكافي جماعة عن سهل عن محمد عن أبيه عن أبي محمد عنه (ع)، و رواه القمي عن سليمان الديلمي عن أبي بصير عنه (ع) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 334

أيضا من شؤونها، فقد ألهمت النفس الروح فجورها: «النفس الأمارة» و تقواها (اللوامة و المطمئنة- العقل).

فهنا النفس بين تزكية و تدسيس، ففلاح أو خيبة، و رغم أن فجورها أقرب إليها من تقواها، و كما توحي إليه آيتها: «فُجُورَها وَ تَقْواها»: قربا جسدانيا حيوانيا، و لكنما العقل- و هو الحيوية الإنسانية- إنه أقرب إليها كإنسان، و إن معركة العقل و النفس لهي من العقبات التي لزام الإنسان أن يجتازها فائرا عاقلا، لا فاشلا جاهلا.

و واقع الفلاح و الإصلاح ليس إلا بتزكيتها، مستجيرا باللّه، و على‏

قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها و مولاها، و زكها أنت خير من زكاها» «1».

و المزكي الأول للنفس هو المحاول لأن يتزكى، ثم اللّه يؤيده في تزكيها:

مَنْ زَكَّاها»: زكى نفسه، فزكاها ربه، و كذلك التدسيس على سواء، و هو من اللّه الختم و سلب التوفيق، و كما عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «2».

و التزكية هي الإنماء، و التدسيس هو الإدغال و إدخال شي‏ء في شي‏ء بضرب الاحتيال، فتزويد النفس بتقواها هو تزكيتها، و إدغالها هو تدسيسها، و كلاهما من الإنسان، ثم من اللّه كما يناسب عدله و فضله.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 356 عن ابن عباس و زيد بن أرقم و أنس و أبو هريرة قالوا: كان رسول اللّه (ص) إذا تلا هذه الآية «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» يقول: ..

(2)

الدر المنثور 6: 357 عن ابن عباس سمعت رسول اللّه (ص) يقول: قد أفلح من زكاها:

أفلحت نفس زكاها اللّه، و خابت نفس خيبها اللّه من كل خير.

أقول: فالضمير في «زكاها و دساها» راجع إلى النفس و إلى اللّه، من زكاها هو- من زكاها اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 335

و ليؤخذ مثالا لتدسيس النفس قصة ثمود، في تكذيبها و طغواها و الدمدمة الإلهية التي دمرتهم.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها. إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها. فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها. وَ لا يَخافُ عُقْباها:

طغوى في قولهم «فكذبوه»\* و عمليا «فَعَقَرُوها» و الخيبة التي لحقتهم من هذه الطغوى هي الدمدمة الربانية: «وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها ..» (11: 68) «إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فكانوا كهشيم المحتضر» (54: 31) و هذه هي الدمدمة، فجرس اللفظ يوحي بجرس المعنى الواقع.

إن عاقر الناقة كان واحدا هو المنبعث فيهم: «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها» و صاحبهم الذي نادوه لهذه الجريمة: «فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى‏ فَعَقَرَ» (54: 29): أخذ عنهم سيفهم و نحر، فرغم أنه وحده كان العاقر الناحر، ينسب العقر إليهم أجمع.

«فَعَقَرُوها» «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» (7: 77) «فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ» (11: 65) «فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ» (26: 157).

فلما ذا ينسب العقر إليهم و هم منه براء؟ لأنهم نادوه، و أعطوه سيفهم، و بعثوه للجريمة، فأشركهم اللّه فيها و عذبهم بها، و صاحبهم أشدهم عذابا و أنكى،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 336

و هو

«أشقى الأولين: أحيمر ثمود، رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة» «1»،

كما أن ابن ملجم أشقى الآخرين على حد قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الدر المنثور 6: 357 عن النبي (ص).

(2)

نور الثقلين 5: 587 قال رسول اللّه (ص) لعلي (ع): من أشقى الأولين؟ قال:

عاقر الناقة، قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت: لا أعلم يا رسول اللّه! قال:

الذي يضر بك على هذه، و أشار إلى يافوخه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 337

سورة الليل- مكية- و آياتها واحد و عشرون‏

[سورة الليل (92): الآيات 1 الى 21]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى‏ (1) وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2) وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى‏ (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى‏ وَ اتَّقى‏ (5) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى‏ (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى‏ (7) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى‏ (8) وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى‏ (9)

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى‏ (10) وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى‏ (12) وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى‏ (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (14)

لا يَصْلاها إِلاَّ الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (16) وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى‏ (19)

إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى‏ (20) وَ لَسَوْفَ يَرْضى‏ (21)

\*\*\*

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 338

أقسام بشتى الخلق، و خالقه، الناحي منحى واحدا هو الصلاح و الإصلاح، لتدل الخلق على وجوب تخلقهم بأخلاق اللّه، و اتجاههم- في مساعيهم الشتات- جهة الصلاح و الإصلاح، و لكنما النفوس- على شتاتها- ليست لتلتقي في سعيها على ملتقى واحد، و إنما هي صفان يتجهان، إما إلى الخير أو إلى الشر، ففي شتات السعي، و شتات المناهج و الغايات و الاتجاهات، ليس إلا النجدين، خيرا و شرا، نفعا و ضرا.

و على الإنسان النابه البصير أن يدرس في شتات سعيه، من كائنات الوجود، و يوحّد هدفه و اتجاهه إلى الوجهة الموحدة لها، هي السعي إلى مرضاة اللّه.

فلندرس من الليل- إذا يغشى النهار و الأفق، و يخفي ما فيه- ندرس درسه الصالح من إخفاء العيوب، و غشي النهار لصالح الراحة، لا من غاسقة إذا وقب، و استغل ظلامه للشرور.

و لندرس من النهار إذا تجلى: أسفر عن ظلم الليل- ندرس درسه الصالح من المحاولة في تجلي الفطرة بصفائها، فتجلي صاحبها في شتات المجالات الحيوية جلواتها الإنسانية.

و لندرس من ربنا الخالق الذكر و الأنثى، الهادف وحدة الحياة الإنسية من هذين المختلفين المتناحرين حسب البنى و الطاقات الجسدانية و العقلية.

لندرس دروس الإعطاء و الاتقاء و التصديق بالعقيدة الحسنى و الحياة الحسنى، و لكي نتيسر لليسرى، و لا نكون ممن بخل و استغنى و كذب بالحسنى فنيسّر للعسرى.

«فَأَمَّا مَنْ أَعْطى‏»: نفسه و نفيسه‏ «وَ اتَّقى‏»: في هذا العطاء ما يجب إنسانيا أن يتقى‏ «وَ صَدَّقَ»: بالعقيدة و الحياة «بِالْحُسْنى‏»: أحسن مراحل الحياة، و هي الأخرى. «فَسَنُيَسِّرُهُ»: ذاته و كيانه بأعماله و أحواله‏ «لِلْيُسْرى‏»:

الحياة الطيبة اليسرى: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 339

حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (16: 97) ثم و لا أ تختص اليسرى بالحياة الأخرى، فهي تشمل الآخرة و الأولى، و مهما كانت في لأولى مشوبة، فهي في الأخرى خالصة: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» (7: 32).

«وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ»: العطاء، «وَ اسْتَغْنى‏»: عن الاتقاء، و أخذ حريته في حيونة الحياة «وَ كَذَّبَ» بالحياة و العقيدة «بِالْحُسْنى‏، فَسَنُيَسِّرُهُ»: ذاته بماله‏ «لِلْعُسْرى‏»: حياة قصيرة عسرة ضنك هنا، ثم حياة دائبة عسيرة ضنك هناك:

«وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ..» (20: 124). «وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ» في تحسين الحياة هنا و هناك‏ «إِذا تَرَدَّى»: سقط من عل في شيطنة الحياة هنا، و عند العرض و الحساب هناك، فليس المال بمنجّيه من تبعات الأحوال و الأعمال، اللهم إلا الإعطاء و الاتقاء و التصديق بالحسنى.

إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى‏:

فرض فرضه اللّه على نفسه: «كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» الرحمة و الهدى بوجها النجدين‏ «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ»: هدى في العقول و الفطر، و هدى بكائنات العالم، و هدى بالنبيين و الكتب، و هي كلها هدى الدلالة، ثم هدى التوفيق لمن آمن و اهتدى: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً» (18: 13).

وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى‏:

فلا يحسبن الذين كفروا أن لهم الأولى يفعلون فيها ما يشاءون، «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً» (17: 18) .. و إنما تختلف عن الأخرى أنها حياة التكليف و الابتلاء، و الأخرى حياة الجزاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 340

«فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى. لا يَصْلاها»: لا يوقدها «إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» فله صليها و إيقادها، و للشقي وردها و الاتقاد بها، فإنهما ليسا على سواء، فالمتبوع هو الجحيم بذاته، و التابع يحرق بجحيمه.

وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى. الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى‏:

لا يقرب إليها عذابا لأنه الأتقى: «الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ»: ماله، و ما- له «يتزكى»\* فحياته كلها إيتاء و عطاء في سبيل اللّه، فحق له أن يجنبها، و لكنما التقي غير الأتقى، الذي اقترف ما ينافي التقوى أحيانا، إنه قد يمسه العذاب تخليصا له عن الدرن، عذاب الدنيا، ثم البرزخ، ثم القيامة، ثم مصيره إلى الجنة، فعذاب غير الأتقى درجات، بقدر ما خالف التقى.

إذا، فالآيات هنا تقسيم ثنائي إلى من محّض الإيمان محضا: «الأتقى» و من محض الكفر محضا: «الأشقى»\* و بينهما درجات بين الجنة و النار، و مصيرهم الجنة أخيرا، و على حدّ

قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شرد البعير على أهله».

هذا الأتقى يؤتي ماله دون ابتغاء جزاء ممن آتاه، أو شكور، فليس لأحد عنده من يد أو نعمة يجزى بها: «وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى‏» فليس عطاؤه و إيتاؤه ابتغاء شي‏ء من مال الدنيا و منالها: «إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى‏».

ثم اللّه هو الذي يرضيه بما يجزيه: «وَ لَسَوْفَ يَرْضى‏»: يرضى بواقع الرضا يوم الجزاء، بعد ما كان راضيا عن ربه أمل الواقع يوم الدنيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 341

سورة الضحى- مكية- و آياتها احدى عشر

[سورة الضحى (93): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ الضُّحى‏ (1) وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى‏ (2) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏ (3) وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى‏ (4)

وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى‏ (5) أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى‏ (6) وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدى‏ (7) وَ وَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى‏ (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (9)

وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

\*\*\* تقول الروايات أن الوحي انحبس عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ردحا من الأيام، فقال المشركون: إن محمدا ودعه ربه و قلاه، و قالت خديجة أم المؤمنين: لعل ربك قد تركك! يقوله المشركون هزءا، و المؤمنون ترحما، و لقد أغتم النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غما شديدا و كان حقا له إذ يراه بعيدا عن زاده الوحيد و روحه الأليفة الأنيسة في وعثاء السفر و لأواء التكذيب و التأنيب، و عن ريّه في هذه الهاجرة المحرقة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 342

و الأذى المنصبّ على الدعوة، فقد انقطع عنه ينبوع الماء: الحياة الرسالية القدسية، منزعجا بين العدو و الحبيب، فما ذا يصنع إذا؟

كان في حالته تلك المزرية المضرعة، إذ بدر الوحي الحبيب بعد انمحائه و انقطاعه، مسليا خاطره الشريف أن الوحي لم ينقطع بدافع الودع أو القلى، و إنما لحكمة، كما في الليل إذا سجى، فقسما بوجهي الزمان: ضحى النهار:

وسطه و رائعته، و سجى الليل: غسقه و منحدره، «ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏» فكما الضحى رحمة، كذلك الليل إذا سجى، كلّ من جهة، مهما خفيت حكمة الظلمة على الهائمين للضحى.

صحيح أن ضحى الوحي هي الحكمة كلها، و هي الحياة الرسالية كلها، و هي الزاد و المبدأ و المعاد، و لكنها بحاجة في استمراريتها- و لكي يثبت الشاكون على حقها- بحاجة إلى زاد الليل إذا سجى، فسجى الوحي و انقطاعه لفترة، زاد لضحى الوحي و اتصاله، فناكر الوحي يتنبه أنه ليس منك و لا من شيطان، و إلا فلما ذا ينقطع، أ رحمة منه و منك في التضليل؟ و المؤمن بالوحي ينتبه أنك- لا تزال- بحاجة إلى ربك، دون استغناء عنه و لا لحظة، فلو شاء لقطع عنك رحمته: «وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً» فاعتبار أنه كتب على نفسه الرحمة، و لا سيما لك خاصة، فليس يقطع عنك وحيه، لا قطع وداع بانقضاء دوره، فلا ينتهى إلا بانقضاء عمرك، و لا قطع القلى- و بالأحرى- بانقطاع صلوحك للوحي و أنت حي، ففيه إزراء بالموحي و الموحى إليه: بالموحي كيف لم يعرف نبيّه إذا ابتعثه و انتجبه، فلم يعرف أنه لا يصلح لحمل الرسالة الأخيرة حتى النفس الأخير، و بالموحى إليه، كيف ينقطع عنه قبل انقطاع حياته، رغم أن وحيه حياته، فبه يحيى و عليه يموت، أو كيف يعزل عن منصب الرسالة؟ الجرم أو خطيئة اقترفها، فجاء الجواب الحاسم للصديق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 343

و العدو: «ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏» و إنما ترك الوحي بغير وداع و لا قلى، و إنه لحكمة عالية: هي الحجة على الناكرين النافرين، و انتباه و تثبيت للنبي و المؤمنين، «ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏»: ليس الوحي عن هوى نفسه و لا هوى عقله و لا هوى سواه، إلا ربه، و إلا فلما ذا ينقطع؟

و تضليل الهوى- أيا كان- ليس لينقطع! قد انقطع عنه الوحي ردحا من الأيام‏ «1»، و لأن اليهود سألوه عن الروح و ذي القرنين و أصحاب الكهف‏

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سأخبركم غدا،

و لم يقل إن شاء اللّه فاحتبس عنه الوحي، و ليدل اليهود أنه لا يقول من عنده، و ليدله أنه ليس بيده شي‏ء حتى وعد الجواب، فكيف بوحي الجواب، و إنما هو رسول، و إذا يعد فبإذن اللّه و مشيئة اللّه: «وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ» (18: 24).

وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى‏:

إيناس ثان لقلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المقروح: إن الحياة الآخرة خير لك من الأولى، لك و لمن نحا نحوك و دخل حزبك، و أين آخرتك من أولاك؟:

فأنت في الأولى في بلاء و ابتلاء و عيشة منغصة مشوبة بألوان المتاعب و المصائب، و إن كنت في راحة ضميرك أنك أديت الرسالة، و أنت في الآخرة في رحمة و راحة خالصة.

ثم إن لك عطاء من ربك قدر رضاك هنا و هناك: فهنا سوف يوحى لك خاتمة الوحي الذي لم يوح إلى أحد، و الذي سوف لن يوح إلى أحد، و هناك:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اختلفت الروايات انه يومان 1 و 3- 4- 12- 15- 25- 40 يوما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 344

في البرزخ و المعاد سوف يعطيك ربك ما يرضيك، و ينسيك أتعابك في سبيل مرضاته، فيتوّجك تاج الكرامة بين المكرمين و فوقهم، تاج الشهادة و الشفاعة:

وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى‏:

فهل إن الرسول ما كان راضيا عن ربه حتى يرضيه بعطائه رضى العبيد؟

نقول: إنه كانت حياته الرضا عن اللّه، و لكنه لما أحتبس عنه الوحي ظنّه عن تقصير منه أو قصور، فسخط على نفسه، ثم بعطاء الوحي بعد انقطاعه رضي، و ثم بهذه الكرامة الوحيدة له من ربه زاد من ربه رضى، فإن اللّه يعطي من يعطيه كما يرضى هو، لا المعطى له، و هنا الرسول يختص بهذه المكرمة الربانية، أن أصبح عطاء اللّه له كما يرضاه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تخصيصا له عن جميع الصالحين!، و هنا تمتاز آخرته عن سواه ميزة أخرى: «فترضى» كما أوحى إليه: «خَيْرٌ لَكَ» خيرية خاصة لك دون من سواك! و

قد روي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله‏ و سلّم أنها الشفاعة «1»،

و لا ريب أنها من رضاه و من أعلاه و أولاه، شفقة على أمته الذين تؤهل لهم، لا المسمون بها و ليسوا منها.

أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى‏. وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى‏. وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى‏.

فالذي آواك بعد يتمك، و هداك بعد ضلالك، و أغناك بعد عيلولتك، هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 361 عن حريب بن شريح عن الباقر (ع) ان أرجى آية في كتاب اللّه‏ «وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى‏» و هي «الشفاعة»

و

فيه ايضا عن جابر بن عبد اللّه قال: دخل رسول اللّه (ص) على فاطمة و هي تطحن بالرحى و عليها كساء من حملة الإبل فلما نظر إليها قال:

يا فاطمة! تعجلي فتجرعي مرارة الدنيا لنعيم الآخرة غدا، فأنزل اللّه‏ «وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 345

الذي يجدد لك عهد الوحي بعد انقطاعه- و أحرى- و يعطيك فترضى، فما هو يتمه و ضلاله و عيلولته؟.

لقد كان النبي يتيما بكل معانيه: منقطعا عن أبويه، إذ توفي والده قبل ولادته، و توفيت أمه بعد ستة أشهر، فآواه اللّه إلى جده عبد المطلب و إلى عمه أبي طالب فكفلاه خير كفالة، و كان يتيما: منقطعا عن النبوة و الرسالة فآواه إليهما، ثم يتيما عن الوحي إذ انقطع عنه فآواه، و يتيما: منفردا بين الناس فآوى الناس إليه، فلقد أزال عنه يتمه أيا كان.

«وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى‏»: ليس هو الضلال عن الدين: «ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى‏» إذ إنه ولد ديّنا مؤيدا من عند اللّه مهما اختلفت درجاته قبل النبوة و بعدها، أجل- ليس ضلالا عن اصل الهدى، و على حد

قول أمير المؤمنين في الخطبة القاصعة: «و لقد قرن الله به صلى الله عليه و آله و سلم من لدن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره».

و للضلال هناك معان عدة، أضلها ضلاله عن الدين، فلا يصدّق عليه حيث القرآن و العقل لا يصدقانه عليه، و إليكم منها معان:

1- وجدك ضالا عن وحي الإسلام و نبوته، فهداك اليه، ضلالا عن الهداية الفعلية بوحي القرآن، لا عن كل هداية و أبسطها: «ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (29: 48) «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ» (11: 49) وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» (4: 113) «وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا» (42: 52).

أجل: إنك كنت ضالا عن هذا الهدى، لا عن كل هدى، فلقد كنت أهدى الناس قبل وحي القرآن، بما كان يسلك بك روح الأمين محاسن أخلاق العالم ليلك و نهارك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 346

2- وجدك ضالة الناس، و كما الحكمة ضالة المؤمن، فما كانوا يعرفونك، فهداهم إليك بما أرسلك برسالة الإسلام.

3- وجدك ضالا: فريدا في الناس، كما الشجرة في الفلاة تسمى ضالة، و لقد كانت أرض الجزيرة قاحلة لا ماء فيها و لا كلأ، بلا شجرة إنسانية تحمل ثمار العلم و الإيمان، و أنت الشجرة الطيبة الضالة في هذه المغارة، فهدى الناس إليك‏ «1».

4- وجدك ضالا عن المعرفة حينما ولدت فهداك اللّه بالغزير منها، ثم بعد ما فطمت أيدك بأعظم ملائكته، إلى أن ابتعثك رسولا إلى العالمين، و هنا وجوه أخرى‏ «2».

هذا- رغم جماعة من المبشرين و المستشرقين الضالين الذين يحاولون ليثبتوا الضلال عن الدين- قبل الرسالة- على الرسول الصادق الأمين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في البرهان 4: 473 عن الامام الرضا (ع) في مجلس المأمون، و في نور الثقلين 5: 596 عن الإمامين الصادق و الرضا (ع) كما يأتي.

(2) و لقد ضل عن الطريق مرات عدة فهداه اللّه إلى نجده كما يقول: ضللت عن جدي عبد المطلب و أنا صبي ضائع كاد الجوع يقتلني فهداني اللّه، و كان يقول جدي: يا رب رد ولدي محمدا أردده ربي و اصطنع عندي يدا، فما زال يردد هذا البيت حتى أتاه ابو جهل على ناقة و بين يديه محمد (ص) و هو يقول: ما ادري ماذا نرى من ابنك! فقال عبد المطلب و لم؟ قال: اني أنخت الناقة و أركبته من خلفي فأبت الناقة ان تقوم، فلما أركبته أمامي قامت الناقة كأن الناقة تقول: يا أحمق هو الامام فكيف يكون خلف المقتدي، قال ابن عباس: رده اللّه الى جده بيد عدوه كما فعل بموسى عليه السّلام.

و خرج مع غلام خديجة ميسرة، فأخذ الغلام بزمام بعيره حتى ضل عن الطريق، فهداه اللّه بجبرائيل ان جاء بصورة آدمي فهداه إلى القافلة.

و ابو طالب خرج به إلى الشام فضل عن الطريق فهداه اللّه إلى القافلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 347

شريعة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبل الإسلام‏

: و هنا الجدير بالبحث أن يعطف إلى شرعة الرسول قبل وحي القرآن: هل كان متحللا عن أية شريعة، يعبد ربه بلا شرعة و منهاج؟ أم دون أية عبادة كذلك؟ أم كان متعبدا بشرعة تخصه؟ أم مهديّا إلى شريعة الإنجيل المحكّمة قبل شريعة القرآن؟ أم شريعة موسى أم إبراهيم أم نوح؟ أم ماذا؟.

الوجه الذي نعقله و بالإمكان أن نقبله، هو انه كان متعبدا بشرعة صالحة لزمنه، غير محرفة- أيا كان- لأن اللّه اصطفاه أخيرا لخاتمة الرسالات‏ «وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ» (38: 47) «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ» (3: 33) فليكن- إذا- خير الناس أجمع قبل رسالته، فهل يا ترى كيف يصطفى هكذا و هو متحلل عن الشرائع كلها، أو متعبد بشريعة منسوخة زمنه؟ فلتكن شرعته هي شرعة التوراة الصحيحة حسب الإنجيل الصحيح الحاكم زمنه، و هذا لا يتيسر إلا بتأييد اللّه بإيحاء ملك الوحي، إذ لم يكن يكتب أو يتلو كتابا قبل وحي القرآن، و لم يدرس عند أحد من علماء الكتاب كما القرآن يصرح، و لم يكونوا صالحين لذلك، و ليس نقصا للرسول أن يتبع قبل رسالته شرعة غيره من المرسلين، إذ الشرائع كلها للّه، و ليس الرسل إلا وسائط البلاغ، إضافة إلى إمكانية وحي الإنجيل اليه فذا كما أوحي إلى المسيح، نبيان أوحي إليهما سواء.

و وجه آخر عله أسلم، أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يسترشد بملك الوحي الذي قرن اللّه به من لدن كان فطيما يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم، ما يحمل وظائفه الخاصة به، و لا تنافيه الآية: «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ» (42: 52) إذ يعني به الإيمان الموحى إليه برسالة القرآن، و الكتاب كل كتاب، فما كان يدري ما القرآن و الإيمان القرآني قبل نزوله، على أنه كان مؤمنا قبله بالواجب عليه حينه بإيحاءات ملك الوحي، فما كان يدري ما الإيمان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 348

- مطلق الإيمان- لو لا الإيحاء، حيث الشرعة الموحاة إليه ما كانت تنال إلا بالوحي، دون المحاولات البشرية، و لا سيما في الفترة الفوضى التي مضت على كتابات الوحي، فما كان محمد كبشر، ليدري ما الكتاب و لا الإيمان، إلى أن أوحي إليه بالإيمان، و ثم أوحي إليه الكتاب القرآن: «وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (42: 52).

إذا فالرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان نبيا، قبل رسالته بوحي القرآن، نبيا لنفسه، إن بوحي الإنجيل، أم وحي آخر يخصه دون سواه، و كما

يروى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين»

فنبوته قبل ولادته هي الميثاق الذي أخذ له على النبيين أجمع: «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» و هي منذ ولادته إلى بعثته، نبوته الواقعية الشخصية، و من بعثته رسالته العالمية و إلى يوم الدين، و هنا أخبار تعمه و أخرى تخصه بتأييد إلهي منذ ولادته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1» مما يوحي إلى نبوته الخاصة قبل رسالته.

وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى‏»: عائلا من حيث المال و الحال‏ «2»، و من ذويه الأقربين و من الناس أجمعين، فأغناه اللّه و كفاه عب‏ء هذه العيلولة.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ:

آوه كما آويتك، و لا تقهره كما لم تقهر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منها اخبار مستفيضة انهم مؤيدون من بداية أمرهم، و صحيحة الأحول القائلة: نحو ما كان رأي رسول اللّه (ص) من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرائيل من عند اللّه بالرسالة، و المستفيضة القائلة: ان اللّه لم يعط نبيا فضيلة و لا كرامة و لا هجرة إلا و قد أعطاه نبينا.

(2)

نور الثقلين 5: 595 عن تفسير العياشي عن الامام الرضا (ع) في قوله: ألم يجدك يتيما فآوى، قال: فردا لا مثيل لك في المخلوقين فآوى الناس إليك، و وجدك ضالا: اى ضالا لا يعرفون فضلك فهداهم إليك، و وجدك عائلا: تعول أقواما بالعلم فأغناهم اللّه بك، و روى القمي عن الامام الصادق (ع) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 349

وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ:

كما سألتني فما نهرتك، و قد أعطيتك ما لم أعط أحدا من العالمين.

وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ‏:

تحديثا باللسان، و بالجوارح و الجنان، و بالأعمال، فعش حديثا لنعمة ربك، كما عاشتك نعمته.

نعمة ربك، لا (نعمة) إذ يعنى منها نعمة الرسالة القدسية، فسواها بالنسبة له لا يحسب له حساب‏ «1»، ثم كضابطة عامة على كل منعم عليه أن يظهرها و يتظاهر بها موحيا أنها من اللّه، تمجيدا له لا لنفسه، و كما عن الصادقين (ع) «2»، فالخيرات كل الخيرات، عقلية و علمية و معرفية و إيمانية، أو- و مادية، يجب إظهارها كما يحب اللّه، إظهارا لمكرمته تعالى، لا تكاثرا و تفاخرا و إزراء للفاقدين لها، فإن بذلها كما يمكن، من إظهارها، و صرفها فيما يجب كذلك، و هكذا يؤول ما يؤثر عن تعريفات المعصومين (ع) بأنفسهم، فإنها من تحديث نعمة اللّه، و لينتفع بها عباد اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في محاسن البرقي عن الامام الحسن (ع) في الآية قال: امره ان يحدث بما أنعم اللّه عليه من دينه.

(2) كما

في نور الثقلين 5: 601 عن الصادق (ع) قال‏ إذا أنعم اللّه على عبده بنعمة فظهرت عليه سمي حبيب اللّه، محدث بنعمة اللّه و إذا أنعم اللّه على عبده بنعمة فلم تظهر عليه سمي بغيض اللّه مكذب بنعمة اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 350

سورة الانشراح- مكية- و آياتها ثمان‏

[سورة الشرح (94): الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (4)

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6) فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَ إِلى‏ رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

\*\*\* استفهامات تقريرية تقرر للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نعما عدة، إيجابية و سلبية، و عند الفراغ عن مهمة الرسالة يطلب اللّه منه أن يستمر بها فيمن ينصبه مقامه، ثم يرغب إلى ربه مؤديا ما عليه.

أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ‏:

فقد شرح اللّه صدره- لأول ما شرح- بملازمة أعظم ملك من ملائكته،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 351

ثم بوحي القرآن، ثم بمكافحة المعارضين‏ «1»، فإن الشرح هو الانفتاح و مقابله الضيق، و الصدر هو صدر الروح، و هو الوسيط بين العقل و القلب، يأخذ من العقل و ينقل إلى القلب، و هو في الصدر: «الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» فانشراح العقل و تفتّحه يفضي إلى انشراح الصدر و القلب، و كذلك ضيقه و عماه إلى ضيقها و عماها: «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (22: 46) و قد يعبر عن ضيق الصدر أيضا بالانشراح: تفتّحا للكفر:

«وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ» (16: 106).

فصدر الرسول الأقدس- و هو صدر الصدور- كان أشرح الصدور بين حملة الرسالات الإلهية، تلقّى الوحي أكثر ما يمكن، و لاقى و عانى في سبيل البلاغ أشد ما يمكن، و هو منشرح الصدر: يستقبل الصعوبات في وعثاء السفر بكل رحابة صدر دون أن يقف لحد.

وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ‏:

و هذه نعمة أخرى في سلبيتها، و كونها نعمة تتلو انشراح صدره، يوحي إلى المعني من وزره، أنه: ما كان يعانيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الأمور المستصعبة، و المواقف المخطرة في أداء الرسالة، و تبليغ النذارة، و ما كان يلاقيه من مضار قومه، و يتلقاه من مرامي ايدي معشرة، و كل ذلك حرج في صدره و ثقل على ظهره، فقرره اللّه تعالى أن أزال عنه تلك المخاوف كلها، و حط عن ظهره تلك الأعباء بأسرها، فنجاه من أعدائه، و فضله على أكفائه و قدم ذكره على كل ذكر،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما تشير إليه الآيات: «كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» (7: 2) «فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَكِيلٌ» (11: 12) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» 15: 98).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 352

و قدره على كل قدر، حتى أمن بعد الخيفة، و اطمأن بعد القلقة، «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً».

أجل: و إن ظهر الرسالة المحمدية كانت- لو خليت و طبعها- منقضة:

مقعقعة العظام من حملها، مرضوضة من ثقلها، حتى وضع اللّه ذلك الوزر، بوزير من نفسه القدسية: من صدره المنشرح، و بصيرته النافذة، و صموده القويم، و عقله المستقيم ... و بوزير هو كنفسه: علي أمير المؤمنين عليه السّلام الذي عرّفه عشرات المرات: أنه وزيره و أخوه و نفسه و مثيله‏ «1».

هذا هو الوزر الموضوع عنه، لا ما يظنه الجاهلون أو المعاندون، أنه الذنب العظيم، زعما أنه المعني منه لغويا و ليس به، إنما الوزر ما يثقل و يتعب، ظهر الروح أو الجسم، فإن كان بحساب الآخرة كان عصيانا، و إن بحساب الدنيا كان طاعة، فإن مرضاة اللّه تبتغى بالأتعاب و الحرمانات يوم الدنيا، وزرا في الدنيا و راحة في الآخرة، عكس سخط اللّه.

ثم الامتنان هنا يشهد، و تأخر الوزر عن شرح الصدر يشهد، ثم اللّه شهيد مع هؤلاء الشهداء و قبلها: أن وزره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنما هو وزر الرسالة القدسية، بحملها و حملها و أعبائها و بلاغها!.

فلو كان ذنبا لم يمتن به عليه، و لو كان غفرا لذنبه لقال: و غفرنا عنك وزرك، و لكان مقدما على انشراح صدره، فإنه لا ينشرح إلا بعد انمحاء الذنوب، تحلية بعد تخلية.

ثم في وزر الرسالة، ليس وضعه عزله عنها، فهذا إهانة و ليس مكرمة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (علي و الحاكمون) باب الوزارة و أمثالها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 353

و كذلك عزله عن بعضها، إذا فهو تخفيف حمل الرسالة بوزير من نفسه و وزير كنفسه‏ «1».

و قد رفع اللّه ذكره بهذا الوزير لحدّ اعتبره شاهدا منه: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ» (11: 17) و رفع ذكره مع اللّه من على المآذن أوقات الصلاة «2» و رفعه قبل مولده و مبعثه في كتابات النبيين من قبل، فأصبح رفيع الذكر حياته و قبلها و بعدها، و يا له من ذكر لزاما لذكر اللّه! و كما

عن الرسول عن اللّه: «إذا ذكرت ذكرت معي» «3».

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً:

و على حدّ

قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ لن يغلب عسر يسرين‏ «4»،

و هنا تعريف العسرين يوحي أنهما واحد، حيث الثاني يشير إلى الأول، كما أن تنكير يسرين دليل أنهما اثنان، إذ لا إشارة حيث لا عهد مسبقا:

فمع عسر الرسالة في وزرها يسران هما: انشراح صدره و وضع وزره، و إذا اعتبرا واحدا فثانيها يسر الحشر و أولاه وضع الوزر و شرح الصدر، يجمعهما ارتياح ضمير الرسول أن بلّغ ما عليه، و هكذا يكون دائما عسر المؤمن مكافحا بيسرين في الدنيا و في الدارين، و ما عند اللّه خير و أبقى.

و المعية هنا «مَعَ الْعُسْرِ»: توحي بواقع اليسرين حال عسرهما، أما يسر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 603 عن بصائر الدرجات عن الصادق (ع) في الآية قال: ولاية أمير المؤمنين (ع).

(2)

الاحتجاج عن الامام الحسين (ع) في حديث: فلا تتم الشهادة إلا أن يقال: اشهد أن لا إله إلا اللّه و اشهد ان محمدا رسول اللّه ينادى على المنار، فلا يرفع صوت بذكر اللّه عز و جل إلا رفع بذكر محمد (ص) معه.

(3) الدر المنثور 6: 364- ابو سعيد الخدري عنه (ص) عن جبرائيل ان ربك يقول:

(4) رويت عنه مستفيضة كما في الدر المنثور و الطبري و البرهان و نور الثقلين على سواء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 354

الدنيا فارتياح ضمير المعسر في اللّه، و يتبعه واقع يسره فيها، و أما يسر الآخرة فهو أيضا واقع مهما كان خفيّا، و لكنه يظهر يوم الجزاء.

و إذا أردت مكافأة بهذه المكرمات، فإنها ليست إلا أن تستمر بها لما بعدك، كما كنت تعيشها حياتك أيها الرسول! فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَ إِلى‏ رَبِّكَ فَارْغَبْ‏:

فما الفراغ هنا؟ و ماذا ينصب بعد الفراغ؟

ليس الفراغ هنا عن الصلاة، لكي يكون نصبه نصبا في الدعاء، و رغم أن الدعاء ليس فيها تعب و نصب! فالفاء المفرّعة توحي إلى أصل سابق، و ليس إلّا شرح الصدر و وضع الوزر و رفع الذكر، التي تجمعها الرسالة المحمدية بعسرها و يسريها، فليس الفراغ إذا إلا عن بلاغ الرسالة، و ما هو إلا عند حضور الموت، فليس النصب إلا نصبا لاستمرارية الرسالة، و لكي يرغب إلى ربه مؤديا مبلّغا ما عليه: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ» (5: 67).

هنا في محاولة استمرار الرسالة عند الفراغ عنها نصب و نصب كلاهما يناسبان «فانصب» و خلاف ما يزعم، ليس في الدعاء نصب و لا نصب، و لا سيما للرسول الذي زاده الدعاء، فلم يؤمر هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هنا بالدعاء، فإنه كان يعيش حياته الدعاء، دون اختصاص بالفراغ عن الرسالة، و لقد كان في نصب علي عند وصية الخلافة نصب بالغ إذ تبع الكلمة اللاذعة المشهورة ممن احتالوا الخلافة لأنفسهم فقالوا: «دعوه فإن الرجل ليهجر» ما تدمي العيون و تحرق الأكباد! ثم «فانصب» لغويا- على الصحيح او الأصح- أمر بالنصب لا بالنصب، و إلا كان «فانصب»، و في المنجد: نصب- نصبا الشي‏ء: رفعه و أقامه، و الأمير فلانا: ولّاه منصبا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 355

و المروي عن أئمة أهل البيت مستفيضا صريح في النصب و إن كان النصب أيضا يشمله، و من النصب أيضا هو جعل النصيب أو تولية المنصب و هما يناسبان نصب الخلافة الإسلامية فإنها نصيب للرسول، يستمر به بعد مماته كما كان قبله، و كما

عن الصادقين (ع) تفسيرا للآية: فإذا فرغت من نبوتك فانصب عليا و إلى ربك فارغب في ذلك‏ «1»

و هو الوجه الوحيد الموافق لمقام الآيات و اللغة.

تذييل:

روى أصحابنا أن سورتي الضحى و الانشراح سورة واحدة تقرءان معا في الركعة، أقول: و هذه الوحدة تخص الصلاة حكميا و إلا فهما سورتان في غير الصلاة للفصل بالبسملة بينهما.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير القمي بالإسناد الى أبي عبد اللّه الصادق (ع) و روى في الكافي عنه (ع) مثله، و مثله عن ابن شهر آشوب عن الباقر (ع)، و

عن أبي حاتم الرازي‏ ان جعفر بن محمد (ع) قرأ «فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ» قال: إذا فرغت من إكمال الشريعة فأنصب عليا لهم إماما

، أقول:

و ما روي شاذا انه النصب في الدعاء لا يلائم المقام و اللغة كما سبق، و اما ما روي انه نصب الخلافة بعد حجة الوداع يلائم الفراغ من الرسالة، و إنما عن الحج و لم يسبق له ذكر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 356

سورة التين- مكية- و آياتها ثمان‏

[سورة التين (95): الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (1) وَ طُورِ سِينِينَ (2) وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (5) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (8)

\*\*\* مما لا بد منه هو تناسق الإطار في أقسام القرآن مع الحقيقة التي تعرض فيها، و هنا نجد تناسقا دقيقا أنيقا بينهما، فلكي يثبت أن الإنسان مخلوق بجزأيه:

الجسم و الروح، في أحسن تقويم، يقسم بالتين و الزيتون كأمل الفواكه، لعرض الكمال الجسماني للإنسان، و بطور سينين و هذا البلد الأمين، كأفضل البلاد الموحى فيها على أعظم رجالات الوحي، لعرض الكمال و الاستعداد الروحي للإنسان، و لكي يثبت سفال الإنسان لو تخلف، عن المقام العال، يشير إلى سفال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 357

الفاكهتين بعد انهضامهما، و سفال البلدين لو تخلفا عما أوحي فيهما، فليس العلو العال للإنسان، لزاما له لأنه خلق في أحسن تقويم، و إنما هو بحاجة إلى تقدمة زاد الإيمان و العمل الصالح، و لكي يفلح و يمضي سليما في هذه العقبات و العرقلات التي تتربص به دوائر الضلال و السفال.

وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ‏:

هما الفاكهتان المعروفتان مع ما يحملان من رمز الكمال فيهما، و في البلاد التي تنبتهما، فالتين شجرة عطوفة أليفة تفي قبل الوعد، بخلاف الخلاف التي تعد و تخلف، إذ تورق و لا تثمر، و كذلك ذوات الأثمار التي تعد ثم توفي، فالتين شجرة تظهر المعنى قبل الدعوى، و هي تهتم بغيرها في ثمرها، قبل أن تهتم بنفسها في ورقها، تثمر ثم تورق، تحقيقا لقول اللّه تعالى‏ «وَ يُؤْثِرُونَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ» .. و ثمرها طعام لطيف خفيف الهضم، يلين الطبع و يخرج مترشحا، و يقلل البلغم، و هو للمعدة كالبلسم، و يطهر الكليتين، و يزيل رمل المثانة، و يسمن البدن، و يفتح مسام الكبد و الطحال، و على حد تعبير الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. إذ أهدي إليه طبق من تين:

«كلوا، فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت: هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير، و تنفع من النقرس»

و

عن حفيده الرضا عليه السّلام: «التين يزيل نكهة الفم و يطول الشعر و هو أمان من الفالج».

و الزيتون فاكهة من وجه و إدام من آخر و دواء من ثالث وضوء من رابع، و من عجيب أمرها أنها لا تحتاج إلى تربية في أغلب البلاد، و من عظيم أمرها ذكرها في القرآن مرات عدة: «وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ» (23: 20).

فكما أن هاتين الفاكهتين من أقوم الفواكه و أتمها، كذلك بدن الإنسان فإنه خلق في أحسن تقويم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 358

وَ طُورِ سِينِينَ‏:

(طور) مذكور في القرآن تسع مرات، تارة كمعجزة إرهابية إذ رفعت:

(2: 63)، و أخرى كمنزل الوحي على موسى عليه السّلام: (19: 52)، و ثالثة كموعد لبني إسرائيل، و رابعة قسما بها و كتاب مسطور: (52: 1) و علّه توراة موسى عليه السّلام مما يدل على بالغ الأهمية لهذا المكان المنيف، فهو هنا يحمل إشارة إلى منزل من أهم منازل الوحي و أكرمها .. و الأصل العبراني في سينين هو سيني، عرّب بإضافة النون هنا، و بالألف الممدود تارة أخرى:

«طُورِ سَيْناءَ».

وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ‏:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إن كون السورة مكية، تجعل «هذا» |  | إشارة إلى مكة المكرمة، |

و كذلك وصفها بالأمين، فلا أمين تكوينيا و تشريعيا كمكة المكرمة، و كما في دعاء إبراهيم: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» و بما أنها منزل الوحي الأخير على الرسول البشير النذير، فهي- إذا- أم القرى، طول التاريخ و عرضه، فرسولها إمام الرسل، و رسالتها خاتمة الرسالات، و هي أول بيت وضع للناس، و إن كان آخرها وحيا «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً، وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» (3: 97).

فكما أن هذين البلدين أهم منازل الوحي و مصادر الرسالات، كذلك روح الإنسان فقد خلقت في أحسن تقويم روحاني، فالإنسان يجزيه مخلوق في أحسن تقويم.

و من لطيف الأمر أن التين و الزيتون- بما هما الفاكهتان- يحملان إشارة لطيفة إلى بلادهما التي هي أصول بلاد الوحي، و كما

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 359

الزيتون بيت المقدس»،

و هو منزل الوحي على كبار رجال الوحي، و أن التين إشارة إلى المدينة المنورة «1» مما يدل على كمال التناسق بين جزءي الإنسان، كما بين الفاكهتين و بلادها المقدسة، فعلى الإنسان إتباع قواه الجسدانية للروحانية، و لكي يتكامل خلقه في أحسن تقويم: ينمو جسمه على ضوء روحه، و روحه على كاهل جسمه:

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ‏:

و ليس معنى أحسن تقويم أنه فاق الخلق كله، و إنما: ليس في الخلق أقوم منه، و منه من هو مثله في القوام: «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى‏ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» (17:) 70) فمن هذا القليل الذي يشبه الإنسان في القوام؟ أنا لا أدري! و عله من إنسان السماء الذي تشير إليه بعض الآيات‏ «2»، أم هو و سواه ممن لا نعرف! إن الأصل في خلق الإنسان- إلهيا- هو أحسن تقويم، لو داوم في المشي على قوامه كما هداه اللّه تعالى في التكوين و التشريع: تكوينه الفطري و العقلي، و تشريعه الإلهي الواصب غير الخليط، و فيما إذا سلك سبيل التخلف فجزاؤه أن يردّ إلى أسفل سافلين، لحدّ لا أسفل منه في الخلق، رغم أنه ما كان أقوم منه في الخلق! إذا فهو هو النازل من العلوّ العال إلى أسفل السفال، و ليس إلا بفعاله هو، و اللّه يتركه- إذا- ثم يعبر عن تركه له أنه ردّه إلى أسفل سافلين.

ان جانب الخير في الإنسان أقوى من جانب الشر إذ خلق في أحسن تقويم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 606 الامام موسى بن جعفر عنه (ص) ان اللّه اختار من البلدان اربعة.

(2) «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (42: 29) و آيات و روايات اخرى أمثالها سوف نوافيها عند مناسباتها الأوفى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 360

فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق أكرم الملائكة جبرائيل، إذ وقف وسط الطريق، و ارتفع محمد (ص) الإنسان إلى المقام الأسنى.

بينما هذا الإنسان يرد إلى أسفل سافلين، حين ينتكس و يرتكس إلى الدرك الذي لا يتنزل إليه مخلوق قط: «أَسْفَلَ سافِلِينَ».

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ‏:

الذين واصلوا في سبيل الاستكمال على ضوء التقويم الأحسن، مشيا على الفطرة التي فطر الناس عليها، و على دلالات الرسالات الإلهية: إيمانا باللّه و بها، و عملا صالحا فيها، فلهم أجر غير ممنون: غير مقطوع و لا منقوص و لا مكدّر و لا محسوب، أجر في دنيا الحياة بما يصلحها الايمان و عمل الصالحات، و أجر في في أخراها، و ما عند اللّه خير و أبقى. «فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ. أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ»: فما هذا الذي يدفعك إلى تكذيب الدين: طاعة للّه يوم الدنيا و جزاء عليها يوم الجزاء، أبعد توفر البراهين الدافعة إلى الدين؟! أبعد إدراك القيم الإنسانية، «أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ»: حكما عدلا كأعدل و أفضل ما يمكن، و من عدله الجزاء الوفاق للظالمين، و منه و من فضله رحمة بلا حساب للذين عدلوا!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 361

سورة العلق- مكية- و آياتها تسع عشر

[سورة العلق (96): الآيات 1 الى 19]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)

عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى‏ (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى‏ (7) إِنَّ إِلى‏ رَبِّكَ الرُّجْعى‏ (8) أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى‏ (9)

عَبْداً إِذا صَلَّى (10) أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى‏ (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى‏ (12) أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (13) أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى‏ (14)

كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (18) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (19)

\*\*\*

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 362

ناصية الآيات الخمس الأول تشهد، و معها الروايات، و المفسرون أجمع يشهدون: أنها أوّل ما نزلت من القرآن على الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هي تحمل معنى البسملة بوجوب قراءتها قبل القرآن، فلا تنافيها الروايات القائلة أن الحمد هي الأولى، إذ أمر فيها بقراءة البسملة قبل الحمد كما قبل السور كلها، و الحمد بما تحمل بحمل القرآن توحي أنها الأولى، و أما المدثر فليس إلا بعد تدثّر الرسول إثر نزول أوّل الوحي المباغت، فليست هي- إذا- إلا أوّل المفصل.

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ‏:

و قد يوحي «اقرأ» أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن قارئا قبله، فتأمره الآية أن يقرء القرآن مبتدئا بالبسملة، «بِاسْمِ رَبِّكَ» يشير إلى‏ «بِسْمِ اللَّهِ» و «الَّذِي خَلَقَ»:

الرحمان، فإنه الرحمة العامة المدلول عليها بالخلق، فلا أعمّ منه، و «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ .. عَلَّمَ بِالْقَلَمِ»: هو الرحيم، فإنه الرحمة الرحيمية الخاصة:

خلق الإنسان و تعليمه ما لم يعلم، فما كان الرسول يتلو من قبله من كتاب، فأخذ يتلوه هنا «اقرأ» و ما كان يعلم‏ «وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» فأخذ يتعلمه هنا:

«عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ».

و تنقل الروايات عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله- إذ أمره ملك الوحي بالقراءة-:

«ما أنا بقارئ، يقولها ثلاثا فيضمه إلى صدره إيناسا بالوحي، فقال أخيرا:

ما أقرء؟ قال: اقرأ باسم ربك ..»

و لم يبين هنا ماذا يقرء، إلا أصل قراءة الوحي باسم اللّه‏ «1» ما يدل أيضا على أنه بداية الوحي، فقرء بإقراء اللّه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ .. و إلى سائر القرآن، و اعتبارا أن البسملة من القرآن فليستعذ باللّه قبلها «فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ» (16: 98) مهما كان الأمر بها سابقا أم لا حقا.

إن الإنسان بجزئيه: النفسي و الجسدي، ليس كيانه- و كسائر الكائنات-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لما

قال (ص): «ما ان بقارئى»

دل على انه ما كان ليقرء لا بالوحي و لا بغير الوحي، فكيف يقرأ و ماذا يقرأ؟ فلما ضمه ملك الوحي الى صدره ثلاثا، أجابه اقرأ بالوحي: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ..»: أقرأ باسم اللّه الذي رباك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 363

إلا تعلقا باللّه، لا يستقل عنه و لا آنا. و ليس انفصاله عن هذه العلقة إلا انفصاله عن الوجود، فهو في خلقه و علمه و كل معطياته علق باللّه، و هو يعيش علقا منذ خلق و في كل مراحل الحياة، و خلقه أيضا من علق:

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ‏:

علق لا علقة، فإنها الحالة الثانية للجنين، الناشئة عن العلق: جنس الدودات الصغيرة العالقة و جمعها، و هو منيّ يمنى، فهذا المني علق مجموعه، إذ يعلق بما يلحقه من ثوب أو بدن أو جدار الرحم، و علق جميعه، إذ هو بحر لجّي من ملايين النطف: الدودات العلقية، العالقة بعضها ببعض، و العالقة كلها بجدار الرحم، و ليست الجرثومة الأولى هي العلقة: الحالة الثانية للجنين، و لا العلق: مجموعة الدودات، و إنما واحدة من العلق، إن كانت واحدة، و أكثر إن كانت أكثر، لذلك‏ «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ»: بعض من البحر المنوي السابحة فيه ملايين العلقات: الدودات المنوية، لا كله، و هذا البعض هو النطفة من مني يمنى: «أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى‏، ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى» (75: 38).

فهنا علق، و هنا واحدة من العلق هي النطفة، و هنا علقة خلقت من هذه النطفة، فالعلقة: النقطة الدموية العالقة، هي الحالة الثانية الجنينية، و الثالثة المنوية، و من المضحك المبكي تفسير العلق بالعلقة، خلاف اللغة، و خلاف ترتيب الخلقة، و خلاف كافة الآيات المستعرضة لخلق الجنين، المبتدأة بالمني و النطفة و المثنية بالعلقة «1»! و لم يكن هكذا تفسير إلا لقصور العلم مسبقا عن أن المني يحمل ملايين الدودات، يخلق من كل واحدة جنين واحد، لا من المني كله.

و لقد بدر الوحي من الرسول الأمي لأول ما بدر، بهذه المعجزة العلمية،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كالآيات (75: 37) (80: 19) (18: 37) (23: 5) (35: 101) (40: 67) (35: 11).

ليوحي إليك .. بحول اللّه و قوة اللّه اقرأ: أصل القراءة الوحي فأنه باسم ربك الموحي إليك، و كل قراءة هي بالوحي فعليك ان تبدء فيها بالبسملة-

«كل امر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر»

و اي بال فوق بال الوحي؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 364

التي اكتشف أخيرا شي‏ء منها قليل، و بجنبه الكثير الكثير، مما على الإنسان أن ينظر فيه: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ»؟.

فلقد كان أصل الوحي عليه معجزة، تحمل معجزة علمية خالدة، و الرسول كيانه الرسالي معجزة، فكيان الرسالة المحمدية مجذور مكعب من المعجزات!.

إن النطفة الأمشاج هي المجموعة من نطفة الذكر و الأنثى، تتزاوجان فتصبحان واحدة، فكيف الزواج؟ و كيف النطفتان قبل الزواج و بعده؟ لقد أمرنا نحن أن ننظر كيف خلقنا، فنظرنا و وجدنا طرفا من الخلقة العجيبة الطريفة، ما يزدادنا معرفة بالذي خلق. خلق الإنسان من علق‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد كشف العلم طرفا من هذه المعجزة الأولى للقرآن، و الخلق العجيب الطريف الظريف لمنزل القرآن، و لوحظ بالعيون المسلحة ان كيف النطفتان؟ و كيف تتزاوجان؟ ..

الجينات: بيضات دافقة من ترائب الأنثى، كل منها كبيضة الدجاجة، إلا ان قطرها يتراوح بين جزء أو جزئين من عشرة اجزاء من الميليمترات (1/ 10 أو 2/ 10) و وزنها جزء من مليون جزء من الغرام، و فيها مح (emalpotyC( و في المح الحويصلة الجرثومية (edeleuN( التي يبلغ قطرها جزء من ثلاثة آلاف جزء من القيراط، فيها تكمن النطفة الجرثومية (uayoN( التي يبلغ قطرها (1/ 3000) من القيراط.

هذه البيضة تتكون في ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها الألبوميني، فإذا نمت هذه الحويصلة، و ازداد السائل الذي في باطنها، يتمدد غشاءها و يرق ثم ينفجر و تخرج البيضة منها و من المبيض كله، فإلى اين تذهب هذه البيضة الصغيرة العزيزة العذراء وحدها في هذا الظلام؟.

إنها على موعد مع العشير الذي تحلم به دون معرفة مسبقة بينهما، يتسارعان إلى بعض و يتلاقيان في الطريق، ثم يسيران متعانقين متراوحين إلى بيت الزوجية، المهيأ لهما، فهل لنا أن نعرف هذا العشير ايضا كما عرفنا العشيرة، و قبل أن نعرف زواجهما؟.

انها الكروموزومات، قطر كل منها لا يزيد عن ستين جزء من ألف ميلى‏متر (60/ 1000) فهو أصغر من خطيبه بكثير، و له عقبات في هذا الزواج: انها أصغر من عشيقتها بكثير، انها بين ملايين الخطاب الآخرين: الدودات المنوية الكروموزومية، و الملتقى ايضا بوق مظلم مظلم- ضيق ضيق- رفيع رفيع، قطره كشعرة يختبئ وراء الرحم، و يمتد فيه إلى المبيض، إذا فكيف بالإمكان الزواج مع هذه العقبات؟:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 365

اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ‏:

إن نعمة العلم بعد الخلق تحتل المنزلة الأولى بين النعم، و كما أنه تعالى أحسن الخالقين في خلق الإنسان، كذلك هو الأكرم في تعليمه، و كما أن الإنسان علق بربه في كيان الخلق، كذلك في انسانيته القائمة على العلم، فكافة علوم الإنسان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ليس هناك إلا الخلق العجيب لكل واحدة منها، حيث خلق اللّه لها رأسا مكورا له عنق لولبي و ذنب طويل يضرب به الماء و يتبلط، و جعل هذا الذيل معقودا بأنشوطة لينفك عنه إذ دخل إلى البيضة!.

فكر واحد من هؤلاء الذكور الكروموزومية كان اسرع و أقوى في هذا السباق، سبق مناوئيه إلى جدار البيضة العذراء، فيضرب برأسه الجدار بغية دخول الدار، من باب الجاذبية (noitcauttudenoC( فإذا دخل أغلقت العذراء بابها، و قطعت جذبها و أحصنت فرجها، وصدت الملائين الآخرين من الخطاب الآخرين ليموتوا حزنا، أو يحيوا خداما لزميلهم السابق، و لكي يخلق جنينا كاملا!.

فهكذا تتكون النطفة الأمشاج في بداية مشجها، ثم هناك أمشاج أخرى نبحث عنها في آية الأمشاج، و إليكم منها اشارة:

ان الرحم- البيت الزوجي- مضياف كريم، يستعد كل شهر لاستقبال العروسين و ايواءهما و إطعامهما، فتنفتح خلايا غشاءه المخاطي، و نتسع الشعيرات الدموية، و تنشط الغدد، فإذا تم الزواج استقبل لزوجين على الرحب و السعة، و ان تعرقل الزواج بسبب من الأسباب تميز غيظا و تمزق أسفا و بكى على البيضة الميتة دما غزيرا. ان الزواج بعد لا يكاد يتم حتى يبدأ العمل المشترك في بناء الإنسان الجديد. فيمشج الشريكان، كل ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط: (الكروموزومات)، و ما فيها من الخلق المخلقة: (الجينات) التي خطتها و خلقتها يد القدرة الإلهية بأقلام الإرث المنحدر عبر الأجيال، من الجدود و الآباء الى الأبناء و أبناء الأبناء:

و أقل الأمشاج ثلاثة: مشج النطفتين قبل الزواج، و مشجهما بالزواج في البوق، و مشج الشريكين كل ما عنده، فالنطفة على وحدتها أمشاج، كما الماء الدافق من الصلب و الترائب واحد، و سوف نأتي بتفاصيل لخلق الإنسان في طيات الآيات المناسبة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 366

من اللّه، من العلوم الغريزية: الفطرية و العقلية، و من الاكتسابية الناشئة عنهما، النامية بهما، و من علوم الوحي، فائقة الفطرة و العقل، المتحللة عن الاكتساب المعتاد، و هي أعلاها، الخاصة برجالات الوحي، و لكي يعلّموا الناس ما لم يكونوا يعلمون: «كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» (2: 151).

و قيّد العلم بالقلم، لأنه لا يقيّد إلا به، و كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «قيدوا العلم بالكتابة»

و إنما هذا القيد في غير الوحي، فإنه يقيّد في صفحات قلوب أصحابه دون حاجة إلى قيد القلم: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏» فاللّه الذي علم الإنسان ما لم يعلم، و ما لم يكن يعلم، هو الذي يأمرك بقراءة الوحي، و يعلمك ما لم تكن تعلم: «وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ».

و تأريخ الحضارات يشهد أن كافة التقدمات العلمية الحضارية مستوحاة من وحي السماء برجالاته الذين بيّضوا وجه التاريخ بتعاليمهم النيرة «1».

و هل العلم دون قيد العمل يكفي الإنسان كرما؟ فكيف لم يقيّد به هنا، الجواب: «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» و

«إن العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل» «2»

، و إن العلم من اللّه و العمل من الإنسان، و إن كان هو أيضا بتوفيق اللّه.

و القلم- أي قلم- قلم الحبر، أو الحديد الكاتب على الحجر و مثله، أو قلم الأمواج المستخدمة لمسجلات الصوت و الصور، إنه مما يقيّد العلم كأحسن و أءمن ما يكون، إلا قلم الوحي على قلوب النبيين، فإنه في غنى عن الوسائل العادية و المحاولات البشرية، فكما الوحي معجزه، كذلك قلمه الذي يقيّده، و الأقلام كلها تخطئ إلا قلم الوحي!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (تاريخ الفكر و الحضارة).

(2) عن علي عليه السّلام و كما في روايات كثيرة، تعني العلم الحقيقي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 367

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى‏. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى‏. إِنَّ إِلى‏ رَبِّكَ الرُّجْعى‏:

كلا: إنه لا ينتبه هذا الإنسان أنه علق خلق من علق، و إن ربه علّمه، فهو متعلق الذات و الكمالات بربه، و لكنه ينسى فيطغى أن رأى نفسه مستغنيا عن ربه و ليس به!.

إن رؤية الاستغناء هي الدافعة للطغوى: أن يحسب الإنسان نفسه مستغنيا عن ربه فيطغى عليه و يعصيه، و مستغنيا عن الخلق فيظلمهم، فلا الغنى و لا الاستغناء، ليس واقعا يعيشه أي إنسان، و إنما الخطأ في الرؤية، أن يراه كذلك و ليس به: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» خطأ عامدا يندد به بأشده، كيف لا ينتبه أنه فقير إلى اللّه كما كان بداية أمره! و أن رجوعه إلى ربه، لا يستطيع الفرار عن رجعاه، مهما كان مبتداه!.

هذه الرؤية الخاطئة قد تجعل الإنسان طاغيا على اللّه و عباده في حملة واحدة، كالذي ينهى عبدا إذا صلى:

أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى‏. عَبْداً إِذا صَلَّى. أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى‏. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى‏:

أبو جهل الطاغية يرى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يصلي عند البيت و يقول لحزبه: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فبالذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، فقيل له: ها هو ذلك يصلي، فانطلق ليطأ على رقبته فما فجئهم إلا و هو ينكص على عقبيه و يقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم! قال: إن بيني و بينه خندقا من نار و هولا و أجنحة، و قال نبي؟؟؟؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 368

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: و الذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا، فأنزل اللّه سبحانه‏ «أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى‏ ..».

إنه ليس المحرم هو النهي عن الصلاة الصحيحة فحسب، بل الباطلة أيضا.

و كما أن عليا عليه السّلام ما نهى عنها سنادا إلى هذه الآية «1».

أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى. أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى‏:

«أ رأيت» الأولى، و هذه الثالثة، خطابان للنبي (ص) تسديدا له صمودا على تقواه و هداه، و الوسطى للذي كذب و تولى تنديدا به كيف ينهى عن الهدى و التقوى:

ألم يعلم بأن اللّه يرى! «كلا»\* فلو رأى و درى لم يفعل فعلته الرديئة السافلة.

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ. ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ. فَلْيَدْعُ نادِيَهُ. سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ.

السفع هو الأخذ بسفعة الفرس، أي سواد ناصيته، كناية عن تحديده على ما يرام، و لقد سفع اللّه ناصية هذا الكذاب الأشر، و وسم خرطومه يوم أحد إذ قتل، و هنا إذ منعه عن وطئ رقبة الرسول (ص) حين يصلى، معجزة حاضرة حاذرة، و آية ترهب حزبه الخاطئين، أن اللّه تعالى ليس بمهمل للمؤمنين، و سوف يسفعه و يسم على خرطومه: «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ» يوم البرزخ و القيامة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 610: خرج علي (ع) في يوم عيد فرأى أناسا يصلون فقال: أيها الناس قد شهدنا نبي الله (ص) في مثل هذا اليوم، فلم يكن أحد يصلي قبل العيد، فقال رجل:

يا أمير المؤمنين! ألا تنهى أن يصلوا قبل خروج الامام! فقال: لا أريد أن أنهى عبدا إذا صلى، و لكنا نحدثهم بما شهدنا من النبي (ص) أو كما قال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 369

«فَلْيَدْعُ نادِيَهُ» هناك، كما هدد بها الرسول هنا «1»، «سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ»: الملائكة الغلاظ الشداد التسعة عشر: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ».

كَلَّا لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ‏:

«اقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجدا» «2»

هنا يسجد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا في سجوده:

«أعوذ بالله، برضاك من سخطك، و بما فاتك من عقوبتك، و أعوذ بك منك، حتى لا أحصي ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك» «3».

فهذه من آيات السجدة الواجبة، و الباقية هي: آية النجم‏ «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا» (53: 62) و فصلت‏ «لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» (41: 37) و السجدة: «إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً» (32: 15).

تسمى المجموعة العزائم الأربع، فتجب السجدة عند تلاوتها: قراءة و سماعا و استماعا، لإطلاق الآيات، و تعارض الروايات في السماع إيجابا و نفيا يعالج بردها إلى القرآن فالأخذ بالأول لموافقة الآيات، و لأن الناهية و غير الموجبة توافق سائر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تقول الروايات أن أبا جهل هدد النبي قائلا: «لقد علمت ما بها أكثر ناديا مني» فنزلت الآية.

(2) نور الثقلين 5: 611 عن عبد اللّه بن مسعود أن رسول اللّه (ص) قال: ..

(3) نور الثقلين 5: 612 من غوالي اللئالي روي في الحديث أنه لما نزل قوله تعالى:

و اسجد و اقترب. سجد النبي (ص) فقال في سجوده: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 370

المذاهب و تخالف الآيات بخلاف الآمرة كالآيات، سواء «1». و إذا كنت في صلاة فريضة فسمعت آية السجدة أو استمعت، أو أومأت لها إيماء و لا تسجد لأنها تنقض الصلاة، و لأنك سوف تسجد في الصلاة، و هي واجبة سابقة على وجوب السجدة و سببها، و الحق لما تقدم كما هو لمن تقدم.

و بقية الآيات الآمرة بالسجود تحمل على الاستحباب، و لأنها تضم قرائن تصرفها عن الوجوب‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي و التهذيب عن أبي بصير قال قال: إذا قرئ شي‏ء من العزائم الأربع فسمعتها فاسجد (الوسائل ب 42 من قراءة القرآن)

و

فيه عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (ع) قال‏ سألته عن الرجل يكون في صلاة في جماعة فيقرء إنسان السجدة كيف يصنع؟ قال: يؤمي برأسه. قال: و سألته عن الرجل يكون في صلاته فيقرء آخر السجدة، قال: يسجد إذا سمع من العزائم الأربع ثم يقوم فيتم صلاته إلا أن يكون في فريضة فيومئ برأسه إيماء.

(2) كآية النمل: «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْ‏ءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (27: 25) فإنها تنديد بتاركي السجدة للّه إطلاقا، و آية الحج: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ» (22: 77) فإضافة الركوع و العبادة تجعلها آمرة بالعبادات المفروضة المعروفة بغير الآية و أشباهها، فلا تشمل سجدة التلاوة، و آية الرعد و النحل: «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً» (13: 15) (16: 49) و آية الحج: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» (22: 18) هذه الآيات انما تحكي سجود الكائنات لربها، دون أمر حاضر زائد على ما يرام من العبادة و الصلاة، دون الآيات الأربع الماضية، فإنها آمرة بالسجدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 371

سورة القدر- مكية- و آياتها خمس‏

[سورة القدر (97): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

\*\*\* ... آيات خمس تبرز أهمية وحي القرآن، و القلب الذي أنزل عليه، و الليلة التي أنزل فيها، و استمرارية واقع القدر بإلهامات مستمرة على قلوب الطاهرين من آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المكرمين، تضم الحقائق من كل أمر.

لذلك تقول الروايات إنها نسبة أهل بيت العصمة المحمدية، إلى يوم القيامة، كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ قوله عن اللّه تعالى أنه قال: «اقرأ «إِنَّا أَنْزَلْناهُ» فإنها نسبتك و نسبة أهل بيتك إلى يوم القيامة» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين ج 5 ص 616 ح 21 و مثله الأحاديث في نفس المصدر كالتالي:

ح 95- 97 و 99 و 101- 103 و 108 و 110.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 372

نسبة روحية قدسية كما و أن سورة الإخلاص نسبة رب العالمين.

في هذه السورة ندرس: ما هو النازل في ليلة القدر؟ و ما هي ليلة القدر؟

و متى هي؟ و ما هي خيرتها من ألف شهر؟ و من هو الروح المتنزل مع الملائكة فيها؟ و على من تتنزل؟ و بماذا تتنزل؟ و ما هو السلام فيها حتى مطلع الفجر؟.

إِنَّا أَنْزَلْناهُ‏:

هل هو نزول روح النبوة- القدسية- على الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟

أم وحي القرآن النازل عليه بتمامه طوال الدعوة؟ أم بعض القرآن و علّه هذه السورة نفسها؟ أم القرآن كله بصورة محكمة غير مفصلة، متحللا عن هذه التعابير اللفظية و الأمثال، و التكررات و الإخبارات عن المستقبل؟

لا نحتمل أنه بعض القرآن المفصّل، و لا بعض المحكم، لمكان «ه»\* لا «بعضه»\*:

و على كونه بعضه لا نحتمل أنه نفس السورة، لمكان «ه»\* لا «ها»\* و لأنه إخبار عما سبق: «أنزلناه»\* لا عن الحال: «ننزله» «أَنْزَلْناهُ» يحيل أن يكون النازل هو سورة القدر نفسها، لذكورة الضمير و مضيّ الفعل.

إضافة إلى أن نزول البعض من القرآن- أيا كان- في ليلة القدر، أنه من توضيح الواضحات، إذ إن أبعاض القرآن منتشرة نزولا على أبعاض زمن الرسالة، و من أحراها ليلة القدر، و إن نزول البعض منه فيها لا تكسبها فضيلة خاصة، إذ الأبعاض كلها قرآن، و كلها تكسب زمنها فضلا دون اختصاص ببعض دون بعض.

و لا نحتمل أيضا أنه القرآن المفصل، النازل طوال الرسالة نجوما متفرقة، فكثير من آياته لا تتحمل نزولها دفعة واحدة، بداية البعثة، كالمخبرة عما تحقق متأخرا عن ليلة القدر بصيغة الماضي: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها» (58: 1) و أمثالها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 373

و الآيات الناهية عن استعجاله بالقرآن قبل أن يقضى إليه وحيه:

«وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى‏ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» (20: 114) «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ» (75: 16).

و لو كان القرآن المفصل نازلا عليه جمله واحدة ليلة القدر، لم يكن في قراءته قبل نزوله التدريجي استعجال، و إنما حكاية عما أوحي إليه، و نفس ما أوحي إليه، إضافة إلى تصريحات أخرى: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا» (25: 32).

و أخيرا لا نحتمل أنه روح النبوة القدسية، لأنها نزلت عليه منذ بداية الوحي فهل يا ترى إن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم تكن له روح النبوة، بينه و بين ليلة القدر الأولى من سني رسالته، زهاء خمسين يوما أو يزيد «1»؟

فنحن هنا بين واقعين: واقع نزول القرآن في ليلة مباركة: «حم. وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» (44: 36) و هي ليلة القدر: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» و هي من رمضان:

«شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» (2: 185).

و واقع نزوله نجوما متفرقة طول البعثة خلال 23 سنة كما هو الواضح.

و لا بد أن يختلف النزولان مع بعض، فهل هو نزوله المفصل مرتين؟ كلا! للدليل المسبق، سواء أ كان نزولا على قلب الرسول في هاتين المرتين، أم في المرة الأولى إلى بيت المعمور في السماء الدنيا دفعة واحدة، و في الثانية على قلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نجوما متفرقة «2»، و هذه أسطورة لا يقبلها العقل و الدين و لا آي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من 27 رجب إلى ليلة القدر المردة بين ما يأتي.

(2)

في الكافي عن أبي عبد اللّه الصادق (ع) قال: نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثم نزل في طول عشرين سنة (نور الثقلين ج 5 ص 624 ج 53).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 374

القرآن المبين، إضافة إلى الدليل المسبق من لزوم الكذب، إلا أن يعنى منه قلب الرسول (ص)، فأي بيت هو أعمر من قلبه المنير، و هو أيضا في السماء الدنيا، مع الخلق المكلفين ضرورة كونه في المرسل إليهم، و إن كان كيانه فوق العالمين:

بالأفق الأعلى.

ثم القرآن ليس طرأ يصعد أو ينزل إلى بيت في السماء! فليكن الرسول هو المعني بالبيت المعمور، إذ عمر بقلبه المنير بوحي اللطيف الخبير.

أقول: لا سبيل إلى شي‏ء من ذلك، و إنما هو نزوله جملة واحدة بصورة محكمة دون تفاصيل، في ليلة القدر على قلبه المنير، ثم نجوما متفرقة طوال البعثة.

و القرآن يشير إلى هاتين المرتين في آيات و يصرح في أخرى: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (11: 1) ف «ثم»\* هنا، تفصل بين القرآن المفصل و المحكم غير المفصل، أن المفصل يتطلب نزوله زمنا بعيدا، و هو مجموعة زمن الدعوة، و لكن المحكم لا يتطلب إلا وقتا قصيرا يناسب أن يكون ليلة القدر.

و لقد كان الرسول خبيرا بالآيات قبل أن يقضى إليه وحيها: «وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى‏ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» و من المحال الاستعجال فيما لم يسبق منه للرسول بال، و لقد كان يحرك به لسانه ليعجل به، أ تحريكا دون أن يعلم منه شيئا!: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ. فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ» (75: 16: 19). فقد نهي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و هذه الرواية واحدة شاذة لا سبيل فيها إلا التأويل المسبق في المتن، و سندها: حفص بن غياث، عامي لم يوثق و كذلك الراوي عنه محمد بن سليمان.

و لو كانت صحيحة مستفيضة أيضا لم تكن تثبت بيتا جسمانيا من حجر و مدر نزل فيه القرآن ليلة القدر إذ المعنى لا ينزل على الجسم، إلا جسما فيه معنى- بحسابه- كقلب النبي الأقدس (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 375

عن الاستعجال في لفظا القرآن لينضم وحي اللفظ إلى وحي المعنى فيصبح القرآن وحيا مزدوجا، و ليكون تفصيل وحي المعنى أيضا بالوحي، كما نرى في آيات تصرح: أن تفصيل الكتاب كمحكمه، من اللّه‏ «ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (41: 2).

و لقد سبق محكم القرآن أم الكتاب، و في هذه المرحلة المسبقة لم يكن كتابا و لا قرآنا، و إنما علم اللّه المحكم دون أن يعلمه أحد: «يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ» (13: 39): أصل الكتاب، و عند ذاك لم يكن قرآنا يقرء: و لا عربيا: واضحا، و إنما اللّه جعله قرآنا عربيا: «إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» (43: 2)- 3) عليّ من أن تناله الأفهام، حكيم من أن تتطرق اليه الأوهام.

و بعد هذه الحكمة البعيدة المدى قبل نزوله، أنزله اللّه بصورة محكمة هي تفصيل ام الكتاب، أنزله على رسوله ليلة القدر جملة واحدة، ثم فصله له طوال البعثة نجوما متفرقة، و لم يكن الرسول ليعلم قبله لا مفصله و لا محكمه: «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ» (11: 49) «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ ..»

(42: 52) «وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» (4: 13).

و هذه مراحل ثلاث للقرآن: 1- القرآن المحكم لدى اللّه، 2- القرآن المحكم لدى الرسول، 3- القرآن المفصل لدى الرسول فلدى الناس: «هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى‏ وَ الْفُرْقانِ».

إِنَّا أَنْزَلْناهُ‏:

نستوحي من هذه التأكيدات الثلاث منزلة القرآن العالية، ف «إن»\* يؤكد النزول، إذ لو لم يكن يتنزل القرآن عما عند اللّه من العلو و الحكمة العالية،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 376

لم يكن الرسول ليفهمه فضلا عمن سواه، فليس النزول هنا من مكان عال، و إنما من مكانة عالية هي مرحلة ام الكتاب.

و ضمير الجمع «نا»\* يؤكد لنا: أن هذا القرآن مجموعة الرحمات الإلهية الممكن نزولها على الإنسان، فجمعية الصفات هنا- لا الذات- تدلنا على أن نزول القرآن تصاحبه كافة الإفاضات من كافة الصفات الإلهية في أمرين:

حمل القرآن لما يمكن حمله من العلوم و التوجيهات الإلهية أولا و أخيرا، و وضوح آياته و نصوعها لآخر درجات الإمكان، فلا أوضح منه بيانا، كما لا أعمق منه برهانا و تبيانا.

و أخيرا- إضافة إلى الأدلة المسبقة- نستوحي من إنزال القرآن هنا نزوله الدفعي، كما التنزيل هو التدريجي- تتبع موارد استعمالها.

ثم لماذا أشير هنا بالضمير «أنزلناه»\* دون تصريح بالقرآن؟ اعتبارا بأن القرآن المحكم ضمير مستتر، و أنه لا يحق أن يعنى بالضمير المجهول، إلا الوحي الأخير، فكما ان «هو»\* في الأشخاص لا يعني إلا الهوية المطلقة الإلهية، لأنه «هو»\* على الإطلاق، كذلك «هو»\* في النازل من وحي السماء لا يحق إلا للهوية المطلقة الكتابية، فكتاب اللّه إله الكتب لأنه أنزله بعلمه.

و استنتاج ثان و هو أن النازل ليلة القدر لم يكن هذا القرآن المفصل حتى يصح القول: إنا أنزلنا هذا القرآن، و إنما روحه المجمل، و محكمه المجهول عنا، الغائب عن عقولنا، و لذلك كله يستحق ضمير الغائب المطلق «هو»\* تأمل.

فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ:

فما هو القدر؟ و كم هي ليلة القدر؟ و ما هي؟ و هل هي تتكرر طوال الزمن؟ أم إنها ليلة مضت دون تكرار؟ أم تكررت زمن الرسول ثم انقطعت؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 377

بحوث قيمة ذات قدر حول ليلة القدر، علنا ندرسها معمقة، على أسهل تعبير و كما هي دأبنا في هذا التفسير:

ف «القدر»\*: علّه المنزلة و المقام، اعتبارا بما حصل في ليلته و ما يحصل، فليس الزمان ذا قدر و منزلة ذاتيا، اللهم إلا بما يحل فيه من عظائم الأحداث الجليلة، و لهذا الحدث العظيم: حدث نزول القرآن الكريم، حدث الوحي و الرسالة الأخيرة، إن له منزلة لا أعظم منها و لا يساويها أيّ من أحداث التاريخ، .. إن منزلتها تفوق كل المنزلات طوال الزمن، إذ لم يأت بما أتته كل الزمن.

إن هذه الليلة المباركة تفوق عظمتها الإدراك البشري، و إدراك الرسول أيضا كبشر، و إنما هو يدركها كرسول: «وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»: ألف شهر يقام فيها في سبيل اللّه، و ألف شهر يعارض فيها شريعة اللّه، خير من التاريخ بأسره، من شرّه إذ تكافحه، و من خيره إذ تفوقه.

و «القدر»\* عله- أيضا- التقدير: تقدير قيم الإنسان، و تدبير حياة الإنسان لأعمق أبعاد التاريخ، تقدير ما أشمله، من تفريق كل أمر حكيم:

«.. فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» (44: 3) و هذا مما يستمر طوال الرسالات و الرسالة الإسلامية حتى آخر زمن التكليف، و تقدير يخص زمن الرسول، بنزول القرآن الحاوي لكل الأقدار و كل ما تتطلبه الحياة كل الحياة.

و نجد تفاسير أخرى لمعنى القدر في المروي عن أهل بيت الرسالة المحمدية، من: أنها ليلة قدرت فيها السماوات و الأرض، و قدرت ولاية أمير المؤمنين عليه السّلام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 378

فيها «1» إيحاء إلى نوعي التقدير تكوينا و تشريعا، باعتبار أن ولاية علي عليه السّلام تضم كافة الولايات التشريعية لأنها تمثل الولاية القدسية المحمدية التي هي خاتمة الولايات و جامعة النبوات.

و أنها ليلة تقدير الأرزاق و الآجال كما عن جعفر بن محمد عليه السّلام‏ «2» و هي من فروع تقدير السماوات و الأرض، و قد يعم تقديرهما تقدير ما هو كائن إلى يوم القيامة كل ليلة قدر بسنتها بما فيه المقامات الروحية كما عن الرسول الأقدس (ص) «3» و الإمام الرضا عليه السّلام‏ «4».

لَيْلَةِ الْقَدْرِ:

إنها ليلة واحدة في السنة لمكان تاء الوحدة «ليلة»\* لا «الليل»\* حتى يفيد الجنس الملائم لأكثر من ليلة، و لا «ليال» حتى ينص على العدد .. إنما «ليلة»\*.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في معاني الأخبار عن المفضل قال‏ ذكر أبو عبد اللّه (ع) «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» قال: ما أبين فضلها على المشهود قال قلت: و أي شي‏ء فضلها؟ قال: نزلت ولاية أمير المؤمنين (ع) فيها، قلت: في ليلة القدر التي نرتجيها في شهر رمضان؟ قال نعم هي ليلة قدرت فيها السماوات و الأرض، و قدرت ولاية أمير المؤمنين (ع) فيها (نور الثقلين ح 5 ص 617 ح 23).

(2) المصدر ص 618 ح 29.

(3)

المصدر عن معاني الأخبار عن أمير المؤمنين على (ع) قال قال رسول اللّه (ص) يا علي أ تدري ما معنى ليلة القدر؟ فقلت: لا يا رسول اللّه (ص)! فقال إن اللّه تبارك و تعالى قدر فيها ما هو كائن إلى يوم القيامة فكان فيما قدر عز و جل ولايتك و ولاية الأئمة من ولدك إلى يوم القيامة (المصدر ص 296 ح 80 عن معاني الأخبار).

(4)

نور الثقلين عن عيون الأخبار في مجلس الرضا (ع) مع سليمان المروزي- قال سليمان للرضا (ع): ألا تخبرني عن‏ «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» في أي شي‏ء نزلت؟ قال يا سليمان ليلة القدر يقدر اللّه عز و جل فيها ما يكون من السنة إلى السنة، من حياة أو موت أو خير أو شر أو رزق. و في ح 84 عن الباقر (ع) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 379

هذا- و لكننا ماذا نصنع بواقع اختلاف الآفاق، و عله حوالي يوم أو يومين في الكرة الأرضية، إضافة إلى اختلاف الليل و النهار في وقتيهما أيضا حسب اختلاف الآفاق، فنهار النصف من الكرة ليل في النصف الآخر، و حسب طوال الليل أو النهار إلى قرابة ستة أشهر، فما هو المناط في ليلة القدر من هذه الآفاق؟

قد يقال: إن لكل أفق ليلة قدر يخصه، فهي ليال حسب مجموعة الآفاق رغم كونها ليلة حسب كل أفق، و يشكل أن الآية لا تتحدث عن كل أفق قبال الآفاق، و إنما عن كافة الآفاق، حيث المعنيين بالآيات كافة سكنة الأرض.

و من جهة أخرى، إن تنزل الملائكة و الروح فيها ليس إلا مرة في ليلة واحدة فما هي بين ليالي الآفاق؟.

نقول: بما أن ليلة القدر واحدة، و تنزّل الملائكة و الروح ليس إلا فيها على قلب الرسول محمد (ص) أو على قلب محمدي للإمام المعصوم، من هنا و هناك نستوحي أن المناط في القدر هو الأفق الذي فيه الإمام، ثم يقاس عليه سائر الآفاق ليلا أو نهارا، و لا تبقى إذا إلا مشكلة اختصاص ليلة القدر ببعض الآفاق و حرمان الأخر منها، و الحلّ أن التردد فيها بين ليال عدة كما يأتي، هذا التردد يكسب كل أهالي المعمورة، ليلة القدر.

لنفرض أن ليلة القدر هي التاسعة عشرة من رمضان، و هي في أفق الإمام ليلة الإحدى و العشرين منه، أو بالعكس، فهي واحدة رغم اختلاف الأفق:

تسعة عشرة و إحدى و عشرين.

و فيما إذا كانت لا تقارن ليلة القدر في أفق الإمام ليلة في أفق آخر، كأن يكون نهارا قران ليلة القدر، فلأهالي أفق النهار أجرهم إذا كانوا في طاعة اللّه، رغم جهلهم بها، و بالإمكان أن الإمام يتنقّل كل سنة إلى مختلف الآفاق ليكسب الكلّ فضيلة القدر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 380

و أخيرا لا دليل على استيعاب ليلة القدر كلّ سكنة الأرض.

وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ:

إن لهذه الليلة المباركة فضلا سابقا: هو نزول القرآن فيها، و يكفيها قدرا أن تفوق ليالي التاريخ، و لها فضل لاحق، هو تنزّل الملائكة و الروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، و أخيرا: «سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ».

فيا لها من كرامة منقطعة النظير لم تسبق في التاريخ و لا تلحقه أيضا.

هنا ندرس ألف شهر، التي ليلة القدر خير منها: إن ليلة القدر هي ليلة واحدة من السنة، لا من شهر، فلما ذا لا تقول: خير من أربع و ثمانين سنة؟

الجواب: لزوم التهافت حينذاك، لأن لكل سنة من هذه السنين ليلة قدر، فكيف تفضّل ليلة القدر على نفسها بمضاعفات، و لما قال: خير من ألف شهر، عرفنا أنها الشهور التي ليست فيها ليلة القدر، فلا يعني من المفضّل عليه ألف شهر على التوالي، إنما مقداره على حساب الأيام و هي ثلاثون ألف يوم، أو ستون ألفا بانضمام النهار، و هناك روايات متضافرة عن الرسول (ص) و أهل بيته الكرام تصرح بما توحيه الآية.

و هل إن الألف هنا حدّ لا يزيد و لا ينقص، أم إنه رمز للكثرة اللانهائية، بما أن حدث هذه الليلة العظيمة يربو على كافة الأحداث العظيمة في الأزمان كلها، من خيرها و من شرها؟

قد لا نستطيع أن نتأكد من أحدهما، إذ إن رمز هذه الكثرة الكثيرة لا بد أن يكون أكثر من الألف بكثير، فلتكن الألف حدا ثابتا.

و إن ليلة القدر لا تقف خيريتها على ألف شهر، فما هو الألف بين آلاف السنين من تاريخ الرسالات الإلهية، و ما هو بين آلاف السنين من الدعايات المضادة!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 381

و الحل أن الألف هنا ألف عام و خاص يكافح التاريخ بأكمله، بخيره و شره، فهي الألف: الكثرة الكثيرة من الزمن التي حدثت فيها خيرات التاريخ بأجمعها، فحدث هذه الليلة المباركة يربو عليها بأسرها.

و هي أيضا الألف التي حكم فيها بنو أمية ضد الإسلام بكل الطاقات و الإمكانيات، فما استطاعوا أن يزيلوا الأثر الهام الثابت في ليلة القدر: شريعة القرآن و دعوته.

إن زمن الحكم الأموي هو أشرّ الأزمنة التي مرت على التاريخ الإسلامي، و التي تستقبل الإسلام إلى يوم القيامة، و إذا كانت الطغمة الحاكمة الأموية لا تستطيع القضاء على ليلة القدر، على القرآن النازل فيه، و على نبي القرآن و دعوته، فأحرى ألا تستطيع الطغم الحاكمة الأخرى أن تمس من كرامتها، إلا جولات دعائية و ادعائية، فإن للحق دولة و للباطل جولة «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ».

إن قوة الدعوة القرآنية أكثر بكثير من القوات المضادة، طالما الكفر يكرس كافة طاقاته و إمكانياته، لكنه لا يملك شيئا مما يملكه الحق من براهين و من دوافع الخلود و سناد الخلود.

و رواياتنا متضافرة بين الفريقين في خيريّة هذه الليلة بالمعنيين عن النبي الأقدس (ص) و أئمة أهل بيته الكرام (ع) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ففي المعني الأول:

أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن عروة قال‏ ذكر رسول اللّه (ص) يوما أربعة من بني إسرائيل عبدوا اللّه ثمانين عاما لم يعصوه طرفة عين فذكر أيوب و زكريا و حزقل بن العجرز و يوشع بن نون. فعجب رسول اللّه (ص) من ذلك فأتاه جبريل فقال يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة فقد أنزل اللّه خيرا من ذلك فقرء عليه سورة القدر قائلا. هذا أفضل مما عجبت أنت و أمتك فسر بذلك رسول اللّه (ص) و الناس معه» (الدر المنثور ج ص 381). و من طريق أصحابنا مثله كما في نور الثقلين ح 16 و 45 عنه (ص‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 382

تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ:

.. الملائكة- كل الملائكة- دون استثناء، لمكان «ال»\* الاستغراق، فإن الجمع المحلى باللام يفيد الاستغراق.

و الروح هو عظيم الملائكة و زعيمهم و ليس منهم بدليل المقابلة، و تخصيصه بالذكر من بين العموم بحاجة إلى دليل، و قد يتأيد و يؤيده نظرات أهل الوحي و العصمة المحمدية (ع) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: و هكذا كل أحداث التاريخ- الجليلة الخيرة- فليلة القدر خير منها، و الألف هنا إشارة إلى حده لبيان بعض المصاديق كما في الحديث، و اشارة إلى زمن الخير كله دون حد.

و في المعنى الثاني‏

أخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس قال‏ رأى رسول اللّه (ص) بني أمية على منبره فساءه ذلك فأوحى اللّه إليه: انما هو ملك بصيبونه و نزلت: إنا أنزلناه .. و أخرجه أيضا عن ابن المسيب مثله، و أخرجه الترمذي و ابن جرير و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن يوسف بن مازن الرواسي عن الامام الحسن (ع) مثله بزيادات منها: من ألف شهر يملكها بنو أمية يا محمد!

قال القاسم فعددناها فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوما و لا تنقص يوما (المصدر) و في المستفيض من طريق أصحابنا مع تفاصيل أخرى كما في ح 42 و 43 عن الامام الصادق (ع) عنه (ص) و ح 44 عن علي (ع) عنه (ص) و ح 45 عنه (ص) و ح 46 عن الامام الحسن المجتبي (ع) عنه (ص).

(1).

أبو بصير قال‏ قلت للإمام جعفر الصادق (ع): جعلت فداك الروح ليس هو جبرائيل؟

قال: الروح أعظم من جبرائيل، ان جبرائيل من الملائكة، و إن الروح هو خلق أعظم من الملائكة، أليس يقول اللّه تبارك و تعالى: تنزل الملائكة و الروح؟ (نور الثقلين ج 5 ص 638 ح 104).

و عن الامام الباقر (ع) مثله كما في ح 110- المصدر، و عن الصادق (ع) مثله كما في تفسير البرهان ح 4 ص 481 ح 1 و يلمح إليه ح 108 ج 5 نور الثقلين ص 639. و فيه: يستوجب الامام زيادة الروح ليلة القدر، و يلوح أن الروح هذه روح قدسية منفصلة عن الملائكة و سائر المعصومين، و هي تفاض عليهم بإذن ربهم ليالي القدر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 383

و هذا هو الروح القائم مع الملائكة يوم القيامة أيضا: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً» (78: 38) «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (70: 4).

و اعتبار أن الروح هو ما به الحياة، نستوحي أن الروح هذا من به حياة ملائكية الملائكة، على أنهم أيضا أرواح، و فيهم من سمي روحا- لا مطلقا- و إنما: «بِرُوحِ الْقُدُسِ» (2: 87) و 253 و 5: 110) و «رُوحٌ مِنْهُ» (4: 171) و «بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ» (40: 15) و 16: 2) و «الرُّوحُ الْأَمِينُ» (6: 193) و «رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» (42: 52).

هذه هي الأرواح المذكورة في القرآن، بين ما هو روح القدس النازل على النبيين، و ما هو الوحي النازل عليهم، و من هو ملك الوحي: جبرائيل أم أعوانه.

و لم يذكر الروح دون قيد في القرآن إلا ثلاثا فيمن قوبل به الملائكة، و هو روح الملائكة و زعيمهم، و إلا مرة واحدة كذلك في الروح القدسية المحمدية:

«وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 85).

من هنا و هناك نستوحي الوفاق بين الروحين، النازل و المنزل عليه، فالروح النازل هو روح الملائكة، و المنزل عليه هو روح النبيين، الروح القدسية المحمدية، روح محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في وحي القرآن ليله، و في نزول كل أمر طوال البعثة، و أرواح محمدية بعد ارتحاله إلى جوار رحمة ربه، أرواح المعصومين من عترته، الحاملين روحه القدسية و عصمته الإلهية.

و نستوحي استمرارية ليلة القدر من قوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ» دون «تنزل»\* فالفعل مضارع يدل على استمرارية نزول الملائكة و الروح، إذا فليلة القدر بهذا الاعتبار مستمرة طوال الزمن و منذ البعثة، و إن كانت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 384

باعتبار نزول القرآن ليلة واحدة بداية البعثة، أو كانت ثلاثة و عشرين ليلة طوال البعثة بالاعتبارين، لكنها مستمرة بنزول الملائكة و الروح، و على حد تعبير

الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: هي إلى يوم القيامة «1».

فهل تتنزل الملائكة و الروح من كلّ أمر على بقاع الأرض، كلا، إنما على قلب واع، قلب محمد أو قلب محمدي لا سواه، قلب واع مّا يتنزل عليه من كل أمر، لا القلوب المقلوبة، أو غير المستعدة لهكذا نزول هامّ في كل سنة.

إنها القلوب الطاهرة من أهل بيت العصمة المحمدية، محمد أم سواه، ممن رعاهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في مجمع البيان: جاءت الرواية عن أبي ذر قال قلت يا رسول اللّه (ص)؟ ليلة القدر هي شي‏ء يكون على عهد الأنبياء ينزل فيها فإذا قبضوا رفعت؟ قال (ص): لا بل هي إلى يوم القيامة (نور الثقلين ج 5 ص 620).

و

أخرج أبو داود و الطبراني عن ابن عمر قال‏ سئل رسول اللّه (ص) و أنا أسمع عن ليلة القدر فقال: هي في كل رمضان، و مثله ما أخرجه محمد بن نصر عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن ليلة القدر أ هي شي‏ء كان فذهب أم هي في كل عام فقال: بل هي لامة محمد ما بقي منهم اثنان.

(الدر المنثور ج 6 ص 371).

و ما

رواه أبو جعفر الجواد (ع) «أن أمير المؤمنين علي (ع) قال لابن عباس أن ليلة القدر في كل سنة و أنه ينزل في تلك الليلة أمر السنة، و لذلك الأمر ولاة بعد رسول الله (ص) فقال ابن عباس: من هم؟ قال: أنا و أحد عشر من صلبي» و عن أبي جعفر الباقر (ع) مثله (ح 40)

و

عن الامام الصادق (ع) في استنكار رفعها: لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن (ح 41).

أقول: لأن الأمور النازلة ليلة القدر هي شروح لما أجمل في القرآن.

و في أحاديث عدة أنها منذ بداية الخلق إلى يوم القيامة، و تعني بداية خلقة المكلفين أو لعله أعم- تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 385

و رباهم بالوحي، من علي أمير المؤمنين عليه السّلام إلى المهدي القائم محمد بن الحسن العسكري عليهم أزكى التحية و السلام‏ «1».

و بهذه المنزلة السامية تصبح سورة القدر حاكية عن منزلة أهل بيت العصمة المحمدية، و هي نسبتهم الروحانية ما أعلاها.

.. بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ:

من كل أمر: بعضا من كل الأوامر و الأمور، لا كلّها، فمن الأمور و الأوامر ما هي مختصة باللّه تعالى، و منها ما يتنزل على الناس أجمع، و منها ما لا يتنزّل إلا على المعصومين الطاهرين، قادة العباد و ساسة البلاد و أركان الإيمان و أمناء الرحمان.

فالنازل على العباد ليس إلّا من بعض أمر، لا من كل أمر، و اللّه تعالى عنده و له كل أمر، تكوينيا و تشريعيا، علميا و تنفيذيا.

ثم ينزل على أمنائه المصطفين المخلصين، من كل أمر، فما هو الأمر؟ و ما هو كل أمر؟.

هنا ندرس الأمر بكيانه و نزوله من «حم»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي عن الإمام الصادق (ع) قال: كان على (ع) كثيرا ما يقول: اجتمع التيمي و العدي عند رسول اللّه (ص) و هو يقرأ «إِنَّا أَنْزَلْناهُ» بتخشع و بكاء، فيقولان: ما أشد دقتك لهذه السورة؟ فيقول رسول اللّه (ص) لما رأت عيني و وعى قلبي، و لما يرى قلب هذا من بعدي، فيقولان: ما الذي رأيت؟ قال فيكتب لهما في التراب: تنزل الملائكة و الروح فيها بإذن ربهم من كل أمر- قال: ثم يقول: هل بقي شي‏ء بعد قوله عز و جل‏ «كُلِّ أَمْرٍ» فيقولان:

لا- فيقول: هل تعلمان من المنزل إليه بذلك؟ فيقولان: أنت يا رسول اللّه (ص) فيقول: نعم، هل تكون ليلة القدر من بعدي؟ فيقولان: نعم- قال: فيقول: فهل ينزل ذلك الأمر فيها؟

فيقولان نعم- قال: فيقول: إلى من؟ فيقولان: لا ندري- فيأخذ براسي و يقول: إن لم تدريا فادريا، هو هذا من بعدي- قال: فإن كانا ليعرفان تلك الليلة بعد رسول اللّه (ص) من شدة ما يداخلهما من الرعب» (نور الثقلين ج 5 ص 633 ح 90).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 386

«حم. وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» (44: 1- 8).

فليلة القدر هي ليلة الفرق و الفصل لكل أمر حكيم، حكيم عند اللّه العزيز الحكيم، و كما كان القرآن في ام الكتاب لدى اللّه عليّا حكيما: «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» ثم فصّله ليلة القدر، و أنزله على قلب الرسول البشير النذير، أنزله من علوّه الإلهي، و فصّله من حكمته الإلهية، و لكي يدركه الرسول، ثم فصّله تفصيلا ثانيا طوال البعثة كما شرحناه مسبّقا.

هذا تفريق أول للرسول، ثم تفريق ثان بالنسبة للأقدار و الأقضية الإلهية طوال السنة، يفرقها اللّه تعالى لرسوله: «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

و يشاركه في التفريق الثاني الأئمة من أهل بيته المعصومين، كلّ في زمنه، لمكان الاستمرارية المستفادة لهذه الليلة المباركة من: «تنزل»\* «فِيها يُفْرَقُ» لا «تنزل»\* أو «فرق»\*.

ثم‏ «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» لا يخص أمور و أوامر الكرة الأرضية، و إنما الكونية تماما:

«رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» فهذه الربوبية الشاملة توحي أن هذه الرحمة أيضا شاملة: «رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ» تشمل الكون أجمع، فإن محمدا و الخلفاء المعصومين المحمديين هم خلفاء اللّه في الكون أجمع، و الكرة الأرضية على صغرها هي المركز الرئيسي للتشريعات و الأحكام و معرفة الأقضية و الأقدار الإلهية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عن الإمام الصادق (ع) قال: قال علي (ع) في صبيحة أول ليلة القدر التي كانت بعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 387

و ليس معنى القضاء و القدر و الإنشاء ليلة القدر، خروج الأمور عن خيرة الإنسان، و إنما قدر و قضاء و إبرام على ضوء المساعي التي يقدمها الإنسان، فرب خير يؤخّر، أو يبدّل إلى شر، لتأخر الإنسان عن معداته أو تركه لها إلى أضداده.

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ:

و مما توحيه سورة القدر أن الأمور المقدرة فيها ليست إلا الخيّرة لا الشريرة، و إنما حوادث الشر هي حصائل فشل الإنسان في التماسه الخير و مزيد الخير ليلة القدر، ثم توانيه في السعي نحو الخير، أو تركه إياه: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

هنا نعرف مدى علوم المعصومين من أهل بيت الرسالة المحمدية صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنهم يعرفون من الغيب كما يعلّمهم اللّه تعالى، لا كل الغيب:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول الله (ص): «سلوني فو الله لا تسألوني عن شي‏ء إلا أخبرتكم بما يكون إلى ثلاثمائة و ستين يوما من الذر فما دونها و ما فوقها، ثم لا خبرتكم بشي‏ء من ذلك لا بتكلف و لا برأي و لا بادعاء في علم إلا من علم الله تبارك و تعالى و تعليمه، و الله لا يسألني أهل التوراة و لا أهل الإنجيل و لا أهل الزبور و لا أهل الفرقان إلا فرقت بين أهل كل كتاب بحكم ما في كتابهم»

و

عنه (ع) أنه سئل: أ رأيت ما تعلمونه في ليلة القدر هل تمضي السنة و بقي منه شي‏ء لم تتكلموا به؟ قال: لا و الذي نفسي بيده لو أنه فيما علمنا في تلك الليلة أن أنصتوا لإعدائكم فنصتنا فالنصت أشد من الكلام.

و

من حديث له عليه السلام قال فيه: ينزل فيها ما يكون من السنة إلى السنة من موت أو مولود، قيل له: إلى من؟ قال: إلى من عسى أن يكون؟ أن الناس في تلك الليلة في صلاة و دعاء و مسألة و صاحب هذا الأمر في شغل نزول الملائكة إليه بأمور السنة من غروب الشمس إلى طلوعها، من كل أمر سلام هي له إلى أن يطلع الفجر» (نور الثقلين ج 5 ص 641 ح 111- 113).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 388

«عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً. إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ» (72: 27): من رسول و ممن يحذو حذو الرسول في الارتضاء الإلهي، و هم الذين يحملون العصمة الرسالية و إن لم يكونوا رسلا.

متى هي ليلة القدر؟

إنها مجهولة في القرآن و الحديث، و إنما المعلوم أنها من رمضان، فأين هي من رمضان؟

قد وردت روايات تفوق المائة من طرق أصحابنا حول سورة القدر، و تحاول عشرات منها تعيين موقع ليلة القدر بين ليال عشر «1»: و أغلب الظن حسب أغلب الروايات أنها بين الثلاث «19- 21- 23» و الأغلب بينها الأخيرتان، ثم الأغلب بينهما 23.

و من البديهي أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من عترته كانوا على علم واضح منها، فكيف يجهل ليلة القدر من تتنزل الملائكة و الروح فيها على قلبه المنير؟ إلا أنهم كانوا يجملون عن تعيينها لمصالح عدة كما تجدها في الروايات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير نور الثقلين روايتان أنها الليلة الأولى و هي ح 28 و 54 ثلاثة عشر أنها 23 و هي ح 22، 32، 49، 53، 61، 65، 69، 79، 71، 79 و واحدة أنها «21» و هي 77 و اثنتان أنها 27 و هي 73، 74، هذه هي المعينة، ثم هنا روايات مشككة بين ليال، فبين 21، 23 ست روايات هي 33، 57، 58، 88، 60 و بين 19، 21 و 23 سبع روايات هي 61، 62، 64، 66، 67، 72، 57. و روايات ثلاث انها بين 21، 23، 25، 27 و هي 76، 78، 84. و هنا روايات انها في العشر الأواخر و هي 40، 51، 52، 56 (نور الثقلين ج 5).

و في الدر المنثور عن النبي (ص) إضافة الليلة 9 و 11، 29، 30 أيضا (ج 6 ص 372).

فالليالي المعدودة من القدر هي «1- 9- 11- 19- 21- 23- 25- 27- 29- 30» و هي ثلث ليالي الشهر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 389

و هنا روايات مختلقة أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نسيها فأمر أن يطلبوها في العشر الأواخر، و ليضرب بها عرض الحائط لاختلافها عن واقع علم الرسول و عن الأحاديث المستفيضة المصرحة أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من عترته كانوا يعلمونها «1».

و قد نستوحيها متى هي؟ من علائمها على حد تعبير الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «2».

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ:

إنها لا تنفي السلام عن سائر الليالي، لواقع السلام فيها بعضا، و إنما تخصّ السلام التام بهذه الليلة المباركة، كرامة تخصّها بين ليالي السنة- فما هي؟

إنها- على حد تعبير

زين العابدين علي بن الحسين عليه السّلام: «سلام دائم البركة إلى طلوع الفجر على ما يشاء من عباده بما أحكم من قضائه» «3»،

و على حد تعبير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

أخرج ابن أبي شيبة عن الفلتان بن عاصم قال: قال رسول اللّه (ص) إني رأيت ليلة القدر ثم نسيتها فاطلبوها في العشر الأواخر و ترا.

و أفضح منها ما

أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود قال‏ سئل رسول اللّه (ص) عن ليلة القدر قال قد كنت علمتها ثم اختلست مني‏ (الدر المنثور ج 6).

و هذا الأخير يتنافى و الآيات التي تدل على عصمته و أنه ليس للشيطان عليه سبيل، فمن هذا الذي اختلس ليلة القدر عن النبي الأقدس، أهو اللّه و حاشاه، أم هو الشيطان‏ «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فكيف بالرسول (ص).

و كما

عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: يا أبا هذيل! إنا لا يخفى علينا ليلة القدر، إن الملائكة يطوفون بنا فيها. (نور الثقلين ج 5 ص 639 ح 105).

(2) كما

عن عبادة بن الصامت‏ أنه سأل رسول اللّه (ص) عن ليلة القدر، فقال: في رمضان في العشر الأواخر فانها في ليلة و تر: إحدى و عشرين أو ثلاث و عشرين أو خمس و عشرين أو سبع و عشرين أو تسع و عشرين أو آخر ليلة من رمضان، من قامها إيمانا و احتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه، و من إماراتها أنها ليلة بلجة صافية ساكنة ساجية لا حارة و لا باردة كأن فيها قمرا ساطعا و لا يحل لنجم أن يرمى به تلك الليلة حتى الصباح، و من إماراتها أن الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها، مستوية كأنها القمر ليلة البدر، و حرم اللّه على الشيطان أن يخرج معها يومئذ (الدر المنثور 6: 372).

(3) نور الثقلين ج 5 ص 641 ح 114 عن الصحيفة السجادية في دعائه (ع) إذا دخل شهر رمضان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 390

جده‏

الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضي‏ء فجرها و لا يستطيع فيها أن ينال أحدا بخبل أو داء أو ضرب من ضروب الفساد و لا ينفذ فيه سحر ساحر» «1».

و يتأيد هكذا سلام شامل بما نستوحيه من آية السلام: سلام هي، لا: هي سلام، فإن تقديم الخبر «سلام»\* يفيد حصر المبتدأ «هي: ليلة القدر» في السلام، فهذه الليلة محصورة بالسلام دون سواها التي فيها سلام و لا سلام.

فليلة القدر سلام إذ أنزل فيها القرآن الحامل للإسلام التام الكافل للسلام الأبد، و سلام إذ تتنزل فيه الملائكة و الروح من السماء إلى الأرض فتندحر الشياطين بوفود الملائكة، و سلام إذ تتنزل ملائكة السلام بكل أمر، بكل خير عاجل و آجل، و سلام لكل دعاء فيها إذ يسلم من الرد لو لا أنه تأتي بالبوار و الدمار، و سلام لكل من في الأرض عفويا و إن لم يكونوا من أهل السلام و الإسلام .. و إلى أن يطلع الفجر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر ص 615 ح 15.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 391

سورة البينة- مدنية- و آياتها ثمان‏

[سورة البينة (98): الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (2) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4)

وَ ما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 392

\*\*\* أهل الكتاب هم- على الأكثر- أتباع التوراة و الإنجيل، حسب اصطلاح القرآن، و قد قرنوا هنا و في آيات عدة أخرى، قرنوا بالمشركين، مما يبرهن لنا المعني من المشركين حسب القرآن: أنهم هم الوثنيون، لا كل المنحرفين عن خالص التوحيد.

فأهل الكتاب مهما كان انحرافهم في عقيدة التوحيد من تجسيم و حلول و تثنية و تثليث- إنهم على انحرافاتهم الجارفة- لا يردفون في صف المشركين الوثنيين، و لا تشملهم أحكامهم الخاصة، مهما كانوا يضاهئونهم بعض الشي‏ء في عقائدهم و طقوسهم ما لم تصل إلى عبادة الأصنام من دون اللّه.

نرى آيات بينات كهذه تؤكد لنا هذه الحقيقة، بقرنها أهل الكتاب بالمشركين، بل الإلهيين من غير الكتابيين أيضا، كالصابئين و المجوس: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى‏ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 62) «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى‏ وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» (22: 17).

و إذا لا يعد الصابئون و المجوس- الذين لا يعرف لهم كتاب- لا يعدون من المشركين، فأحرى باليهود و النصارى ألّا يعدوا منهم، طالما كانت لهم عقائد مضاهية للمشركين، و أن القرآن يندد بهم لهذا الانجراف الطائش في إشراكهم:

«يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 393

فعلينا أن نفرق بين الإشراك في العبادة من الذين يعبدون أوثانا و أصناما و طواغيت من دون اللّه، و هم المشركون النجس: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا» (9: 28).

و بين الإشراك في الطاعة كاليهود و النصارى الذين‏ «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» (9: 21).

و بين الإشراك في نية العبادة كالرئاء فيها: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» (12: 106): «قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» (18: 10).

و بين الإشراك في ذات الإله كمن يثلث اللّه و يعتقده في ثلاثة أقانيم أو يثنيه في أقنومين .. و بين الإشراك في الخالقية و سواها من شؤون الألوهية- الخاصة.

و القرآن لا يعني من المشركين النجس إلا الفريق الأوّل و هم الوثنيون الذين لا يعبدون اللّه، و إنما يعبدون من يزعمونهم شفعاء أو مختصين عند اللّه.

و من «إنما»\* في الآية: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» نستوحي أنهم الذين ليست عندهم إلا نجاسة العقيدة و العمل، دون مبدأ إلهي يربطهم.

فالآية تحصر كيان المشركين- ككل- في النجس، دون أن تحصر النجس فيهم، مما يوحي بالمعنيّ منهم أنهم هم الوثنيون فحسب، إذ إن غيرهم من المنحرفين في عقيدة الإله لا يحصر كيانهم ككل في النجس، فلأهل الكتاب مبادئ صالحة، مزيجة بأخرى غير صالحة من تجسيم و تثنية و تثليث، و كما عند البعض من فلاسفة الإسلام كالمعتنقين عقيدة وحدة الوجود، فكما ليسوا هم من المشركين النجس، فكذلك أهل الكتاب- على ضلالهم- سواء.

و النجس في المشركين يجسم نجاسة أرواحهم، فيجعلها ماهيتهم و كيانهم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 394

فهم بكليتهم و بحقيقتهم نجس، يستقذره الحس تباعا للروح، و يتطهر منه المتطهرون، و إنه النجس المعنوي لا الحسي، و لكنها سرت إلى الجسم أيضا كسياسة إسلامية، لكيلا يعاشرهم المسلمون، نجاسة سياسية حيادية نشأت عن نجاسة المبدأ الذي يعتنقونه، و هو تأليه غير اللّه.

إن القمة التي يهمها القرآن هي قمة التجرد للّه و الخلوص لدينه، و قمة المفاصلة على أساس العقيدة مع كل أواصر القربى و كل لذائذ الحياة، و هذه القمة ليست بالتي تتعايش منهج الجاهلية الرافضة لمبدأ الإله الحق، مهما تساير الإلهيين الذين يؤمنون باللّه- كيفما كانت تخلفاتهم عن خالص التوحيد- تسايرهم علهم يؤمنون: «قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (3: 64).

و بعد كل ذلك فآية المائدة- و هي آخر ما نزلت من السور- إنها توحي لنا بطهارة أهل الكتاب: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ» (5: 5).

و لا يعنى من طعام أهل الكتاب إلا الذي يصنعونه أو يطبخونه و يلمسونه بأيديهم كالعادة، إلا المحرمات المنصوص عليها في القرآن كالميتة و الدم و لحم الخنزير و الخمر و أمثالها.

و الطعام- حسب اللغة «1» و القرآن و الحديث- لا يخص البر و أمثاله كما زعم، إنه كل ما يطعم و حتى الماء كما القرآن يصرّح: «.. قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا» (2: 249): لم يطعمه: الماء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لسان العرب «الطعام اسم جامع لكل ما يؤكل، و قال ابن الأثير: الطعام عام في كل ما يقتات من الحنطة و الشعير و غير ذلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 395

كما و يصرح بشمول الطعام لكل مأكول: «.. لَنْ نَصْبِرَ عَلى‏ طَعامٍ واحِدٍ» (2: 61): و لو كان هو البركان واحدا، فالقيد بالواحد إذا زائد! «وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ» (69: 36): فيشمل كلّ مشروب أيضا فطعامهم و شرابهم حلّ، و كذا صيد البحر: «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ» (5: 96) .. فلو صاده كتابي و طبخه كان حلا كما هو حل من المسلم.

و إذ نرى روايات، كأنها تخص الطعام بالبر و الحبوب، فهي لا تعني إلا إخراج اللحوم- كما

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السّلام: عني بطعامهم ها هنا الحبوب و الفاكهة، غير الذبائح التي يذبحونها فإنهم لا يذكرون اسم اللّه خالصا على ذبائحهم، ثم قال عليه السّلام: و اللّه ما استحلوا ذبائحكم فكيف تستحلون ذبائحهم‏ «1».

ثم إن تطهير طعام أهل الكتاب و تحليله، لو عني به البر و أمثاله من اليابس، فهو تحليل للحلال و تطهير للطاهر، و ما من أحد يظن أن الطعام اليابس الطاهر ينجس بمجرد أنه للكتابي، أو يلمسه بيده، فليعن الطعام الذي تمسه يده برطوبة أو هو مرطوب.

هذا و كما السنة القطعية متضافرة على طهارة أهل الكتاب، الذاتية «2» بمعنى أنه لو لم تكن عليه نجاسة عرضية بالفعل، و لم تسبقه النجاسة، غير المتأكّد من تطهيرها، كان محكوما بالطهارة، فإذا علمنا أن كتابيا تنجس و تطهر، و لم نعلم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين ج 1 ص 492.

(2)

كصحيحة إبراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا (ع) الجارية النصرانية تخدمك و أنت تعلم أنها نصرانية لا تتوضأ و لا تغتسل من جنابة، قال (ع): لا بأس، تغسل يديها (وسائل الشيعة ج 2 ص 102 ح 11)..

فلقد كان الدافع لهذا السؤال أنها لا تتوضأ و لا تغتسل، لا إنها نصرانية، فجاء: إنها تغسل يديها، و الروايات المانعة عن مؤاكلتهم توحي إلى لزوم تجنبهم ما أمكن لا أنهم نجسون كسائر النجس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 396

تاريخ المتقدم منهما، و المتأخر، حكمنا بطهارته لتعارض استصحابي الطهارة و النجاسة و الرجوع إلى قاعدة الطهارة، و كذلك إذا علمنا طهارته و شككنا في زواله، ثم يختلف عن طهارة المسلم فيما إذا تأكدنا من نجاسته و شككنا أنه طهّر أم لا، فالكتابي إذا محكوم بالنجاسة قطعا، و لكنما المسلم يحكم بطهارته لو غاب زمنا تؤتى فيه فرض الصلاة، أو أية عبادة مشروطة بالطهارة، و التفصيل إلى المفصلات، و كما شرحناه في كتابا «الفقه على ضوء القرآن».

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ:

فمنهم من كفر بالرسالة المحمدية فعدّ في عداد الكافرين، و منهم من آمن فهم المؤمنون، و لم يكن ليبرز الكفر و الإيمان بينهم حتى تأتيهم البينة، و لم يتمكنوا من التحلل عن كفرهم حتى أتتهم البينة فتمكنوا، و لكنهم تمنّعوا- على مكنتهم- عن الإيمان.

إن انفكاكهم عن ضلالهم- علميا أو واقعيا- لم يكن يتحقق إلا على ضوء البينة: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً»: مطهرة من وحي الشيطان، و من الدس و التحريف، رغم كتبهم التي أصيبت بشتى ألوان الاختلاف و الاختلاق، فلم يكن أهل الكتاب ليميزوا وحي الرحمان عن وحي الشيطان في كتبهم، و لا المشركون بعقولهم المدخولة، و أما إذا أتتهم البينة: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً»، فكان عليهم الانفكاك عن كفرهم، ففريق منهم انفكوا فأصبحوا مسلمين، و فريق تجمدوا على واقع ضلالهم عمليا، رغم ظهور الحق لهم على ضوء الصحف المطهرة.

و بما أن الانفكاك هو الانفصال عن اتصال شديد، اتصالهم الشديد بضلالهم القديم، فقد كان من الواجب أن تأتيهم بينة قوية ناصعة، لكي يتحللوا عما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 397

اتصلوا به، بينة بإمكانها البين فيما بينهم، و بإمكانهم التبين بها بعد ما لم يكونوا ليتبينوا:

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً، فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ:

إن الرسول محمدا كان بيّنة من اللّه يحمل في دعوته آيات بينات: «نُورٌ عَلى‏ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ» و إنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أقوى ما أتت الإنسان- عبر تاريخ الرسالات الإلهية- من البينات، أقواها متنا و أبقاها زمنا بقرآنه المبين و تبيانه الحكيم.

فلقد كان قرآن محمد و محمد القرآن معجزتين خالدتين عبر الزمن، الضاربتين في أعماق التاريخ، لا ترجعان إلى الوراء على تقدم العلم، و إنما تزيدان نورا و ظهورا و بهورا كلما تظاهر العلم و ازدهر.

فكما كان القرآن بينة ما في الصحف الأولى و زيادة خالدة: «أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى» (20: 133) كذلك رسول القرآن كان بينة الرسل، و على بينة القرآن: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ» (11: 17).

فلم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين منفكين عن ضلالهم الذي عاشوه منذ زمن بعيد، إلا بهذه الرسالة السامية الجديدة، التي تحمل كافة معجزات الرسالات و توجيهات الرسالات و زيادات خالدات تعيش مع الزمن و تشرق على قلوب و أفكار الإنسان ما أشرقت الشمس على هذه المعمورة.

لقد عاشت الخرافات أفكارهم، و شربت مياه قلوبهم، و تصدرت في صدورهم، أن زعموا الباطل حقا و الحق باطلا، فهم أهل الكتاب، و هم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 398

بعيدون عن وحي السماء، بعد ما بين الأرض و السماء، منحطين خابطين إلى وحي الأرض قربهم إلى الأرض.

«يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً»: يتلو- دون أن يكتفي بالقراءة، فالتلاوة هي المتابعة: «وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها. وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها» (91: 2- 3) فكما القمر قمر ما دام يتلو الشمس، كذلك الرسول هو شمس هداية السماء ما دام يتلو القرآن و يتبعه قراءة و إقراء، تفكيرا و اعتناقا، تطبيقا و نشرا، و أن تكون حياته حياة التبعية لوحي القرآن أيا كان، و أن يصبح هو قرآنا ناطقا عاملا موجها هاديا إلى اللّه بإذنه و سراجا منيرا ما دام فيهم، ثم يبقى قرآنه صورة عن هذه الحتمية، سندا بعده و إلى يوم الدين، منارا يقاس عليه الغث و السمين، و مدارا كتابيا لكل كتاب، وداع إلى كتاب.

«صُحُفاً مُطَهَّرَةً»: جمع الصحيفة، و هي المبسوط من الشي‏ء دون خفاء و خباء .. «مطهرة»\*: هي خالصة الوحي، دون شوب بوحي الأرض، مطهرة عن التهافت و الاختلاف و الاختلاق، و عن كل ريبة.

و القرآن هو الصحف المطهرة، إذ إنه يحمل الوحي الصادق النازل على النبيين من قبل، و فيه زيادات هي خاتمة الوحي، أجل إنه الكتب كلها و زيادة، كما محمد هو الرسل كلهم و زيادة.

إنه بينة ما في الصحف الأولى: «أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى‏» (20: 133) بلى أتتهم في الوحي الأخير.

أو إن الصحف المطهرة هي صحائف القرآن، حاملة كل منها كتبا:

مكتوبات، قيمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 399

«قيمة»\*: إذ لا تنسخ، خلاف البعض مما في الصحف الأولى، قيّمة تحمل كل القيم الحيوية للإنسان، و قيمة لأنها الأصل في التشريع يقاس إليه ما سواه.

و هذه الصحف المطهرة- مهما كانت- فهي لم تكن في قرطاس، إنما في لوح قلبه المنير: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» (23: 194).

فقبل أن توحى إليه لم تكن صحفا قطّ: «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ» (11: 49) و قبل أن يتلوها عليهم ما كانت صحفا للناس، إنما له إذ أوحيت إليه، ثم بتلاوته لهم أصبحت صحفا لهم كما كانت له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و دليلا كتابيا على أن الصحف ليست في قرطاس، و إنما القرطاس ظرف ضئيل من ظروفه التي تحمله: «وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ» (81: 10): صحف الأعمال تنشر، و ليست هي إلا انعكاسات الأعمال و الأقوال الموجيّة: «فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرامٍ بَرَرَةٍ» (80: 16) و معلوم أن الوحي لم ينزل على رسل السماء (الملائكة) و رسل الأرض (النبيين) لم ينزل عليهم في قرطاس: «وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» (6: 7).

فهذه الصحف المطهرة- و هي بينة- قد تلاها محمد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو أيضا بينة.

هذه ليست بالتي تسمح بالتفرق، و إنما لزامها الوحدة المتماسكة حول الحق الناصع منها.

و لكن أهل الكتاب، رغم أنهم لم يكونوا ليتفرقوا قبل هذه البينة، فقد كانوا مجتمعين في الضلالة، رغم ذاك، أخذوا يتفرقون بعد ما جاءتهم البينة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 400

وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ:

تفرقوا في البينة و عن البينة، تفرقا عامدا، ففريق آمن و فريق كفر:

«وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» (27: 14).

و هكذا تكون طبيعة الإنسان و سجيته الطائشة المتخلفة: «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (2: 213) «1».

ليس واقع الاختلاف و فكرته من الدّين الحق، و إنما ممن يدّعون أنهم ديّنون، ثم يختلقون مواد الخلاف تحت ستار الدين، و قد عدّ اللّه تعالى الوحدة في الدين من رحماته الهامة التي يهدفها على ضوء الوحي و خيرة الإنسان دون تسيير «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ» (11: 118). خلقهم للرحمة، و من أبرزها الوحدة في الدين، خلقهم لها و وجههم إليها بالوحي المتواصل، ناهيا عن الاختلاف: «وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ» (3: 105).

و إن أهم ما اختلف فيه أهل الكتاب لهو قصة الإله، في كيانه و صفاته و أفعاله، و في عبادته، فمن مجسّم و مثلّث و مثنّ، و مشبه له بخلقه أسخف تشبيه .. و إلى أن أصبح السيد المسيح عند الكثير من المسيحيين، أصبح موضوع الإيمان، و إله الآب فرعه، يذكر في عداد الأقانيم، و لكنه على الهامش‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (المقارنات) من ص 115.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 401

في كيان الألوهية، فتراهم يقولون: إلهنا و ربنا المسيح، ديّاننا و منقذنا و ...

رغم أنهم كأهل الكتاب نهوا عن هذا و ذاك:

وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ:

عبادة اللّه وحده دون أن يعبد سواه أو يعبد معه سواه، عبادة خالصة تنتج طاعة خالصة: «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»: الطاعة، لا أن يعبدوا اللّه ثم يطيعوا سواه، كما اتخذ اليهود و النصارى أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللّه، أربابا في الطاعة، لا في عقيدة الألوهية و العبادة، فما قيمة عبادة لا طاعة فيها و كما يتقولون: أعطوا ما للّه للّه و ما لقيصر لقيصر! فمن هو قيصر و من فوقه بجنب اللّه حتى يحسب له حساب في جنبه.

فكما الإشراك في عبادة اللّه كفر، كذلك الإشراك في طاعته، و من أهم ما يرام في عبادة اللّه، هو طاعته فيما يأمر و ينهى، و ليس الإله المعبود غير المطاع إلا كجماد! إنما هي عبادته و طاعته، و من أبرز عباداته إقام الصلاة، و من أبرز طاعاته إيتاء الزكاة: «وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»: دين الكتب القيمة، وحي السماء الخالص عن دنس الأرض و خرافاتها، فلقد أجمعت كتب الوحي القيّمة على هذه الأركان الأربعة الدينية، مهما اختلفت في البعض من صورها، أو البعض مما سواها:

1- عبادة اللّه خالصة، 2- طاعته خالصة .. حنيفا: معرضا عمن سوى اللّه في العبادة و الطاعة، 3- إقام الصلاة، 4- إيتاء الزكاة .. «وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»: ذلك طاعة الكتب القيمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 402

لا أن يشرك باللّه في عبادته و طاعته، و يصلّى لغير اللّه كما المسيحيون أحيانا يصلون للمسيح، و يطيعون أحبارهم كأنهم أرباب، و أشرّ منهم اليهود.

و لا أن تدفع الأموال في متاجرات القساوسة، إذ يشترون الذنوب بالأموال لكي يغفروها هم‏ «1»! «وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»: لا ينسخ و لن ينسخ على مر الزمن و طوال رسالات السماء، مهما اختلفت في أشكالها، فالجذور واحدة «2».

إن الكافر جحيم في الدنيا و جحيم في الآخرة، كما المؤمن جنة في الدنيا و جنة في الآخرة، و خلود كلّ من الفريقين إنما هو حسب خلوده في الكفر أو الإيمان، عقائديا و عمليا، جزاء وفاقا:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ:

فهل يا ترى كيف يسوى بين الكتابي و المشرك في خلود النار؟ نقول لا تسوية هنا، رغم المشاركة في أصل الخلود، إذ الخلود هو البقاء مدة طويلة، فكلّ من الكتابي و المشرك يبقى في النار مدة طويلة حسب استحقاقه، قليلا أو كثيرا، فإنه ليس الخلود كما يزعم: هو البقاء الأبدي الفلسفي اللانهائي، و لو كان لم يكن لقيد الأبد في خلود المؤمنين من معنى، و هنا الأبدية في خلود المؤمنين توحي لنا أن الخلود منه أبدي و منه غيره، و رغم أن المشركين يخلدون في النار آبدين، لم يذكر لهم الأبد هنا رعاية لشركائهم في العذاب: أهل الكتاب، إذ لا يخلدون أبديا، و ليس من العدل تخليدهم كالمشركين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (عقائدنا) قسم غفران الذنوب عندنا، و صكوك الغفران المسيحي.

(2) راجع كتابنا (المقارنات) ص 115.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 403

ثم الخلود الأبدي أيضا لا يعني إلا خلودا أطول من غيره، لا الخلود اللانهائي فلسفيا، فإنه خلاف العقل و العدل و النقل، قرآنيا و في السنة، و مما يوهن صلابة الخلود- في زعم اللانهاية- أن الخلود لغويا ليس إلا المقام مدة طويلة، و لا يعني الأبد لخلود النار إلا أبد الحياة و مدى الحياة، و إن كان الأبد في الجنة لا نهائيا، إذ إن اللانهاية في الرحمة من فضل اللّه، و هي في العذاب ظلم، و النهاية في العذاب لزام عدله‏ «1».

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ:

هناك شر البرية و هنا خير البرية، و هنا لك المتوسطون بين الفريقين على درجاتهم، فلا أن أشرارهم يخلّدون في النار، و لا أن أخيارهم يدخلون الجنة بغير حساب، و من خير البرية- و على حد قول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- هو نفسه و عينه و خليفته في أمته علي أمير المؤمنين عليه السّلام‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (عقائدنا) المخلدون في النار ص 306- 322 و الآية لابثين فيها أحقابا من سورة النبأ في هذا الجزء.

(2)

الدر المنثور ج 6 ص 379- أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد اللّه قال‏ كنا عند النبي (ص) فأقبل علي (ع) فقال النبي (ص) و الذي نفسي بيده إن هذا و شيعته لهم الفائزون يوم القيامة و نزلت‏ «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» فكان أصحاب النبي (ص) إذ أقبل علي (ع) قالوا: جاء خير البرية، و أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس و ابن مردويه عن علي (ع)، و أخرجه ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري مرفوعا، و في كتاب شواهد التنزيل للحاكم أبي القاسم الحسكافي قال أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ بالإسناد المرفوع إلى يزيد بن شراحيل عن علي (ع) مثله.

أقول: و هذا من قبيل الجري و التطبيق في المختلف فيه بين المسلمين، إذ من الضروري أن الرسول (ص) هو خير البرية قبل علي (ع) كما

في اعتقادات الإمامية للصدوق قال النبي (ص) أنا أفضل من جبرائيل و مكائيل و إسرافيل و من جميع المقربين و أنا خير البرية من ولد آدم‏ (نور الثقلين ج 5 ص 645 ح 15).

و ثم بعد الرسول من رباهم بالوحي، من خلفائه المعصومين، كما

في أصول الكافي عن طاهر قال‏ كنت عند أبي جعفر (ع) فأقبل جعفر (ع) فقال أبو جعفر (ع) هذا خير البرية، أو «أخير».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 404

جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ‏:

جنات عدن- أي: استقرار و مقام دون خروج عنها: خلودا أبديا في الجنة للذين آمنوا و عملوا الصالحات- كل الصالحات- و خلودا لكفرة أهل الكتاب و المشركين، أبديا للآخرين و غير أبدي للأولين، و أبدية الخلود في النار لا تعني إلا البقاء مدى الحياة، فسوف تموت النار و تخمد، و يموت معها من فيها، قبل أن يخرج منها من يستحق الخروج إلى الجنة.

«رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»: لأنهم سلموا لأمره‏ «وَ رَضُوا عَنْهُ» يوم الدنيا و يوم الآخرة، إذ يرون فضله الدائم فوق التصور و الحسبان‏ «ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» فالخشية هي خوف مع إعظام في القلوب، كما الخشوع هو هو في القلب، فالخشية تعمّ الإنسان قلبا و قالبا، تعم كيان الإنسان ككل، و النتيجة هي الإيمان عقائديا و عمليا.

هذه هي سورة البينة دون زيادة و لا نقصان، و الزيادات الواردة في بعض الروايات مختلقات تشهد بذواتها، أو أنها تفسيرات لآياتها «1» كما في مصحف الإمام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فكل واحد من القادة المعصومين هو خير البرية في زمنه كما هو الواجب للمصطفين الأخيار، و كذلك أشياع القادة الخيرة هم خير الأشياع.

(1). كما

في أصول الكافي بالإسناد إلى محمد ابن أبي نصر قال‏ رفع إلي أبو الحسن (ع) مصحفا و قال: لا تنظر فيه، ففتحته و قرأت فيه‏ «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا» فوجدت فيها اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم و أسماء آباءهم فبعث إلي أن ابعث إلي بالمصحف‏ (نور الثقلين ج 5 ص 642 ح 4).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 405

امير المؤمنين عليه السّلام أو أنها مقحمات‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في الدر المنثور ج: 6 ص 378 عن أبي بن كعب أن رسول اللّه (ص) قال: إن اللّه أمرني أن اقرأ عليك القرآن: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب، فقرأ فيها: و لو أن ابن سأل واديا من مال فأعطيه لسأل ثانيا، و لو سأل ثانيا، فأعطيه لسأل ثالثا و لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب و يتوب اللّه على من تاب و إن ذات الدين عند اللّه الحنفية غير المشركة و لا اليهودية و لا النصرانية و من يفعل ذلك فلن يكفر.

و

في نقل آخر عنه‏ أنه (ص) قرأ بعد «ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ» إن الدين عند اللّه.

و في ثالث‏

عنه‏ أنه (ص) قرأ السورة هكذا: ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من اللّه يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة أي ذات اليهودية و النصرانية أن أقوم الدين الحنفية مسلمة غير مشركة و من يعمل صالحا فلن يكفره و ما أختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة إن الذين كفروا أو صدوا عن سبيل اللّه و فارقوا الكتاب لما جاءهم أولئك عند اللّه شر البرية ما كان الناس إلا أمة واحدة ثم أرسل اللّه النبيين مبشرين و منذرين يأمرون الناس يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يعبدون اللّه وحده و أولئك عند اللّه هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي اللّه عنهم و رضوا عنه ذلك لمن خشي ربه.

أقول: لو كانت هذة الزيادات تفسيرات للآيات فهي غالطة، و لو كانت من ضمن الآيات فأغلط، فهل إن الكتب القيمة هي ذات اليهودية و النصرانية، و هل إن الدين الحنفية هو المسلمة غير المشركة، و بعد ملاحظة بسيطة في هذه الجمل المقحمة و آيات البينة تجد أنها شطحات و خيالات يهودية نصرانية تهدف إلى تشويه سمعة القرآن ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 406

سورة الزلزال- مكية- و آياتها ثمان‏

[سورة الزلزلة (99): الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (1) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (2) وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (4)

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

\*\*\* إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها:

الزلزال الخاص بها في آخر المطاف، بعد زلازل موضعية تعيشها قبل موتها، و بعد الرجفات التي تعيشها طوال حياتها، حفاظا على كيانها الأرضي بين زملائها.

أرضنا هذه راجفة: محكومة بحركات عدة أنهاها العلماء حتى الآن إلى أربع عشرة حركة، رجفة تعيّشها و من عليها، عامرة معمّرة، ثم تأخذها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 407

رجفة تدمّرها و تميت من عليها: «رجفة الإماتة» ثم رجفة الإحياء: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» (79: 7).

إن رجفة الأرض- الدائبة- ظاهرة حسب القرآن، حتى عدّت الراجفة من أسمائها، فهي راجفة دوما، و تتبعها رجعة رادفة يوم احتضارها.

و آية الزلزال تتحدث عن رجفة الإماتة و التدمير التي تتلوها رجفة الإحياء، و أنها في زلزالها تمدّ مدا: «وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ» (84: 3- 4) و تشقّق عن حملها سراعا: «يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ» (50: 44) و تحمل على أكتاف الزلزال مع جبالها إلى قبرها: «وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً» (69: 13) ..

و إلى حيث لو رأيتها ما عرفتها: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (14: 48).

إثر هذه الزلزلة و الرجفة و الدكة و الإنشقاق، سوف تخرج الأرض أثقالها:

وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها:

أثقالها: أحمالها التي اختبت في جوفها، من إنسانها و حيوانها، و من جواهرها و ثرواتها.

«أثقالها»: أثقالها معنويا كإنسانها الذي فضّل على كثير ممن خلق تفضيلا، و ماديا كالجواهر المرغوبة لإنسانها، و لقد دفنت الأرض كلا الثقلين ليوم تقوم الأشهاد، فإلى عرصات التساؤلات .. إنها دفنت الطالب و المطلوب و «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ» و الثقل المطلوب سوف يشهد للطالب و عليه، و يشهد الطالب بالمطلوب، له أو عليه، و كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «تقي‏ء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب و الفضة، فيجي‏ء القاتل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 408

فيقول: في هذا قتلت، و يجي‏ء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، و يجي‏ء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا فلا يأخذون منه شيئا» «1».

تخرج الأرض أثقالها: أماناتها، و كما تحدّث أخبارها الناتجة عن تلكم الأثقال:

فيا للأرض من حافظة أماناتها إلى حين زلزالها، تؤديها سالمة سليمة، دون تدجيل و تدغيل، دون زيادة و لا نقصان و لا تضليل! وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها:

.. هذه الإنسانية التي رأت- طول تاريخها- الزلازل و البراكين، و شهدت زعزعات و رجفات، هذه الإنسانية- و هي تعيش أخريات الأنفاس من حياتها- هذه تقول: ما لها؟ .. كأنها- أو أنها- صرخة جماهيرية تزامل صرخات الزلزال، و إنه سؤال المشدود المبهوت من زلزالها هذا، الذي لم يعهده طوال حياته و حياة الأرض.

إنه سؤال الدهشة في يوم عصيب: «يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى‏ وَ ما هُمْ بِسُكارى‏ وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (22: 2).

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها:

.. هذه الإذاعة تذيع أخبارها كاملة، و تؤدي أماناتها شاملة، متى؟

يوم دمارها بزلزالها، و بعد ما أخرجت أثقالها، فإن أخبارها ليست إلا عن أثقالها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور ج 6 ص 380.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 409

فهل يا ترى إن الأرض سوف تصبح حيوانة أو إنسانة تحدث؟ تحدث بما أحدثه إنسانها في حياة التكليف؟ أم سوف تصبح جبالها كألسنة لها حداد، و هي بحول اللّه و قوته تحدث أخبارها .. و كما يتقوّلها القوالون غير المفكرين! كلا! فما ذا يعنى بهكذا أخبار أجنبية عن كيان الأرض، المضغوط بها عليها، فهل إن فيها حجة على أصحاب الأخبار الذين عملوها و أحدثوها؟

كلا! فإنهم‏

«تعرض عليهم أعمالهم فينكرونها فيقولون ما علمنا شيئا منها فتشهد عليهم الملائكة فيقولون يا رب هؤلاء ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون بالله ما فعلوا من ذلك شيئا» «1»

ثم يأتي اللّه بشهود العيان، صور الأعمال و أصوات الأقوال المسجلة في الأرض و في الأعضاء، و عند ذلك يبكتون، أجل و إن الأرض تحدث أخبارها بما شهدتها و سجلتها:

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها:

رمز لها في عمق كيانها أن تسجل ما يحدث عليها و ما يقال، من أعمال و أقوال، ثم تذيع ما سجلته مع سائر الإشهاد يوم يقوم الإشهاد، و إنه ليس وحي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

رواه القمي في تفسيره عن الصادق (ع) و تتمة الحديث كالتالي: «.. و هو قول الله:

يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم، فعند ذلك يختم الله ألسنتهم و ينطق جوارحهم فيشهد السمع بما سمع مما حرم الله، و يشهد البصر بما نظر إلى ما حرم الله، و تشهد اليدان بما أخذتا، و تشهد الرجلان بما سعتا فيما حرم الله، و يشهد الفرج بما ارتكب مما حرم الله، ثم انطق الله ألسنتهم فيقولون لجلودهم لم شهدتم علينا فيقولون أنطقنا الله الذي انطق كل شي‏ء و هو خلقكم أول مرة و إليه ترجعون و ما كنتم تستترون من الله أن يشهد عليكم سمعكم و لا أبصاركم و لا جلودكم و لكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون».

أقول: و شهادة الأعضاء هي بروز الصور و الأصوات التي تلقتها، فهي مسجلات إلهية كما الأرض مسجلة، ثم يصدق النبيون و الملائكة الذين يشهدون، وفق الأرض و الأعضاء، شهود أربعة تحيط بالمجرمين إحاطة كاملة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 410

النبوة و لا وحي الإلهام، و لا وحي الغريزة، و إنما وحي في تكوينها، و رمز في كيانها الذي يجهله من سوى اللّه و الراسخين في العلم.

فيا للأرض من مسجلة سرية حافظة لما يحصل عليها، ثم لا تتحدث عنها إلا عند قيامتها، تسجل و تحدث خلاف سائر المسجلات و الأسطوانات ... فإنها تسجل طوال حياتها دون أن تحدث جهارا حالها، ثم تحدث بما سجلت عند احتضارها و موتها، مؤدية أماناتها بكاملها!.

فهل إن بالإمكان أن تبقى صور الأعمال و أصوات الأقوال و حالات الأفكار ليوم تشخص فيه الأبصار؟ .. أجل و كما صرحت به آيات بينات من الذكر الحكيم، في هذه السورة و سواها، و صدقها العلم.

كان الناس لا يصدقون، قبل صناعة التلفزيون و الراديو و المسجلة و أشباهها، من المسجلات للصور و الأصوات، كانوا لا يصدقون هامة انعكاس الأعمال يوم القيامة، فكان الكافر و الشاك ينكر و يستهزأ، و كان المؤمن يتحير و يؤوّل، لكنما العلم خدم هذه الملحمة الغيبية القرآنية بجنب أمثالها، و على حد تعبير الصحابي الكبير ابن عباس «إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن» فلقد فسر الزمن هامة انعكاس الأعمال المصرح بها في آيات عدة:

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ‏:

أجل: ليروا أعمالهم، لا جزاء الأعمال فحسب، بل الأعمال نفسها أيضا، عذابا فوق العذاب.

إن المؤمن يوم الدنيا في غفلة واحدة عن عملية مسجلتنا الأرضية، إلا من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 411

هداه اللّه على ضوء التصريحات القرآنية، و الكافر في غفلتين، غفلة الجهل و غفلة الكفر «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ. وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 20- 22).

كنت في غفلة عن الشهيد، و منه الشهيد الأرضي الذي شهد أعمالك و سجلها ثم يحدثك أخبارها، «وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» (18: 48)، «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (3: 30).

فالأعمال كلها يوم القيامة حاضرة محضرة، يحضرها اللّه تعالى بما سجلها في الأرض و في أعضاء الإنسان ذاته، و في ذات الإنسان، إن اللّه هو الذي يستنسخ الأعمال كما تصدر، دون زيادة و لا نقصان، و نسخة الأعمال هي الكتاب الذي سوف ينطق علينا بالحق: «وَ تَرى‏ كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى‏ إِلى‏ كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 28- 29): «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 15- 16).

فكما الإنسان- نفسه و بأعضائه- هو من شهود الأعمال له أو عليه، كذلك الأرض بجرمها و جوّها تسجّل أعماله و أقواله هنا، ثم تحدثها هناك: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها».

فكما رباك ربك و أعدّك للوحي تلقيا و تحديثا، كذلك أوحى للأرض- إذ خلقها- أن تسجّل الأعمال فتحدثها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 412

إننا سوف نسمع أقوالنا كما قلناها، و نرى أعمالنا كما عملناها، كأننا عملناها الساعة، و على حد تعبير

باقر العلوم عليه السّلام: «خيره و شره معه حيث كان لا يستطيع فراقه حتى يعطى كتابه بما عمل» «1»،

فخير الإنسان و شره لزامه في ذاته: «معه»\* و في المكان الذي عمله: «حيث كان» لا يستطيع فراقه.

و

عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام: «يذكر العبد جميع ما عمل و ما كتب عليه حتى كأنه فعله تلك الساعة» «2».

و بخصوص تحديث الأرض‏

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: أ تدرون ما أخبارها؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: أخبارها أن تشهد على كل عبد و أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا و كذا يوم كذا و كذا فهذه أخبارها «3».

يعني من قولها: ما سجلتها، و يا ويلنا من هذا التسجيل الشامل لزمن الأعمال و مكانها، و لكي نشهد ما عملناه و قلناه شهود عيان فلا نجرؤ على الإنكار.

إن الأرض سوف تؤدي رسالتها بالوحي، وحي التكوين، و سوف تصبح شاشة قوية: «لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها، وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير العياشي.

(2) تفسير العياشي.

(3)

الدر المنثور ج 6 ص 280 أخرجه أحمد و عبد بن حميد و الترمذي و صححه و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قرأ رسول اللّه (ص) هذه الآية: يومئذ تحدث أخبارها، قال: أ تدرون ما أخبارها؟ ...

و

أخرج بن مردويه و البيهقي في شعب الايمان عن أنس بن مالك أن رسول اللّه (ص) قال: إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل ما عمل على ظهرها و قرأ: يومئذ تحدث أخبارها.

و

أخرج الطبراني عن ربيعة الجرشي أن رسول اللّه (ص) قال: تحفظوا من الأرض فإنها أمكم و إنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرا إلا و هي مخبرة به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 413

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ‏:

يصدرون- هم- بعد صدور أعمالهم، و بعد أن حصّل ما في الصدور، يصدرون فيفاجئون بشهود المشهد العظيم، «لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ» نفس الأعمال كبداية للعذاب تخجيلا مما عملوا على رؤوس الأشهاد، و إفحاما بواقع الأعمال، و لكي لا يجدوا سبيلا للإنكار، ثم عذاب ثان يستمر، هو ظهور حقيقة هذه الأعمال، فجزاء الأعمال إنما هي الأعمال لا سواها: «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فالأعمال رؤيتها و ذواتها، هي عذاب فوق العذاب.

يصدر الناس أشتاتا حسب شتات الأعمال، ليروا أعمالهم، كأن رؤيتها أخطر من جزائها، أمرّ و أدهى مما يمرّ عليه ساعتها، و إنهم- على أشتاتهم- ذاهبون على غفوة و غفلة مما عملوا، و علهم نسوها أو تناسوها، ذاهبون إلى شاشة عرض الأعمال، و الشاشة هي الأرض كلها .. و من أعماله ما يهرب من ذكراها، فكيف بمواجهتها على رؤوس الأشهاد، إنه يشيح بوجه عنها لبشاعتها يوم العرض، حين تتمثل له في أمرّ نوبة من نوبات الندم و لذع الضمير، ولات حين مناص.

فهل إنهم سوف يرون عظائم الأعمال دون صغائرها، و هل إن رؤية الكبائر تنوب و تكفي عن رؤية الصغائر؟ كلا:

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ‏:

اللهم إلا الخير الحابط غير الثابت، و إلا الشر الممحو الساقط على التفاصيل التي نجدها في الذكر الحكيم:

فمن السيئات ما تنمحي بترك الكبائر و فعل الحسنات: «.. إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31) «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ» (11: 114).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 414

و منها ما تنمحي بالتوبة و الشفاعة على شرائطهما المفصلة في محالها «1».

و منها ما تنمحي بمصائب الحياة و نوازلها، و كما عن الرسول الأقدس صلى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «2».

ثم ترى منها ما تبقّى، و الويل لما تبقّى، فمثقال ذرة منها لا تخفى إلا ظاهرة في شاشة المحشر و ساحته.

و قد نحتمل أن صور الأعمال كلها تبقى، ما يعفى عنه أو يحبط، و ما لا يحبط أو يعفى عنه، فخير الكافر يبقى- على حبطه- يبقى ليراه فيزداد تحسّرا أنه لم ينفعه يوم الشقة، و شر المؤمن يبقى- على عفوه- ليراه فيزداد سرورا بفضل اللّه و عفوه كما عن باقر العلوم عليه السّلام‏ «3»، و لكنها رؤية لا تفضحه.

سوف يرى هناك ما لا يكاد يراه هنا، فالذرة المادية هنا لا ترى بأعظم المجاهر، و إنما هي رؤيا علمية في ضمير العلماء، لم يروها حسيا حتى الآن، و سوف يراها كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع «عقائدنا» ص 225، و يأتي البحث عنها في طيات الآيات المناسبة إن شاء اللّه.

(2)

في الدر المنثور ج 6 ص 381 أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال: لما أنزلت هذه الآية «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ..» إلخ. قلت: يا رسول اللّه (ص)! إني لراء عملي؟

قال: نعم، قلت: تلك الكبار الكبار؟ قال: نعم، قلت: الصغار الصغار؟ قال: نعم، قلت:

وا ثكل أمي! قال: أبشر يا أبا سعيد فإن الحسنة بعشر أمثالها يعني إلى سبعمائة ضعف، و اللّه يضاعف لمن يشاء، و السيئة بمثلها أو يعفو اللّه، و لن ينجو أحد منكم بعمله، قلت: و لا أنت يا نبي اللّه! قال: و لا أنا! إلا أن يتغمد في اللّه منه بالرحمة.

و

فيه عنه (ص) .. أ رأيت ما رأيت مما تكره؟ فهو من مثاقيل الشر، و يدخر لك مثاقيل الخير حتى توفاه يوم القيامة، و تصديق ذلك في كتاب اللّه: «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ».

(3)

تفسير علي بن إبراهيم عن أبي جعفر الباقر (ع) في قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ» يقول: إن كان من أهل النار و قد كان عمل في الدنيا مثقال ذرة خيرا، يره يوم القيامة حسرة، أنه عمله لغير اللّه، «وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» يقول: إن كان من أهل الجنة رأى ذلك الشر يوم القيامة ثم عفر له‏ (نور الثقلين ج 5 ص 651 ح 18).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 415

الناس دون مجاهر، و إنما بحديد البصر «.. فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» يرون كلا بما يناسبه و يسانخه: رؤية البصيرة و البصر و السمع .. يرى الخير ثقيلا و الشر خفيفا، و تعبير المثقال للشر لا يثقل الشرّ في الميزان إلا في التعبير.

و قد يكون المثقال هنا و هناك إشارة إلى مدى تأثير الخير و الشر في دنيا الحياة، فكما الخير يرى بنفسه، كذلك بآثاره التي خلّفها خلفه، كما الشر أيضا يرى هكذا، ثم الجزاء على الخير و الشر سوف يكون جزاء وفاقا لثقلها: قدر التأثير و مداه، كما تدل عليه آيات و روايات عدة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد فصلنا البحث عن ذلك في الآيات المناسبة التي تخصه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 416

سورة العاديات- مكية- و آياتها إحدى عشر

[سورة العاديات (100): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً (1) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (2) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (4)

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (5) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَ إِنَّهُ عَلى‏ ذلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (9)

وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

\*\*\* وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً:

جمع العادية من العدو «1»: المشي السريع، و منها الأفراس المسرعة في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في المفردات للراغب العدو التجاوز و منافاة الالتئام و هو تارة بالقلب فهو العداوة و المعاداة، و أخرى بالمشي فهو العدو، و ثالثة في الإخلال بالعدالة فهو العدوان و العدو، و رابعة بإجزاء المقر فهو العدواء أي مكان ذو عداء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 417

المشي، «ضبحا» و هو صوت أنفاس الفرس تشبيها له بالضباح و هو صوت الثعلب.

و العاديات: قسما بالمسرعات في سبيل اللّه، قسما بالمناضلات في معركة الشرف و الكرامة، سواء أ كانت أفراسا أم إبلا، أم دبابات و طائرات مقاتلة، أم أية مسرعات تضبح في عدوها.

إنه قسم بالطاقات الجبارة التي منحها اللّه الإنسان، و هيأها له ليدافع عن نفسه و نفيسه و أنفس نفيسه: شريعة اللّه و أرضها و عرضها.

تبدأ السورة بمشهد القوات العاديات الضابحات- أية قوات- خيلا أم إبلا- كما تناسب زمن نزولها- و دبابات و طائرات و أشباهها، لأن شريعة الجهاد لا تخص زمن الخيل و الإبل.

العاديات الضابحات، الموريات قدحا بعدوها، قدحا بريا أم بحريا أم جويا، قدحا يقدح العدو و يكبته الخسار، و يوري عليه بالنار التي يوريها عليه و على كيانه.

يأخذ القرآن هنا مثالا: العاديات زمن نزوله، ثم يصفها بما يصف، دون أن تختص بالخيل و الإبل، إذ إنه كتاب الزمن:

فَالْمُورِياتِ قَدْحاً:

الإيراء إخراج النار بالعدو الضابح أم سواه، نتيجة سرعة الحراك، سرعة في الجو توري من اصطكاكها الجوي قدحا، و سرعة الدبابات المورية بصدامها عبر سيرها الأرضي، و سرعة السفن كذلك في الماء.

«فَالْمُورِياتِ» إن الإيراء هذا نتيجة سرعة العدو هجوما على العدو «قَدْحاً»:

صكا بصدام السير لسرعته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 418

فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً:

تغير في الصباح الباكر لتفاجئ العدو الغادر، نعم صبحا لتصبح غالبة على حين غفلة و غفوة من العدو.

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً:

على أثر الإيراء و الإغارة أثرن نقعا: غبارا شديدا في الصباح، نقعا من غبار الأرض، و نقعا على عقول و أفكار المغبّرين الأعداء، و نقعا على حياتهم العنيدة.

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً:

وسطن جمع الأعداء، و هكذا يجب أن تكون الحرب، أن يهاجموا الأعداء في عقر دورهم و مآمنهم ليوقعوا المهابة فيهم و يخسروهم معنوياتهم في البداية، و يخسروهم أنفسهم في النهاية، فما قلة المؤمنين بالتي تخسرهم ما داموا مؤمنين صامدين، يرهبون عدو اللّه و عدوهم، و هكذا أمروا أن يكونوا على اهبة و عدّة إرهابية: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ».

هذه هي خطوات المعركة الناجحة على ما يألفه أعداء القرآن.

قسما بهذه الطاقات و الخطوات المجيدة في معارك الشرف و الكرامة:

إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ:

تنديد بكند الإنسان الفاشل في حرب الأعداء، الراجع منهزما عن خط النار بكل عار و بوار نتيجة خوفه و جبنه عن الكفار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 419

فقد نزلت السورة في حرب ذات السلاسل لما بعث النبي (ص) عليّا إلى ذات السلاسل فأوقع بهم، و ذلك بعد أن بعث عليهم مرارا عدة غيره من الصحابة- بمن فيهم عمر و أبو بكر- فرجعوا إلى رسول اللّه (ص) فاشلين، و لما نزلت السورة خرج رسول اللّه (ص) إلى الناس فصلى بهم الغداة و قرأ فيها:

«وَ الْعادِياتِ» فلما فرغ من صلاته قال أصحابه: هذه سورة لم نعرفها،

فقال رسول اللّه (ص) نعم إن عليّا ظفر بأعداء اللّه و بشرني جبرائيل في هذه الليلة فقدم علي عليه السّلام بعد أيام بالغنائم و الأسرى.

إنه قسم بالمناضلين الصامدين الصادقين أن من سواهم من الخاملين الفاشلين لربهم كنودون: كفورون بنعمه التي منحها إياهم، لا يستعملون القوة- التي حباهم ربهم- في سبيله.

قسم بنعمة اللّه لواقع الكفران، و إن فيها تنديدا بالذين يعرفون نعمة اللّه ثم ينكرونها و يفشلون في التذرّع بها إلى مرضاة اللّه، لفشلهم في الإيمان الصادق.

هنا نرى بقية الآيات في‏ «الْعادِياتِ» تستعرض كفران الإنسان و هيمانه في حب نفسه، حب الشهوات و الحيوانات، حب الذات كحيوان، تاركا حبه له كإنسان! و ليست هذه دعاية ضد الإنسان، فإنه هنا شهيد على نفسه:

إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَ إِنَّهُ عَلى‏ ذلِكَ لَشَهِيدٌ:

يشهد على كفرانه في ضميره، لو بقي له ضمير، و يشهد في أقواله و أفعاله، شاء أم أبى، و سوف يشهد يوم يقوم الأشهاد مع الأشهاد على نفسه، شهادة صوتية و صورية، بما سجلها ربه تعالى في أعضائه، تشهد الألسنة بما سجل اللّه فيها من أقوالها، و الأسماع بما سجل فيها من مسموعاتها، و الأبصار بما سجل فيها من مرئياته و مبصراتها، و الجلود بما سجل فيها من أعمال بظاهر الجسد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 420

وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ:

لحب الخير، لا الصالح، إنما الذي يراه خيرا في حيونة الحياة، ملائما في تلك الحياة اللئيمة المشؤومة، دون ما يصلح الإيمان، و ما هوا بدافع الإيمان.

هذه فطرة الإنسان و طبيعته ما لم يخالط قلبه الإيمان، فيغير من تصوراته و قيمه و اهتماماته، و يحيل كنوده، اعترافا بفضل اللّه، شكرانا بالكفران.

إنه يظل مرتكسا في حمأة الأرض سجينا، في سجن اللذات، ما لم يتحرر عن حب الذات، إلى حب خالق الذوات و اللذات.

فيا للإنسان من غفلة غمرت عقله، و من غفوة سترت لبّه:

أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ. وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ. إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ:

إذا بعثر ما في القبور من أجسادهم الجهنمية «ما»\* لا «من»\* لأنهم خرجوا عن كونهم إنسانا إلى حيوان، فلا يحق لهم التعبير بما يخص ذوي العقول:

«من»\* ..

فهناك بعثرة القبور: «وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ» و بعثرة ما في القبور: بدن الإنسان الكنود، ثم تحصيل و إحصاء و تحضير لما في صدورهم، من الأسرار الشريرة التي ضنت بها، و من الأهداف الشهوانية التي أظهرتها و تجاهرت بها، فالصدور هي مخابئ الأفكار، و حصالة التصاميم المتحللة عن ثفالاتها، ثم هي مخابئ القلوب: «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ».

حصّل ما في الصدور واقعيا و شهودا عليها لتضطرهم إلى الإقرار: «أَ فَلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 421

يَعْلَمُ» وقتئذ: «إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ» خبرة إدانة و جزاء، كما كان خبيرا يوم الدنيا، خبرة علم و اطلاع.

يومئذ يصبح الإنسان خبيرا أن ربه به لخبير، يعلمه خبيرا بعد ما كان يجهل أو يتجاهل بخبرة الربوبية، إذا لم يكن ليحافظ على كرامة الربوبية، فلقد كان يعمل كأنه لا ربّ، و كان حرا كأنه ليس عبدا، ثم يوم القيامة سوف تظهر له ربوبية الرب علميا و واقعيا و إدانة و جزاء وفاقا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 422

سورة القارعة- مكية- و آياتها عشر

[سورة القارعة (101): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الْقارِعَةُ (1) مَا الْقارِعَةُ (2) وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (4)

وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (7) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (9)

وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ (10) نارٌ حامِيَةٌ (11)

\*\*\* سورة تقرأها فتقرعك بقارعة القيامة، و لكي تعد لها ما استطعت من أثقال الموازين فتخف قارعتها عنك، و تصبح بها في عيشة راضية.

الْقارِعَةُ:

إنها قارعة في الأولى، و اخرى في الحياة الأخرى: «وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ» (13: 31).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 423

قارعة يوم الدنيا تتلوها قارعة- ما أعظمها- في الآخرة: «حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ» بالقارعة الأخيرة الهائلة.

إنها قوارع تتبع ما صنعوا، في أولاهم يسيرا، و في أخراهم كثيرا:

«كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ» (69: 4) و القارعة مبالغة في القرع، و هو ضرب شي‏ء على شي‏ء، و الآخرة هي يوم التضارب و التداق، يتضارب الكون و يضطرب: بقرع الأنجم و الكواكب بعضها ببعض لحد الانتثار: «وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ»: فينتصر في هذه المعركة الشاملة أمر اللّه، إن اللّه غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون، و كان أمر اللّه مفعولا.

إنها تقرع إنسانها بما قدمت نفسه من قوارع الأفكار و الأعمال، رغم أنها ما كانت تقرع صاحبها يومها إلا يسيرا، لكنها تقرعه يوم الآخرة كثيرا، جزاء وفاقا.

و القارعة اسم من أسماء القيامة الكبرى تشير إلى سمته، كأضرابها من أسمائه التي تشير: كلّ إلى سمة و حالة خاصة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منها اسماء مفردة ك: الواقعة- الصاخة، و منها مركبة إضافية: ك: اليوم الموعود- اليوم الآخر- يوم عظيم- يوم كبير- يوم الجمع- يوم أليم- يوم عصيب- يوم مشهود- يوم الحساب- يوم الدين- يوم يلقونه- يوم الحسرة- يوم الآزفة- يوم الفتح- يوم التناد- يوم الفصل- يوم محيط- يوم الخلود- .. و منها مركبة بيانية ك: يوم تبلى السرائر- يوم لا بيع فيه و لا خلة، يوم ينفخ في الصور، يوم تشخص فيه الأبصار، يوم تبدل الأرض غير الأرض و السماوات، يوم يقوم الأشهاد، يوم ترجف الراجفة، يوم لا بيع فيه و لا خلة و لا شفاعة، يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه، يوم توفي كل نفس ما عملت، يوم تدعو كل أناس بإمامهم، يوم نسير الجبال و ترى الأرض بارزة.

و يوم القيامة يومان: يوم الإماتة و يوم الإحياء، و الآيات تبحث عن اليومين و تعبر عنهما جميعا بيوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 424

مَا الْقارِعَةُ؟:

كسؤال يصوّر رهبة الموقف، لحد كأنه خفي على الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ؟».

إن القارعة توحي بقرع و لطم شديدين، تقرعان الكون قلبا و قالبا، القلوب المقلوبة التي تذرعتها الشياطين لقرع الحياة و قلبها إلى غير ما تعنيه، و القوالب كلها مقروعة في هذه الدكة العظيمة الشاملة .. و إنما تسلم القلوب السليمة، الثقيلة الموازين، الشديدة الرباط باللّه العظيم.

وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ:

ليس لها مثيل في دنيا الحياة حتى يدركها في عقباها، و إنما هو الوحي، وحي السماء: يدريك ما هي القارعة.

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ‏:

إنها إجابة عن سؤالها بما يحصل فيها، لا بماهيتها، فإنها فوق التحمل يوم الدنيا و لو في تصورها .. يوم يكون الناس: من هيبته و شدة وطأته و قارعته، كالفراش المبثوث: الجراد المنتشر: «خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ» (54: 7). و الجراد المنتشر هي الفراش المبثوث، تنبث و تنتشر و تنفرش بعضها بعضا، و تركب بعضها بعضا، دون أن تتجه لجهة واحدة، لهول القارعة، و لأنهم كانوا يوم الدنيا في اتجاهات شتى، فكل إنسان يعمل على شاكلته، و يرجع إلى شاكلته، شاء أم أبى.

إن الفراش المبثوث مثل لغاية الضعف و الحمق و اللاهدف، و هكذا يصير مصير الإنسان الذي عاش حياته كالفراش المبثوث، إلا من ثقلت موازينه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 425

فهذا هو مصير أقوى إنسان في الكون، ثم ماذا يكون مصير سائر الكون، لنأخذ هنا مثالا من الجبال:

وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ‏:

«يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ. وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ» (70: 8- 9) ..

فيا لها من وقعة قارعة و دكة مفرغة تهزم الجبال فتهزم في هذه المعركة الدامية، فهذه سماؤه كالمهل: حمراء كالمطلوم المجروح، و هذه جباله كالعهن المنفوش:

الصوف ذو ألوان، نشر بندف، فنداف القارعة هكذا يندف و ينفش الجبال.

فيا له من مشهد تطير له القلوب، و ترجف منه الأوصال، وي كأن كل شي‏ء في الكون يطير حول الإنسان هباء، فما ذا إذا حال الإنسان في الختام:

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ:

الموازين جمع ميزان و هو ما يوزن به و ما يوزن أيضا، و لا يعنى به هنا وزن الجسد، و إنما ما به الإنسان إنسان، من موازين العقل و الإيمان و أعمال الإيمان، و على حد تعبير

الإمام الصادق (ع) «الموازين هي موازين الإنسانية».

و الميزان هو آلة الوزن و القياس، ما يوزن به الشي‏ء و يقاس، فإن كان ذلك الشي‏ء جسما فالميزان الجسماني على اختلاف حالات الأجسام فاختلاف موازينها، فلا يوزن ما يسوى غراما بما يوزن به أطنان، و لا يوزن النور بما يوزن به سائر الأجسام غير النورانية، و كما لا توزن الدوائر و القسي أو الحرارة و البرودة أو الأعمدة و الخطوط أو الشعر و الفلسفة، لا توزن هذه و أمثالها بالقبّان و غيره من موازين الأثقال المادية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 426

ثم الروحانيات و الصفات و العقول و الأرواح، إنها أحرى أن توزن بالمثل العليا من أمثالها، و في هذا الباب ليس الثقل إلا للصالحات دون الطالحات.

فالصالحات هي ثقل الميزان، و السيئات هي خفتها، إذ ليس للسيئات ثقل، فإنما الوزن هو الحق و الموازين هي القسط: «وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» (7: 9) لا: الوزن حق، مع أنه حق، إنما: الوزن هو الحق، فالحق هو الميزان و الميزان هو الحق، دون أن يكون وزن أو ميزان للباطل‏ «1» فلا يقام للكافر ميزان لحبط أعماله: «أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» (18: 105) و كما عن الإمام زين العابدين عليه السّلام سنادا إلى القرآن‏ «2».

فالقسط و الحق هما الميزان، و هما ثقل الميزان: «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى‏ بِنا حاسِبِينَ» (21: 47).

فإفراد القسط هنا لجمع الموازين يوحي لنا أن مجموعة الموازين تتحد في أنها القسط، دون أن يكون للظلم ميزان و لا وزن حتى توزن به السيئات، إنما هو ميزان واحد هو الحق و القسط و العدل، و كما الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام يصرح بسناد الآيات و يحذو حذو حفيده الإمام الصادق عليه السّلام.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين ج 2 ص 5 ح 13 عن مصباح الشريعة قال الصادق (ع) في كلام طويل: فإذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فأنظر في قصد معناك و غور دعواك و عيرهما بقسطاس من اللّه عز و جل كأنك في القيامة- قال اللّه تعالى‏ «وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» فإذا اعتدل معناك بدعواك ثبت لك الصدق.

(2) كما

في التوحيد عن علي (ع) و قد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات و أما قوله تبارك و تعالى‏ «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً» فهو ميزان العدل يؤخذ به الخلائق يوم القيامة، يدين اللّه تبارك و تعالى الخلق بعضهم من بعض بالموازين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 427

و إذا كان القسط و الحق و العدل هي الميزان: فأحرى أن يكون الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خلفاؤه المعصومون هم الموازين، كما النبيون و أوصياؤهم موازين، و على حد تعبير

الإمام الصادق عليه السّلام: إن الموازين هم الأنبياء و الأوصياء «1».

فلا الموازين تكون مادية، و لا ما يوزن فيه الموازين، إنما هي القيم و المثل العليا للإنسان- أيا كان.

و إنها- رغم اختلافها صوريا- تتحد في كونها حقا و قسطا، تظهر في مظاهر عدة حسب عديد الأعمال و الأقوال و مراتب الإيمان و الأحوال، فالحق الذي يوزن به الإيمان هو حق الإيمان، و ما توزن به الصلاة هو حق الصلاة و أمثالها لأمثاله.

«فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ»: عيشة كأنها الرضا كلها، دون أن يحملها شي‏ء سواها، فهي هي الرضا بعينها: رضى العبد و رضوان من اللّه، رضوان مزدوج.

ثم ما هو مصير الحابطين أعمالا، الخابطين أحوالا، الأخسرين أعمالا، الذين رضوا بالحياة الدنيا و اطمأنوا بها!:

وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ. وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ. نارٌ حامِيَةٌ:

هؤلاء هم الذين لا وزن لهم إطلاقا، بين ما لم يعملوا من الصالحات و ما لم يؤمنوا بها، و بين ما حبطت من أعمالهم الصالحة أحيانا، لكفرهم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار ج 7 باب الميزان ص 248 ح 6.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 428

«أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» (18: 105).

أعمالهم حابطة قياسا إلى الآخرة، و لو كانت مثابا عليها يوم الدنيا و هم فيها لا يبخسون: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (11: 15- 16).

هنا و هناك تتحدث الآيات عمن محّض الإيمان محضا، و من محض الكفر محضا، دون من‏ «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (9: 102).

«فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ» «1» كما كانت الهاوية أمه: ملجأه و مرجعه، مصدره و مورده، أعماله و أفكاره، كانت كلها هاوية: نارا حامية: تحرق ما تبلعه‏ «2»، فسوف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور (ج 6 ص 385) أخرج الحاكم عن الحسن قال: قال رسول اللّه (ص): إذا مات العبد تلقى روحه أرواح المؤمنين فيقولون له: ما فعل فلان؟ فإذا قال: مات- قالوا: ذهب إلى أمه الهاوية. فبئست الأم. و بئست المربية.

(2) و

فيه أخرج أبو يعلي قال‏ كان رسول اللّه (ص) إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائبا دعا له و إن كان شاهدا زاره، و إن كان مريضا عاده، ففقد رجلا من الأنصار في اليوم الثالث فسأل عنه فقالوا: تركناه مثل الفرخ لا يدخل في رأسه شي‏ء إلا خرج من دبره، قال عودوا أخاكم، فخرجنا مع رسول اللّه (ص) نعوده فلما دخلنا عليه قال رسول اللّه (ص): كيف تجدك؟ قال: لا يدخل في رأسي شي‏ء إلا خرج من دبري قال: و مم ذاك؟

قال: يا رسول اللّه (ص)! مررت بك و أنت تصلي المغرب فصليت معك و أنت تقرأ هذه السورة «الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ إلى آخرها: نارٌ حامِيَةٌ» فقلت اللهم ما كان من ذنب أنت معذبي في الآخرة فعجل لي عقوبته في الدنيا فنزل بي ما ترى، قال رسول اللّه (ص): بئس ما قلت، ألا سألت اللّه أن يؤتيك في الدنيا حسنة و يقيك النار، فأمره النبي (ص) فدعا بذلك و دعا له النبي (ص) فقام كأنما نشط من عقال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 429

تكون يوم الآخر هاوية كما كانت، صورة طبق الأصل، فيا لها من أثقال إنسانية! تكافح قارعة الآخرة فينتصر إنسانها في هذه المعركة الدامية .. لا نعني إنسان الجسد فإنه يموت و يبعثر، ثم يحيى فيجازى، إنما إنسان الروح، فهو الذي سوف ينتصر بموازينه، فعيشته راضية، رغم من سواه من أهل المعركة، معركة القارعة، المعركة القارحة، فإنها تقرع قوما و تقرع من آخرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 430

سورة التكاثر- مكية- و آياتها ثمان‏

[سورة التكاثر (102): الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (2) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

\*\*\* تأنيب شديد بالمتكاثرين الذين اخلدوا إلى الأرض و اتبعوا أهواءهم، أولئك الذين حسبوا الحياة كلها شهوات، هؤلاء الأخسرون أفكارا و أعمالا، المتكاثرون في حياتهم حتى جرهم تكاثرهم إلى المقابر! أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ:

اللهو من اصول المحرمات في كافة الشرائع الإلهية المقدسة، سواء أ كان دافع التكاثر بالأموال و الأولاد و النساء، أم بالقمار و الموسيقى و أضرابها، و كما يعد القرآن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 431

أمثالها من اللهو تنديدا بها و منعا عنها «1».

فمن الأشغال و الأعمال ما تخص اللهو دون أن تأتي بصالح للحياة، كالقمار و الرقص و الموسيقى، فإنها تخسر الحياة و لا تربحها، تخسرها معنويا و ماديا، فهي محرمة إطلاقا.

و منها ما تختلف حسب اختلاف الأهداف و النيات، كالأموال و الأولاد و التجارة، و الحياة الدنيا كلها: فهي هي الدنيا و أموالها و أولادها، بين الجنة و النار، كما يهدفها الهادفون و يقصدها القاصدون.

«أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ ..» فالحياة الدنيا بطبعها كلها لعب و لهو و تفاخر و تكاثر:

«اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ» (57: 20).

إن الإنسان بطبعه يحب الاستكثار و الاستئثار من الدنيا و بها «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (23: 9) «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» (24: 37) «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (45: 3) «وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ» (6: 32) «وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» (6: 70) «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ» (31: 6- 7) «وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» (60: 11).

هذه و أمثالها تنهي عن اللهو: و هو كل ما ينهي عن اللّه: عن ذكره و عبادته، و عن القيام بواجبات الحياة السليمة، و عما يعني الإنسان كإنسان، و يهمه في تجميل الحياة و تجليلها، و يرفعه و يخلصه عن دركات الحياة، عن حيونية في الحياة و شيطنته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 432

و لكن عليه أن يجب التي تقربه إلى اللّه زلفي، و تجعل حياته الدنيا حياتا عليا، ثم لا يفتخر بالكثرة الخيرة أيضا إذ ليس له حول و لا قوة إلا باللّه.

و أما إذا جهل أمر الكثرة هنا و هناك، فاختصها بالكثرة الكاسرة لكيان الإنسان، ثم تفاخر بها تفاخرا بدافع الكبرياء، فهو إذا مسامح عن إنسانيته.

و التكاثر له درجات عدة و منها ما لا تقف لحد: تكاثر يتعدى الحياة و الأحياء إلى الأموات، فإذا تساوى المتكاثرون، أو اختلفوا أيضا، أخذوا في زيارة القبور: نحن أكثر رجالا و أولادا منكم بين أصحاب القبور، و إن كنا حاليا على سواء، أو أنتم أكثر منا، مفتخرين بمصارع الآباء و قبور الهلكى، رغم أنهم من الهلكى في حياتهم.

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ:

مقابر تزور مقابر اخرى‏ «1» تفاخرا بأجساد طغاة البشرية! و على حد تفسير إمام المتقين أمير المؤمنين علي عليه السّلام بعد تلاوته آية التكاثر:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و ليس المعنى من زيارة المقابر هو الموت- رغم ما قيل- لأن المخاطبين كانوا بعد أحياء، فقد خوطبوا خطاب تنديد و تنبيه، و لأن الموت ليس زيارة للمقابر، إنما هو دخول القبر لمن يدفن في القبر، و ليس كل ميت يدفن، و لأنه لم يقل مقابركم، و مما يؤيد هذا المعنى أن السورة نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف بن قصي و بني سهم بن عمر، تكاثروا وعدوا اشرافهم فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوهم و قالوا:

هذا قبر فلان و هذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم لأنهم كانوا أكثر عددا في الجاهلية- عن مقاتل و الكلبي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 433

«يا له مراما ما أبعده، و زورا ما أغفله، و خطرا ما أفظعه، لقد استخلوا منهم أي مدكر، و تناوشوهم من مكان بعيد، أ فبمصارع آبائهم يفخرون، أم بعديد الهلكى يتكاثرون، يرتجعون منهم أجسادا خوت، و حركات سكنت، و لأن يكونون عبرا أحق من أن يكونوا مفتخرا، و لأن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزة، لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة، و ضربوا منهم في غمرة جهالة، و لو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية، و الربوع الخالية، لقالت: ذهبوا في الأرض ضلالا، و ذهبتم في أعقابهم جهالا، تطوءون في هامهم، و تستثبتون في أجسادهم، و ترتعون فيما لفظوا، و تسكنون فيما خربوا.

\*\*\* و إنما الأيام بينكم و بينهم بواك و نوائح عليكم، أولئك سلف غايتكم و فراط مناهلكم الذين كانت لهم مقاوم العز و حلبات الفخر ملوكا و سوقا، سلكوا في بطون البرزخ سبيلا، سلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم و شربت من دمائهم فأصبحوا في فجوات قبورهم جمادا لا ينمون و ضمارا لا يوجدون، لا يفزعهم ورود الأهوال، و لا يحزنهم تنكر الأحوال، و لا يحفلون بالرواجف و لا يأذنون للقواصف غيبا، لا ينتظرون و شهودا لا يحضرون، و انما كانوا جميعا فتشتتوا و آلافا فافترقوا، و ما عن طول عهدهم و لا بعد محلهم، عميت أخبارهم و صمت ديارهم، و لكنهم سقوا كأسا بدلتهم بالنطق خرسا و بالسمع صمما و بالحركات سكونا، فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات، جيران يتآنسون».

هذا هو التكاثر الذي يندد به اللّه و يخشى منه رسول اللّه على حد

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ما أخشى عليكم الفقر، و لكن أخشى عليكم التكاثر» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن زيد بن اسلم عن أبيه قال قرأ رسول اللّه (ص) ألهاكم متكاثر، و أخرجه ابن مردويه عن عياض بن غنم عنه (ص) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 434

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ‏:

«لو قد دخلتم قبوركم»، إذ يرتفع الحجاب و غشاوة الجهل المعمّد بالانخلاع عن ستار الدنيا و حياتها.

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ‏:

«لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم» «1» علما هو أرقى، علمان متتابعان يفوق بعضهما البعض، بعد الجهل المتمادي- العامد- يوم الدنيا: كلا سوف تعلمون: عند سكرات الموت و هو بداية العلم، و في الكرّة: يوم قيام القائم (ع)، بعد الموت، ثم كلا سوف تعلمون، في المحشر.

يا ويلاه! فهل إلى تحصيل هذا العلم يوم الدنيا من سبيل، لنموت قبل أن نموت كما أمرنا: «موتوا قبل أن تموتوا»: و لنرى الجحيم قبل أن ندخلها فنتحرّز عن أسبابها؟ فهل من سبيل؟

أجل- لو أن حاول الملتهون بالتكاثر أن يعلموا علم اليقين، فتحللوا عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا في الآية: كلا سوف تعلمون إلخ .. وجوه أقواها ما ذكرناه، و يؤيده‏

العلوي (ع): سوف تعلمون في القبر ثم سوف تعلمون في الحشر (نور الثقلين ج 5 ح 7) و مثله النبوي (نفس المصدر) و في الدر المنثور ج 6 ص 387 في روايتين عنه (ص) مثله.

و احتمال ثان أن العلم الأول في الدنيا و الثاني بعد الموت، و يبعده أن كل المخاطبين هنا ليسوا من الذين سوف يعلمون و ينتهبون، اللهم إلا في سكرات الموت حين لا يفيدهم العلم، و يقربه‏

المروي عن الصادق (ع) قال‏ يعني مرة في الكرة و مرة في يوم القيامة (البرهان ج 4 ص 501 ح 3)

أقول الكرة هنا هي الرجعة في دولة الامام المهدى (ع) و ليست للكل، و قد يقال بما أن المخاطبين هنا هم الكفرة الذين محضوا الكفر محضا، فهم كلهم حسب الروايات يرجعون، ثم أقول: لا مانع من كون المرة الأولى للعلم شاملة للكرة و لسكرات الموت و ما بعد الموت، و بذلك يجمع بين الروايات، إلا أن العلم بعد الكرة- إذا- تحصيل للحاصل قبل الكره بعد الموت، إذا فما العلم هنا إلا عند الموت و بعده.

و احتمال ثالث أن الأول عند الموت و الثاني في سؤال القبر و يبعده انهما على سواء، فخط الموت و خطته واحدة، لا تفاضل في الانتباه عنده و بعده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 435

هذه الغشاوات الحائلة بينهم و بين درك الحقيقة: حقيقة الحياة، و حقيقة الموت.

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ‏:

«عِلْمَ الْيَقِينِ»: من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: يقين العلم، العلم الذي يطمئن الإنسان و يخرجه عن زلزال العقيدة و شكوكها، و هو أولى مراتب اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين.

و أصل اليقين هو سكون الفهم مع ثبات الحكم و هو خلاف الظن، فلو أن المتكاثرين الملتهين علموا الحقيقة علم اليقين، لكانوا يرون الجحيم في علمهم، رؤية علمية دون ارتياب، فكانوا إذ ذاك يرونهم في الجحيم، و يرون آمالهم و أعمالهم و أموالهم و أصحاب القبور الذين تكاثروا و تفاخروا بهم، كانوا يرونهم كلهم في الجحيم.

هذا لو كانت الرؤية صادقة بما علموا و لم يعملوا، و لو علموا علم اليقين و عملوا، لكانوا يرون أنفسهم في الجنة، و يرون من تفاخروا بهم في الجحيم.

«لَوْ تَعْلَمُونَ»: محال أن تعلموا: استحالة بالاختيار، دون تسيير و إجبار، و إذ لم تعلموا يوم الدنيا فسوف تعلمون بعده.

ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ‏:

إذ دخلتموها و وجدتم أنفسكم في يقين الجحيم نفسه، فقد كان لكم أن تروها علم اليقين لكي تتحرزوا عنها فلا ترونها عين اليقين.

ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ‏:

النعيم الذي تجاهلتموه حتى وردتم موردكم في الجحيم، فترك النعيم جحيم أينما كان، و لا سيما النعيم الذي يهم الإنسان في شريعة اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 436

إنه النعيم الذي أخلدكم التحلل و التغافل عنه في التكاثر: من نعيم العقل الذي عقلتموه و حبستموه في أسر الشهوات، و نعيم الحياة التي أخلدتموها فى الحيونات: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ» (46: 20).

و من نعيم النبيين، فنعمة الرسالة هي أهم النعم التي يسأل عنها: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» (5: 109).

فهذه الثلاث هي أصول النعم الروحانية التي يسأل عنها.

«ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ» سؤال تقريع و تبكيت‏ «يَوْمَئِذٍ» يوم إذ رأيتم الجحيم عين اليقين: «عَنِ النَّعِيمِ» لماذا ضيعتموه؟

هذه هي النعم التي يسأل عنها و كما رواتها الأئمة من أهل بيت الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، دون النعم المادية، و كما

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ثلاث لا يحاسب بهن العبد:

«ظل خص يستظل به، و كسر يشد بها صلبه، و ثوب يواري به عورته» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور ج 6 ص 391، و هذه الرواية هي الوحيدة في الدر المنثور، و يعارضها عديد من الروايات فيه،

تعزي إليه (ص) أن النعيم هو الكسر و الظل و النعل،

دون أن تذكر أو تشير إلى النعم الأصيلة للإنسان، التي يرويها أئمة أهل البيت عن الرسول الأقدس (ص) و كما نرى أن القرآن لا يمن على المؤمنين إلا بنعمة الرسالة و أمثالها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 437

سورة العصر- مكية- و آياتها ثلاث‏

[سورة العصر (103): الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ الْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

\*\*\* إن اللّه يحلف: «وَ الْعَصْرِ» فهل كما نحلف و عند فقدان الدليل؟ و اللّه خالق المدلول و الدليل؟ كلا فإنما يأتي بصيغة الحلف ليوجهنا إلى مهمة فيما يحلف به، هي برهان ساطع للإثبات: عقليا أو علميا أو اعتباريا، أو أيا من صنوف البراهين المناسبة لإثبات المطلوب، بصورة مجردة عن صيغ البراهين المصطلحة، لكي لا يهابها غير المثقفين، فيأنسوا بها، و كأنها من محاوراتهم السوقية.

فقد يحلف بالدليل: «يس. وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» حلفا بحكمة القرآن لفظيا و علميا و تقنينيا و .. لتدل هذه الحكمة على نبوة من انزل عليه، لكي يصلح للخطاب: «يس»\*: أيها السامع للوحي، ثم على رسالته على صراط مستقيم، فيا لها من برهان ما أتقنه!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 438

و قد يحلف بموجبات المدلول أو دوافعه أو روافعه أو ... طالما الدليل واضح بمجرد التنبيه، أو أنه بحاجة إلى تأمل و تعمّل، و مجموعة الأقسام في القرآن أربعون قسما، بين ما هو قسم بالأجرام العلوية أو السفلية، و ما هو قسم بالأدلة العقلية أو الحسية، و لينظر الإنسان في واقع البراهين، و ليدرس العلل و المعاليل.

و هنا لإثبات خسر الإنسان يحلف بما يعم الدافع و الرافع، و السورة تبحث عن واقع الخسر للإنسان و دوافعه و روافعه، فيعالج خسره بدعائم أربع.

وَ الْعَصْرِ:

«و العصر» علّه الزمان، أو نوائبه بعصرها، و شياطين الجن و الإنس فإنهم يعصرون الإنسان، ليخسروه ماء الحياة و يدفعوه إلى الخسران، و النفس الأمارة بالسوء فإنها تعصر و تحصر العقل حتى تخسره، و كل دوافع الخسران فإنها عصر و قسر على الإنسان لتغرقه في الخسر.

فدوافع الخسر هذه، المحسوسة منها و المعقولة، تبرهن على واقع الخسر، فإنها تخسر الإنسان في حياته، و معطياتها، و لا بد للمبتلى أن يعرف ابتلاءه، بأصله و نوعه، ليفكر و يحاول في علاجه، فكثير من الخاسرين في الحياة يحسبون أنهم يحسنون صنعا، و هم الأخسرون أعمالا، و

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله‏ هنا: «و العصر و نوائب الدهر»،

و

عن علي عليه السّلام قوله: «و العصر و نوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر و إنه لفيه إلى آخر الدهر» «1».

و علّه حلف برافع الخسران أيضا، كما هو حلف بدافعه، دلالة على البلاء و علاجه جملة واحدة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور ج 6 ص 392.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 439

كعصر النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عصر طلوع الإسلام من أفق الجزيرة إلى الآفاق، و قد يؤيده إقسام اللّه بعمر النبي تارة و ببلده أخرى، فأحرى له أن يقسم بعصره المشعشع المجيد.

و ظهورا تاما و تحقيقا عاما للرسالة المقدسة المحمدية: عصر القائم محمد بن الحسن المهدي عليه السّلام‏ «1»، عصر الكفاع التربوي بكامله، ضد عناصر الخسران و أواصره‏ «2».

قسما بدوافع الخسران و روافعه أن واقع الخسر لا ينكر، و يجب أن يتحذّر.

إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ:

تأكيدات ثلاث تستغرق الإنسان في يمّ متلاطم من الخسر «3»، تحت ضغوط نفسية و خارجية، لا تسمح و تفسح له المجال أن يمشي على صراط مستقيم.

إن الإنسان- أيا كان- هو بطبعه، تحت ضغوط دوافع الخسران، إنه لفي خسر: غريق تضطرب به أمواج الحياة، و تضطرب به إلى أعماق بعيدة من خسران الحياة و معطياة الحياة: يخسر نفسه و حياته، يخسر عقله و ماله و ولده، يخسر كل وسائل التقدم في حياة الإنسان، متذرعا بها إلى حياة الحيوان، و إلى أسفل سافلين .. و إذا كان الإنسان في واقع الخسر، فهل يعاقب إذا على خسره، أو هل من مفر و منجى؟ و من هم الناجون؟ الجواب:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين ج 5 ص 666 ح 5 عن الامام الصادق (ع).

(2) و اعتبارا بلام الجنس في «العصر» و عدم ظهور عهد يخصه بعهد خاص من هذه العصور فقاعدة البلاغة تحتم تعميمه لكل عصر.

(3) تأكيدات مستفادة من «إن»\* و «ل»\* في لفي و «في»\* الدالة على أنه غريق الخسر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 440

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ:

«إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا): فمن خسر الحياة، الاضطراب في الحياة، و الإخلاد إلى الأرض، و أعمق ما يؤمن الإنسان و يطمئنه، هو أن يؤمن باللّه، يأمن اليه و يؤمن نفسه بردعها عن غوغائيات الحياة، بالإيمان بخالق الحياة.

إن الإيمان باللّه هو اتصال الكائن العاقل، الفاني الصغير الصغير، المحدود المحدود، بمبدإ الكون، المطلق الأزلي اللامحدود، و إنه انطلاقة قيمة من حدود الذات الصغيرة اللاشي‏ء، إلى رحابة الكون الكبير، الكائن الأزلي القدير، الذي خلق كل شي‏ء و قدّره تقديرا.

إنه يرفع الإنسان عن عبودية مثله و ما هو دونه، عن أرباب متفرقين، إلى عبادة الواحد القهار، فالأرباب المتشاكسون تخرج العابد عن الاطمئنان إلى تناقض في الحياة و تخلّف و اختلاف، و الإله الواحد يطمئن الإنسان‏ «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ».

و إنه يقيّم الإنسان و يقوّمه على منهج ذاتي يرضاه اللّه تعالى، فلا يكون الخير عنده فلتة عارضة مندفعا عما يهدفه لنفسه، و إنما عن دافع واحد أصيل هو مرضاة اللّه تعالى.

و أخيرا- لا آخرا- الإيمان ينبوع غزير للأفكار و الأعمال الصالحة، فهي نتاج الإيمان الصحيح الفائض، و الإيمان الفاضي عن العمل الصالح ليس إلا صورة الإيمان، و كلما تم الإيمان واقعا كثرت الصالحات الفائضة عنه، و كلما قل قلت.

«وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» .. نرى العمل الصالح قرين الإيمان في الآيات التي تتعرض لأحدهما، و يعني من الصالح ما يصلح و يصالح مع الإيمان، «وَ عَمِلُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 441

الصَّالِحاتِ» لا «الخيرات»\* إذ الخير يختلف حسب الأنظار و الأفكار، و لكن صلاح العمل مع الإيمان أمر واقعي لا يختلف، و صالح العمل هو الذي يعمل بدافع الإيمان، فقد يكون العمل خيرا و ليس صالحا، كمن ينفق لمن يرجو خيره و جزاءه، فإنه خير ليس بدافع الإيمان، فليس صالحا، و لكن الصالح كله خير.

«وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ»: كل الصالحات، لمكان الجنس أو الاستغراق المستفاد من «ال»\* لا بعضها دون بعض، فإنهم خارجون عن الخسر قدر ما عملوا، و داخلون فيه قدر ما تركوا: «وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (9: 102).

«و عملوا»\* لا «أملوا»: صالحات لهم دون أن يعملوا، أو أملوا صالحات غيرهم أن تنفعهم: و أن ليس للإنسان إلا ما سعى!.

أجل: «وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» الأعمال الصادرة بدافع الإيمان باللّه و بأمر اللّه، لا المتحللة عن الدافع الإلهي، أو المتخلفة عن أمر اللّه، فإنها و إن كانت من الخيرات لم تكن من الصالحات.

ذلك، و هل يكفي الإيمان و العمل الصالح الفردي، كفاحا ضد الخسران الجماعي، و التخلف الجماعي، الذي يقسر الإنسان إلى الخسر، شاء أم لم يشأ، كلا و ألف كلا.

إن الجماعة المسلمة، بعد تحكيم العلاقات الفردية العقيدية و العملية، إنها بحاجة إلى تطبيق واجبات جماعية، يحافظ فيها على كرامة المجتمع، و يدافع بها عن ظلامة الجو و التيار الفاسد، الطيار بكل عار و بوار.

إنها بحاجة ضرورية حيوية إلى التواصي بالحق و التواصي بالصبر:

وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ:

التواصي، لا الوصية، فليست الوصية بالحق و الصبر خاصة بجماعة دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 442

آخرين، إنها على كل المسلمين متقابلة، كل يوصي أخاه بالحق و الصبر، و لكي يصبح المجتمع الإسلامي مجتمع التواصي بكل حق صالح، و بكل صبر صالح، كل حسب إمكانيته، و على حد

قول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ألا كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته».

«وَ تَواصَوْا» كل يوصي غيره كما يوصيه غيره، بالحق و الصبر، و كل يقبل الوصية من غيره كما يرجو القبول من غيره، و لكي يخلقوا جوا طاهرا نزيها عن كافة التخلفات و الرذالات.

و التواصي- أيا كان- بصورة جماعية مرهبة ناصحة ناصعة، تفرض الحق، كلما كان تاركوا الحق و الصبر أقوى و أطغى، فليكن الموصّون بها أكثر كفاحا و أقوى.

و التواصي يشمل تعليم الشريعة و تعلّمها، و الأمر بتطبيقها: تعليم الجاهل و حمل العارف.

«بالحق»\*: أشمل تعبير يعم كل خير صالح دون استثناء، و من بالغ اهتمام القرآن بدراسة الحق و تطبيقه، نجده يذكره «253» مرة في مختلف المجالات و المناسبات، و الحق هو الثابت، فهو: اللّه تعالى و توحيده و عبادته، و هو:

أنبياؤه و رسله، و هو: كتبه و مواعيده، و هو: أحكامه و شرائعه، و هو:

القيامة الكبرى، و هو: كلما يتوجب الإعتقاد به و درسه و تطبيقه و نشره، أو ما هو مندوب له.

هذا- و كما القرآن يشهد: «ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ»، و أفعاله حق:

«.. ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ»، و القيامة: «و يستنبؤوك أحق هو قل أي و ربي إنه لحق».

و التواصي بالحق يعم التواصي بدراسة الحق و اعتناقه و تطبيقه و تأسيس حكم الحق و الدولة الحقة الإلهية لتضمين كلما يحق للحق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 443

إن التواصي بالحق ضرورة، حيث النهوض بالحق عسير، و معارضوه كثير، و المعوقات عنه كثيرة، هوى النفس، منطق المصلحة، تصورات البيئة، طغيان الطغاة.

و جوّ التواصي يطمئن الموصين أن معهم غيرهم مهما كثر الطغاة، فهم يتضاعفون قوة و يأملون النجاح في المعركة.

«وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ» .. إن الصبر هو زاد الطريق في دعوة الحق، فإنه طريق شاق طويل، حافل بالعقبات و الأشواك، مفروش بالدماء و الأشلاء، بالإيذاء و الابتلاء.

إن سلوك هذه السبيل يتطلب الصبر و التصابر، الصبر على أمور كثيرة:

على شهوات النفس و رغائبها، و أطماعها و مطامحها، و ضعفها و نقصها، و عجلتها و ملالها من قريب.

و الصبر على شهوات الناس و نقصهم و ضعفهم و جهلهم و سوء تصورهم و تصرفهم، و انحراف طبائعهم و أثرتهم و غرورهم و التوائهم و استعجالهم للثمار.

و الصبر على تنفّج الباطل، و وقاحة الطغيان، و انتفاش الشر، و غلبة الشهوة، و تصعير الغرور و الخيلاء.

و الصبر على قلة الناصر و ضعف المعين، و طول الطريق و غور المعين، و وساوس الشياطين في ساعات الكرب و الضيق.

و الصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، و ما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة:

من الألم و الغيظ، و الحنق و الضيق، و ضعف الثقة- أحيانا- في الخير، و قلة الرجاء- أحيانا- في الفطرة البشرية، و الملل و السأم و اليأس و القنوط.

و الصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة و الإنتصار و الغلبة، و استقبال الرخاء في تواضع و شكر .. و البقاء في السراء و الضراء، على صلة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 444

أصيلة باللّه، و استسلام لقدر اللّه، ورد الأمر كله إلى اللّه، في طمأنينة و ثقة و خشوع.

لهذه الضرورة نجد القرآن يذكر الصبر «118» مرة، بمختلف ضروبه.

و هنا لك سوف نرى خروجا تاما عن الخسر كله، و انتصارا عاما على معارضي الحق كلهم: لو دعمنا صرح الاجتماع الإسلامي السامي، على قواعده الأربع:

الإيمان و العمل الصالح و التواصي بالحق و التواصي بالصبر.

فعلى قدر الدعم الموفر لهذه القواعد سوف يكون تحلل الإنسان عن الخسران، و على قدر التحلل عن دعمها، سوف يكون الخسران‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

هذا- و من بالغ أهمية هذه السورة نرى بالغ اهتمام أصحاب الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في تعاهدهم و تواصيهم بها، أن: «كان الرجلان من أصحابه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة «الْعَصْرِ» ثم يسلم أحدهما على الآخر» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور ج 6 ص 292، أخرجه الطبراني في الأوسط و البيهقي في شعب الايمان عن أبي مليكة الداري و كانت له صحبة قال: كان ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 445

سورة الهمزة- مكية- و آياتها تسع‏

[سورة الهمزة (104): الآيات 1 الى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4)

وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

\*\*\* «ويل»\*: إنها ويلات عقائدية و أخلاقية و أعمالية، ويلات فردية و جماعية، تنتجها التخلفات المختلفة عن شريعة اللّه: شريعة الحياة، إنها حسب القرآن (27) ويلا، نجد أكثرها للمكذبين بيوم الدين، فإنه الذي يدفع لأسباب الويل.

«ويل»\* لفظة تقال في مواقف التقبيح و التأوه و الاضطراب و الغضب، لفظة الدم و السّخط، و هي كلمة كل مكروب يتولول فيدعو بالويل، و أصله: وي لفلان، و كما أن «ويس» كلمة استصغار، و «ويح» ترحم. و من قال: «ويل»\*

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 446

واد في جهنم، لا يقصد أنه كذلك لغويا، و إنما هو المصير الأخير لمن هو في حقه و إن كانت كل حياته ويلات.

فهؤلاء الذين يقول عنهم القرآن: «ويل»\* إنهم ويل في ذواتهم و صفاتهم و حركاتهم، ويل في كافة مجالات حياتهم، ويل لأنفسهم و لمجتمعهم، و وبال دائب على الاجتماع الذي يعيشونه ..

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ:

صيغتا مبالغة تدلان على كثرة و مواصلة مدلولهما، و هما يشتركان في معنى الكسر و الهزء و التعييب، إلا أن الهمز في الغيبة، و اللمز في الحضور.

«لِكُلِّ هُمَزَةٍ»: غيّاب بما يسي‏ء الناس بما هو فيهم أم ليس فيهم، و سواء أ كان مشاء بنميم أم ساكتا، و كلّ ذلك في الغياب: «وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ. وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ» (23: 101): إذ قوبل الهمز بالحضور، فهو مقابل الحضور: «وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ» (68: 11) إذا المشي بالنميم يناسب الغيبة لا الحضور.

«لمزة»: عيّاب ساخر في الوجه: «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ» (9: 58): «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (9: 81): فيسخرون تفسير ل: يلمزون .. فم العيابون في الوجه، الساخرون المنتقصون.

و على حد قول الرسول و الأئمة من آل الرسول عليهم أفضل الصلاة و السلام:

إنه ليس لسان الإنسان، لسان الذي يسعى في هدر الأعراض و لدغ الأرواح و الأشباح، و يكرّس حياته في تعييب الناس، كأن صاحبه البري‏ء فقط، إنه لسان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 447

العقرب‏ «1» و الأفعى- و شر من الأفعى، إذ إن الأفعى تقتل الإنسان في الجسد، و لكن أفعى الهمزة و اللمزة تقتل الأرواح و تخلق جو اللااطمئنان، جوا قذرا مزريا كأنه جوّ الجحيم، فهو الويل يوم الدنيا و هو الويل يوم الدين.

إنها صورة لئيمة من الأم صور الحياة، و القرآن يكره هذه الصورة الهابطة بحكم ترفعه الأخلاقي، و ينهى عن الهمز و اللمز في مواضع شتى، إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع و التقبيح و التهديد، علّه يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية خطرة من بعض المشركين و جاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وجاه المؤمنين، فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد، و التهديد الرعيب .. إلا أنه يعمم المورد و سواه:

«لكل»\*: ويل للكلّ- طول التاريخ و عرضه- كلّ حسب همزه و لمزه.

.. فويلهم في دنياهم، و ويلهم في عقباهم، إذ يعلقون في النار، الويل، و على حدّ تعبير الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «2».

و قد ذكر اللّه الهمازين أنهم الآكلون لحوم إخوانهم: «وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ» (49: 12) «3».

و ذكر اللمازين بقوله: «لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى‏ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى‏ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ» (49: 11).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين: ج 5 ص 667 ح 3، في كتاب الخصال عن أبي عبد اللّه عن أبيه عن جده عليهم السّلام قال: المسوخ من بني آدم ثلاثة عشر- إلى أن قال- و أما العقرب فكان رجلا همازا لمازا فمسخه اللّه عقربا،

و

فيه بالإسناد عن رسول اللّه (ص): و أما العقرب فكان رجلا لداغا لا يسلم من لسانه.

(2)

الدر المنثور عن النبي (ص) في حديث المعراج .. ثم مررت على نساء و رجال معلقين بثديهن فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الهمازون و الهمازات، ذلك بأن اللّه قال: ويل لكل همزة لمزة (ج 6 ص 392).

(3) و كما

عن الرسول (ص): رأيت ليلة الاسراء قوما يقطع اللحم من جنوبهم ثم يلقمونه و يقال: كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أخيكم، فقلت: يا جبرائيل من هؤلاء، فقال: الهمازون من أمتك اللمازون‏ (نور الثقلين ج 5 ص 667 ح 5) عن عوالي الآلي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 448

و ندد بالهمازين اللمازين أشد تنديد، لأنهما يخربان الديار و لا يأتيان إلا بكل عار و دمار.

الَّذِي جَمَعَ مالًا وَ عَدَّدَهُ‏:

ذلك كيانه في روحه الخبيثة: أنه همزة لمزة، و هذا كيانه في سواها:

هدفه تجميع المال و عدّه، كأنه الذي يجمع شمله و يعدّه في عداد بني الإنسان، و يخلده فيما يهواه! فهو يلمز المؤمنين و يهمزهم إذ لم يجمعوا مالا، و يعيبهم و ينقصهم كأنما المال هو الإنسان، أو أنه حياة الإنسان كإنسان، أو أنه يحييه خالدا إلى الأرض ما دامت: «.. وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ‏ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (7: 176) «يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً» (25: 69): مهانا هناك كما أهان المؤمنين هنا، جزاء وفاقا.

«جَمَعَ مالًا» «1»: منكرا دون تعريف: «مالا»\* لا «المال»\* فمن المال ما هو معروف و منه ما هو غير معروف، فالذي يحصله ليصرف في حاجيات الإنسان، تحصيلا و صرفا مشروعين، فهو «المال»\* معروف عند إنسان المعرفة و الحقيقة، و لأنه ذريعة الآخرة.

و أما الذي يشذ عن شريعة اللّه تحصيلا و صرفا، فهو «مال»\* منكّر و منكر لا يعتنى به و لا يعبأ، و ليست مذمة المال ذاتية، إنما هي إذا كان المال وبالا يخلّف ويلات، في دنيا الحياة و عقباها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين ج 5 ص 668 ج 7 في كتاب الخصال عن محمد بن إسماعيل بن بزيع قال:

سمعت الرضا (ع) يقول: لا يجتمع المال إلا بخمس خصال: بخل شديد، و أمل طويل، و حرص غالب، و قطيعة رحم، و إيثار الدنيا على الآخرة.

و

فيه عن كتاب التوحيد عن الصادق (ع) إنه قال: إن كان الحسنات حقا فالجمع لماذا؟

و إن كان الخلف من اللّه عز و جل حقا فالبخل لماذا؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 449

«و عدده»: ثم وبال فوق وبال، على من يحسب الوسيلة غاية و الذريعة نهاية، فالمال ليس إلا وسيلة من وسائل الحياة، فإذا ادّخر و ضخّم و عدّد، أصبح وبالا فوق الوبال، إذا حصّل من غير الحلال، ثم لم و يصرف في سبيل الحلال، ثم جمّد على عيون الفقراء العزّل الذين امتصت دماؤهم في سبيل تحصيل هذه الأموال، أو أنفق في غير حلّه.

يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ‏:

ماله أخلده، أو، ماله‏ «1»: يحسب أن كيانه الإنساني الشاذ الشارد عن صراط الحياة، يحسب أن ذلك أخلده، رغم أن لا خلود في دنيا الحياة، و لا ينكره حتى الحيوان، إلا أن السبيل التي اتخذها في الحياة، إنها هي سبيل من يزعم الخلود، فهو يتذرع بماله و ماله إلى هذا الخلود المزعوم، و لو كان في الدنيا خلود، لم تكن له حيلة تزيد عما يحتال، فبحساب ما يعمل نعتبره: يحسب أن ماله أخلده! و لكنه:

«كلا»\*: ليس كما يزعمه في أقوال و أفعال و أحوال، في مال و في منال، ليست هذه بالتي تخلده في دنيا الحياة، و إنما تخلده في عقباها: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»:

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ:

تهديد شديد يصوّر صورة مشهد من مشاهد القيامة، صورة طبق الأصل،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «ماله»\* «ما»\* هنا إما جزء الكلمة المفردة «مال»\* أو موصول، صلته «له»\*، و الثاني أعم و هو أتم، إذ يشمل المال و الحال و كل ما للإنسان من طاقات الحياة، ذكر منها المال المعدد لأنه أهم ما يهمه الإنسان الحيوان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 450

فكما كان هذا الهمزة اللمزة، الذي كان يدأب على الهزء بالناس، و على اغتيابهم و تعييبهم، في أنفسهم و أعراضهم، و كان يدأب في تحطيم الكيان الإنساني معنويا و ماديا، و كان ينبذ أناسا مؤمنين كأنهم ليسوا أناسا ... فسوف يكون من المنبوذين المحطمين المرذولين المصغرين: في الحطمة: النار الكثيرة الشديدة الحطم، لا تبقي و لا تذر.

و إنها ليست نارا تحرق و تحطم الجسد فحسب، أو تبتدئ بالجسد، و إنما تطّلع على الأفئدة:

وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ. نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ:

إنها ليست نارا تعرف، إنما نار خاصة متميزة متغيظة، نار اللّه التي أوقدها بقدرته، فقد تمتاز عن نار غير اللّه، أوقدها اللّه إظهارا و تجسيدا لما أوقده الهمزة اللمزة، و إنها تطّلع على الأفئدة التي اطّلعت منها نيران الهمز و اللمز، تحرق بما أحرقت به.

إنها نار تحرق روح الإنسان و جسمه، قلب الإنسان و قالبه، كما أحرق صاحبها قلوب الناس و قوالبهم، و ضيّع عليهم جو الطمأنينة: المعيشية الاقتصادية، و المعنوية الآمنة.

هنا- و قبل أن تقوم القيامة، يجبر اللّه كسر المؤمنين المنبوذين، بما يعد النابذين غير المؤمنين، فيطمئنهم في دنيا الحياة، قبل الاطمئنان الأبدي في عقباها، بما يبشرهم و ينذر أعداءهم الألداء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 451

ثم يختم ذكرى هذا المشهد الرهيب بميّزة أخرى للحطمة:

إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ:

مؤصدة: مطبقة لا مخرج لهم منها و لا منجى، سجن دائب كما كانوا سجونا للمؤمنين يوم الدنيا.

«فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ»: في أسطوانات طويلة جدا، و علّها أيضا من جنس النار، أو من الأشعة غير المرئية التي تستهزئ بالمحطّين: «كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها» .. و قد يشهد بذلك العلم:

أشعة رونتجن‏

لقد ثارت مناقشة في الصحف الصادرة عام 1925 حول هذه الأشعة، و ذلك أن أحد الأطباء قال: إن أشعة «رونتجن»- التي هي ذات عمل جبار في النوع الإنساني- ترى في إشراقها كالأعمدة، فقال بعضهم: لعل الآية:

«فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ» تشير إلى هذه الأشعة، و خالفهم آخرون، و أخيرا انتصر الأولون.

إن أشعة رونتجن هي كالعمد، يرى بها الأطباء ما خفي في الجسم، فيعرفون بواطنه، و علها- هي أو مثلها- سوف تكون عمدا ممددة، و إن كانت الحطمة غير معروفة عندنا: «وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ» و لم يقل: «و ما أدراك ما العمد الممددة».

علّ هذه الأشعة هي العمد الممددة، تمدد في أعماق الأجسام إلى الأفئدة فتزجها في سجن الحطمة، فلا تسمح لها بالخروج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 452

و مها يكن من شي‏ء فالعمد هي من النار، سواء من نار الحطمة أم سواها، فسواها من إنباءات الغيب المكشوفة بالعلم، و الحطمة مجهولة حتى الآن، و عل العلم يكشف عن مثالها في الدنيا، «فكل ما في الدنيا مثال لما في الآخرة».

إذا فالهمزة اللمزة سوف يكون مجذور المكعب الناري، هو نار: «وَقُودُهَا النَّاسُ ..» و في نار: «نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ» و في سجن الأعمدة النورية النارية، و علّها أشعة «رونتجن» أو مثلها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 453

سورة الفيل- مكية- و آياتها خمس‏

[سورة الفيل (105): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (1) أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4)

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

\*\*\* إن قصة الفيل بلغت من الشهرة و التواتر التاريخي إلى حد الضرورة غير المنكورة، و حتى عند المشركين الجاهليين الذين لا يدينون بالدين الإلهي، و قد أرّخوا بها و ذكرها الجاهليون في أشعارهم، و أرّخ بها المسلمون ميلاد الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و الروايات الحاكية للقصة مهما كانت مختلفة التفاصيل، و لكنها ناحية منحى قصة واحدة في لبّها و هي كيد أصحاب الفيل لهدم الكعبة المكرمة، و أنهم فور و صولهم إلى مشارف مكة المكرمة و قبل أن يقدموها و يقدموا على ما نووا، استهدفوا بقنابل من سجيل من قاذفات طير أبابيل، فجعلهم كعصف مأكول، و إنها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 454

حادثة عظيمة الشهرة- بالغة الأهمية- في حياة الجزيرة. و على حياة الكرة الأرضية، عريقة الدلالة على مدى رعاية اللّه لأول بيت وضعه للناس ببكة مباركا و هدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم.

هذه البقعة المباركة التي اصطفاها اللّه تعالى لتكون الملتقى للإشراق الأخير من وحي السماء، و النقطة الحاسمة التي تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة اللادينية في العالمين، و إقرار الهدى و النور على طول الزمن و عرضه.

«ألم تر»: ألم تعلم علم المعرفة، لحدّ كأنه علم العيان، استفهام إنكاري إقراري، ينكر أن يجهل هذه القصة أيّ من سكان الجزيرة و سواهم، لأنها كانت كالنار على المنار، و كالشمس في رايعة النهار، فلم يكن أحد من الناس يجهلها، فأولى بالرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ألا يجهلها ..

و يقرّ من وراء هذا الإنكار من يجب أن يتذكره، من كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد .. يقرّ خارقة إلهية تدل دلالة باهرة ظاهرة «أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ» (12: 52) «وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ» (8: 18) «وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» (61: 8) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين ج 5 ص 669 ح 8 عن روضة الواعظين، قال علي بن الحسين (ع): كان أبو طالب يضرب عن رسول اللّه (ص) بسيفه- إلى أن قال-: فقال أبو طالب يا بن أخ! إلى الناس كافة أرسلت أم إلى قومك خاصة؟ قال: لا بل إلى الناس كافة، الأبيض و الأسود و العربي و العجمي، و الذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض و الأسود و من على رؤوس الجبال و من في لجج البحار، و لأدعون ألسنة فارس و الروم، فحيرت قريش و استكبرت و قالت:

أما تسمع إلى ابن أخيك و ما يقول، و اللّه لو سمعت بهذا فارس و الروم لاختطفتنا من أرضنا و لقلعت الكعبة حجرا حجرا، فأنزل اللّه تبارك و تعالى: «وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى‏ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى‏ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» و أنزل في قولهم: لقلعت الكعبة حجرا حجرا: «أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 455

أ فبالإمكان أن نؤوّل قاذفات الطير الأبابيل: أنها كانت من صدف التاريخ، أو من اصطناعات إنسان التاريخ، و كما يتقوله الجاهلون: إن الكون أجمع نتيجة الصدف؟ ..

لا ننكر أن اللّه تعالى لم يكتب على نفسه مواصلة هذه الخارقات، المنفصلة عن إثبات النبوات، إلا أن أمثال هذه من الشقشقات قد تظهر لكي لا تهدر آيات اللّه البينات سدى، و لتكون حجة اللّه هي البالغة و كلمة اللّه هي العليا، و كلمة الذين كفروا هي السفلى.

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ‏:

«ربك»\* الذي اختصك بكرامة منقطعة النظير، بما أنك «أول النبيين ميثاقا و آخرهم مبعثا» كذلك يختص أول بيت وضع للناس، برحمته و وقايته الخاصة، و إنك أشرف من البيت و ممن بات فيه متعبدا لربك أو يبيت، فإذ يحفظ ربك هذا البيت عن أصحاب الفيل، فبأن يحفظك عن كل كيد و تضليل أولى و أحرى!.

«بِأَصْحابِ الْفِيلِ» و ما أصحاب الفيل؟ .. لا يذكر هنا أسماءهم و لا اسم قائدهم في هذه المعركة الكافرة، مهانة له و لهم: إنهم لم تكن لهم مكانة تتطلب ذكرهم بأسمائهم، إلا أنهم أصحاب الفيل، معتمدين في عملتهم الوحشية اللاإنسانية على قوة الفيل.

لقد كان للفيل على أصحابه شرف عظيم من ناحيتين:

1- القوة الخارقة، و قد كانت للحرب قديما و يحمل على ظهره من ثلاثة آلاف رطل إلى أربعة آلاف، و على خرطومه وحده ألف رطل، و يجر ما لا يكاد يقله ستة أفراس، و يسير في اليوم مائة ميل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 456

2- إنه حيوان سليم الطبع مؤالف مؤانس فليس من طبعه الأذى و إنما يستعمل قوته في الدفاع عن نفسه.

فهذا الفيل لم يستعمل قوته في خراب البيت رغم أصحابه، إنه برك دون مكة لا يدخلها، رغم ما جهد أصحابه في حمله على اقتحامها فبدل أن يفلحوا أفلجوا .. فلما ذا الكيد في هدم البيت و ممن؟

إن ملك الحبشة (أبرهة ابن الصباح الأشرم) «1» المسيحي- جد النجاشي الذي كان على عهد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ آمن المسلمين المهاجرين إلى بلاده، و آمن بالرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- أبرهة هذا يبني كعبة باليمن لها قباب من ذهب و زخرفات مغرية- كعادة الكنسيين في كنائسهم- بناها حسدا على الكعبة المشرفة و على الطائفين حولها، و لكي يزورها أهالي بلاده كما تزار الكعبة، و لكي يجلب أنظار زوار البيت الحرام أيضا إلى بيته بدعايات و مغريات .. إلا أنه خاب سعيه إذ رأى أن العرب- يمنيين و سواهم- ليسوا بتاركي الكعبة المقدسة إلى الكعبة المزورة، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم و إسماعيل صاحبي هذا البيت العتيق، و كان موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب.

عندئذ عزم «أبرهة» على هدم الكعبة المشرفة ليصرف الناس عنها- واقعيا- إلى كعبته المختلقة، و قاد جيشا جرارا تصاحبه الفيلة، و في مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم، فتسامع العرب به و بما قصد، و عزّ عليهم أن تهدم كعبتهم- بيت عزهم- فوقف في طريقه من وقف، يحاربوه ليصدفوه عن قصده، فما انصدف، إنه حاربهم بمن فيهم الأذواء و الأشراف اليمنيون و النفيل الخثعمي في قبيلتين، فهزمهم و أسرهم و استمر في طريقه، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف قائلين له: إن البيت الذي تقصده ليس عندنا، إنما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجمع البيان: أجمعت الرواة على أن الملك الذي قصد هدم الكعبة هو أبرهة بن الصباح الأشرم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 457

هو في مكة، ذلك، و ليدفعوه عن بيتهم الذي بنوه للّات، و بعثوا معه من يدله على الكعبة المشرفة.

.. و إلى أن وصل إلى مشارف مكة المكرمة، بركت الفيلة دون مكة لا تدخلها، رغم حملهم لها على اقتحامها .. ثم كان ما كان من قذائف الطير الأبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول‏ «1».

ثم نقف هنا وقفة الحائرين من موقف جد النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عبد المطلب، إذ يسرق إبله أصحاب الفيل فيقصد صاحب الحبشة يطلب إبله، دون التماس منه أن ينصرف من هدم البيت، و يجيب عن سؤاله: هذا رئيس قوم و زعيمهم، جئت إلى بيته الذي يعبده لأهدمه و هو يسألني اطلاق إبله؟ أما لو سألني الإمساك عن هدمه لفعلت! يجيبه: «أنا رب الإبل و لهذا البيت رب يمنعه» «2»

«لست برب البيت الذي قصدت لهدمه و أنا رب سرحي الذي أخذه أصحابك، فجئت أسألك فيما أنا ربه و للبيت رب هو أمنع له من الخلق كلهم و أولى به منهم» «3».

فيا لهذه المنعة الطيبة من حياد على ثبات و استقرار و طمأنينة من حفاظ رب البيت على بيته العتيق.

و كما نراه‏

«يجمع أهل مكة يدعو فأرسل الله طيرا أبابيل» «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه نماذج مما أجمعت عليه روايات القصة، رفضا لما اختلفت فيها.

(2) نور الثقلين ج 5 ص 670 ح 9 في أصول الكافي.

(3) نور الثقلين 5: 672 عن أمالي الطوسي عن الصادق (ع) عن أبيه عن جده (ع) في حديث طويل.

(4) قرب الاسناد بإسناده إلى موسى بن جعفر (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 458

فيا لجدّ الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من موقف مشرّف حيال هذا التصميم الكافر من أصحاب الفيل، و يا لمولد الرسول الألمعي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من كرامة يحافظ به اللّه تعالى على كرامة البيت، إذ ولد في عام الفيل‏ «1».

أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ‏:

يعبر عن عزمهم القاطع بالكيد، إذ كان القصد من هدم الكعبة و بناء كعبة مزورة، صرف الناس عن بيت اللّه إلى بيت اللهو، و هذان الكيدان أصبحا في تضليل، إذ لم يصلوا إلى بغيتهم في كيدهم: لا إيجابا: في بناء كعبة حبشية، إذ لم يستجب لهم العرب- و لا سلبيا: في هدم الكعبة المكرمة، إذ ضلت أجسادهم الجهنمية تحت التراب بعد إذ قذفت بقاذفات السماء، بدل أن تظل مع أرواحهم ناجحة في كيدهم، رابحة في ميدهم، فأصبحوا من الأخسرين أعمالا، فضلّت أجسادهم في هذه الحرب الكافرة، كما ضلت أرواحهم.

وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ‏:

هذا آخر المطاف و أضله في تضليلهم، فقد سخر اللّه منهم و أهانهم في تضليلهم هذا مرتين: إذ أرسل عليهم جنودا صغارا: «طَيْراً أَبابِيلَ» مع أسلحة صغار، صغار على صغار، تسحق الكبار الكبار: إذ تدمّر أصحاب الفيل، و تجعل كيدهم في تضليل، أجل أصحاب الفيل لا الفيل، إذ لم يقدم الفيل على ما قدموا، فقد نجا الفيل و ضلّوا.

و مرة ثانية إهلاكهم عن آخرهم، إذ ضل كيدهم معهم، و أصبحت قصة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما أجمع عليه الرواة كما

في الدر المنثور 6: 396: أخرج البيهقي عن محمد بن جبير ابن مطعم قال: ولد رسول اللّه (ص) عام الفيل، و كانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة، و بني البيت على رأس خمس و عشرين سنة من الفيل، و تنبأ رسول اللّه (ص) على رأس أربعين من الفيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 459

الفيل عبرة لأولي الألباب، رغم ما نواه أصحابه: أن تكون ثورة على الحق و تشجيعا للثائرين خلاف الحق.

«أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ» .. إنها كانت رسل اللّه لأمر مقصود، لا رسل الصدفة لأمر غير مقصود، أرسلهم اللّه طيرا أبابيل: و على حد تفسير أبي عبيدة:

«جماعة في تفرقه» و لعلها جماعة من حيث الجمع، و تفرقة من حيث الأجناس‏ «1».

نكّرت الطير الأبابيل كما نكّر أصحاب الفيل، و أين تنكير من تنكير، فلأصحاب الفيل منه النكير إهانة، و للطير الأبابيل تنكير التعظيم كرامة، و ليدل على أن لا اختصاص بهذه الطير جنودا إلهية، فالكائنات كلها جنود اللّه.

تقتل واحدة من هذه الطير ثلاثة من أصحاب الفيل، و يا لهم و لكيدهم من تضليل:

تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ‏:

هؤلاء الرماة القاذفات، فما هو المقذوف به؟ إنها حجارة من سجيل.

و «سجيل»\* معرّب عن «سنك كل» الفارسية، أي حجارة الطين، فمن الأحجار ما هو حجر خالص، و من الطين ما هو طين خالص، و من الحجارة ما هي حجارة الطين، و هي القنابل التي رمتها الطير الأبابيل.

نجد القرآن يذكر- فيما يذكر- من ألوان عذاب المجرمين دنيويا: «حِجارَةً مِنْ طِينٍ»: «قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» (51: 34) «فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» (11: 83).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هل للأبابيل واحد؟ قولان: أحدهما أنه «أبيل»\* قاله الراغب في غريب القرآن، ثانيهما أن لا واحد له كما قاله الأخفش و الفراء، و قيل إنه: إبالة، أبول، إيبالة. عن أبي جعفر الرواسي و الكسائي و الفراء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 460

فهذه حجارة ماهيتها أنها حجر الطين، حجر خلق من تحجّر الطين، و هي منضودة: بعضها على بعض- و مسومة: معلمة .. للمجرمين.

فهنا و هناك قاذفات، مقاذيف، قد يكون المقذاف الكوكب الذي يرمى منه إلى شياطين الجن إذ يسترقون السمع، أو شياطين الإنس إذ يسعون فسادا في الأرض. فالأولى تسمى شهبا، و الثانية أحجارا سماوية، و من الأولى: «وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ. وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ» (15: 18)، و من الثانية: «اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ (8: 32) «1».

و هنا القاذفات الحيوانية تأخذ قواذفها من جو السماء، من السجيل المنبث المتساقط من الكواكب، ثم تقذف بأمر اللّه، كما قذفت أصحاب الفيل، و كيف قذفت؟.

كل طائر كان في منقاره حجر و في رجليه حجران، و إذا رمت بذلك مضت و طلعت اخرى، فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلا خرقه، و لا عظم إلا أوهاه و ثقبه، و ثاب أبرهة راجعا و قد أصابته بعض الحجارة، فجعل كلما قدم أرضا انقطع له فيها إرب، حتى إذا انتهى إلى اليمن لم يبق شي‏ء إلا باده، فلما قدمها تصدع صدره و انشق بطنه فهلك و لم يصب من الأشعرين و خثعم أحد، قذائف لا تهدر، و لا تخطئ العدوّ إلى المؤمن، و لأنها كانت بأمر اللّه و بعين اللّه، دون القذائف البشرية الهادرة أحيانا و المخطئة اخرى.

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ‏:

كأوراق الزرع الذي أكله الأكّال، كالدود يأكله و يفسده، و الحيوان يأكله و يمزقه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الأحجار الساقطة من الكواكب لو وصلت إلى الأرض تسمى أحجارا، و لو احترقت في السماء تسمى شهبا و نيازك نارية، و سوف نفصل البحث عنهما في محالهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 461

فهذه صراحة في الآيات لا مرية فيها، أن ذلك الدمار لأصحاب الفيل كان من قاذفات الطير الأبابيل بحجارة من سجيل، فلا يصغى إلى تأويلات المتضايقين من خوارق العادات، الذين يكرسون كافة طاقاتهم لتأويل أمثال هذه الآيات إلى غير تأويلها.

هكذا فليكن الحفاظ الرباني على بيته العتيق، أنه يمنع أهل الكتاب الحبش أن يحطموا بيته الحرام، حتى حين إذ يدنسه الشرك، و المشركون هم سدنته، و ليبق هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين، مصونا من كيد الكائدين، كما كان عتيقا منذ خلق و عمر، لم تسيطر عليها أيدي الأرض، و ليحافظ على حريتها و انعتاقها حتى تثبت فيها العقيدة الجديدة حرة مطلقة.

و إننا نستبشر بهذا الحادث العظيم، ذي الدلالة البعيدة العميقة، نستبشر إزاء ما نعيشه من أطماع توسعية ما كرة ترف حول الأماكن المقدسة، من الصليبية، و الصهيونية العالميتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 462

سورة قريش- مكية- و آياتها أربع‏

[سورة قريش (106): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

\*\*\* علها ذات صلة بسورة الفيل بتعلق‏ «لِإِيلافِ» بها: ألم تر كيف فعل ربك ...

لإيلاف قريش، فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، ثم هذه الصلة لا تمنع صلة المجرور «لِإِيلافِ» بما في السورة نفسها: لإيلاف قريش فليعبدوا.

و أخيرا يصح القول بجمع الصلات الثلاث لصحتها و تماميتها أجمع: فإيلاف قريش كما هو أهداف الحفاظ على البيت، بيت عزهم و سيادتهم، كذلك هو سبب يدفعهم أن يعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، إذ جذب و اجتلب إليهم ثمرات كل شي‏ء، و آمنهم من خوف، خوف أصحاب الفيل، و خوفهم فيما بينهم.

و لا يعني إيلاف قريش اختصاص هذه العناية الإلهية بهم، أو اختصاص شريعة القرآن بهم، و إنما يعني أنهم منطلق الدعوة و ركيزتها الأولى و بدايتها، و أول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 463

المطاف في التبشير و الإنذار المحمدي: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» «وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها».

فالواجب الإلهي و الواجب الطبيعي في كل رسالة إلهية هو البداية بالأقربين، و لأن إيمانهم يهيئ الجو لإيمان الآخرين.

فلو ترك الرسول إنذار قومه في البدء، و لو كذبوه و أنكروه، لأصبح هذا التكذيب و النكران برهانا لغيرهم من الناكرين: أن لو كان حقا ما كذبوه و هم أعرف الناس به! إذا ننتقل من إيلاف قريش إلى إيلاف الناس أجمعين، الذين يصدقون بهذا الدين، فهنا دافع للإيلاف و هو عبادة رب هذا البيت، أن يجتمع الناس أجمعون على عبادة اللّه الواحد القهار، و بهذا يتحقق الائتلاف لانتظامهم في اتجاه واحد في الحياة.

و هنا سبب يهيئ الائتلاف و هو الحفاظ على كرامة البيت العتيق، فلو أن أصحاب الفيل لم يمنعوا دون مسهم من حرمة البيت، لانهار حرم الموحدين في البداءة، و انهار رجاؤهم طول الحياة.

ليعبد رب هذا البيت لأنه الرب، و لأنه أطعمهم من جوع قاتل و من خوف قاتل، و على حد تعبير

الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «نعمتان مجهولتان، الصحة و الأمان».

إن الخوف كان شاملا لحياتهم في كافة مجالاتها، السياسية و الاقتصادية و الثقافية و الفكرية و العقيدية و النفسية، كانوا يعيشون الخوف، و كانوا أمواتا في حياتهم، فأحياهم اللّه بالقرآن، و آمنهم من كل المخاوف لو طبقوا شريعة اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 464

سورة الماعون- مدنية- و آياتها سبع‏

[سورة الماعون (107): الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَ لا يَحُضُّ عَلى‏ طَعامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4)

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (6) وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ (7)

\*\*\* أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ‏:

التكذيب بالدين هو موضوع السورة، و بما أن الدين لا يحصر في الجانب العقائدي و العلاقات الفردية، فهذه السورة- كأنها- تختص الدين بالعلاقات الجماعية و الاهتمام بأمور اليتامى و المساكين، إيحاء بأنها من الدين رغم التغافل الملموس في هذا الصدد، إضافة إلى الاهتمام بالصلاة التي هي صلات فردية برب العالمين.

«أ رأيت»: سمعته ما يكذب بلسانه؟ أبصرت ما يعمل بأركانه؟ عرفت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 465

ما يكذب بجنانه؟ حيث الدين: الطاعة، هو لفظ الإيمان، و عقيدة الإيمان، و أعمال الإيمان، و كلّ يتطلب رؤية تناسبه.

«يُكَذِّبُ بِالدِّينِ»: هو طاعة اللّه يوم الدنيا، و الجزاء عليها، يوم الدين و هو بروز حقيقة الطاعة يوم الجزاء، و التكذيب بالدين قد يعم مراحله الثلاث، و قد يخص مرحلة دون أخرى، و قد يختص بما يحق في كلّ مرحلة و إن كان يؤمن بها إجمالا، فمن يعمل عمل المنكر المكذب لطاعة اللّه، فهو محسوب من المنكرين المكذبين، إذ إن الغاية من ألفاظ الإيمان و عقائد الإيمان هي أعمال الإيمان، و إن كانت لعقيدة الإيمان أصالة فلأنها نبعة الأعمال الصالحة.

و الدين الطاعة هو الإسلام للّه و التسليم له بكافة المظاهر و الأسرار: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» (3: 19) «أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ..» (3: 83). و الدين القيّم هو طاعة اللّه وحده:

«أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (12: 40) «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ» (4: 125).

في هذه السورة عرض للتكذيب العملي الناشئ عن التكذيب العقائدي، أو كأنه هو، حيث الأثر هو الأثر، و هو اللامبالاة بشأن الخلق و الخالق سواء.

فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ‏:

اليتيم لغويا هو «المنقطع» عما يحق الاتصال به لنضارة الحياة: ماديا و معنويا: من رحمة و عناية أبويه، و حنان الأم، و من هداية إلهية، و كما يجب للإنسان إنسانيا رحمة الأبوين، كذلك- و أحرى له- التوجيهات الربانية، و من الواجب الجماعي الإسلامي رعاية اليتامى من كافة الأصناف، الرعاية الأبوية لجبران نقصها بفقد الآباء، و الرعاية الروحانية كذلك- أصالة- و لجبران نقصها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 466

من الآباء الروحيين الذين قصروا في أداء ما عليهم، علاقات تضامنية بين المسلمين و لكي يجبروا ما ينقصهم في الحياة، بعضهم البعض.

إن الواجب هو الرحمة على اليتامى دون أن يبغى منهم جزاء و لا شكور:

«وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» (4: 6) ..

عناية مجانية و رعاية دون مقابل لمصلحة اليتامى، إلا للفقير، فليأكل كما يعمل لأقل قليل.

القرآن يشرك اليتامى في الكثير من الانتفاعات الجماعية و العائلية، فيوسطهم في قسمة الميراث بين أولي القربى و المساكين غير الوارثين: «وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً» (4: 8) و يردف بهم الوالدين و ذوي القربى في وجوب الإحسان إليهم:

«.. وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ بِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ» (4: 36).

فلو كان اليتيم مسكينا فله حقان: في الإرث و في الإحسان، و إلا فحق اليتيم لا يزيله عدم المسكنة لردفهم بالمساكين.

إن القيام بالإحسان و القسط لليتامى هو من واجبات الإيمان، مهما كان اليتيم فقيرا أو غنيا، لينوب مناب الوالد الذي كان قائما بالإحسان إليه مجانا:

«.. وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى‏ بِالْقِسْطِ» (4: 127) «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى‏ قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ» (2: 220) كذلك فليكرم اليتيم الذي يجد نفسه مهانا بفقد الوالد أو الوالدين: «كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» (89: 16) و ليردف بالوالدين و ذوي القربى في كافة الرحمات العائلية:

«.. لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ ذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ» (2: 83) «وَ آتَى الْمالَ عَلى‏ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينَ» (2: 215).

و ليحذّر عن أموالهم و لا يقرب إلا بالتي هي أحسن، حفاظا عليها، و استزادة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 467

فيها دون أيّ مقابل: «وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» (6: 152) «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى‏ ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» (4: 10).

فمن يدفع اليتيم عن حق الإحسان اليه و الإكرام له، و من يدفعه عن إشراكه و يدعّه في الرحمة العائلية، و من يدعّه عن إصلاحه و إصلاح حاله و ماله، و من يدعّه عن ماله فيأكله ظلما، فهذا الذي يكذب بالدين: «أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ».

قال ابن جريح: نزلت في أبي سفيان، كان ينحر جزورين في كل أسبوع فأتاه يتيم فسأله لحما فقرعه بعصاه، و قال مقاتل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، و كان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة و الإتيان بالأعمال القبيحة، و حكى الماوردي أنها نزلت في أبي جهل، كان وصيا ليتيم فجاءه و هو عريان يسأله شيئا من مال نفسه فدفعه و لم يعبأ به فأيس الصبي.

و قيل و قيل .. و لكنما الآية تأبى الإختصاص بمن نزلت في شأنه، إنها تعم كل سفياني يقرع اليتامى، و كل أبي جهل يجهل حقوقهم، فإنّ دعّ اليتيم و دفعه عن حقه هو من ظواهر التكذيب بالدين، مهما كان اليتيم يتيما في الدنيا أو الدين.

إنه ليست اللامبالاة بشأن العبادة- فقط- هي التكذيب بالدين، فإنها تكذيب به، سواء بحق الخالق أو الخلق، فالدين يجمع بين الحقين، كما السورة تجمع بينهما، ابتداء بحق الخلق و انتهاء به، و يوسط حق الخالق هنا إشارة إلى أن الخلق عيال اللّه فأحب الخلق إلى اللّه أحبهم إلى عياله المحتفين به، كما احتفت اليتامى و المساكين و ذوي الحاجة بعبادة اللّه.

وَ لا يَحُضُّ عَلى‏ طَعامِ الْمِسْكِينِ‏:

ليس إطعام المسكين هو الفرض فقط، بل الحض على طعامه أيضا، و المحاضة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 468

عليه، و ليس فرض المسلم أن يكون هو- فقط- الفائض الخير على المسلمين، فإن هناك فرضا ثانيا هو حض الناس أجمعين أن يكونوا فائضين، نبعة فوارة شاملة دون أن تيبس مهما يبست بنفس ذاتها، و لكنها فياضة بما تحضّ سواها و تبثّ، هكذا يجب أن يكون المسلم فياضا بكل خير، يكرّس حياته في هذه السبيل دون أن يجمد فوّاره.

و على المسلمين أن يحض بعضهم البعض على طعام المسكين، فعدم المحاضة و عدم الحض على طعام المسكين ينشأ من عدم الإيمان باللّه العظيم: «إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَ لا يَحُضُّ عَلى‏ طَعامِ الْمِسْكِينِ» (69: 33- 34) «وَ لا تَحَاضُّونَ عَلى‏ طَعامِ الْمِسْكِينِ» (89: 18).

هناك و هنا لك كان ويل للناكرين حقوق اليتامى و المساكين: المكذبين بالدين. ثم هنا:

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ‏:

يصلون و لكنهم لا يؤمنون، و كأنهم مكذبون بفرضها و الذي فرضها، حيث اللامبالاة في أدائها، و عدم الإتيان بشرطها الأصيل: «الإخلاص».

إن التفريع هذا «فويل»\* يربط هكذا مصلّين بالذي يكذب بالدين و يدعّ اليتيم و لا يحض على طعام المسكين، فاللامبالاة هي اللامبالاه، سواء أ كان بحق الخلق أو الخالق، فالمنشأ واحد هو التكذيب بالدين، و فقدان الركيزة الإيمانية كما يجب.

و إذا كان اللامبالي بحقوق الخلق من المكذبين، فاللامبالي بالخالق هو من أشر المكذبين.

و إذا كان الويل للمصلين المقصرين في صلواتهم فما هو لتاركي الصلاة؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 469

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ‏:

عن صلاتهم- لا- في صلاتهم، إذ إن الإنسان، كائنا من كان، قد يسهو في صلاته، في شرائطها و أجزائها، إلا من عصمه اللّه ...

و التنديد هنا بالساهين عن صلاتهم: فقد يصلون إذا حضروا و قد لا يصلون إذا غابوا، يحسبون صلواتهم كأهون ما يبغون، فهكذا سهو عن الصلاة مبدأه اللامبالاة بشأن الصلاة، سهو عامد، و نسيان مقصود، و تساهل متقصّد، كل ذلك لأنه مكذب بطاعة اللّه، لا يعتبر طاعته أصلا في الحياة، و لا أصلا من أصول الحياة، و لا فرعا لازما، و إنما في هامش الحياة، إذا ما أضرّت الصلاة بسائر ما يعملون، فلو أضرت بها لرفضوها و تركوها بتاتا.

و قد يشمل السهو عن الصلاة- إضافة إلى التساهل عنها- التساهل في شرائطها و أجزائها و وقتها، كما

يروى عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله في الآية: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها» «1»

و كذلك السهو عن الصلاة معنويا، كان يشتغل في الصلاة بغير اللّه، أو لا يرجو من صلاته خيرا «2».

و هذه هي صلاة المنافقين، الذين يتظاهرون بالإيمان و لما يدخل الإيمان في قلوبهم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور ج 6 ص 400.

(2) لما نزلت هذه الآية: «الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ»

قال رسول اللّه (ص): اللّه أكبر هذه الآية خير لكم من أن يعطي كل رجل منكم جميع الدنيا، هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته و إن تركها لم يخف ربه.

و

عن أمير المؤمنين (ع) فيما علم أصحابه من الأربعمائة باب مما يصلح للمسلم في دينه و دنياه:

ليس عمل أحب إلى اللّه عز و جل من الصلاة فلا يشغلنكم عن أوقاتها شي‏ء من أمور الدنيا، فإن اللّه عز و جل ذم أقواما فقال: «الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ» يعني أنهم غافلون استهانوا بأوقاتها (نور الثقلين 5: 677 ح 4) .. و عن الصادق (ع) مثله (المصدر نفسه ح 3).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 470

«إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى‏ يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» (4: 142) «وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى‏ وَ لا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كارِهُونَ» (9: 54). إنهم يقومون إلى الصلاة و لكنهم لا يقيمونها، يأتونها و لا يقيمونها، يأتونها كسالى، كسلا مزدوجا:

كسالة أولى إذا تعبوا و كلّوا عن أشغالهم، و ثانية أنهم على كسلهم يأتون الصلوة و هي حمل ثقيل عليهم‏ «.. وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ».

فصلاتهم إذا كسل على كسل، و فشل على فشل، فهم الذين يسهون عن الصلاة:

عن صورتها أحيانا، و عن حقيقتها دائما: يؤدون حركات الصلاة و لا تعيشها قلوبهم.

الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ‏:

أحيانا لا يصلون و أحيانا يصلون، و لكنهم يراءون في صلاتهم؛ ليست صلاتهم للّه، و إنما لأجل الناس الذين من حولهم، و هذا شرك في عبادة اللّه، إضافة إلى توهينه تعالى بالسهو عن الصلاة: «قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» (18: 110).

فلو أنه ترك صلاته هذه، كان خيرا له عند ربه، إذ يقدّم خلقه عليه في صلاته الرياء الساهي عنها، ثم يشرك به خلقه في هذه الصلاة الموهونة المهينة وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ‏:

و هذا جماع القول في الذين يكذبون بالدين، اللامبالاة بأقل قليل في حق الخالق و المخلوق: «منع الماعون» عن الخلق و الخالق، فالماعون لغويا هو القليل جدا، فإنه فاعول من المعن و هو الشي‏ء القليل، و كما يرويه أمير المؤمنين علي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 471

عليه السّلام عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1».

فهم المناعون أنفسهم و سواهم عن القليل القليل، الذي لا قيمة له أحيانا، أو أنها رخيصة جدا لا يمنعها إنسان إنسانا، فرغم أنه تافه، يحتاجه الإنسان دائما.

هم المانعون الماعون بجنب الخلق و الخالق، فماعون الخالق هو الصلاة «2»، أسهل شي‏ء على العبد دون أن تكلّف مالا أو سواه، فهم الساهون عنها و المراءون فيها، و المانعون هذا الماعون.

و ماعون الخلق هي الأشياء التي يحتاجها الإنسان، و لا يستغني عنها أحد، و هي طفيفة جدا، كالماء و الملح و أضرابهما، فالمانع لها من أبخل الناس و أخبثهم و ألأمهم.

و مانع الماعون بجنب الخلق هو المناع كل واجبات الحياة عن غيره، يمشي مكبا على وجهه، لا يهدف إلا صالحه الشخصي.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور: أخرج ابن قانع عن علي بن أبي طالب (ع): سمعت رسول اللّه (ص) يقول: المسلم أخو المسلم إذا لقيه حياة بالسلام و يرد عليه ما هو خير منه، لا يمنع الماعون، قلت:

يا رسول اللّه ما الماعون؟ قال: الحجر و الحديد و الماء و أشباه ذلك، و في رواية اخرى عنه (ص) هو ما يتعاطاه الناس بينهم.

أقول: و يجمعه انه الشي‏ء القليل التافه الذي يحتاجه الإنسان دائما، و لا ينافيه‏

المروي عن علي (ع) انه الزكاة المفروضة، فإنه من باب الأولوية القطعية، فالذي يمنع القليل هو الذي يمنع الكثير.

(2) و يؤيد شمول الماعون لمثل الصلاة: «ماعون الطاعة» ما أخرجه ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس في الآية قال: اختلف الناس في ذلك، فمنهم من قال: يمنعون الزكاة، و منهم من قال: يمنعون الطاعة، و منهم من قال: يمنعون العارية (المصدر ص 401).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 472

سورة الكوثر- مكية- و آياتها ثلاث‏

[سورة الكوثر (108): الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ (2) إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

\*\*\* سورة خاصة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، تعده بالخير الكوثر، و تعد أعدائه بالشر و البتر، و توجّهه إلى كامل الشكر، الأولى كثرة فياضة و ازدهار، و الثانية قلة منحسرة و انبتار.

من مكائد قريش لتوهين الرسالة المحمدية، و ليصرفوا جمهرة الناس عن حوله:

أن تقوّلوا عليه قولهم: «إنه أبتر»، من أمثال العاص بن وائل، و عقبة بن أبي معيط، و أبي لهب، و أبي جهل، و أضرابهم من الحاقدين عليه، المتربصين عليه دوائر السوء، قال أحدهم مبشرا: «دعوه فإنه سيموت بلا عقب و ينتهي أمره» محاولة عريقة منذ أمد بعيد، من قسم من قريش على قسم آخر، من بني أمية المعادية، على بني هاشم و هم مفخرة قريش، و لقد انتهت الزعامة الروحية إلى شخص النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكان تعبيرا طبيعيا عن البيت الهاشمي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 473

وجد هؤلاء الأعداء الألداء من أمية قريش، ظرفا لإهانة النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ توفي ولده الذكور، حين كان ينتظر بنو هاشم أن يرث المجد الهاشمي المحمدي ذكور من ولده، فأول من ولد له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «زينب»، و لكن هاشم تنتظر الذكر، الثاني كذلك بنت «رقية» فقد كاد أن يخيب الأمل، و الثالث كذلك بنت «أم كلثوم» فقد قوي الكيد من أمية.

لكنما الرابع و الخامس هما من الذكران «قاسم- عبد الله» .. لكنهما أ فلا قبل الإشراق .. فهل تلد خديجة بعد؟ و هل ذكرا؟ .. إنها ولدت و لكنها الرابعة من بناتها: «فاطمة» .. أجل ولد له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لآخر مرة ذكر «إبراهيم»\* لكنه أيضا أفل، و أخيرا لم تبق إلا البنات، ثم بنت واحدة هي الأخيرة، فما هو الأمل؟

كيد لئيم من حزب الشيطان وجد له مجالا، في القول: «إنه أبتر» «1»، في البيئة العربية، التي تتفاخر و تتكاثر بالأبناء! و يجد من يهشّ لها من أعداء الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و شانئيه، علها أوجعت قلبه الشريف، و إن كان واثقا بنصرة ربه، و خيبة أعدائه.

هنا، و بهذه المناسبة المؤلمة، و لأمور أخرى، نزلت سورة الكوثر، ماسحة على قلبه بالروح و الندى، مقررة حقيقة الخير الباقي الممتد مدى الدهر،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

قال ابن عباس: إن رسول اللّه (ص) دخل من باب الصفا و خرج من باب المروة فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له: من استقبلك يا أبا عمرو آنفا؟

قال: ذلك الأبتر، يريد به النبي (ص)، حتى أنزل اللّه هذه السورة.

عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت خير أهل المدينة و سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصابي المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا و نحن أهل الحجيج و أهل السقاية و أهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: «إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» (ج 6 ص 403).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 474

الذي اختار له ربه، و حقيقة البتر و الانقطاع المقدّر لأعداء الرسالة المحمدية السامية.

قيل إن الكوثر نهر في الجنة أوتيه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لكنه لا يزيد عن أنه كوثر من الكوثر: «إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ» لا «كوثر» .. كوثر هو امتداد للكوثر و على هامشه‏ «1».

و قيل: إنه ولده من فاطمة الصديقة (ع)، حيث انتشروا أكثر من كل الأنسال، نقول: إنها أيضا من الكوثر و من أعظمه كما وردت في أسباب النزول و كما توحيه الآية: «إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

إذ إن معظم الشنئان كان اعتبارا أنه لم يبق له ذكر، فورد الجواب الحاسم، الحامل لنبإ الغيب: «إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» و كما بتر، إذ انقطع نسل عدوّه اللدود رغم ولده الذكور العشرة، و كما الآية الأولى حملت بشارة الغيب:

«إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ» و القدر المتيقن، المناسب لسبب النزول، هو كوثر الصديقة الزهراء.

.. و بعد أن كانت المرأة مهانة و لم تكن في حساب الإنسان نراها الآن في الإسلام معززة مكرمة قد يفوق كيانها الرجال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). روايات متواترة

عن النبي (ص) تقول: إن الكوثر نهر في الجنة،

و منها ما

أخرجه ابن مردويه عن أنس قال: دخلت على رسول اللّه (ص) فقال: قد أعطيت الكوثر، قلت:

يا رسول اللّه! ما الكوثر؟ قال: نهر في الجنة عرضه و طوله ما بين المشرق و المغرب لا يشرب منه أحد فيظمأ و لا يتوضأ منه أحد فيتشعث أبدا، لا يشرب منه من أخفى ذمتي و لا من قتل أهل بيتي‏ (الدر المنثور 6: 402)،

و فيه من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال: الكوثر الخير الذي أعطاه اللّه إياه، قال أبو بشر لسعيد بن جبير فإن أناسا يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه إياه (المصدر نفسه).

و فيه عن عكرمة قال: الكوثر ما أعطاه اللّه من النبوة و الخير و القرآن (ص 403).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 475

شاء اللّه تعالى أن تحتل فاطمة الزهراء المكانة العليا من الكمال، و لكي تسبق الرجال كما سبقت نساء العالمين من الأولين و الآخرين، طالما مريم (ع) فضلت على نساء عالمي زمانها ..

شاء اللّه تعالى أن تنسل منها فحسب ذرية الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لأنها كانت من أهل بيت العصمة و الطهارة المحمدية، و تفوق العالمين، من النبيين و الصدّيقين و الشهداء و الصالحين، فضلا عن السيدة مريم (ع) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مقارنة بين فاطمة و مريم (ع):

قال لي اسقف من الأساقفة: هذه مريم المسيحية فضلت في قرآنكم على نساء العالمين و على فاطمتكم، و تختص بها سورة قرآنية دون أن يؤتى بذكر فاطمتكم ..

قلت: إنها ليست مريم المسيحية، إنها السيدة مريم التي نعتبرها من خيرة نساء العالمين، نحن نصدقها و نكرمها كما تكرمون و زيادة .. و لا نهتكها كما في الإنجيل! الأسقف: ما هي الآية الإنجيلية التي تمس من كرامتها؟

المفسر: آية اولى تندد بالأم و الابن معا: «. و لما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر، قال لها يسوع: ما لي و لك يا امرأة» (يوحنا 3: 1- 11).

فمسيح القصة يهتك أمه بهذه الجملة اللاذعة «يا امرأة!» رغم أنه أجابها في مأمولها، و صنع الخمر! ثم هتك ثان أنها لم تؤمن: «إذ كان يكلم تلاميذه فجاء حينئذ اخوته و أمه و وقفوا خارجا و أرسلوا إليه يدعونه و كان الجمع جالسا حوله فقالوا له: هوذا أمك و إخوتك خارجا يطلبونك، فأجابهم قائلا: من أمي و إخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين و قال: ها أمي و إخوتي، لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي و أختي و أمي» (مرقس 3: 31- لوقا 8: 9- 21- متى 12: 46- 50).

فلو انها- و حاشاها- عصت في دعوة المسيح لصنع الخمر، فلما ذا يهتكها هنا بكلمة فحش شوهاء:

أنها غير مؤمنة؟!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 476

إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ:

فما هو الكوثر بعد؟.

الكوثر لغويا هو المبالغ في الكثرة، و اعتبارا أنه يقابل الأبتر، فهو الكثرة الكثيرة من كل خير، من كل اتصال بمعدن الرحمة الإلهية، فلم يبق اللّه رحمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لكنما القرآن يختص سورة بتنزيهها و تطهيرها عما تقولوا عليها أمثال هذه .. و ما نسبت إلى الزنا.

إن القرآن لا يذكر امرأة باسمها، و ليس ذكر السيدة مريم إلا تبرئة لها، و إلا تأكيدا لولادة المسيح العجيبة، أنها كانت دون والد.

لكن فاطمة ما نسبت إلى منكر حتى يذاد عنها بآيات قرآنية، و مجرد الذكر في القرآن لا يدل على الأفضلية في الكمال، فهذا «زيد»\* يذكره القرآن لمهمة أحكامية، و لا يذكر من ألوف النبيين إلا ستة و عشرين.

الأسقف: و لكنها حسب القرآن مفضلة على نساء العالمين و منهن فاطمتكم‏ «يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى‏ نِساءِ الْعالَمِينَ».

المفسر: على العالمين: (عالمي زمانها) .. لا من الأولين و الآخرين، و كما يقال: ان الأسقف أفضل الأساقفة في العالمين، أو أفضل علماء الإنجيل، فهل تعني أفضليته على علماء الإنجيل مدى الدهور؟! ثم هي خير نساء العالمين- لا- و رجالهم، و فاطمة الإسلام اختصت مع الرسول الأقدس محمد (ص) و زوجها و ابنيها، بعصمة و طهارة، لا يشاركها أحد من العالمين، من نوح و ابراهيم و موسى و المسيح (ع) .. بشهادة آية التطهير: «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (33: 33) ف «إنما»\* تحصر إذهاب الرجس، و تحصر الطهارة، تحصرهما بأهل بيت الرسالة المحمدية و كما في متواتر الأحاديث الإسلامية دون خلاف.

فلو أن السيدة مريم مفضلة على نساء عالمي زمانها، أو نساء العالمين من الأولين و الآخرين، فالسيدة فاطمة مفضلة على العالمين بنسائهم و رجالهم، و حسبها انها كوثرة من الكوثر، من أعظم المعطيات الإلهية للرسول الأقدس محمد (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 477

يمكن إعطاءها، إلا و قد أعطاها رسوله الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و إنه: «الكوثر» لا «كوثر» و لا «الكوثر من رحمة خاصة» بل «الكوثر»: الكثرة المنقطعة النظير و غير محدود، من كل خير بالإمكان أن يفيضه رب العالمين على أحد من العالمين.

إن الكوثر هذا، يشير تماما إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء، و أشمل عكسا، إنهم اعتبروه «أبتر»: منقطع النسل، و ربه يعتبر له «الكوثر» اتصالا غير محدود بمعدن الرحمة و العظمة الإلهية، و منه كوثرة النسل: فاطمة الزهراء (ع).

فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر فهو واجده حيثما تصوّر أو نظر:

1- في رسالته التي هي خير الرسالات و خاتمتها، التي جمعت الرسالات الإلهية كلها و زيادة، كأنها الرسالة وحدها.

2- في قرآنه: ينبوع ثرّ لا يفتأ، الكتاب الذي جمع فيه معجزة الرسالة و معجزة الوحي.

3- في علمه الغزير و عقله الوفير الذي فاق عقول العالمين.

4- في كافة محامده، و هو المحامد كله، و على حدّ تعبير سليمان بن داود في كتابه كما في الأصل العبراني: «.. حكّو ممتقيّم و كولو «محمديم» زه دودي وزه رعي بنت ير شالام» (نشيد الأناشيد 5: 16):

أي: فمه حلو و كلّه «محمد»\* هذا محبوبي و هذا ناصري الذي يرعاني يا بنات أورشليم.

كله محمد: هو بتمامه: بذاته و بصفاته و أفعاله، برسالته و كتابه ..

محمد: في غاية المحمودية و الكمال و البهاء و الجلال، لا في اسمه فحسب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 478

5- في نسله الميمون- أيضا- هو محمد و كوثر، كوثر في العدد، و في العدد الروحية و الرسالية.

6- في زوجته الأولى: خديجة الكبرى أم المؤمنين، فإنها كوثرة في إيمانها و مالها و انجابها الكوثرة الزهراء، فهي أحبت محمدا بعقل الأربعين لا بغفلة التسع، و لا بنزوة العشرين، أحبته في إرادة التعبير فانساقت إليه انسياقة إيمانية فتضاءلت بين يدي حبها الكبير مجاهيد دنياها، و ذاب من تحت عينيها بريق الذهب، تاجرت بزواجها بالرسول، و بثروتها الثرّ، قرنا أنيسا برسالة السماء، و جاهدت في هذه السبيل بكل ما لديها من طاقات.

7- في صهره و ابن عمه عليّ أمير المؤمنين: استمرار الرسول برسالته، و استجرار سنته، و استكمال دعوته.

فعلي عليه السّلام كوثر من الكوثر، و له من الكوثر المنفصل عن كيان النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نصيب عظيم، و كأنه كله، إذ كان كلّ الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا في الوحي.

8- في خلفائه الباقين الأحد عشر، فإنهم كوثر من الكوثرين، من «علي و فاطمة» و بقائمهم تحيى الدنيا و كأنها الجنة!.

\*\*\* إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ:

من هنا ندرس ألفاظ الآيات فنتطلع منها على معانيها المشار إليها.

«إِنَّا أَعْطَيْناكَ»: جمعية الصفات لا جمعية الذات، يعني بهذه الجمعية أن عطية الكوثر للنبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تجمع مجامع الخيرات الناتجة عن مجامع الصفات الإلهية- غير الذاتية- فصفاته الفعلية التي تصدر على أضوائها أفعاله تعالى، هذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 479

الصفات كلها اشتركت في هذه العطية الربانية، ففي الكوثر نصيب من جمعية الصفات الإلهية، و لو صح التعبير لقلنا: إن هذه العطية إلهة العطيات، إذ صدرت من إله الأرض و السماوات بجمعية الصفات، للنبي الأقدس و هو أفضل الكائنات عبر التاريخ.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ:

إن هذه العطية الغزيرة الفائضة الكثرة، رغم ما أرجف المرجون، إنها تتطلب شكرا يناسبها، فكما المشكور له عطية لا فوقها عطية، كأنها استأصلت العطيات فجمعتها في نفسها، كذلك الشكر، فليكن شكرا مستأصلا جامعا للشكر، و ليس إلا الصلاة للرب «لربك»\* ناحرا فيها.

صلاة تجمع جوامع معاني الصلاة و حقائقها، و تليق بساحة الربوبية: رب الكوثر المحمدي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، الصلاة التي تنقطع بك عما سوى اللّه، و عن نفسك، ألّا يبقي فيها بينك و بين اللّه أحد- و لا نفسك- صلاة الفناء المحض، و إشارة باهرة لهذا الانقطاع التام إلى اللّه تعالى هو النحر:

«رفع اليدين في تكبير الصلاة إلى النحر، باطنهما إلى القبلة و ظاهرهما إلى خلفها» «1».

هكذا نحر يلائم و التكبير عنده، فالتكبير يعني أن اللّه أكبر من أن يوصف،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه الفريقان عن النبي (ص) و عن علي (ع) و رواه أصحابنا عن الصادق (ع)،

ففي الدر المنثور عن علي بن أبي طالب (ع) قال: لما نزلت هذه السورة على النبي (ص) قال النبي لجبريل: ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي؟ قال: إنها ليست بنحيرة، و لكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت و إذا ركعت و إذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا و صلاة الملائكة الذين هم في السماوات السبع، و إن لكل شي‏ء زينة و زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة. قال النبي (ص): رفع اليدين من الاستكانة التي قال اللّه:

«فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ» () 403).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 480

لا أنه أكبر من كل شي‏ء، فلا كبير بجنب اللّه حتى يوصف بأنه أكبر منه، إنما أكبر من أن يوصف إلا كما وصف به نفسه‏ «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

إذ ذاك فليوجه العبد بكل وجوهه اليه، كما و يوجه وجهه الظاهر إلى بيته الحرام.

إذا فليعرض عما سواه إعراضا تاما لكي يتمكن من هكذا إقبال اليه، و رفع اليدين- كما وصفناه- إشارة اليه: أعرضت عما سواك داحرا لها خلفي، وجهت وجهي إليك دون حجاب إلا ذاتك المحجوبة عن خلقك، فكما أنه تعالى لم يبق نعمة إلا و أنعمها عليك، فعليك ألا تبق ممن سواه إلا و تدحره و تقبل إلى اللّه، هكذا صلاة هي التي تحق لهذه العطية الربانية.

إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ:

إنه الأبتر عن كل ما لك من الكوثر، و قد صدق وعد اللّه له و عليهم، أن عدوه الشانئ الشائن انقطع عن خيرات الدنيا و الآخرة، فقد انقطع ذكرهم و انطوى إلا عن أمواج من السب و العدى، بينما امتد ذكر الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و علا! و قد يشمل النحر هنا نحر الإبل ضحية، إشارة إلى أنني أفدي بنفسي للّه، بعد ما فنيت عنها في الاتجاه إلى اللّه، و لكنما الانتحار محرّم في شريعة اللّه، إذا فنحر الإبل تقوم مقامه كذكرى.

مسيلمة الكذاب يعارض فيما يعارض- هذه السورة قائلا: «إنا أعطيناك الجماهر. فصل لربك و جاهر إن مبغضك رجل كافر» كلمات هي أشبه بالهذيان:

بين مأخوذة من الكوثر «إِنَّا أَعْطَيْناكَ‏- فَصَلِّ لِرَبِّكَ» و بين ما لا يحمل منقبة «... الجماهر» إذ لا منقبة في وجود الجماهر. فجماهر الشيطان أكثر من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 481

الكل، و لو أريد منها جماهر الخير و التقى، لم يكن فيها منقبة للرسول، إلا كمالا منفصلا عن ذاته، و بين ما هو توضيح للواضحات: «إن مبغضك رجل كافر» ثم لا تحمل هذه الهذيانات من بشارات الغيب و إنذاراتها ما تحمله سورة الكوثر، فكوثر الرسول بشارة، و بتر شانئه إنذار، و كلاهما من ملاحم الغيب، و القرآن يتحدى- فيما يتحدى- بسورة واحدة منه، و أقصرها الكوثر، و طالما حاول الحاقدون المعاندون للرسالة المحمدية و قرآنها أن يعارضوه فخابت مساعيهم، و لو كان لبان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 482

سورة الكافرون- مكية- و آياتها ست‏

[سورة الكافرون (109): الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (2) وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (3) وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (4)

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ (6)

\*\*\* ندرس في هذه السورة كيف يجب أن نعامل الكفار الذين: «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»، فهل نبذل من عقيدة الإيمان أو أعمال الإيمان لكي نسايرهم علّهم يؤمنون، أم هذه خطوة ماكرة و شيطنة مدروسة منهم، يريدون أن نصبح كأمثالهم لقاء أن يؤمنوا بما نؤمن كما يدعون، و إن هم إلا كاذبين؟ ..

إن الإيمان لا يقبل المخادعة و المسايرة، و ليست هذه المبادلة تجارة رابحة و لو وفوا بعهدهم، فكيف و هم كاذبون!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 483

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ‏:

الكافرون الذين لا يؤمنون، و لا يرجى منهم أن ينسلكوا في سلك المؤمنين، بل هم يريدون من المؤمنين مسايرتهم، علهم يخرجونهم عن الإيمان كأمثالهم، و لذلك يستحقون هكذا خطاب قارع، يقرع أسماعهم و قلوبهم المقلوبة علهم ينتهون.

.. يلقى الوليد بن المغيرة و العاصي بن وائل و الأسود بن المطلب و أمية خلف، يلقون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلين: يا محمد! هلمّ فلتعبد ما نعبد، و نعبد ما تعبد، و لنشترك نحن و أنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه، كنت قد أخذت منه حظا، و إن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه، كنا قد أخذنا منه حظا، فأنزل اللّه هذه السورة.

و

في رواية أخرى: أن قريشا قالت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة، و تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة، فأجابهم اللّه بمثل ما قالوا: فقال فيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ‏، و فيما قالوا: نعبد إلهك سنة: وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ، و فيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ‏، و فيما قالوا: نعبد إلهك سنة:

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ‏.

نستوحي من الروايتين أنه كان هناك اقتراحان: الإشراك المتصل و المنفصل، فالثاني أن يشرك النبي باللّه منفصلا: يعبد أوثانهم سنة و يعبد ربه سنة أخرى، مقدما لأربابهم على ربّه! يوحّد كلا بالعبودية منفصلا عن الآخر، و يردّ هذا الاقتراح بالآيتين الأوليين‏ «لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ» و لا لآن، فكيف بسنة «وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ» لآن فكيف بسنة، فما أنتم بتاركي آلهتكم و إن أنتم إلا كاذبون تمكروننا من ناحيتين:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 484

1- أن نبتدئ بعبادة آلهتكم و أنتم على حالكم.

2- أن تخالفوا وعدكم فتتركوا بعبادة إلهي في السنة الثانية.

و في الأول- و كأنه خيّل إليهم أنه أقرب إلى الحيلة- يصدون على أنفسهم باب المكر إذ يبتدئون مع الرسول في الشرك المتصل، و لكنه يصدهم عن ذلك أيضا: أن ماهية عبادتي تتناقض تماما مع عبادتكم، فعبادتي توحيدية محضة لا تقبل الإشراك أبدا، و عبادتكم شركية لا تقبل التوحيد إطلاقا.

«لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ»: ليست عبادتي كعبادتكم‏ «1»: تلائم كل عبادة لكل معبود «وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ» ليست عبادتكم كعبادتي: «2» تختص باللّه الواحد القهار.

فهذه السورة تستأصل كل عبادة و كل معبود من دون اللّه، شركا متصلا أو منفصلا، و تختص العبودية باللّه دون أن تشرك به سواه.

إذا فلا تكرار في الجواب، و إن كان في صورة التكرار، فجاءت السورة حاسمة قارعة عليهم ما يمكرون.

إنهم كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم، و انهم أهدى من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة، فمن اليهود من كانوا يقولون: عزير ابن اللّه، و من النصارى من كانوا يقولون: المسيح ابن اللّه، بينما هم كانوا يعبدون الملائكة و الجن، زعم قرابتهم من اللّه، فكانوا يزعمونهم أهدى، لأن نسبة الملائكة و الجن إلى اللّه أقرب منها إلى عزير و المسيح.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2) «ما»\* في الآيتين الأخيرتين مصدرية، و في الأوليين موصولة- تفيد أولا رفض كل معبود من دون اللّه، و ثانيا ترفض كل عبادة شركية- فماهية الشرك تتناقض و ماهية التوحيد معبودا و عبادة، نستوحي هذا الفرق بين الآيتين من مضي الفعل في الثانية «وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ»:

عبادتكم، فلو كان المعني منها هو المعني من الاولى لم يكن وجه لاختلاف زمن الفعل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 485

فلما جاءهم الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا: ملة أبيكم إبراهيم، إن دينه دين إبراهيم: حنيفا مسلما و ما كان من المشركين .. قالوا: و نحن على دين ابراهيم فما هي الحاجة إلى دين محمد .. ثم راحوا يحاولون مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يحتالون عليه طريقة وسطى .. و عرضوا عليه ما عرضوه فاعترضتهم قوارع الآيات أن لا طريقة وسطى، فإما التوحيد و إما الإشراك.

فعلّهم ماكروه فهذا العرض الكافر، و علّهم زعموا قرب المسافة، فبإمكانهم التفاهم عليها: بقسمة البلد بلدين و الالتقاء في منتصف الطريق .. إلا أن مكرهم أظهر، فلو كانوا جاهلين غير عامدين لم يكن القرآن يحسم الخلاف بترك الدعوة بعدئذ: لا نحن إليكم و لا أنتم إلينا «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ». إنهم ماكروه: أرادوا أن يخرجوه عن التوحيد و هم باقون على الشرك، فيخسروهم رابحون، و هكذا محاولة الشياطين في خطواتهم تجاه المؤمنين، إنهم يجنّدون كافة طاقاتهم، و يعملون كل دعاياتهم ليضلوا المؤمنين، كما هم ضالون، دون أن يهتدوا و لا قيد شعرة: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ» (29: 12- 13).

أجل، و إن هناك: بين المؤمنين و هكذا كافرين، إن بينهم انفصالا لا يرجى معه أي اتصال، فلا التقاء إذن بينهما في طريق .. فهنا آخر المطاف في الدعوة ثم لا دعوة إذ لا رجاء.

لا بد للدعاة إلى اللّه أن يصرفوا طاقاتهم لإثبات الحجة و لكي يدلوا و يهدوا الضالين إلى اللّه، و أما أن يتاجروا بإيمانهم أيضا، زعم أن الكافرين الماكرين علهم يهتدون .. أما إذا وصلت الدعوة إلى خسارة الدعوة و الداعي هكذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 486

فلا .. و إنما كلمة واحدة آخر المطاف: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ» أنا هنا و أنتم هناك، فلا معبر و لا جسر عليه يعبر، و ما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذا الموقف الحاسم و البراءة التامة عما ينافي الإسلام، و إنه ليس هناك أنصاف حلول، و لا التقاء في منتصف الطريق، و لا إصلاح عيوب، و لا ترقيع مناهج، إنما هي الدعوة إلى الإسلام كما بدأت بالصادع الأول.

و بغير هذه الفاصلة الحاسمة سيبقى الغبش و اللبس و الترقيع و الخداع، و ليس الإسلام بالذي يقوم على هذه الأسس المدخولة! أجل: الدعوة إلى الإسلام كما الإسلام يرام، و بالحكمة و الموعظة الحسنة و الجدال بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا، فبالمقاطعة أو التقويم بالقوة، علهم يتعرفون إلى الحق، أو تدميرهم لكي تحسم مادة الفساد و جراثيم الضلالة، و أول المطاف هنا في آخر الدعوة هو القول: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ».

«قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ» .. إعلانا دون إسرار، و لكي يدرس الأحرار درسهم في مواقفهم هذه مع المتعصبين، كيف يلتقوا معهم، نداء بحقيقتهم و وضعهم الذي أصبح لزاما لذواتهم: «لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ»: تريدون مني حدثا في العبادة و أنا لا أعبد معبوداتكم من الآن و مدى الحياة، كما لم أكن أعبدها منذ الولادة و حتى الآن.

«وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ»: قطعت رجائي عنكم، فلستم ممن يعبدون اللّه، فقد أصبح الشرك كأنه لزام ذواتكم فلستم بتاركي آلهتكم من الآن، كما لم تكونوا بتاركيه حتى الآن .. و هذه من الملاحم القرآنية، تخبر عن غيب مستقبل: أنهم ليسوا بمؤمنين حتى الموت .. و كان بإمكان أحدهم أن يؤمن في ظاهر الحال، و لكي يثبت كذب هذه الملحمة القرآنية، و لكنهم لم يقدموا و حتى على ظاهر الإيمان: «وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 487

هنا حسمت الآيتان اقتراح الشرك المنفصل «تعبد آلهتنا سنة، نعبد إلهك سنة».

ثم الأخيرتان حسمتا اقتراح الشرك المتصل أيضا:

«وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ» .. لست بالذي يعبد كعبادتكم ... «وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ» كذلك لستم ممن يعبد كعبادتي، تتركون آلهتكم و تعبدون ربي موحدين .. و حتى في حين تعبدون ربي سنة كما تزعمون، أو حين تجمعون بين العبادتين و أحرى، إذا «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ» ...

و هكذا يدرس المسلم القرآن، كيف يجب عليه الصمود في الإيمان دون أن ينسحب عنه كثيرا أو قليلا بغية إيمان الكافرين، فعليه أن يقاوم الكافرين، لا أن يساومهم و يتنازل عن إيمانه.

فإذا سمع ممن تعوّد على بيوت القمار و الدعارة، شاركنا ليلة هكذا و علينا التكليف، ثم نشاركك في عبادة اللّه .. فاعرف أنه داعية الضلال، و إلا فلما ذا يقدم لك الضلال، فهل في ضلالك دافع أن يهتدي هو؟ كلا! إن هذا إلا مكر يمكرونه.

فالجواب إذا، لا أشارككم في معصية ربي، و لا تشاركوني في عبادته، «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ» .. لكم شهواتكم ولي عباداتي، لكم الراقصات ولي الصلوات، لكم الدعارات ولي العبادات، و في آخر المطاف لكم جحيم النار ولي الجنة التي وعدها المتقون الأبرار.

و من الشياطين من يخفف الوطأة في المماكرة، يشاركونك في الخير فترة من الزمن كأنهم من المؤمنين، ثم يتركونك إلى ضلالهم القديم كأنهم فتشوا هنا و لم يجدوا خيرا فانتقلوا إلى ما كانوا، ثم يحاولون أن تشاركوهم فيما هم: «وَ قالَتْ طائِفَةٌ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 488

مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى‏ هُدَى اللَّهِ ..» (3: 73)،

.. هكذا يمكرون‏ «وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ»، فليكن المؤمن عاقلا فتنا لبقا كيّسا لا يماكر و لا يغادر أو يضرر به، إذا يريد الحفاظ على إيمانه، و عليه أن يدرس طرق الضلال و ألوان الشيطنات، بجنب ما يدرس طرق الهدى، و كما هداه اللّه‏ «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» طريق الخير و الشر واضحا على المنار، فليدرسهما لكي يثبت على الهدى و يجتنب مزالق الردى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 489

سورة النصر- مدنية- و آياتها ثلاث‏

[سورة النصر (110): الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (1) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (3)

\*\*\* آيات ثلاث تحمل بشارة النصر و الفتح، و قد سبقتها بشارات عدة، و هنا مزيد فيه مدى الفتح: «وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً» و فيه ما يتطلبه الفتح: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً».

بشارات تتضافر و تتواصل، في حين أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هاجر مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، و ملاحقات المشركين دائبة، و أذاهم دائم، و رجاء الرجوع إلى مكة بعيد، و حتى لأداء فريضة الحج .. و أن فتح مكة و تقاطر الوفود للدخول في دين اللّه من أهم الأهداف للرسالة المحمدية، و لأنها ام القرى، المركز الرئيسي للدعوة الإسلامية.

قال ابن كثير في التفسير: «المراد هنا فتح مكة قولا واحدا، فإن أحياء العرب كانت تتلوم (تنتظر) بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله مكة دخلوا في دين الله أفواجا، فلم تمض سنتان حتى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 490

استوثقت جزيرة العرب إيمانا، و لم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر الإسلام و لله الحمد و المنة».

هذه الرواية تتلاءم مع ظاهر النص في السورة «إذا جاء ..» فلم يقل «قد جاء» .. إنها بشارة بمستقبل الفتح و النصر لا واقعه، فلقد كانت في هذه البشارات المتلاحقة حجة للرسالة المحمدية، إذ تحمل ملاحم الغيب، و تقوية لقلوب المؤمنين بهذه الرسالة السامية، إذ تبشرهم بمستقبل العز و الإنتصار، و فيها تبكيت و تسكيت للكافرين إذ يسمعون الوحي يقرع أسماعهم بقوارع الفتح، و كما تضافرت به الروايات عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: لما أقبل رسول اللّه (ص) من غزوة حنين أنزل عليه‏ «إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ» إلخ .. قال رسول اللّه (ص): يا علي بن أبي طالب و يا فاطمة بنت محمد! جاء نصر اللّه و الفتح .. سبحان ربي و بحمده و استغفره إنه كان توابا، و يا علي انه يكون بعدي في المؤمنين الجهاد، قال: علام نجاهد المؤمنين الذين يقولون آمنا؟ قال: على الأحداث في الدين إذا عملوا بالرأي و لا رأي في الدين، إنما الدين من الرب أمره و نهيه، قال علي: يا رسول اللّه أ رأيت إن عرض علينا أمر لم ينزل فيه قرآن و لم يقض فيه سنة منك؟ قال: تجعلونه شورى بين العابدين المؤمنين و لا تقضونه برأي خاصة، فلو كنت مستخلفا أحدا لم يكن أحد أحق منك لقربك في الإسلام و قرابتك من رسول اللّه (ص) و صهرك، و عندك سيدة نساء المؤمنين، و قبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب إياي، و نزل القرآن و أنا حريص على أن أرعى له في ولده‏ (الدر المنثور 6: 407).

أقول: لا تخفى دلالة هذا الحديث على أحقية الإمام علي (ع) بالإمرة على القولين: انه (ص) استخلف أو لم يستخلف، إذ أبدى رأيه فيمن هو أولى، فهل يا ترى ان لو كان للسقيفة حق الاستمارة في الإمرة، فمن هو أولى بالاتباع؟ الرسول (ص) أم أصحاب الشورى، و بعد أن أبدى الرسول رأيه! و

أخرج ابن أبي شيبة و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول اللّه (ص) يكثر من قول: سبحان اللّه و بحمده و أستغفر اللّه و أتوب إليه، فقد رأيتها:

إذا جاء نصر اللّه و الفتح- فتح مكة- و رأيت الناس، إلخ ..

و

في تفسير علي بن إبراهيم القمي قال: نزلت بمنى في حجة الوداع و إذا جاء نصر اللّه و الفتح، فلما نزلت قال رسول اللّه (ص): نعيت إلي نفسي، فجاء إلى مسجد الخيف فجمع الناس ثم قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 491

هذه- و من قبل كانت الآيات تتواصل في بشرى الفتح إعلانا و إسرارا، يقظة و رؤيا، و إلى حيث كأن الفتح واقع و لمّا يقع: «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ..» ماض يعني مستقبلا قاطعا و كأنه أمر مضى، .. تنزل في السنة السادسة من الهجرة، قبل الفتح بسنتين، و في نفس السورة ذكرى رؤيا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن اللّه صدقها: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً» (48: 28)، و لقد كانت هامة الفتح من غير المحتمل و حتى في الرؤيا، و لكن اللّه حققها وفاء بعهود تترى ... يرى رؤياه هذه في حين كان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة، حتى في الأشهر الحرم التي كانت العرب تعظّمها في الجاهلية، و تضع السلاح فيها، و تتعظم القتال في أيامها، و الصدّ عن المسجد الحرام، حتى أصحاب الثارات كانوا يتجمعون في ظلال هذه الحرمة، و يلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع في وجهه سيفا، و لا يصده عن البيت المحرم، و لكنهم خالفوا هذه السنة و صدوا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين طوال سنوات.

«هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ..» (48: 25).

بشارات الفتح قبل وقوعها تتلاحق و تتلاصق هنا و هناك، تثبيتا للمؤمنين، و دفعا لشكوك المرتابين الذين في قلوبهم مرض:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نصر الله امرآ سمع مقالتي فوعاها و بلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، و رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله و النصيحة لأئمة المسلمين، و اللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، أيها الناس إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا و لن تزلوا، كتاب الله و عترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض كإصبعي هاتين- و جمع بين سبابتيه- و لا أقول كهاتين- و جمع بين سبابته و الوسطى- فتفضل هذه على هذه‏ (نور الثقلين 5: 690 ح 10).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 492

«فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى‏ ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ» (5: 52).

و لقد كان المؤمنون يرجون هكذا فتح و انتصار، يرددون رجاءه و بشراه ليل نهار: «وَ أُخْرى‏ تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (61: 13) .. و لقد خص الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم برده إلى معاده: مولده و موطنه، لأنه فرض عليه القرآن: أم الكتاب الذي يجب أن ينشر من أم القرى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى‏ مَعادٍ» (28: 85).

بشارات تتخلل في طيات الهجرة، إلى أن قرب الوعد و نزلت سورة النصر بعد سورة الفتح و آيات الفتح، ثم تحقق الفتح و نزلت آياته و آيات بعدها تندّد بمن كانوا يعدون أنفسهم الحسنى لو جاء الفتح، و أن يخرجوا من الشكوك و من طالح الأعمال و لم يفعلوا: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏ وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ. إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» (8: 17- 19).

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ‏:

لقد كانت للنبي الأقدس فتوح بعد الهجرة، ليست معنيّة هنا إلا أعظمها و أهمها، كأنه الفتح ليس إلا، و إنه فتح مكة المكرمة، إذ لم يكن دخول الناس في دين اللّه أفواجا إلا عنده لا سواه، و لذلك سمّي فتح الفتوح، و

قال النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ حينه: لا هجرة بعد الفتح و لكن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 493

جهاد و نية «1».

و هذا وعد دائب للذين ينصرون دين اللّه أن اللّه هو ناصرهم في دينه من قريب أو من بعيد: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ».

نصرة في الطاقات الحربية و الانتصارات المعنوية معا، و كما نراه في حرب بدر كيف غلبت جنود المسلمين و هم 313 شخصا على قلة من العدة و العدة، على 000، 10 شخصا من المشركين على كثرتهما لهم.

نصر و فتح:

نصر يعقبه الفتح، ليس لأن اللّه يريدهما دونما شرط، و لا لأن النبي و المؤمنين يريدونه دونما تأييد إلهي، إنما هما بينهما: استعداد بشري، فإعداد إلهي.

نصر اللّه: لبروز حجته و ظهور برهانه، و فتح اللّه للقلوب المقلوبة، فتحها اللّه بالرسول الأقدس إذ أضاء عليها بأضواء الدعوة بالحكمة و الموعظة الحسنة، و لو لا هذا الفتح الأول لم يكن للثاني:- دخول الناس في دين اللّه أفواجا- من معنى.

ثم نصر ثان و فتح ثان: أن انتصر المسلمون تحت الراية المحمدية على الوثنيين المحتلين بلد التوحيد، اضطرهم للإسلام أو الاستسلام، إسلام عن حجة مسبّقة و استسلام عن حجة دامغة بالغة، دون أن يكون هناك إكراه في الدين:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 406، أخرجه الطيالسي و ابن أبي شيبة و أحمد و الطبراني و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال: ..

و الأحاديث مستفيضة أن سورة النصر كانت سورة النعي، و كما

أخرج الخطيب و ابن عساكر عن علي (ع) قال: نعى اللّه لنبيه (ص) حين أنزل عليه: إذا جاء نصر اللّه و الفتح، سنة ثمان بعد مهاجر رسول اللّه (ص) فلما طعن في سنة تسع من مهاجره تتابع عليه القبائل تسعى فلم يدر متى الأجل ليلا أو نهارا، فعمل على قدر ذلك، فوسع السنن و شدد الفرائض، و أظهر الرخص، و نسنح كثيرا من الأحاديث و غزا تبوك و فعل فعل مودع (ص 407).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 494

«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» و إنما الإكراه في الاستسلام: قبول الإسلام ظاهريا لمن ليس يقبله، رغم براهينه الساطعة: «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا».

.. فهذه تهمة و وقاحة من أعداء الإسلام: أنه دين السيف و القوة، و ليس دين الحجة، لا لشي‏ء إلا أن رسول الإسلام دافع عن نفسه و أنفس المؤمنين بالقوة، ابتداء من الهجرة، بعد أن ذاق و ذاق المسلمون المهاجرون ألوان الأذى و البلاء طوال ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة.

إنه دافع كما يجب إنسانيا و في الشرائع الإلهية، و كما النبيون أجمع أمروا بالجهاد، فمنهم من وجد أنصارا كموسى و داود و سليمان و شعيب و يوشع (ع) و أضرابهم، إذ حاربوا حروبا دامية «1»، و منهم من لم يجد أنصارا رغم استعداده للحرب كالسيد المسيح (ع) «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في سفر الاعداد 31: 7- 17 و التثنية 2: 24- 34 و 20: 1، 2، 5، 8، 10- 14 و 21: 24 و سفر الخروج 17: 8- 16 .. و أغلب الفصول من كتاب يوشع و أول تواريخ الأيام الفصل 27 و التكوين 15: 18.

(2) السيد المسيح و الحرب:

ففي إنجيل متى الفصل 10، الآية: 34: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض.

ما جئت لألقي سلاما بل سيفا».

و في لوقا (12: 49- 50): «جئت لألقي نارا على الأرض. فما ذا أريد لو اضطرمت.

ولي صبغة أصطبغها و كيف أنحصر حتى تكمل. أ تظنون أني جئت لأعطي سلاما على الأرض؟

كلا! أقول لكم: بل انقساما».

و في لوقا (22: 36): «فقال لهم: لكن الآن من له كيس فليأخذه و مزود كذلك، و من ليس له فليبع ثوبه و يشتري سيفا».

هنا و هناك يأمر المسيح بالحرب و الدفاع، ثم في الآية 49 يأمر بالضرب: «فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا: يا رب! أ نضرب بالسيف؟ و ضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى ..».

و هكذا نرى السيد المسيح كيف استعد للحرب الدفاعية، و قد فشل إذ فشل أنصاره، فناموا بدل أن يقوموا بالسيف!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 495

وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً:

فهل إنهم كل الناس؟ هذا خلاف الواقع الملموس، و إن كان يوافق عموم اللفظ! أم إنهم الذين عرفوا الدعوة فحقّ لهم أن يصدقوها؟ فكذلك الأمر، أم إنهم المؤمنون فحسب؟ و هذا لا يلائم عموم اللفظ «الناس»\*! أقول: رباط الدخول في الإسلام بالفتح يوحي أنهم الذين عرفوا الإسلام ثم كملت معرفتهم بالفتح، بما أنه كان من ملاحم الغيب، و قد صدق به وعد اللّه، ثم الذين آمنوا منهم هم الناس، و الذين لم يؤمنوا و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم فهم النسناس، فقد

«سئل الحسن بن علي (ع) من الناس؟ فقال: نحن الناس، و أشياعنا أشباه الناس، و أعداؤنا النسناس، فقبله علي (ع) بين عينيه و قال:

الله أعلم حيث يجعل رسالته»:

«فِي دِينِ اللَّهِ» هل إن سائر الأديان الإلهية ليست دين اللّه؟ فكيف يعتبر دخول غير المسلم في الإسلام دخولا في دين اللّه، الموحي أنه خروج عن غير دين اللّه، أو دين غير اللّه؟.

الجواب: أن الداخلين في الإسلام حينذاك كانوا بين مشرك لم يكن في دين اللّه، و بين كتابي لم يكن يلتزم بدين اللّه، إذ إن الإسلام للّه و التسليم له يقتضي رفض السابق و إن كانت من شريعة اللّه، و الاعتناق باللاحق بما أمر اللّه، «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» و لا معنى للإسلام بعد نزول شريعة القرآن إلا اعتناقه و رفض ما سواه، مهما كانت من الشرائع السابقة.

و إضافة إلى كل ذلك فإن الشريعة الأخيرة الخالدة كانت هي الهدف الرئيسي من الرسالات قبلها، فلم تكن السابقة عليها إلا كتهيئة لها، فحق لها أن تعتبر كأنها هي الدين لا سواه، و أن رسوله هو الرسول لا سواه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كراسنا «وحدة الدين و اختلاف الشرائع» و كتابنا «المقارنات».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 496

«أفواجا»\*: جماعات كثيرة تترى متسابقين، فقد كانت القبيلة تدخل بأسرها، بعد ما كانوا يدخلون واحدا واحدا و اثنين اثنين .. و

عن جابر بن عبد اللّه‏ «أنه بكى ذات يوم فقيل له: ما يبكيك؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول:

دخل الناس في دين الله أفواجا و سيخرجون منه أفواجا».

هكذا دخول في الإسلام دليل قاطع لا مردّ له، على مدى وضوح البراهين الإسلامية لحدّ تتسابق أفواج الناس لتصديقه، ثم ليس خروج من يخرج إلا للمغريات التي تغرّهم، و المضلات التي تضلهم، أو خروجا عامدا للتضليل و كما كان دخوله للإدغال و التدجيل.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً:

هنا يتحدد شأن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من معه، بإزاء تكريم اللّه لهم، و إكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم: أن شأنه و من معه هو الاتجاه إلى اللّه، أن يسبحوا اللّه بحمده و يستغفروه في لحظة الإنتصار.

التسبيح بالحمد على ما أولاهم من منّه: أن جعلهم أمناء على دعوته، حراسا لدينه، و على ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه، و فتحه على رسوله، و دخول الناس أفواجا في هذا الخير الفائض العميم، بعد العمى و الضلال و الخسران القديم.

التسبيح بالحمد، لا التسبيح و الحمد، كلّ على حدة، و لا كلّ دون سواه، لأن التسبيح يعني الناحية السلبية من صفات اللّه تعالى، و الحمد: الناحية الإيجابية:

(الصفات السلبية و الثبوتية).

فلو حمدناه دون تسبيح و تنزيه عما هو منزه عنه، لكنا خاطئين في حمده من جهات عدة، منها: أن الحمد يحمل الإثبات، و الثابتات من الذوات و من الصفات حسب إدراكاتنا ليست إلا حسب مقدرتنا من الإدراك، و هي محدودة من ناحية،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 497

و هي مشبهة له تعالى بخلقه من أخرى‏ «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 160). فإنهم لا يصفونه إلا كما وصف به نفسه.

و لو سبّحناه دون تحميد لخيّل إلينا أنه المنفي الذات و الصفات لأنسنا الدائب بالذوات و الصفات التي نعيشها، فإذ نسلبها عن ذاته تعالى فكأننا سلبنا عنه كل كيان موجود.

فبما أنه «خارج عن الحدين: حد الابطال و حد التشبيه» علينا أن نسبحه بحمده:

1- نسبّحه و ننزّه عنه تعالى ذوات الكائنات و صفاتهم، بحمدنا له في ذاته و في صفاته، و هنا تصبح كافة الكائنات من صفاته السلبية.

2- و نسبحه عن تفسير أسمائه الحسنى و صفاته العليا بالمعاني التي نعرفها و نأنسها و نتصف نحن بها، فلا نعني من أنه تعالى: «عليم قدير حي» ما نعنيه من مفاهيم و معاني فينا، بل تسبيحا بحمده: أنه لا يجهل و لا يعجز و لا يموت، عليم لا كعلمنا، و قدير لا كقدرتنا، وحيّ لا كحياتنا.

فنحن و معنا كافة الخلائق، حينما نحمد ربنا و نصفه، لا ندرك جهة ثبوتية له تعالى، و إنما سلبيات نأنسها، و لكن السلب قد يكون بلغة السلب و يعني واقع السلب، كما في الصفات السلبية: «لا مركب و لا جسم و لا مرئي و لا له زمان و لا له مكان و لا له حد و لا له أول و لا له آخر و لا ..».

و قد يكون السلب بلغة الإثبات: «عليم قدير حي ..» و يعني واقع الإثبات (تسبيح بالحمد) دون أن ندرك منه إلا سلب ما يحق سلبه عنه: «اللاعلم و اللاقدرة و اللاحياة» في حين أننا نسلب عنه صفاتنا هذه أيضا: «ليس له علمنا و لا قدرتنا و لا حياتنا» إذ إنها صفات لا تتناسب و ذاته القدسية.

«فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ» .. التسبيح بالحمد و الاستغفار هما تقديسه و الاعتراف بربوبيته كما يحق، ثم التماس الغفران منه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 498

و «استغفره»: فهل هو من العصيان و النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معصوم من العصيان، مطهّر من الأرجاس كلها كما طهّره ربه! «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» ... كلا لا عصيان في ساحة النبوة القدسية حتى يكون الاستغفار عنه، و لا يختص الاستغفار بحالة العصيان لكي نضطر إلى التأويل، فإنما الاستغفار من الغفر و هو الستر، فهو التماس الغفر و الستر، إما عن عار و عورة العصيان، و النبي معصوم عن العصيان! و اما عما سواه من ملابسات لا يخلو عنها أي إنسان:

1- من التقصير أو القصور في حمد اللّه و شكره، فجهد الإنسان- مهما كان- ضعيف محدود، و آلاء اللّه دائمة الفيض و الهملان: «وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها» .. فمن هذا التقصير يكون الاستغفار، و إن كان من القصور الذاتي، دون عصيان الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما

يقول: «ما عرفناك حق معرفتك و ما عبدناك حق عبادتك».

2- و الاستغفار من الخلط بالناس الذي يلزمه الغبار على القلب، و إن كان واجبا رساليا من حيث التوجيه، و لكنه يلازمه غفلة مّا عن ساحة الربوبية، و لذلك نراه ليلة المعراج حينما عرج عن الكائنات و استغفل عنها، أصبح من قرب ربه معنويا «قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏ فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏».

3- و الاستغفار طلب الغفر و الستر من بأس الأعداء: شياطين الجن و الإنس، و قد غفر اللّه لنبيه كذلك بما فتح له مدينة التوحيد مكة المكرمة، كما وعده و جعله من أهداف الفتح: «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ ..»: ليستر لك اللّه من ذنبك عند المشركين، إذ كانوا يتربصون بك الدوائر ليقضوا عليك، فستر اللّه و غفر عنه بأسهم بما فتح له أم القرى.

4- و الاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقه لطيفة المدخل: من الزهو الذي قد يساور القلب، أو يتدسس اليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، و فرحة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 499

الظفر بعد طول العناء، و هو مدخل يصعب توقيّه في القلب البشري ... و قد غفر اللّه له حين الفتح هذا الزهو و ستره عليه .. فتراه إذ يدخل مكة فاتحا منتصرا، مكة التي آذته و أخرجته و حاربته و وقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة .. تراه يدخلها منحنيا للّه شاكرا على ظهر دابته، ناسيا فرحة النصر و زهوته، عفوّا رحيما لا ينتقم .. فالمغفرة هنا تضمن عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين، ليرقب المنتصر فيهم ربهم، فهو الذي سلطه عليهم، تحقيقا لأمر يريده، على عجزه (ص)، فالنصر نصره تعالى، و الفتح فتحه، و الدين دينه، و إلى اللّه تصير الأمور.

«وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً»: يتوب و يرجع على عباده بالرحمة و المغفرة، لا يكل عباده المتوكلين عليه إلى أنفسهم، و كما

في دعاء الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدا».

أجل، و إن الإنسان- أيا كان- لا يستغني عن توبة ربه عليه و تأييده له .. فعبثا يحاول الانطلاق و التحرر و هو مشدود إلى ذاته، مقيّد برغباته، مثقل بشهواته .. عبثا يحاول ما لم يتحرر عن نفسه و يتجرد في لحظة النصر و الغنم من حظّ نفسه ليذكر اللّه وحده.

و هذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائما، يريد اللّه أن ترتفع البشرية إلى آفاقه، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائما.

«إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً»: راجعا إلى عبده بالرحمة بعد ما يرجع إليه العبد بالمعذرة، فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من اللّه: توبة أولى هي أن يوفقه اللّه للتوبة لكي يتوب‏ «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» و توبة ثانية من اللّه هي قبول توبة العبد: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» (4: 17).

5- و الاستغفار بمعنى الدفع عن حملة العصيان، لا رفعه بعد وقوعه، كما المغفر في الحرب لأجل الدفع عما ربما يوجه إلى الجندي من الأخطار، كذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 500

الرسول الفاتح علّه يحمله ما نقموا منه على الانتقام، و هو مسموح له اعتداء بالمثل، إلا أن موقف الرسالة يجب أن يكون موقف الرحمة للعالمين، فليستغفر الرسول ربه حالة الفتح، لكي يسدده عن حملة الانتقام و يغفر له ما يحمله على ذلك.

6- و الاستغفار عله هنا للمؤمنين الفاتحين، إذ النص‏ «وَ اسْتَغْفِرْهُ» لا «استغفره لذنبك».

7- و استغفاره عن ذنبه و غفران اللّه له عن ذنبه كما في آية الفتح، لا يعني إلا الحفاظ عليه من بأس المشركين، فإن الذنب لغويا هو الذي يستفظع عقباه، فإن كانت عقبى الدنيا فالذنب من أفضل الطاعات، و إن كانت عقبى الآخرة فالذنب من أشر المعاصي، و لقد غفر اللّه تعالى ذنب الرسول: عقبى الدنيا الهاجمة عليه من قبل المشركين، غفره له بفتح مكة، إذ لم يجرأ المشركون بعد ذلك أن يؤذوه أو يقاتلوه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 501

سورة اللهب- مكية- و آياتها خمس‏

[سورة المسد (111): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ (1) ما أَغْنى‏ عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ (2) سَيَصْلى‏ ناراً ذاتَ لَهَبٍ (3) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

\*.\* هذه السورة تفنّد القومية و القرابة اللتين لا تحملان الإيمان، فلا قيمة لهما في الإسلام، و فيما إذا اعتبرتا ذريعة للصد عن سبيل اللّه، فالقرآن يعاديهما و يعلن ريفهما و انحرافهما

، ففي الحديث: «إن ولي محمد صلى الله عليه و آله و سلم من والى الله و رسوله و إن بعدت لحمته، و إن عدو محمد صلى الله عليه و آله و سلم من عادى الله و رسوله و إن قربت لحمته»،

و من الشواهد القرآنية على ذلك ابن نوح و امرأته و امرأة لوط، فلا حرمة و لا كرامة لأي قريب إلى الرسول ما لم يحمل الإيمان، فحرمته على قدر ما يحمل من الإيمان و يعمل من الصالحات.

و أبو لهب‏ «1» هذا عم النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من زعماء قريش، لكنه و امرأته معه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 409

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه (ص): بعثت ولي أربع عمومة، فأما العباس فيكنى بأبي الفضل و لولده الفضل إلى يوم القيامة، و أما حمزة فيكنى بأبي يعلى فأعلى اللّه قدره في الدنيا و الآخرة، و أما عبد العزى فيكنى بأبي لهب فأدخله اللّه النار و ألهبها عليه، و أما عبد مناف فيكنى بأبي طالب فله و لولده المطولة و الرفعة إلى يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 502

كانا من ألدّ أعداء النبي و الدعوة الإسلامية، يجندان كافة طاقاتهما في سبيل تشويه سمعة النبي الأقدس و يعارضانه وجها بوجه، و لقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منذ اليوم الأول للدعوة، لكيلا تنمو، و لتخبو وراء الستار فتدفن! و كون أبي لهب عما للنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنه من زعماء قريش، و أن بيته كان قريبا من بيته، هذه كلها جعلت أذاه على النبي أشد.

يقول ربيعة بن عباد الديلمي: إني لمع أبي- رجل شاب- أنظر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتبع القبائل، و وراءه رجل أحول وضي‏ء الوجه ذو جمة،

يقف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على القبيلة فيقول: يا بني فلان إني رسول اللّه آمركم أن تعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا، و أن تصدقوني و تمنعوني حتى أنفذ عن اللّه ما بعثني به، و إذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات و العزى و حلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس، إلى ما جاء به من البدعة و الضلالة، فلا تسمعوا له و لا تتبعوه، فقلت لأبي: من هذا؟ قال:

عمه أبو لهب‏ «1».

و

عن ابن عباس‏ أن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أ كنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: أ لهذا جمعتنا؟ تبا لك، فأنزل اللّه تبّت يدا أبي لهب‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ.

(2)

الدر المنثور 6: 408، و فيه عن ابن عباس قال: لما نزلت‏ «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ..» خرج النبي (ص) حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه! فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أ كنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك إنما جمعتنا لهذا، ثم قام، فنزلت هذه السورة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 503

و زوجته أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كانت تمشي بالنميمة ضد النبي الأقدس، و توري نيران العداوة و البغضاء ضده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى أن نزلت هذه السورة للقضاء على هذه الدعايات الفاتكة ضد الدعوة الإسلامية، و تشهير المضلين الذين كانوا يؤثرون على الناس، فلما سمعت السورة جاءت إلى المسجد فلم تر النبي و هو جالس و أخذت تقول:

مذمّما (تريد محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أبينا و دينه قلينا و أمره عصينا.

و كان من عظيم خطر أبي لهب ضد الدعوة الإسلامية أنه كلما جاء وفد إلى النبي يسألون عنه عمه أبا لهب- اعتبارا بكبره و قرابته و أهميته- كان يقول لهم: إنه ساحر، فيرجعون و لا يلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، فقال: إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتبا له و تعسا.

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب على الدعوة الإسلامية، هو و زوجته، في عونه في هذه الحملة الدائبة، يثيران حربا شعواء على النبي و على الدعوة الإسلامية، لا هوادة فيها و لا هدنة.

تنزل هذه السورة مصرحة بهما و بكيدهما، رادّة على هذه الحرب المعلنة منهما، و تولى اللّه عن رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر المعركة، فلم يكد يسمع إليهما الوفود بعد تشهيرهما هكذا.

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَ‏:

آية قصيرة في مطلع السورة، فيها تصدر الدعوة و تحقق و تنتهي المعركة و يسدل الستار.

أبو لهب اسمه عبد العزى، كره اللّه أن يذكره باسمه كرها لمعناه، فأبدل به من كناه هذا، لكي يدل على التهابه ضد الدعوة ليحرق صالح الإنسان، فهو لهيب النار كالجحيم: لا تبقي و لا تذر، لا شأن لها إلا الإحراق، بل إنه أبو لهب: أبو الإحراق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 504

و الآية تشير أن ذاتيته النارية المحرقة لا تحرق إلا نفسه، في الدنيا و في الآخرة، دون أن يقدر على إطفاء نور اللّه، فاللّه متم نوره و لو كره الكافرون.

تبت يداه: استمرت طاقاته تماما في الخسران، فما كيده إلا في تباب.

فاليدان هنا- و في كثير مثله- يعنى بهما كافة الطاقات، فقد تصرفان للخير فهما مباركتان، و قد تصرفان للشر فهما مبتورتان متبوبتان، و بما أن التبّ لغويا هو الاستمرار في الخسران، فالآية تشير إلى الاستمرارية الخاسرة للطاقات اللّهبية، أنها خاسرة ترجع بالخسار إلى أبي لهب، دون أن تكون مخسرة للدعوة الإسلامية، إلا زمنا ما: «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ».

فمن الخاسرين من يخسر دنياه دون عقباه، كالمؤمنين المضطهدين، و منهم من يخسر عقباه دون دنياه، كالكافرين المترفين المرحين الفرحين، و منهم من يخسر الدارين كأمثال أبي لهب، يتعب نفسه في دنياه في حسد دائم و حسرة دائبة، ثم ينتقل في عقباه إلى عاقبة أسوأ، و إن تباب أبي لهب جمع بين العقيدة و القول و العمل.

و قد تكون اليدان هنا كناية عن قوة الجذب و الدفع، الإيجاب و السلب، و الدين و الدنيا، و الدنيا و الآخرة، اليد غير المرئية، و هي الطاقات الروحية، و اليد المرئية و هي الأعمال الجسدانية، و الآية تتحمل الكل، فقد تبت يداه عن كل نتاج صالح بالنسبة لهذه النواحي الحيوية إطلاقا، فلم يحصّل إلا خسارا دائما و بوارا دائبا.

«و تب»\*: تبّ هو: تبت ذاته، كما تبت يداه، فتباب الأعمال هكذا تنتج عن تباب الذات على قدره، فذات الإنسان و أعماله يتعاكسان مع بعض في التأثير، فمكاسب السوء تؤثر رينا في القلب: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» ثم تزداد مكاسب السوء من جرّاء الإزدياد في رين القلب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 505

إلى حيث لا يكاد يقبل صاحبه النصيحة: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» (2: 7).

فرين القلب و ختمه ليسا إلا من جراء مكاسب السوء الاختيارية للإنسان، فقد خلقه اللّه تعالى- إذ خلقه- مؤمنا ذا فطرة نيرة موحدة: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30).

و في تقدم تباب اليدين على تباب الذات إيحاء لطيف إلى أن ذاتية الإنسان ليست شريرة خلقيا، و إنما من جراء الأعمال غير الصالحة، و لا سيما العامدة، «تبت يداه و تب هو»، اللّه يترك هكذا إنسان في غيّه يتردى‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» (61: 5).

و كما عرفناه ليست الآية دعاء من اللّه على أبي لهب، إنما هو إخبار عن واقعه الشائن، فممن يلتمس ربنا لتباب أبي لهب؟ أمن نفسه أم من إله سواه فوقه؟! فهذا الرأي من بعض المفسرين مسّ من كرامة الربوبية دون أن يعرف المفسر ماذا يرجع بقوله، و إنما تقليدا عن أضرابه ..

ما أَغْنى‏ عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ‏:

لقد تبت يداه و هلكتا، و تب هو و هلك، فلم يغن عنه ماله و سعيه، و لم يدفع عنه الهلاك و الدمار: لا ماله الذي ورثه أو كسبه، و لا ما كسبه بما له و بماله من طاقات عقلانية و جسدانية، و لا ما كسبه من أولاده، فبدل أن تغنيه هذه المعطيات، أخسرته و جعلته في تباب من أعماله و من ذاته.

سَيَصْلى‏ ناراً ذاتَ لَهَبٍ‏:

فأهل النار- في تقسيم مختصر أوّلي- على طائفتين: خالد فيها غير خارج‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 506

عنها، و داخل فيها خارج عنها بعد زمن قريب أو بعيد، فالخالد يصلى النار، أي: يوقدها، و غيره يصطلى بها و يتوقد منها، فالذات التي هي تباب كلها، و الأعمال التي هي في تباب كلها: إنها حصب جهنم و حطبه، ليس للنار و قود إلا هذه الذوات الشريرة العاتية، كما القرآن يصرح بهكذا وقود في آيات عدة.

«سَيَصْلى‏ ناراً ذاتَ لَهَبٍ» كما كانت ذاته لهبا، و أعماله و أفكاره لهبا: «لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ» حينما كان في الحياة الدنيا، و إن كان لهيبه خافيا- حينذاك- عند الجاهلين .. كذلك يوم الجزاء، فيظهر لهبه في منظر النار التي تحرق نفسه و تحرق غيره، يصلى النار و يصطلي به غيره ممن كان يتابعه في كفره و فساده، فرعا طبق الأصل جزاء وفاقا، فما النار يوم الجزاء إلا صورة واقعية عن واقع الإنسان في حياة التكليف يوم الدنيا، و إن كان في غفلة من هذه النار يومها «1».

وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ‏:

و تبّت يدا امرأته و تبت نفسها كتبا به سواء، إذ ساعدته و سايرته في تهريج موقف النبي و العداء السافر ضد الدعوة الإسلامية.

يذكر هنا من صفاتها السيئة: «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» حال أنها ما كان شغلها حمل الحطب كتاجره و عاملة، و ليس العمل- أي- عمل- مذموما في الإسلام، لكي يؤنّب به العامل، فما كان العمل حلّا تكسب به المعيشة فهو حلال، و هو من العبادات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد سبق طرف من البحث حول انعكاسات الأعمال في سورتي الزلزال و القارعة و تجد تفاصيل أخرى في غيرهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 507

و أما إذا اتّخذ العمل ذريعة للإفساد فلا أفسد منه، كما كانت أم جميل امرأة أبي لهب تحمل الشوك و الحطب و تضعها في طريق الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكي تؤذيه، و علّها توقعه فتؤلمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تحطّ من كرامته.

و كما كانت تمشي بالنميمة عامة، و ضد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاصة لتهريج موقفه، و النميمة من شر الأحطاب، إذ إن الحطب يحرق الإنسان و ماله، و النميمة تحرق عليه عيشه و دعوته و حياته، و تحرق المجتمع الإنساني.

و كما كانت تلدغ بلسانها النبي الأقدس فتذمّه و تعيّره بالفقر أو السحر و الجنون، تلميذة لزوجها، فرعا طبق الأصل.

فكانت بذلك كله، تحمل مختلف ألوان الخطايا و الآثام، فهي إذا حمالة الحطب لا حاملته، حمالة لكثرة مزاولتها لحمله، و أنها استغرقت حمل كافة ألوان الأحطاب لتحرق على الرسول دعوته، فهي لهبة كما زوجها لهب‏ «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ».

فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ:

المسد هو الليف: فهل هو هنا حبل من ليف النخل، أم حبل من ذهب شبّه بالليف؟ أم حبل الشيطان يقودها حيث يشاء؟

إن حمل الحطب بحاجة إلى ليف يشد به، فلكل نوع من الأحطاب ليفه المناسب له.

فحملها للأشواك لتلقيها في طريق الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كان بليف من النخل، و حملها بالنميمة و التهمة ضد الرسول كان بحبل من الشيطان في عنقها، و حملتها على الرسول و تعييرها إياه كانت بدافع ثروتها التي اعتزت بها، و لكن الذهب ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 508

كانت لترفع من شأنها كما الليف من النخل، فما أغنى عنها مالها و ما كسبت، كما لم يغن زوجها، فحكم العقد الذهبي في جيدها كحبل من مسد سواء، فإن الحيوان حيوان ما لم يحمل صفات الإنسان، و إن لم يحمل على ظهره ثياب الإنسان الفاخرة، و الإنسان إنسان ما حمل صفات الإنسان و إن لم يحمل من ثياب الإنسان و زخرفات الحياة شيئا.

إذا فحق التعبير عما كانت تعلق في جيدها: أنه حبل من مسد، بكل مصاديقه: حبل الأشواك، و حبل الشيطان، و حبل الذهب! إنه: حين انتشرت هذه السورة- و ما تحمله من تهديد و مذمة و تصوير زري لأم جميل خاصة، تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها، مدللة بحسبها و مالها و نسبها، ثم ترتسم لها هذه الصورة «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ»-.

حينها استنفرت و نهضت بأكثر مما كانت ضد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏

فقد يروى عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما نزلت هذه السورة أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب و لها و لولة و في يدها فهر: (حجر قدر ملاء الكف) و هي تقول:

مذمما أبينا و دينه قلينا و أمره عصينا، و النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جالس و معه أبو بكر.

فقال له (ص) أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيك بشي‏ء، فقال رسول اللّه (ص):

إنه سيحال بيني و بينها، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكر! هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا و رب هذه البنية ما ينطق بالشعر و لا يتفوه به .. فلما ولت قال أبو بكر: ما رآك؟ قال (ص): لا! ما زال ملك يسترني حتى ولت،

و

روي عنه (ص) أنه قال: صرف اللّه سبحانه و تعالى عني، ثم إنهم يذمون مذمما و أنا محمد «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين ج 5 ص 698 ح 6.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 509

إنها قالت و تقولت فزالت عن الوجود بما حملت، و لكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في هذه الآيات عن هذين الزوجين، قد سجلت في الكتاب الخالد، و سجلتها صفحات الوجود أيضا، تنطق بغضب اللّه و حربه لأبي لهب و زوجته و حزبه، جزاء الكيد لدعوة اللّه و رسوله جزاء وفاقا، ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 510

سورة الإخلاص- مكية- و آياتها أربع‏

[سورة الإخلاص (112): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (3) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

\*\*\* هذه السورة تحمل إجابة وافية عن كافة الأسئلة التي تدور حول توحيد اللّه و سواه، من الحقائق المعرفية الإلهية، على قلة آيها.

يأتيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قادة الأحزاب الخمسة: الماديين، المشركين، الثنوية، اليهود، النصارى يسألونه أن ينسب ربه كما ينسبون‏ «1» فتنزل سورة الإخلاص مجيبة عن متطلباتهم، قارعة أسماعهم بقوارع بوارع من آي التوحيد، هي نماذج شاملة عن قرآن التوحيد، و كما

عن باقر العلوم عليه السّلام: «إن الله عز و جل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل هذه السورة» «2»،

و لأنها عميقة أنيقة على اختصارها تعتبر بوحدتها ثلثا من القرآن‏ «3» و الإنجيل و التوراة، توحيدا خالصا جامعا في الديانات الثلاث.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 409- 412- أخرجه عن جماعة من ارباب السنن بصور متفرقة.

(2)، و

في أصول الكافي بالإسناد عن علي بن الحسين زين العابدين (ع) مثله: سئل عن التوحيد فقال:

إن اللّه عز و جل علم انه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل اللّه تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» و الآيات من سورة الحديد «هو الله الذين لا إله إلا هو» إلى قوله‏ «عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ»

(3)

الدر المنثور 6: 411 عن أبي بن كعب قال، قال النبي (ص) من قرأ قل هو اللّه احد فكأنما قرأ ثلث القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 511

إنها تتضمن أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة التوحيد قرآنيا، و لأعمق ما بالإمكان أن ينزل من وحي السماء بشأن التوحيد، جارفة كافة التصورات الباطلة من وحي الأرض و إنسانها و شيطانها حول الكيان الإلهي.

إنها إثبات و تقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة «الكافرون» سلب لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد و خرافة الشرك، و هما توضحان كلمة التوحيد الشاملة لكلي السلب و الإيجاب: «لا إله إلا الله» التي تصف اللّه تعالى في مختلف الآيات التي تحويها كالتالية:

«لا إله إلا الله- الرحمان الرحيم» (2: 163) «الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (2: 55) «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (3: 6) «خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (6: 102) «لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏» (20: 8) «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» (27: 6) «وَسِعَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً» (20: 98) «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (40: 65) يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» (44: 8) «عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ‏ .. الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ، ... هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (59: 25)- ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» (40: 62).

فكلمة التوحيد هذه، القيّمة، المنقطعة النظير بين كلمات التوحيد، تجمع بين السلب و الإيجاب: سلب الألوهية عما- سوى اللّه بما لها من صفات و أفعال، و إيجابها لذات واحدة جامعة لكافة الصفات الكمالية، على وجه الحصر الحقيقي، في ذات واحدة قيومة سرمدية.

فاللّه تعالى حسب الأوصاف المسبّقة في كلمة التوحيد: واحد في كونه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فمن رام وراء ذلك فقد هلك، و الحديث الثاني-

انها ثلث القرآن- تحده‏ في نفس المصدر ص 701 ح 19 بإسناده إلى ابن بصير عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 512

رحمانا- رحيما- حيّا- قيوما- حكيما- خالقا- عليما- محييا- مميتا- ملكا- سلاما- مؤمنا- مهيمنا- عزيزا- جبارا- متكبرا- له العرش و له الأسماء الحسنى.

كما و أنها تسلب عنه تعالى ما يتنافى و كيان الألوهية ذاتا و صفات و أفعالا:

و إليكم تفسيرا مختصرا لسورة التوحيد:

«قل»\* .. أظهر كما تضمر «1» في جواب الضالين التائهين عن معرفة اللّه، في جواب الناكرين لوجوده، و المشركين به و المثنّين له، و المثلّثين إياه و المتبنّين عليه:

قل: مقالة عاقلة تقضي على الأفكار الضالة العالقة بالأذهان: إن إلهي يختلف عن إلهكم و آلهتكم تماما.

إنها سورة تبرز المعاني التي تسمّت بأسمائها، و يا لها من أسماء سامية سمتها بسماتها:

إنها سورة: التفريد 1، التجريد 2، الإخلاص 3، التوحيد 4، الولاية 5، النجاة 6، النسبة 7، المعرفة 8، الجمال 9، المقشقشة 10، المعوذة 11،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الأمر بالقول هنا يرمز لأمور عدة: منها ان الرسول لا يقول إلا عن الوحي و بالوحي و إن كان عنده جواب حسب العقلية البشرية، فإنه إذاعة وحي السماء حتى في قوله «قل»\*، و منها أن القول إبراز ما في الجنان باللسان و لا بد أن تبرز عقيدة التوحيد بكافة وسائل الإبراز، و لكي يعرف الموحد بعقيدة التوحيد بين جماهير المشركين، و منها وجوب الدعوة إلى التوحيد، دون اكتفاء بالعقيدة القلبية البارزة، فانها لا بد أن تبرز موجهه للضالين» الناكرين توحيد اللّه، بروزا بالحجة البالغة الدامغة كما نراها في هذه السورة، و يشير إلى ذلك الحديث التالي:

التوحيد عن أبي عبد اللّه (ع) عن أبيه الباقر (ع) في قول اللّه تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» قال: قل- أي: أظهر ما أوحينا إليك و نبأناك بتأليف الحروف التي قرأناها لك لتهدي به من ألقى السمع و هو شهيد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 513

الصمد 12، الأساس 13، المانعة 14، المحضرة 15، المنفرة 16، البراءة 17، المذكرة 18، النور 19، الأمان 20 «1».

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ:

إنه تعالى: «هو»\* لا هذا و لا ذاك و لا ذلك، و لا هما و لا هم ..

و لا أي مشار إليه بالاشارة الحسية أو العقلية أو إشارة التثنية و الجمع ف «هو»\* محجوب لأبعد أغوار الحجب، احتجابا لا يرجى معه ظهوره في أي من العوالم، و لأيّ من العالمين، فهو لا يدرك بأيّ من وسائل الإدراك: «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (6: 103).

إنه الاحتجاب التام عن الحواس و العقول و الأوهام: «لا يحس و لا يجس و لا يمس و لا يدرك بالحواس الخمس».

ف «هو»\* (هنا) اسم يرمز به إلى حقيقة مرموزة، كنهه في غاية الخفاء، و هويته تختلف عن سائر الهويات، و على حد تعبير

باقر العلوم عليه السّلام: «هو»\* اسم مكنى و مشار إلى غائب» «2»

و كما

في دعاء الإمام علي عليه السّلام: «يا هو يا من لا هو إلا هو ..»،

فإنه لا هويّة مطلقة، غائبة بإطلاق الغيب، إلا ذاته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ... 5 الولاية تعني هنا ولاية اللّه معرفيا و في العبادة و الطاعة، 6 و النجاة: من كافة ألوان الشرك و الانجراف في عقيدة الإله، 7 و النسبة: لأنها نسبة رب العالمين كما يمكن دركه للعالمين، 8 المعرفة: لأنها تحمل الغاية القصوى في معرفة اللّه، 9 و الجمال: لأنها جمال اللّه تعالى بما تعرفه كما يمكن، 12 الصمد- لأنها لا جوف لها و لا نقص في تعريف التوحيد الالهي، 13 و الأساس- لأنها أساس الدين، 14 و المانعة لأنها تمنع عن الانحراف في معرفة اللّه و توحيده ..

(2)

التوحيد للصدوق بإسناده إلى باقر العلوم (ع): .. و «هو»\* اسم مكنى و مشار إلى غائب، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت، و الواو إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما ان قولك: هذا- إشارة إلى الشاهد عند الحواس- و ذلك أن الكفار نبهوا عن آلهتهم المحسوسة بحرف إشارة الشاهد المدرك، فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار، فأشر أنت يا محمد إلى إلهك الذي تدعو اليه حتى نراه و ندركه و لا نأله فيه: فأنزل اللّه تبارك و تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فالهاء تثبيت للثابت،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 514

المقدسة، أجل و إنه شي‏ء لا كالأشياء:

«خارج عن الحدين، حد الإبطال وحد الثشبيه» «1»

، غائب بالذات و ظاهر بالآيات.

فمن المحجوبين ما هو محجوب لبعد مكانه رغم أنه محسوس ملموس، و منها المحجوب لبعد زمانه: ماضيا أو مستقبلا، و منها المحجوب لصغرة كالذرة، و منها المحجوب لخلل أو كلل في البصر، و منها المحجوب لعدم وسيلة إبصاره، المناسبة له، و منها و منها ..

و إن هي إلا حاضرة رغم احتجابها أو غيابها، مشهودة في ذواتها، غائبة لحواجب يمكن زوالها.

و لكن الهوية الإلهية هوية مطلقة، غيبة مطلقة لا يرجى ظهورها بالذات، اللهم إلا بالآيات ..

يا من هو اختفى لفرط نوره\* الظاهر الباطن في ظهوره بنور وجهه استنار كل شي‏ء\* و عند نور وجهه سواه في‏ء «2» ف «هو»\* ضمير للتعريف بشأن الألوهية و ليس ضمير الشأن بل هو ضمير يشير إلى أنه تعالى ضمير: محجوب بحقيقة الغيب، رغم ظهوره و بهوره كالشمس في رايعة النهار، ظهورا بالآيات دون الذات.

ف «هو»\* من أسماء الغيب للّه تعالى دلالة و مدلولا، إذ لا يشار به إلا إلى الغائب، مطلقا أو نسبيا، و اللّه هو الغيب المطلق، فلو كان الاسم الأعظم لفظيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و الواو إشارة إلى المحجوب عن درك الأبصار و لمس الحواس و انه تعالى عن ذلك بل هو مدرك الأبصار و مبدع الحواس‏ (نور الثقلين ج 5 ص 708 ح 55)،

و

الحديث الثاني نفس المصدر ص 700 ح 7 عن كتاب التوحيد للصدوق و فيه‏ انه (ع) قرأ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» ثم قال مقالته تلك.

(1). التوحيد عن عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني في عرض دينه على الامام علي بن محمد التقي (ع).

(2) من منظومة الحكيم الحاج ملا هادي السبزواري قدس اللّه سره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 515

أو أن لفظا يدل عليه، لكان «هو»\* أو أنه من أفضله، ثم «الله»\* و كما في روايات عدة «1».

«هُوَ اللَّهُ» اللّه تعريف ثان باللّه: الاسم الأعظم الظاهر، و هو من إله «إذ إله الخلق عن درك ماهيته و الإحاطة بكيفيته، و هو المعبود الحق لا معبود سواه.

و من أله: تحير- عجز- سكن- فزع- أولع: إذ عجزت الخلائق عن اكتناه ذاته المقدسة، و سكنوا اليه و فزعوا إلى ساحة قدسه، كما عن أئمتنا المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين‏ «2» و إنه اسم يخصه دون سواه، و له من هذا الاسم في مختلف اللغات: ك «يهوه» العبراني و ..

فكما لا يشاركه تعالى في ذاته و صفاته و في أفعاله أحد، كذلك في اسمه:

توحيد مزدوج: اسما و مسمى: لا شريك له، و لا اسميا.

نجد هذا الاسم المبارك للذات المقدسة الإلهية «980» مرة مكررة في آي الذكر الحكيم، دون غيره من أسماء أو أسماء غيره، اهتماما بهذا الاسم الأعظم إلى مسماه.

ثم «الله»\* كتفسير ل «هو»\* كما «أحد»\* تفسير ل «الله»\* و «الصمد» يفسر «أَحَدٌ» و باقي ألفاظ السورة تفسير للصمد.

«اللَّهُ أَحَدٌ» إن بين الأحد و الواحد فروقا شتى: فالأحد يفي بما لا يفي به‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد عن أمير المؤمنين (ع) رأيت الخضر (ع) في المنام قبل بدر بليلة فقلت له:

علمني شيئا انصر به على الأعداء، فقال: قل: يا هو يا من لا هو إلا هو، فلما أصبحت قصصتها على رسول اللّه (ص) فقال لي: يا علي! علمت الاسم الأعظم، فكان على لساني يوم بدر.

(2)

التوحيد عن أمير المؤمنين (ع): اللّه معناه المعبود الذي يأله فيه الخلق و يؤله اليه، و اللّه هو المستور عن درك الأبصار و المحجوب عن الأوهام و الخطرات.

و

فيه عن الباقر (ع) معناه المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيته و الاحاطة بكيفيته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 516

الواحد، و لم يوصف اللّه تعالى ب «أحد»\* إلا هنا، و أما الواحد فكثير، و الأحد في توصيف اللّه يشمل كافة الوحدات الحقة في الذات المقدسة الإلهية، وحدات لا كثرة فيها، و ليست عن عدد، و لا في عدد، و لا بتأويل عدد، و لا بعدد، على حد تعبير الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام، فما سوى اللّه لا توجد فيه وحدات إلا كهذه التي هي كثرات:

فالإنسان- مثلا- واحد عن عدد: من الآباء و الأمهات، و عن عدد من العناصر و عن ..

و واحد في عدد: لأنه مركب من مليارات الأجزاء، لا يتمكن أن يتحلل عنها فيتوحد في جزء لا أجزاء له، إلا أن يتحلل عن الوجود.

و واحد بعدد و بتأويل عدد، تأويل المأخذ المسبّق، و تأويل الحال الحاضرة، و تأويل المستقبل، فإنه سوف يتعدد في أولاده و أحفاده الذين ينفصلون عن صلبه، و كما كان متعددا منبثّا في الأصلاب و الأرحام و هو الآن في عدد.

و لكن اللّه تعالى ليست وحدته عن عدد، لم يكن متعددا ثم توحّد، إذ لم يولد، و لا في عدد: لا أجزاء لذاته المقدسة، و لا بتأويل عدد: إذ لم يلد ...

إنه واحد أزليا، و واحد أبديا، و واحد ذاتيا، و واحد صفاتيا، و واحد أفعاليا و واحد .. و إنه أحدي كما نجده في جواب الإمام علي عليه السّلام عن سؤال الأعرابي في حرب الجمل‏ «1» فكالتالي:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد بالإسناد: ان أعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين (ع) فقال: يا أمير المؤمنين! أتقول: ان اللّه واحد؟ قال: فحمل الناس عليه و قالوا: يا اعرابي! أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين (ع): دعوه، فإن الذي يريده الاعرابي هو الذي نريده من القوم- ثم قال: يا اعرابي! ان القول في أن اللّه واحد على أربعة أقسام:

فوجهان منها لا يجوزان على اللّه عز و جل، و وجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد- يقصد به باب الأعداء، فهذا ما لا يجوز، لان ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، ألا ترى انه كفر من قال: ثالث ثلاثة؟ و قول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه، لأنه تشبيه، و جل ربنا عن ذلك و تعالى .. و أما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 517

1) أحدي الذات، إذ لا جزء له و لا أجزاء، و لا حد و لا حدود، فإنه مجرد عن الحدود و الأجزاء، فلا أحد إلا هو، إذ لا مجرد حقيقيا إلا هو، أحدية سرمدية: دون بداية و لا نهاية.

2) أحدي الشخص: فلا ثاني له و لا شريك.

3) أحدي الصفات في معنيين: أن لا مثيل له في صفاته:- 4) و أن صفاته عين ذاته، إذ لا تزيد على ذاته، لا جوهرا على ذاته، و لا معنى زائدا على ذاته، و لا أية حقيقة سوى ذاته المقدسة، فلا تعدد حقيقيا في صفاته، و لا في ذاته و صفاته.

5) أحدي السرمدية: فلا أزلي سواه، و لا أبدي سواه: هو الأول و الآخر ..

6) أحدي في الخالقية: «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» (35: 3) «قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» (13: 16). فلا خالق سواه إلا بإذنه:

«وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي» (5: 110): خلقا بإذن اللّه دون استقلال.

7) أحدي في المعبودية: لا معبود سواه‏ «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (40: 14).

و أحدي في كلمّا له من ذات و أفعال و صفات، إن صح الكل لما ليس له جزء، ف:

«هو خلو من خلقه و خلقه خلو منه» «لا هو في خلقه و لا خلقه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبيه، كذلك ربنا، و قول القائل: انه ربنا عز و جل أحدي المعنى، يعني انه لا ينقسم في وجود و لا عقل و لا و هم، كذلك ربنا عز و جل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 518

فيه» «باين عن خلقه بينونة ذات و صفة، لا بينونة عزلة: «في علم و قدرة» (حديث شريف).

إنه واحد لا بعدد، و هو الأحد إذ لا ثاني له، و لا يدخل في باب العدد، إذ لا يقال: أحد اثنان .. إنما: واحد اثنان، فهو واحد أحدي، و ليس واحدا عدديا ..

و إنه لا يتعدد في لفظ و لا معنى، فهو «أحد»\* رغم أن الواحد يتعدد فيهما:

1- واحد اثنان، 2- أنا واحد، و قد تركبت من ملايين الأجزاء.

و «أحد»\* في وصف اللّه، يضم كافة الصفات الثبوتية و السلبية، كما و يكملها «الصمد».

فالأحدية الذاتية و الفاعلية و الصفاتية و السرمدية و المعبودية، كلهما معنية من «أحد»\* دون اختصاص بناحية دون أخرى.

كما و تنفي كافة الكثرات عن ذاته و صفاته و أفعاله ..

اللَّهُ الصَّمَدُ:

تفسير للهوية الإلهية: «هو»\* و إلهيته «الله»\* و أحديته «أحد»\* و كما يفسّر الصمد ب «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ» .. خير مفسّر و مفسّر «1».

و «الصمد» هو الذي ليس له جوف، لا جسماني لأنه لا جسم له، و كل جسم مجوّف! و لا روحاني، لأنه جامع الصفات و الكمالات الذاتية اللامحدودة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد عن باقر العلوم (ع): أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي (ع) يسألونه عن الصمد، فكتب إليهم: بسم اللّه الرحمن الرحيم، أما بعد، فلا تخوضوا في القرآن و لا تجادلوا فيه و لا تتكلموا فيه بغير علم فقد سمعت جدي رسول اللّه (ص) يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، و أن اللّه سبحانه قد فسر الصمد، فقال: «اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ» ثم فسره فقال: «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 519

لا ينقص صفة، و لا تنقصه صفة لائقة لذاته المقدسة، حتى يكون أجوف معنويا، و على حد تعبير

الإمام الصادق (ع): صمد لا مدخل فيه»

و كل مادة فيها مدخل! و

عن أمير المؤمنين علي (ع): «الصمد بلا تبعيض بدد»

فالصمد لا يبعض و لا مدخل فيه، فليست المادة صمدا، و لا الروح كذلك، لأنها مدخل و داخلة، و هي مبعضة.

إن المادة، أية مادة- و إن كانت ذرة و أجزاءها- إنها جوفاء، فكما التركب كيان المادة، كذلك كونها جوفاء، و كما المادة دون تركب هي لا مادة، كذلك المادة دون جوف هي لا مادة.

فالمادة جوفاء بالمعنيين، جوفاء ذاتيا: أن في ذاتها جوف و خلو، و جوفاء معنويا لفقدانها الكثير الكثير من الكمالات.

إذا فالمادة ليست صمدا لا جوف له، إنما اللّه هو الصمد الذي لا جوف له: سالبة بانتفاء الموضوع: ليس ماديا حتى يكون له جوف مادي، و بذلك تسلب عنه الذات المادية بجميع مصاديقها و مراحلها، ثم سالبة بوجود الموضوع: أن لو تصورنا كائنا مجردا، ناقصا عن بعض الكمالات، فاللّه ليس مجردا أجوف، بل هو مجرد صمد: هو الكمال اللامحدود من ذات و صفات الألوهية.

و الصمد بهذا المعنى لزامه السيادة التامة و أن يكون مرجعا و ملجأ، إليه ينتهي السؤدد و لا ينتهي سؤدده‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد عن باقر العلوم (ع) عن أبيه عن جده الحسين بن علي (ع) انه قال: الصمد الذي لا جوف له، و الصمد الذي لا ينام، و الصمد الذي لم يزل و لا يزال.

و

في المجمع عن عبد خير قال: سأل رجل عليا (ع) عن تفسير هذه السورة فقال: قل هو اللّه أحد، بلا تأويل عدد، الصمد بلا تبعيض بدد.

أقول: ان كل تبعيض بدد و الى بدد، لمكان الحاجة، و اللّه ليس مبعضا فليس جسما، إنه الصمد الذي ليس له جوف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 520

لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ:

لا هو والد كما المسيحيون يزعمون: «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ»:

الوثنيين الثالوثيين، و لا هو ولد له والد، كما هم يظنون: الإله الولد، و الإله روح القدس.

«لَمْ يَلِدْ»: ليس خلقه لما سواه في معنى الولادة، سواء أ كانت بانفصال النطفة، أم بتبدّل الوالد ولدا، أم .. كما يقال في خرافة الثالوث بما اختلقته الكنائس، مضاهاة الوثنيين‏ «1»! لم يلد: و إنما خلق- أوّل ما خلق- لا من شي‏ء و خلق منه سائر الخلق، فليس خلقه من ذاته، و إنما من شي‏ء خلقه أولا، كما خلق الأول لا من شي‏ء، لا من لا شي‏ء، حتى يكون مبدأ الخلق عدما، و لا من شي‏ء في البداية حتى يكون ذلك الشي‏ء أزليا كمثله.

«وَ لَمْ يُولَدْ» ليس الوجود الإلهي مولود الخيال لكي يصبح الإله خيالا لا حقيقة له، و لا مولود إله آخر لكي يكون حادثا فمخلوقا، «فسبحانه سبحانه من إله لم يلد فيكون موروثا هالكا، و لم يولد فيكون في العز مشاركا».

و على حد تفسير

الإمام الحسين بن علي عليهما السلام: «لم يلد: لم يخرج منه شي‏ء كثيف كالولد و سائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، و لا شي‏ء لطيف كالنفس، و لا يتشعب من البدوات، كالسنة و النوم و الخطرة و الهمّ و الحزن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

عن محمد بن مسلم عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إن اليهود سألوا رسول اللّه (ص) فقالوا:

انسب لنا ربك فلبث ثلاثا لا يجيبهم، ثم نزلت هذه السورة فقلت: ما الصمد؟ فقال: الذي ليس بمجوف‏ (نور الثقلين ج 5 ص 713) و روى مثله الفاضلان الحلبي و زرارة عن أبي عبد اللّه (ع)، و روى هارون بن عبد الملك عنه (ع) .. و صمد لا مدخل فيه.

(1). انظر تحليلنا في آخر سورة الإخلاص بعنوان: «توحيد الثالوث».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 521

و البهجة و الضحك و البكاء و الخوف و الرجاء و الرغبة و السأمة و الجوع و الشبع، تعالى أن يخرج منه شي‏ء. و أن يتولد منه شي‏ء كثيف أو لطيف، و لم يولد: لم يتولد من شي‏ء، و لم يخرج من شي‏ء، كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها، كالشي‏ء من الشي‏ء، و الدابة من الدابة، و النبات من الأرض، و الماء من الينابيع، و الأثمار من الأشجار، و لا كما تخرج الأشياء اللطيفة من عناصرها، كالبصر من العين، و السمع من الأذن، و الشمّ من الأنف، و الذوق من الفم، و الكلام من اللسان، و المعرفة و التمييز من القلب، و كالنار من الحجر، لا! بل هو اللّه الصمد الذي لا من شي‏ء و لا في شي‏ء، و لا على شي‏ء، مبدع الأشياء، و منشئ الأشياء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته، و يبقى ما خلق للبقاء بعلمه، فذلكم اللّه الذي لم يلد و لم يولد، عالم الغيب و الشهادة الكبير المتعال، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ» «1».

وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ:

لم يكن:- في الأزل و من الأزل و لن يكون في الأبد و الى الأبد-: من يكافئه في ألوهيته، أو يضاهيه و يناصره و يعاضده، أو يعارضه، رغم خرافة أزلية إله الابن في صيغة متناقضة: «مولود غير مخلوق» فإنه لا يعني إلا أنه: مولود غير مولود! إنه ليس له كفو، سواء أ كان والدا له، أو ولدا منه، أو من يتخذه ولدا، أو كائنا مستقلا بجنبه‏ «2»، أيا كان، فهو الوحيد السرمدي في ألوهيته، لا يشرك فيها أحدا من خلقه، فهو الخالق و الرازق و الموفق و المؤيد و الديان و الهادي، و .. لا سواه، إلا رسلا يدعون إليه، و ليس لهم من الأمر شي‏ء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين ج 5 ص 713 عن كتاب التوحيد للصدوق.

(2)

من جواب الامام الباقر (ع) لأهل فلسطين: و لم يكن له كفوا أحد فيعازه في سلطانه، أي يشاركه في عز الألوهية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 522

فهذه الآية الأخيرة تعم دلالة على عدم ولادته، و عدم اتخاذه ولدا، إذ هما يشاركان في لزوم الكفؤ له تعالى، و القرآن ينفيهما هنا إجمالا و في سائر الآيات تفصيلا.

فهذه السورة تنفي عن اللّه تعالى ما يحق نفيه عن ساحة قدسه، و تثبت له ما يحق لألوهيته، دون أن تنقص شيئا منهما على قلة ألفاظها .. ثم نجد التفاصيل منبثّة في الذكر الحكيم قرابة ثلث القرآن أو ربعه.

ثم نجدها براهين قاطعة للتوحيد الحق، كل آية تفسّر ما قبلها و تفسرها ما بعدها، ف «الله»\* يفسر «هو»\*: أن الذي هو غيب مطلق، اسمه اللّه، لا ما ما تختلقون من أسماء لمن تدعونهم آلهة، و «الله»\* أحد- فإن الأحدية الحقيقية المطلقة لزام من هو غائب عن ادراك الحواس. ف «هو»\*: اللّه- و «هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، ثم «الأحد» «صمد» لا محاله، فلو كان له جوف كان متعددا و لم يكن أحدا، و لو كان له جوف روحاني بمعنى النقص، لم يكن أحدا في الكمالات، و لو كان له جوف: بإضافة الصفات إلى الذات، لم يكن أحدا في الصفات، ثم لزام «الصمد» أنه‏ «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ» .. لأن الوالد- مهما كان- إنه أجوف مزدوج الكيان، و ليس صمدا: لا جوف له، و هو تعالى صمد لا جوف له:

سواء الجوف المادي أم سواه، فلا يخرج منه شي‏ء كثيف و لا لطيف لأنه صمد لا جزء له و لا أجزاء، لا حد و لا حدود.

«وَ لَمْ يُولَدْ» إذ إن الحاجة إلى الولادة و الحدوث، هي خاصة بالكائن الفقير، و هو المادي الأجوف، فإذا كان صمدا فلا يحتاج أن يولد كما يستحيل أن يلد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

عن أبي عبد اللّه الصادق (ع) في حديث: لم يلد لأن الولد يشبه أباه، و لم يولد فيشبه من كان قبله- و لم يكن له من خلقه كفوا أحد- تعالى عن صنعة من سواه علوا كبيرا (نور الثقلين ج 5).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 523

«وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ» إذ إن الكفؤ إما هو ذات يخرج من ذاته، فهو «لَمْ يَلِدْ» فيكون في العز مشاركا، أو من يتخذه ولدا فأسوء حالا و أضل سبيلا، فإذا كان الولد- الذي هو من جوهر ذات الوالد- منفيا عنه تعالى، فبالأحرى من يتخذه ولدا، و لماذا يتخذ؟

أو أن الكفؤ كائن مستقل عن ذات اللّه و عن اتخاذه شريكا، فهو أيضا يتناقض و تجرديته المطلقة اللامحدودة، حيث اللامحدود لا يتعدد- و محال أن يتعدد- فإن العدد إنما هو في المحدودات.

و يتناقض أحديته و صمديته، فإن الصمد: غير المحتاج إطلاقا، ليس له شريك إطلاقا من أي الثلاثة: ولدا، أو من يتخذه ولدا، أو إلها مستقلا عن كيانه تعالى، فلم يكن له كفوا أحد «1».

و إليكم إجمالا بعد تفصيل في تفسير هذه السورة كلام الإمام أمير المؤمنين علي عليه أفضل التحية و السلام:

«سأل رجل عليا عليه السلام عن تفسير هذه السورة فقال:

هو الله أحد بلا تأويل عدد، الصمد بلا تبعيض بدد، لم يلد فيكون موروثا هالكا، و لم يولد فيكون في العز مشاركا، و لم يكن له من خلقه كفوا أحد» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفصيل العقلي في كتابنا «حوار بين الإلهيين و الماديين».

(2) نور الثقلين 5: 715 ح 85 عن عبد خير عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 524

توحيد الثالوث!

و في ختام البحث عن طرف من التوحيد القرآني، لنطرح هذا السؤال في محكمة العقل و النقل الكتابي و نتبع وحي الكتاب على ضوء العقل ..

مما لا يشك فيه أي عاقل: أن الثالوث يختلف عن الواحد، ضرورة اختلافهما عند من يميز الواحد عن الثلاثة.

ذلك، بالرغم من أن كثيرا من الكنائس في العالم المسيحي تعلّم: أن اللّه «ثالوث» مع أن كلمة ثالوث لا وجود لها في الكتاب المقدس.

إن الدستور «الأثنايوسي» يؤيد وجود (إله واحد): «الأب و الابن و الروح القدس- أي ثلاثة أقانيم في إله واحد»:- هذا الدستور- نحو القرن الثامن للميلاد- يقول: إن الأب و الابن و الروح القدس، هؤلاء هم كلهم من نفس الجوهر، و الثلاثة هم سرمديون و قادرون على كل شي‏ء!! إلا أن هذه العقيدة لم تكن تعرف عند الأنبياء العبرانيين و الرسل المسيحيين، و تعترف دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة (ط 1967 ج 14 ص 306) بأن عقيدة الثالوث لا يجري تعليمها في العهد القديم، كما و تعترف أنها يرجع تاريخها إلى نحو ثلاثمائة و خمسين سنة بعد المسيح، لذلك فإن المسيحيين الأولين الذين تطمّوا مباشرة من يسوع المسيح لم يؤمنوا أن اللّه ثالوث.

و فوق ذلك نرى المسيح لا يرضى أن يخاطب بكلمة الرب، و يعتبر قائلها شيطانا، إذ قال له بطرس: «حاشاك يا رب، فالتفت و قال لبطرس:

اذهب عني يا شيطان. أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (متى 16: 22- 23).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 525

فالسيد المسيح عليه السّلام هنا يصرح: أن الإعتقاد في ربوبيته معثرة شيطانية من بطرس.

كذلك و يندد بمن يعتبره معادلا للّه، حيث اليهود اعترضوا عليه إذ شفى مريضا في السبت، فأجابهم: آبي يعمل و أنا أعمل، فمن أجل هذا قالوا: إنه كسر السبت و جعل نفسه معادلا للّه (يوحنا ف 17).

يعني: خالقي يعمل و أنا أعمل، و ليس عملي عمل الخالق، إنما هو بإذنه و أمره، فلست إذا معادلا للخالق.

إذ إن الأب- بالمد- لغة يونانية تعني الخالق، و ليست عربية حتى تعني الوالد، إلا إذا أريد بها شهر الآب أو مثله من الآب! و من عجيب الخلط أن الكنائس تفسّر الآب دائما بمعنى الوالد! فيا ليتهم حذفوا المدّ حتى يصح لهم هكذا تفسير خادع! إن السيد المسيح لا يرضى أن يقال له: حتى: أنه صالح، فكيف بالرب الإله؟: «و إذا واحد تقدم و قال له: أيها المعلم الصالح! .. فقال له: لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحد و هو الله» (متى 19: 16- 19).

فهل إن هذا العبد الخاضع المتواضع بجنب ربه يدعي الربوبية و الألوهية، و تساويه في الجوهر مع اللّه؟ كلا! و إنه حسب الأناجيل، يعترف بعبوديته و أنه ابن الإنسان كما في ثمانين موضعا «1».

كما و يصرّح: أن الحياة الأبدية معرفة اللّه بالوحدانية، و أن المسيح رسوله (يوحنا 17: 3) و: «أن أول الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحدا» (مرقس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و منها متى 8: 20 و 9: 6 و 16: 13، 27 و 17: 9 و 12 و 22 و 18: 11 و 19: 28 و 20: 18 و 20 و 24: 27 و 26: 24 و 45 و 46 في الأناجيل الثلاثة الاخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 526

12: 19) «و قال له الكاتب: لقد قلت حسنا: إن الله إله واحد و ليس غيره من إله، و لما رآه المسيح عاقلا في جوابه و كلامه خاطبه قائلا: لست بعيدا عن ملكوت الله» (مرقس 12: 32 و 34).

و نرى كذلك في الكتب المقدسة أنه: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» () زمور 102: 26) و لا تجوز الصلاة لغير اللّه (متى 4: 10 مقابلة مع تثنية 6: 13 و 10: 20) و لربما راح المنجي يسوع إلى الصحراء منفردا يدعو (متى 14: 23 و 26: 29 و مرقس 1: 35 و لوقا 5: 16) و أرفع صلاة و أعلاها التي تربو على صلواته كلّها، ما صلّاها أخيرا مع الحواريين (يوحنا 17: 1- 5 و 6: 19 و 20: 26) و شكر ربه حيث استجاب دعوته (يوحنا 11: 41- 42) و استعان بربه حينما سلّم إلى الصليب (يوحنا 12: 27) و سأله: إلهي إلهي لم تركتني، و ذلك حينما صلب.! زعمهم.

أ فهل كان يصلي لنفسه لأنه الرب نفسه؟ أم لمعادله؟ لأنه معادل اللّه! أم كان يستعين بنفسه إذ سلم إلى الصليب؟! .. هذه الآيات المقدسات تؤيد و تتأيد بالمئات المئات من آيات اللّه البينات في كتابات الوحي طوال القرون الرسالية دون خلاف، فخلافها إذا مقحمة بأيدي الدسّ و التحريف كالتالي:

.. أنه: ابن اللّه (متى 3: 17) و أوّل مواليده (عبرانيين 1: 9) ابن اللّه المبارك (مرقس 14: 61) و أنه هو اللّه (يوحنا 1: 1) الأزلي (عبرانيين 9: 14) و الرب و مثل اللّه (متى 23: 34 لوقا 11: 49).

و مثل اللّه هو رب الشريعة، فبقدرته الشخصية يتم ناموس موسى و يعدّله (متى 5: 21) و مثله يعتمد عهدا مع البشر (متى 26: 28) فالإيمان الذي يقتضيه مسيح الإنجيل في البعض من آياته المقحمة، إنما يقتضيه لنفسه لا لربه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 527

فيريد أن يكون هو موضوع الإيمان و سببه (لوقا 9: 26) و يرضى بأن تقدّم له عبادة دينية فيقبل السجود لنفسه، ذلك السجود الذي- بحسب العقلية اليهودية و المسيحية (استير 13: 12، أعمال 10: 26، رؤيا يوحنا 19: 10- 22: 9)- ذلك الذي يعود و يختص بالإله الحق وحده، (انظر: متى 15: 25 و 8: 2 و 9: 18 و 14: 33 و 28: 9 و 17).

هذه الآيات الأخيرة بعضها مقحمة كالمصرحة بما ينافي توحيد الإله، و الأخرى متشابهة أو غير دالة «1».

و القرآن إذ يصدق الإنجيل، فإنما يصدق ما فيه من وحي السماء، لا المقحمات مثل التثليث، و كما يندد بالثالوث في آيات، و يعتبره من الوثنية، و يصرّح أن المسيح من أعظم الموحدين المعارضين للخرافات الشركية قائلا:

«يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ» (5: 81) «يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (3: 57) «وَ قالَ الْمَسِيحُ: يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» (5: 72) «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (5: 72- 73) «وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى‏ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (9: 31).

فالنصرانية- حسب الآية الأولى و الأخيرة- منذ القرن الثالث و حتى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع «حوار» و «عقائدنا» باب التثليث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 528

الآن، تقلّد قوما مثلثين ضلوا من قبل و أضلوا كثيرا، و هم الثلث الثالوثيون من مجلس «نيقية» و على رأسهم «اثناسيوس» و هؤلاء أيضا يضاهئون في خرافة الثالوث‏ «قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ» و هم من يذكرهم تاريخ الأديان الوثنية طوال قرونها، كالثواليث التالية:

الثالوث الفرعوني: (اوزيرس- ايزس- حورس).

و الثالوث البرهمي: (برهمة- فشنو- سيفا) و مثله البوذي و الصيني و الهندي و المصري و اليوناني و الروماني و ثالوث الفرس: (أورمزد- مترات- اهرمان) و الفنلندي: (تريكلاف) و الاسكندنافي (اورين- تورا- فري) و الدردي:

(تولاك- فان- مولا) و الأوقيانوسي و المكسيكي و الكندي‏ «1».

أنا و الآب واحد!

و من الآيات الإنجيلية التي توهم إلى الشرك، هي القائلة عن السيد المسيح:

«أنا و الآب واحد» (يوحنا 10: 30).

لكنها لا تدل على الثالوث، إنما على التثنية- لو دلت- (أنا و الآب) و لكنها أيضا لا تعني الوحدة في جوهر الذات و الكيان الإلهي، و إنما وحدة الهدف و الاتجاه، فلا شك أن يسوع لم يكن يناقض الآيات المقدسة التي سبقت في التوحيد، و ما عناه هنا إنما أوضحه هو نفسه فيما بعد، عند ما صلى لأجل أتباعه: «ليكونوا واحدا كما أننا نحن واحد» (يوحنا 17:) فيسوع و آبوه خالقه، هما واحد، بمعنى أن يسوع على وفاق تام مع خالقه، و صلى ليكون كل أتباعه على وفاق مع الخالق و مع يسوع بعضهم مع بعض.

فهناك في الكتب المقدسة آيات مقحمات كالمصرحة بربوبية المسيح، و آخر متشابهات كهذه، و ثالثة محكمات، فالمفروض إرجاع متشابهاتها إلى محكماتها، و رفض مقحماتها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع «حوار» و «عقائدنا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 529

فمن المقحمات الآية: «أ لست تؤمن أني أنا في الآب و الآب في، لكن الآب الحال في هو يعمل الأعمال» (يوحنا 14: 10) أو يقال إنها يفسرها قول السيد المسيح عليه السّلام: «كما أنك أيها الآب في و أنا فيك، ليكونوا هم أيضا واحدا فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يوحنا 17: 21).

و ترى كذلك بجنبها محكمات في التوراة و في الإنجيل قائلة:

«قال الله لن تسكن روحي في الإنسان إلى الأبد لأنه لحم» (تكوين 6: 3) «و فيما هم يتكلمون بهذا أوقف يسوع نفسه في وسطهم، و قال لهم:

سلام لكم. فجزعوا و خافوا و ظنوا أنهم نظروا روحا. فقال لهم ما بالكم مضطربين و لماذا تخطر أفكار في قلوبكم. انظروا يدي و رجلي أني أنا هو.

جسوني و انظروا فإن الروح ليس له لحم و عظام كما ترون لي. و حين قال هذا أراهم يديه و رجليه. و بينما هم غير مصدقين من الفرح و متعجبون قال لهم أ عندكم هاهنا طعام. فناولوه جزءا من سمك مشوي و شيئا من عسل فأخذ و أكل قدامهم» (لوقا 24: 36- 43).

فالآية التوراتية تحيل حلول الإله المجرد عن الجسم في الجسم- أيا كان- لأنه جسم، فإن المحدود لا يشمل اللامحدود، و المجرد لا يحوي الجسم.

و كذلك الآيات الإنجيلية تحيل هكذا حلول، إذا فالمعني من الآية: «الآب في و أنا فيه» ليس هو التداخل الجوهري، و إنما يعني كمال العبودية و الذلة:

ألّا يعتبر السيد المسيح نفسه في جنب ربه شيئا مذكورا، فكأنه فيه «أنا فيه» و أنه لا ينطق و لا يعمل إلا حسب مخططات الوحي الإلهي ليس إلّا: «الآب في» لا سيما مع كون الآب يعني: الخالق، و من المستحيل اتحاد الخالق و المخلوق في الجوهر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 530

و يزيد توضيحا للآية: «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا» (يوحنا 5: 30).

فالسيد المسيح- و معه النبيون أجمع- يسلب عن نفسه الربوبية و الشرك باللّه، و القدرة الإلهية و الحول و القوة المستقلة، و إنما يصرح: «أنه إنسان نبي» (لوقا 24: 19) و ليس أحد صالحا إلا إله واحد و هو اللّه» (متى 19: 17) «و أما ذلك اليوم فلا يعلم أحد به و لا الملائكة و لا الابن إلا الآب الخالق» (لوقا 5: 14 و 4: 12) «و الله لم يره أحد قط» (يوحنا 1: 8) «و لا يقدر أحد أن يراه» (اتيموثاوس 6: 16) «و لا يقدر أحد أن يخدم سيدين» (متى 4: 26).

و في التوراة: «أن الله ليس له مكان» (أشعيا 66: 1- 2) «و لا يعبد إلا هو، و من عبد غيره يقتل» (خروج 20: 34 و تثنية 13 و 18).

إذا فإلى كلمة سواء:

«يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

أصحابنا المسيحيين! تعالوا اتبعوا المسيح و النبيين في توحيد الإله و رفض خرافة الثالوث اللامعقولة، و المضادة لنصوص الكتب المقدسة، هذه الخرافة الوثنية التي أصبحت كأنها من أصول الديانة المسيحية ... تعالوا إلى كلمة سواء.

الثالوث في مختلف الأديان الوثنية:

«إن أقدم ما نعثر عليه في تاريخ الفراعنة، الثالوث المكوّن من الآلهة (اوزيريس- ايزيس- حورس) الأب و الأم و الولد، ثم المكوّن من «آمون»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 531

و زوجه «موت»\* و ابنه «خونس» و هو تثليث بلدة «تب»\* و هم الأب و الأم و الولد، ثم المكوّن من (فتاح- سنحت- ايموس) و هو لبلدة «منف» ثم المكوّن من (انوبيس- معات- توت) ثم المكوّن من (آنوا- بعل- آيا) و هو ثالوث الكلدانيين، ثم المكوّن من (سن- شمش- عشتار) الأب و الابن و الأم، ثم المكوّن من (مينوسن- رادامانت- ايبال) أولاد «زوس» الإله الأعظم، ثم المكوّن من (الأب و الابن و روح القدس) و هو للمسيحيين‏ «1» «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».

و لقد «كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثالوثي، أي الإله ذو الأقانيم الثلاثة» «2».

و حقا إنه عزيز علينا اتباع الديانات الكتابية الإلهية هكذا أن يتبع بعضها الأمم البائدة الوثنية في الأصول الإلهية ..

فإلى كلمة سواء بيننا و بينكم، يرضاها العقل و الدين!

بداية الثالوث المسيحي:

إن أقدم صيغة تعليمية رسمية لإيمان الكنيسة بشأن الثالوث (حسب ما في مختصر في علم اللاهوت العقائدي) هي قانون الرسل الذي اتخذته الكنيسة منذ القرن الثاني في شكل قانون العماد الروماني القديم كأساس لتعليم الموعوظين، و لاعتراف الإيمان في حفلة العماد عند اللاتين.

ثم .. قانون نيقية القسطنطنية (381 م) و قد نشأ ضد مذهبي آريوس و مقدونيوس، ثم المجمع الروماني برئاسة البابا القديس (داماسيوس) (382)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حياة السيد المسيح ل: فاروق الدملوجي، ص 162.

(2) موريس في كتابه «خرافات المصريين الوثنيين» ص 285- ينقله عنه محمد طاهر التنير البيروتي في كتابه «العقائد الوثنية».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 532

يدين بصورة اجمالية أضاليل القرون الأولى في الثالوث الأقدس! ثم إلى القرن 5 و 6 قانون أثناسيوس، ثم قانون مجمع طليطلة الحادي عشر (765 م) ثم في القرون الوسطى قانون المجمع اللاتراني الرابع (1215 م) ثم مجمع فلورنس (1441 م) ثم في العصر الحديث تعليم لبيوس السادس (1794 م).

و إن أول من دسّ في فكرة الكنيسة فكرة الأبوة و البنوّة الإلهيين، هو الخصي الكوسج المصري خادم الرهبان «اوريفين» «1» إلى أن تشكل مجمع «نيقية» (325 م) إذ جاءت من الجماعات الروحية المسيحية من مختلف الأقطار من يزيدون على ألف مبعوث لانتخاب الأناجيل التي يجب أن تعتبر قانونية، و لقد كان 318 شخصا من هؤلاء من القائلين بألوهية المسيح.

و قد اجتهد آريوس رئيس الموحدين على أن المسيح مخلوق، و أنه عبد اللّه، مستدلا بما لديه من الآيات الانجيلية و بتفاسير الأعزة و الآباء من ايقليسيا، و اعترف بهذه الحقيقة الثلثان الباقون من الألف، أعضاء المجمع.

و من ناحية أخرى قام رؤساء الثالوثيين (و على رأسهم اثناسيوس) للبرهنة على أن المسيح إله تام، و أنه متحد الجوهر مع اللّه، و أخيرا ترجّح رأي المثلثين، لا لشي‏ء إلا للسلطة الجبارة آنذاك من قسطنطين (قونسطنطينوس) تحت ستار إيجاد الأمن بين المتخالفين، و أن قسطنطين هذا يرجح رأي صديقه البابا كاهن رومية الأعظم، و هو من الأقلية الثالوثية في النيقية، و يأمر بإخراج أكثر من سبعمائة من الرؤساء الروحيين الباقين الموحدين من المجمع، و يقتل آريوس رئيس الموحدين لكي يصفّي جو المجمع (318) الباقين المثلثين.

و لقد صرح السيد المسيح بهذا الحادث العظيم تنديدا بالمثلثين، و ترحما على الموحدين بقوله: «سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هو راهب أعزب عارف باللغات عاش في القرن الثاني الميلادي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 533

يقتلكم أنه يقدّم خدمة للّه و سيفعلون بكم لأنهم لم يعرفوا الآب و لا عرفوني (يوحنا 15: 2- 3 و 13: 9).

أي لم يعرفوا الآب «الخالق» بالوحدانية، و لا عرفوني بالعبودية.

و قسطنطين هذا كان و ثنيا ملحدا، فإن «بوسيبوس» بسقيوس قيصرية (الذي تقدسه الكنيسة و تمنحه لقب سلطان المؤرخين) كان صديق الامبراطور، و هو يصرح: أن الامبراطور اعتمد و تنصّر حين كان أسير الفراش قبيل وفاته، و بناء على هذا نتأكد: أن خرافة الثالوث هذه ليست إلا من سلطان و ثني ملحد، و خصي كوسج مصري.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 534

سورة الفلق- مكية- و آياتها خمس‏

[سورة الفلق (113): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (2) وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3) وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5)

\*\*\* ان هناك محاولات دائبة لإغلاق أبواب الخير و الفلاح على من يبتغيهما، فلا بد إذا من فالق و هو الخالق الذي خلق و فلق.

إن لشياطين الجن و الإنس إيجابيات و سلبيات كلها تنحو منحى الشر، غلقا لأبواب الخير، و فلقا لأبواب الشر، فسورة الناس تأمرنا بالاستعاذة من النوع الثاني، و سورة الفلق منهما، و لكي تتم المكافحة علّ المؤمنين ينتصرون.

فربّ الفلق هو الذي يفلق ما أغلقته الشياطين: من غاسق إذا وقب، و من النفاثات في العقد، و من حاسد إذا حسد:

«ثالوث الشر و الفساد، الذي هو في قمة الشر، و لذلك تختص هي بالذكر بعد عموم الشر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 535

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ‏:

«إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى‏ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (6: 95- 96).

فالفلق هو شق الشي‏ء و استخراج ما فيه، و نحن نعوذ برب الفلق ليفلق لنا ما أغلقته الشياطين من أبواب الخير، و علينا أن نظل على الدروب: دروب الخير لنفتحها، و دروب الشر لنغلقها، مستعيذين برب الناس و الفلق، الذي يغلق للناس كل غلق، إلى ما فيه خير.

و الشر- أيا كان- قد يحصل بضم شي‏ء إلى شي‏ء، ففلقه فتقه، أو بفصله عنه، ففلقه رتقه، فكلاهما فلق اعتبارا بتحرير الخير الذي كان في أسر الشر، ففالق الحب و النوى يحررهما عن جمود الحياة إلى حريتها و نضوبها و نضوجها، و فالق الإصباح يشق بطن الليل ليوضح وضح النهار.

و الشر- أيا كان- غلق على الحياة و أسر لها، فالفالق يفتح الحياة المغلقة و ينير الدرب على الأحرار، الذين يحاولون الفرار عن حياة الحيونة المتأخرة أو المجمدة، إلى حياة التقدم.

و كما يفلق اللّه تعالى الليل لإخراج النهار، و يفلق الحب و النوى لإخراج الأشجار، كذلك هو الذي يفلق كل شر و يفتقه ليخرج منه الخير، كما و يخرج الحي من الميت بفلق الميت، و يخرج الميت من الحي بفلق الحي، و يخرج الجنين من المني بفلقه، و غير ذلك من فلق خيّر.

هذا الإله هو الذي يحق أن يستعاذ به من شر ما خلق:

مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ‏:

.. «ما خلق»\* لا «خلقه»\* إذ ليس في خلقه- و هو فعل من أفعاله- ليس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 536

فيه شر، فالخير كله بيديه و الشر ليس اليه: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ».

و أما ما خلق: المخلوقون، فهم الدين يفعلون الشر بسوء اختيارهم، أو سوء الاختيار و التصرف فيهم من المتخلفين، و شاهد مسبّق عليه، الأمر بالاستعاذة برب الفلق، فهل يستعاذ به تعالى مما فعل؟ كلا- و إنما مما يفعله ما خلق:

الأشرار من خلقه.

فللخلائق شرور عدة في حالات اتصال بعضها ببعض و بعضهم ببعض، و اللّه يفلق هذه الشرور فصلا بين عماله و أعمالهم.

و شرور الخلق تعم التفكير السوء و العقيدة و العمل السيئين، و تعم الجانب التشريعي و التكويني من الشر، و هو الفالق هنا و هناك: أن يسن قوانين و أحكاما لتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، حيث الشرور ناتجة عن الانفصالات و التضادات، أو من الاتصالات السيئة، و هو الفالق: أن يقدر و يدبر الخير رغم هجمات الشر و همجاته.

و داعية الشر يفحص عن مجالاته الملائمة و هي الظلمات و لا سيما الغاسقة، يفحص عن ظلمات العقول و الأجواء .. و ليتمكن من تحقيق شره: و رب الفلق يفلق الظلمات إلى النور أيا كان:

وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ‏:

فالليل له غسق و هو مرتفعة في الظلام: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى‏ غَسَقِ اللَّيْلِ» (17: 78) و الطعام له غسق و هو الذي يظلم على الإنسان حياته و كأنه يعميه من شدة الغصة: «هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ» (38: 57).

و الغاسق- و هو الذي يدخل في غسق- ليس فيه كثير خطورة ما لم يقب، و الوقب هو النقرة في الجبل يسيل منها الماء، فإذا وقب الغاسق و مكّن فهناك تمام الشر و وقعته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 537

فالليل مجال الغاسق: ليل الأفق الخارجي، وافق العقل و الصدر و القلب، فإذا وقب و نقر في واحد من هذه الآفاق فقد انتصر.

و الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة، إنه مخوف بذاته، فضلا عما يثيره من توقع المجهول الخافي من كل شي‏ء: من وحش مفترس يهجم، و لص فاتك يقتحم، و عدو ماكر يتمكن، و حشرة ضارية، و من شهوة تستيقظ في الوحدة و الظلام، و عقل قاصر، و شهوة حاضرة ... كل ذلك ميدان لتجوال الغاسق، فلو لا الإمداد الرباني و الإعاذة الإلهية لكان يقب.

فليغلق المستعيذ برب الفلق على نفسه أولا دخول الغاسق: بخروجه عن الظلام أيا كان، أو إخراج الظلام عن نفسه، ثم إذا قصّر هنا فليستعذ برب الفلق من شر غاسق إذا وقب ... إذا دخل الظلام و نقر، فرب الفلق هو الذي يفلق بعد الوقب، كما أنه الذي يفلق قبله ...

وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ:

.. النفاثات: أظنها جمع نفاثة كعلّامة، مبالغة مضاعفة، و هم الذين ينفثون و ينفخون بكل ما يملكون من وسائل النفث و النفخ لتنفّج الباطل في غيه، و فلج الحق في مضيه: ينفثون في عقد الحياة، التي يعقدها غاسق إذا وقب: فهنا شيطان أول يحقق خطوة أولى: أنه يعقد في نقرته، يعقد أمرا فيه تعقيد الحياة في أية مجالة من مجالاتها، ثم شيطان ثان- أو شطنة ثانية- ينفث فيما عقده الأول ليحكم العقد كيلا ينحل بسهولة.

فالنفاثات تعم قبيلي الرجال و النساء، دون اختصاص بالنساء، و تعم السحر و سواه دون اختصاص بالسحر، و تعم أية نفاثة تستحكم عقد الشر أو تحل عقد و عزائم الخير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 538

ثم النفاثات: الطاقات التي تنفث و تنفخ في العقد لتنفج الباطل و توهين الحق- إنها على ضروب شتى، كما العقد تعم عقد الخير و الشر، فمن نفاثات في عقد الخير التي عقدها و حكمها الخيرون- ينفخون فيها لتوهينها و محقها او تبديلها إلى شر، و من نفاثات في عقد الشر التي عقدها الشريرون- نفخا فيها لنفجها و تحكيمها، أية عقد من أية نفاثة: من عقد تعقد بها حياة خيرة، او تعقد عليها حياة شريرة.

فمن النفاثات في العقد السياسية محاولات تبعيد الدين و رجالات الدين عن السياسة و لكي تأخذ مجاريها الشريرة بفتح مجالاتها دونما رادع و لا مانع.

و من ثقافية تجمد العقول و الأفكار على مقالات الأولين من حق لم يكمل او من باطل ..

و من اقتصادية هي ترك الفحص و البحث عن الأحكام الاقتصادية الاسلامية، و ترك تطبيق الاقتصاد الإسلامي، اللذان ينفثان في مشكلة الاقتصاد، و يفسحان المجال للاقتصاد الشيوعي و الرأسمالي.

و من حربية كالتقدم السريع في اصطناع الأدوات النارية، بحرية و برية و جوية و منها الطائرات النفاثة التي نفثت في عقد الحرب، التي يجب علينا مكافحتها بالمثل اعتداء بالمثل.

و من عقد عقائدية كالقول بتحريف القرآن بزيادة او نقيصة، و من ذلك هنا القول: ان المعوذتين ليستا من القرآن! رغم وجودهما في القرآن المتواتر القاطع، و السنة القاطعة: انهما من القرآن و من أفضل القرآن‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 416- اخرج احمد و البزاز و الطبراني و ابن مردويه من طرق صحيحة عن ابن عباس و ابن مسعود انه كان يحك المعوذتين من المصحف و يقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه انها ليست من كتاب اللّه، انما امر النبي (ص) ان يتعوذ بهما و كان ابن مسعود لا يقرأ بهما

، قال البزاز: لم يتابع ابن مسعود احد من الصحابة و

قد صح عن النبي (ص) انه قرأ بهما في الصلاة و أثبتت في المصحف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 539

و من سائر الإسرائيليات و الكنسيات و الوثنيات و المختلقات الزور التي دخلت و تسربت في الروايات، كما هنا فيما

يروى: ان الرسول (ص) سحر، سحره؟؟؟؟

ابن الأعصم اليهودي في بئر ذروان، ف «كان يرى انه يجامع و ليس يجامع، و كان يريد الباب و لا يبصره حتى يلمسه بيده» «1».

فنحن نضرب بهذه و تلك عرض الحائط، مهما كثرت رواتها و قلت رعاتها، و رغم انها رويت من طريق الفريقين عن النبي (ص) و الائمة من اهل بيته (ع)، فاننا نعتبرها من عقد عقائدية نفث فيها نفاثات الرواة.

كيف لا؟ «وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً. انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا» (25: 9) «فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى‏ مَسْحُوراً» (17: 101) فقولة السحر على النبي (ص) قولة فرعونية ظالمة فاتكة يعني توهين الرسالة المحمدية و تهوينها، و لكي تتطرق فرية السحر إليها كلها، و ساحة هذه الرسالة السامية و سواها براء منها.

فإن السحر أيا كان، هو من سلطان الشيطان، و ان كان اللّه لا يصده أحيانا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ممن روى انهما من القرآن عن النبي (ص) أبي بن كعب و عكرمة و يزيد بن عبد اللّه الشخير و ابن مسعود و عقبة بن عامر و ابو حابس الجهني و ابو سعيد الخدري و ام سلمة و معاذ بن جبل و جابر بن عبد اللّه و ثابت بن قيس و قتادة و انس بن مالك و ابو هريرة و ابن عمر، أخرجه عنهم اصحاب السنن و المسانيد بطرق متواترة، و ابن مسعود هذا الذي اخرج عنه قولة الزيادة، سيخرج عنه هنا كما عن غيره من الاصحاب انهما من القرآن و من أفضل القرآن، و كما اجمع على ذلك أئمة اهل البيت عليهم السّلام، كما أخرجه في نور الثقلين (5: 716) عن كتاب ثواب الأعمال عن الامام الباقر (ع) و عن اصول الكافي عن أبي الحسن الرضا (ع) و فيه عن الصادق (ع).

(1). كما أخرجه على نور الثقلين عن كتاب طب الائمة عن الصادق (ع) (5: 718).

و

في الدر المنثور (5: 417: اخرج عبد بن حميد في مسندة عن زيد بن اسلم قال: سحر النبي (ص)

و اخرج ابن مردويه و الجهني في الدلائل عن عائشة و ابن مردوية من طريق عكرمة عن ابن عباس .. و ابن مردويه عن انسى بن مالك، و لقد رووها بألفاظ مختلفة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 540

«وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» و لكنه ليس من الرحمان، فهل ان للشيطان سلطان على حس النبي (ص) و عقله و ارادته، و لحد يخطأ الباب و لا يبصره و يرى انه يجامع و لا يجامع؟ فكيف إذا ينير الدرب لمن يدقه الى اللّه! كيف يسحر هكذا و هو أول العابدين‏ «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (65: 42).

على انه (ص) معجزة رب العالمين، بقرآنه المبين و بيانه المتين، فلو حاولوا ان يسحروه لم يك ليسحر او يتأثر، اغلبا للسحر و هو سلطان الشيطان، على المعجزة و هو سلطان الرحمان! و النبي بكيانه معجزة، كما هو بقرآنه معجزة!.

ثم الرسول (ص) هو بجملته: في ذاته و صفاته و أفعاله و أقواله، انه عودة من الشيطان و داعية حق الى الرحمان، فكيف لا يعيذه رب الفلق من شر النفاثات في العقد؟ اجل و قد أعاذه بما انزل في كتابه انه لا يسحر و لن يسحر، و ان تهمة السحر الوقحة عليه قولة الفراعنة الظالمين النفاثين في العقد.

و إذا كان الامام من آل الرسول (ص) كما

يقول الامام الصادق (ع): «لم يزل مرعيا بعين الله، يحفظه و يكلئوه بستره، مطرودا عنه حبائل إبليس و جنوده، مدفوعا عنه وقوب الفواسق، و نفوث كل فاسق» «1»

فالرسول (ص) و هو امام الائمة بذلك أحرى! وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ:

.. خطوة ثالثة بعد فشل ما سبقتها، أو لتحكيمها: ألا إنها حسد الحاسدين، لا في أنفسهم فحسب، إنما إذا حسدوا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 722 عن اصول الكافي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 541

و الحسد انفعال نفساني و جاه نعم اللّه على بعض العباد زائدا على سواهم، مع تمني زوالها، و نحن نستعيذ من شر الحاسد إذا حسد: أبرز انفعاله بشكل من الأشكال في النيل من المحسود.

صحيح أن الحسد شر نفساني، و لكنه لا يتعدى الحاسد إلى المحسود ما لم يحسد و يوجه انفعاله النفسي إلى المحسود.

و لكي نأمن كيد الحاسدين، علينا أن نخفي النعم المحسود عليها- ما أمكن- عنهم، أو نبرد و نخمد نيران الأحقاد بمياه الأخلاق الطيبة و العشرة الحسنة و الموعظة الصالحة، أو- أخيرا- بل: أولا و أخيرا: نعوذ برب الفلق:

.. و لكي يفلق حسد الحاسد و يدفع شره، و بعد ما كلّت محاولا تنافي دفعه.

إن الحسد- أيا كان- إنه حماقة و سوء ظن باللّه و معارضة للقدر، كما

عن الرسول الأقدس: «كاد الحسد أن يغلب القدر»

فإذ يفضل اللّه عبدا من عباده على غيره لاستحقاق معروف أم غير معروف، أم لما يراه من مصلحة فردية أو جماعية، فالحسد إذ ذاك اعتراض على اللّه، فليحاول الحاسد أن يبلغ بسعيه مبلغ المحسود لكي يؤتيه اللّه من فضله كما آتى المحسود، إن كان مما يحصل بالسعي تماما، أو يحاول للوصول إلى ما أشبهه، و أما أن يجمد على حاله ثم يحسد و يحاول في إزالة النعمة عن المحسود بشتى المحاولات و الحيل، فهذه معارضة فكرية و عملية ضد الألوهية: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى‏ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً» (4: 55):

نزلت في جماعة من اليهود الذين حسدوا الرسول الأقدس محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على اصطفائه بالرسالة الأخيرة، و من حقدهم على هذه الرسالة السامية أنهم كانوا يفضلون المشركين على المسلمين: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 542

بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى‏ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى‏ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ..»

(4: 54).

كانوا يحسدون الرسول كأنهم يملكون فضل اللّه، فليستأذنهم اللّه فيمن يصطفيه رسولا! و هم لا يرضون رسالة إلا في إسرائيل!.

و لقد كانت جماعة من أهل الكتاب تحاول أن ترد المسلمين كفارا: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (2: 109).

فعلى المحسود ذي النعمة أن يحافظ على ما أنعم اللّه عليه بفضل سعيه هو و بفضل اللّه، و لا سيما النعم الروحية، ثم يحاول من وراء ذلك أن يجرّ الحاسد إلى ما هو عليه من النعمة ما أمكن، بتوجيهه إلى السعي اللازم.

و على الحاسد أن يخرج من حماقة الطغيان إلى ميدان السعي و الإيمان باللّه، فما وصل إليه بالسعي فهو، و ما لم يصل إليه فليثق باللّه و لا يتهمه في تفضيل المحسود عليه، و أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

و للحسود علامات منها: «يغتاب إذا غاب، و يتملق إذا شهد، و يشمت بالمصيبة» و من مقالات الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام في التنديد بالحاسدين:

«أما بعد فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان، فإذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس، فلا تكونن له فتنة، فإن المرء المسلم البري‏ء من الخيانة ما لم يغش دناءة فيخشع لها إذا ذكرت، و تغرى بها لئام الناس، كان كالفالج الياسر، الذي ينتظر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 543

أول فورة من قداحة توجب له المغنم، و يرفع بها عنه المغرم، و كذلك المرء المسلم البري‏ء من الخيانة، ينتظر من الله إحدى الحسنيين: إما داعي الله، فما عند الله خير، و إما رزق الله، فإذا هو ذو أهل و مال و معه دينه و حسبه، إن المال و البنين حرث الدنيا، و العمل الصالح حرث الآخرة، و قد يجمعهما الله لأقوام، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه، و اخشوه خشية ليس بتعذير، و اعملوا في غير رياء و لا سمعة، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله إلى من عمل له، نسأل الله منازل الشهداء، و معايشة السعداء، و مرافقة الأنبياء».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 544

سورة الناس- مكية- و آياتها ست‏

[سورة الناس (114): الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (4)

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (6)

\*\*\* ندرس في سورة الناس كيف يجب علينا أن نستعيذ؟ و بمن؟ و ممن؟ و ما هي الاستعاذة؟ و لماذا تجب؟

أركان الاستعاذة أربعة: المستعيذ- المستعاذ به- المستعاذ منه- المستعاذ من أجله.

و هي على الترتيب: 1- المكلف- 2- الرب الملك الإله- 3- الوسواس الخناس من الجنة و الناس- 4- مطلق الشر.

و الاستعاذة هي طلب الإعاذة- و ليس طلبها لفظا باللسان، و لا عقدا بالجنان، و ليس المقال هنا إلا إشارة إلى الحال: كيف يجب أن تكون حالة الإنسان- النفسية و العملية- تجاه هذه الشرور؟ إنها حالة الفرار: لفظيا و عقيديا و عمليا بكل ما لديه من طاقات الايجابية، و لكنها ليست بالتي تعيذه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 545

لو لم تدركه الرحمة و العصمة الإلهية، فعبادة الرحمان و عصيان الشيطان كلاهما بحاجة ماسة إلى تأييد اللّه و إعانته: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» فكما لا عبادة دون استعانة كالعكس، كذلك لا فرار عن الشيطان دون استعاذة، كما لا استعاذة دون محاولة الفرار بكل ما لدينا من الطاقات.

هنا نعرف: لماذا يؤمر الرسول بالاستعاذة على عصمته؟ يؤمر بها لأن عصمته منوطة باستعاذته: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (17: 74) بعد ما هي مربوطة بمحاولاته لمنتهى المكنة و الاستطاعة قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ‏:

إنه أمر أن يخبر العبد عن نفسه: أنه يستعيذ، و ليست الاستعاذة من مقولة اللفظ، إنما هو يحكي عنها حكاية صادقة أم كاذبة، و القرآن لا يأمرنا بالقول الكذب، إنما يأمر هنا بما تتطلبها هذه المقالة، من استعاذة عقائدية و عملية: أن نفرّ من شيطنات العقائد و الأعمال، مستعيذين حالها و قبلها و بعدها، بالرب الملك الإله المتعال.

هذه الاستعاذة تستحضر من صفات اللّه ما به يدفع الشر، الوسواس فعلى المستعيذ أن يستظل في ظلال الربوبية: علميا و تربويا، و في ظلال ملكيته طاعة و استقامة، و في ظلال الألوهية تخضعا و عبادة، و لكي يعيذه اللّه تعالى من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة و الناس.

و في كل واحدة من هذه الثلاث كفاية لكي نتخذه تعالى وكيلا و معيذا:

يدل على ذلك عدم العطف هنا «.. بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ. إِلهِ النَّاسِ‏ فانه» ردف دون عطف، و كما أفردت بذكر كل واحدة منها في آيات ثلاث: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ» (39: 6) «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» (730: 9) «لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (57: 5) هذا- و لكنما الجمع بين الثلاث هنا، فيه كمال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 546

العوذ و اللواذ باللّه تعالى، و كلما كان الاستظلال في ظل هذه الظلال أوسع و أعمق كانت الاستعاذة أوفق، فهو بالإعاذة أحرى و أحق‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

بِرَبِّ النَّاسِ‏:

بمالكهم و مربيهم، الذي يعرف ناسهم و نسناسهم، يعرف فضائل الأخلاق و رذائلها، فله أن يخرجنا من الظلمات لأنه يعرفها، إلى النور لأنه يعرفه، يعرف الخير و الشرّ و كما هدانا إليهما.

و على المستعيذ، من اللاتربية إلى التربية، أن يستعيذ برب الناس: و ليعرف الموازين التربوية، علمية و تطبيقية، و ليعرف الشيطنات كلها، و لكي يستطيع الفرار من الظلمات إلى النور، في ظل ربوبية الرب المعيذ.

إننا لا نستعيذ بالأنبياء، فهم المستعيذون أيضا كأمثالنا لا معيذون نهتدي بدلالاتهم الرسالية: و إنما نستعيذ برب الناس: رب الرسل و المرسل إليهم ..

ثم قد تكون الاستعاذة ناقصة غير ناجحة، إذا لم يكن المعيذ ملكا قديرا، فربّ ربّ يحاول الإعاذة و لكنه لا يملكها، لأنه ليس ملكا قديرا يدحر الشياطين بقوة، فكمال الاستعاذة إذا يتطلب أن تكون بملك الناس:

مَلِكِ النَّاسِ‏:

الذي يملك الجنة و الناس، و يملك الخير و الشر، و لكنه ليس منه شر، إنما يدفع عنه إلى الخير، فالمحاولات التربوية لا تكفي إعاذة من الشرور واقعيا مهما كانت قوية.

فقد تتطلب قوة للدفع و لتطبيق شريعة اللّه و دحر الشياطين، فشريعة اللّه ليست شريعة علم و أحكام فحسب، إنها شريعة القدرة و الطاقة الجبارة أيضا:

إنها نظام و تطبيق، فالنظام بحاجة إلى تطبيق، و التطبيق فاشل ما لم تكن سلطة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 547

ثم إذا واجهتنا القوة المعاندة، يأتي دور الاستعاذة ب: «بملك الناس» ..

الملك الرب، فلتجابه الطاقات المعاندة بالملكية العادلة.

إِلهِ النَّاسِ‏:

و في آخر المطاف نعطف بأنفسنا و بهم إلى الإله: طوعا و كرها، فهو أول المطاف‏ «بِرَبِّ النَّاسِ» و هو آخر المطاف‏ «إِلهِ النَّاسِ» و قد تجب في الوسط السيطرة الملكية لحمل النسناس إلى سيرة الناس، و لكي يعقلوا أخيرا و يضطروا للخضوع أمام: «مَلِكِ النَّاسِ».

هنا لك تمت الاستعاذة، و توفرت شروطها: استعاذة و مستعاذا به، و ليكن الإنسان هو الموضوع، و يحمل عليه و في هامشه سائر المكلفين من الجنة و سواهم، و لا يختص الناس بإنسان الأرض، إنه يعمه و سواه من إنسان الكون، في الكرات المعمورة ..

فاختصاص الناس هنا بالذكر ليس إلّا لأنهم من أفضل المكلفين، فلا يخرج الجن عنهم، إنما يخرج النسناس من الجنة و الناس الذين يستعاذ منهم، هؤلاء الذين يفقدون التربية الإلهية كأن اللّه ليس ربهم، و إنما هو الشيطان، كما

سئل الإمام الحسن عليه السّلام عن الناس؟ فقال: «نحن الناس، و شيعتنا أشباه الناس، و سائر الناس نسناس» «1».

مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ‏:

صفات ثلاث للمستعاذ منه، على عدد الثلاث للمستعاذ به: ثلاث و جاه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا الإمام يشطر بني آدم إلى شطري الناس و النسناس، و في الناس أصول و فروع، فالقادة الهداة المعصومون هم الأصول، و أشياعهم هم الفروع، ثم المتخلفون عن شريعة اللّه هم النسناس، من الجنة و الناس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 548

ثلاث، و كما أن جنود العقل و الجهل تساوى بعضها البعض عددا و عددا، خمسة و سبعين بخمسة و سبعين، كذلك هنا، إلا في العدد فهما، لأن اللّه تعالى لا ينهزم في المعركة، طالما عباده ينهزمون لو لم يستعيذوا به كما يؤمرون، و إذا لم يخرجوا من طاعة الشيطان إلى طاعته.

هنا تطلق الصفة أولا: «الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ» ثم حدود العمل و مجاله:

«الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ» ثم العامل المحاول في التضليل: «مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ».

فبالصفات تعرف الذوات، فذات الشرير، الحيادية، لا يجب دحرها، إنما لصفاتها المعادية المتعدية: الوسواس ..

«مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ»: إن المضلل لا يأتيك كمصلل لتعرفه فتحذره فيخيب سعيه، إنما يأتيك كمدلل، فيوسوس في صدرك الذي فيه قلبك، يوسوس إلى صدرك و يجتازه إلى قلبك، فيملك زمامك في أمورك كلها لو انك فتحت له باب صدرك فقلبك فالوسواس قد يتخفى في الجانب الخفي من كيان الإنسان، كالنفس الأمارة بالسوء: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (50: 16) و كالشيطان‏ «فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما» (7: 20) فالنفس و الشيطان يتخفيان في صدر الإنسان الذي هذا الفتحة الاصلية إلى قلبه.

أو أنه جلي في ذاته خفي في وسواسه، كما الإنسان الشيطان كذلك: «مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ» خفية او جلية.

فالجنة جمع الجان، آي الخفي، فتشمل النفس الأمارة بالسوء داخل كيان الإنسان، و الشيطان خارجه، و الناس هم الناس: الوسواس الجلي، و «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» و الشيطان من الجن و الإنس، المنفصل عن كيانك، لا يقدر و لا يجرو على وسواسك ما لم يجد تجاوبا من شيطانك الداخل «النفس الأمارة بالسوء» فالشيطانان الوسواسان هما المتعاملان المتعاونان في إضلال الإنسان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 549

و أصل الوسواس هو صوت الحلّي و الهمس الخفي، و الوسوسة هي الخطرة الرديئة، و بما أن الخطرات هي التي تدفع الإنسان إلى مختلف الحالات و الانفعالات الخيرة و الشريرة، فليدحر الإنسان عن نفسه الخطرات الشريرة، المختبئة في صدره، بكفاح صارم دائم مستعيذا بالرب الملك الإله.

«الخناس» و يزيد الوسواس خطورة و شرا ما إذا كان خناسا: يخفي عنك أنه وسواس، فالخناس هو المنقبض و هو الكثير الاختفاء بعد الظهور: يحاول في تضليلك خافيا، فإذا برز لك أنه الوسواس، فمحاولة ثانية في إخفائه، إراءة لك أنه يريد صالحك: «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها» .. غشاوات و غشاوات ليغطي عليك أنه شيطانك، و يستدل بالعقل و بالآيات و الروايات ليفصلك عما يقتضيه العقل و تقتضيه الآيات و الروايات، و على حد قوم‏

إمام المتقين أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع و أحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله و يتولى عليها رجال رجالا، فلو أن الحق خلص من مزاج الباطل لم يكن للباطل حجة و لو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يكن اختلاف، و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، و نجي الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

إن الخناس من طبعه أن يختفي أو يبتعد عنك مليا، إذا ملّ منك و كلّ و خاب سعيه، و لكنه خناس: يرجع و يرجع في خطوات و محاولات، و آخر المطاف أن يأخذك معه شر مأخذ، فكما هو دائب في تخنسه فلتكن أنت دائب اليقظة و الكفاح، مسلحا بنور المعرفة لتنتصر في المعركة، فلتذكر اللّه ربك كلما وضع خطمه على قلبك، و على حد

قول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس، و إذا نسي التقم، فذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 550

الوسواس الخناس» «1».

«مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ»: إنه كما عرفت مسبقا: هو الجنة الخافية من النفس الأمارة من الجن، و هو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور كالجنة.

نحن لا نعرف من وسواس الجنة إلا كما عرّفنا اللّه تعالى بها: عنه و عن لسان الجنة: «.. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» (7: 17) (لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 62).

و ما نجده من هواجس و وساوس تتنافس في نفوسنا، مهما كان الخلط بين وسواس الجن و وسواس النفس، إلا أنه وسواس.

و أما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الكثير الكثير، و نعرف ما هو أشر و أخطر من وساوس الشياطين، كأنهم أساتذتهم!:

رفيق السوء الذي يوسوس إلى صدر رفيقه من حيث لا يحتسب و من حيث لا يحترس لأنه مأمون! و إلى أمثاله من حملة السوء و دعاته بشتى ألوان الدعوة و الدعاية: من حاشية الشر للسلاطين، و النامين الواشين، و بائعي الشهوات، و عشرات و عشرات من الوسواسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل و يخفونها و يتسربون بها إلى الصدور و إلى القلوب، و هم شر من الجنة و علّهم أخفى منهم دبيبا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين ج 5 ص 725، و هذا الحديث يبين طرفا من أطراف خنس الوسواس، و هو آخر المطاف، إذ يفر من الإنسان الذي حقق الاستعاذة حقا، و رواه الدر المنثور عن أنس عنه (ص) مثله ج 6 ص 420، و

فيه عنه (ص): أن للوسواس خطما كخطم الطائر، فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس، فإن ابن آدم ذكر اللّه نكص و خنس فلذلك سمي الوسواس الخناس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏30، ص: 551

إن حملة الوسواس تخنس في حملتها بألوان عدة علّها تنتصر: تخفي نفسها حالة الوسوسة، ثم تختبئ إذا قوبلت بحملة دفاعية، نظرة أن تجد الفرصة سانحة فتدب و توسوس.

فعلى الإنسان اليقظة الدائمة و النبهة الدائبة، كيلا يخسر هذه المعركة المتواصلة:

يقظة بقوة العقل المتأيدة بوحي السماء، و «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً» «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» إنه لا يحتنك إلا الحمر دون العباد الصالحين‏ «لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» فادحر الوسواس الخناس أن أن يستحمرك و يحتنكك، و كن من القليل الذين ليس للشيطان عليهم سلطان و سبيل و الحمد للّه أولا و آخرا.

مكة المكرمة في 17 محرم الحرام 1397 محمد الصادقي (تمّ هذا الجزء بعون اللّه تعالى)